"رواية بوليسية من الطراز الرفيع، كتبت ببراعة وبأسلوب جميل" .. صحيفة لوس أنجلوس تايمز

قضية فرانشايز

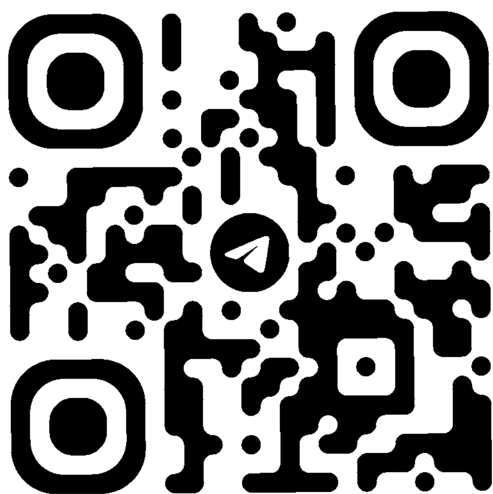
جوزفين تي



ترجمة: ملك اليمامة

مكتبة

جليس



قضية فرانشايز

قضية فرانشايز

جوزفين تي

THE FRANCHISE AFFAIR

Josephine Tey

جليس

شركة جليس للنشر والتوزيع

0096560393960 info@jalees.net

jalees.net @jalees_bookstore @jalees_net

اشراف عام :د. حمود طاهر تصميم غلاف وإخراج : ضحى الملاح

ر.د.م.ك : 9789921772425

قضية فرانشايز

جوزفين تي

ترجمة

ملك اليمامة

جليس

أكتوبر 2024

-1-

لَمَّا أشارت الساعة إلى الرابعة ذات مساءٍ ربيعيٍّ، كان روبرت بلير يفكِّر في العودة إلى المنزل.

لا يُغلق المكتب أبوابَه قبل الخامسة بالتأكيد، لكنَّك حينما تكون بلير، من شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة، يمكنك العودة إلى المنزل أنَّى شئتَ. وحينما يدور عملك في فلك الوصايا وتحويل الملكيَّات والاستثمارات، فإنَّ الحاجة إلى خدماتك تبلغ أدنى مستوياتها في فترة ما بعد الظهيرة. وحينما تعيش في ميلفورد، حيث آخر موعدٍ لتسليم البريد هو 3:45، يخبو شغف النهار -مهما بلغ من نشاط- قبل الرابعة بوقتٍ طويل.

ليس ثمَّة احتمالٌ ليرنَّ هاتفه، إذ لا بدَّ أنَّ رفاقه الآن منغمسون في لعبة الغولف في مكانٍ ما، بين الحفرتين الرابعة عشرة والسادسة عشرة. لم يَدْعُه أحدٌ إلى تناول العشاء؛ إذ الدعوات إلى العشاء في ميلفورد لا تزال إلى اليوم تُكتَبُ بخطِّ اليد وتُرسَل بالبريد. ولم تتَّصل به العمَّة لين لتطلبَ إليه إحضار السمك في طريق عودته إلى المنزل، فبعد الظهيرة من كلِّ أسبوعين، هي على موعدٍ مع الذَّهاب إلى السينما، ولا بدَّ أنَّها الآن غارقةٌ، إن جاز التعبير، في الفيلم الذي بدأ عرضه منذ عشرين دقيقةً.

لذا، فقد جلس هناك يحدوه جوٌّ من الكسل الذي تُضفيه أمسيةٌ ربيعيَّةٌ على سوق البلدة الصغيرة، يحدِّق إلى آخرَ لطخة ضوءٍ ألقتها الشمس على مكتبه،

ويفكِّر في العودة إلى المنزل. ومكتبه ذاك، مصنوعٌ من خشب الماهوجني المطعَّم بالنحاس، ذلك الذي أحضره جدُّه من باريس إلى الوطن، فتسبَّب إحضاره بفضيحةٍ للأسرة. تلقي الشمس لطخة الضوء تلك على صينيَّة الشاي التي تخصُّه، وكان بديهيّاً أنَّ شايه، شاي شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة، لا يلائم الصينيَّة المعدنيَّة اليابانيَّة ولا كوب المطبخ. في تمام الثالثة وخمسين دقيقةً من كلِّ يومٍ من أيَّام الدوام، تأتيه الآنسة تاف بصينيَّة لامعةٍ مغطَّاةٍ بمفرشٍ قماشيٍّ أبيضَ نظيف، تحمل عليها فنجاناً من الخزف الصينيِّ الأزرق، وإلى جانبه طبقٌ يتناسب معه تضع فيه قطعتين من البسكويت، فتقدِّم له بسكويت الشاي (بيتي بور) أيَّام الاثنين والأربعاء والجمعة، وبسكويت النخالة أيَّام الثلاثاء والخميس والسبت.

وهو إذ ينظر إليه الآن بغير اكتراثٍ، فإنَّما يستحضر فيه فكرة استمراريَّة شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة. الخزف الصينيّ الذي يتذكَّره أكثر من أيِّ شيء آخرَ. لمَّا كان صغيراً جدّاً، استعمل الطاهي هذه الصينيَّة ليحضر عليها الخبز، الذي كان يأخذه من الخبَّاز. وقد حافظت عليها والدته في فترة صباها، ثمَّ أحضرتها إلى المكتب لتُحمَل عليها الأكواب المزخرفة بالأزرق. وبظهور الآنسة تاف، ظهر المفرش القماشيُّ. كانت الآنسة تاف ثمرة سنيِّ الحرب؛ فكانت أوَّل امرأةٍ تجلس إلى مكتب محامٍ محترمٍ في ميلفورد. لقد كانت الآنسة تاف ثورةً مكتملة الأركان، بشخصيَّتها المتفرِّدة، الساذجة والرقيقة والرصينة. ثورةٌ لم تُحدِث في الشركة أكثر من مجرَّد هزَّة. والآنَ، بعد قُرابة ربع قرنٍ من الزمان، لا يمكن لعقلٍ أن يصدِّق أنَّ الآنسة تاف ذات الوقار، وصاحبة الشَّعر الأشيب والجسد النحيل، قد سبق لها يوماً ما أن أحدثت ضجَّةً ما حولها. في الواقع، لم يتجاوز تدخلها السَّافر في خرق الروتين الأزليِّ حدود إقحام مفرش الصينيَّة القماشيِّ. لم يسبق أن وُضِعتْ وجبة طعامٍ على الصينيَّة مباشرةً في بيت الآنسة تاف. إنْ آلَ الأمرُ إليها فهي لا تُقدِّم قطعَ الكعك على طبقٍ مجرَّدٍ أبداً، فلا بدَّ من وجود مفرش الصينيَّة القماشيِّ وإلَّا

فسيتدخَّل منديل المائدة. لذا، فقد بدا الاستنكار على مُحيًّا الآنسة تاف وهي تنظر إلى الصينيَّة العارية. كانت ترى أنَّ تلك النقوش اللامعة مُشتِّتة للانتباه، كابحة للشهيَّة، بل ومُبتذَلَة أيضاً. وهكذا، أحضرت من منزلها ذلك المفرش القماشيَّ ناصعَ البياض؛ ليليقَ بما يمكن أن يؤكلَ. نظر والد روبرت إلى المفرش القماشيِّ الأبيض النظيف -وهو الَّذي لطالما أعجبته الصينيَّة اللامعة- وقد تأثَّر بمدى مطابقة مواصفات الآنسة الشابَّة تاف لما تحتاج إليه الشركة. بقي المفرش القماشيُّ صامداً، وقد غدا اليوم جزءاً لا يتجزَّأ من كيان الشركة، تماماً مثل صناديق السندات والطبق النحاسيِّ والبرد الموسميِّ الذي يصيب السيِّد هيسلتاين.

لَمَّا استقرَّت عينا روبرت على الطبق الأزرق، حيث كانت قطعتا البسكويت، دَهَمه شعورٌ غريبٌ، وتفشَّى في صدره مجدَّداً. لا شأن لقطعتَي بسكويت النخالة في ذلك، في الأقلِّ ليس على المستوى الجسديِّ، وإنَّما يتعلَّق الأمر بالفكرة؛ بطقس البسكويت الحتميِّ نفسه. الحقيقة الوادعة التي تنصُّ على أنَّ يوم الخميس مخصَّص لبسكويت النخالة، والاثنين لبسكويت الشاي (بيتي بور). منذ بداية العام المنصرم، أو نحو ذلك، عرف أنَّ الخلل لا يكمن في تلك الحقيقة، ولا في مدى وداعتها، فهو لم يُرِد أيَّ حياةٍ أخرى غير تلك التي يعيشها؛ ولا يزال متعلِّقاً بتلك الحياة الهادئة الهانئة في المكان الَّذي ترعرع فيه ونشأ، ولا يريد سواها. غير أنَّ فكرةً غريبةً عجيبةً راودته لمرَّةٍ أو لمرَّتين في الآونة الأخيرة. إنَّها فكرةٌ عارضةٌ وطارئة، وإن أمكن اختصارها في كلمات، فستكون: «هذا هو كلُّ ما ستحصل عليه في حياتك». كلَّما عبرتْ هذه الفكرةُ ذهنَه، انقبض لأجلها صدره. ردُّ فعلٍ أشبه بالهلع؛ اعتصارٌ في القلب يشبه ذاك الَّذي يصيب صدر طفلٍ في العاشرة تذكَّر موعد طبيب الأسنان.

هذا هو الأمر الَّذي أزعج روبرت وأربكه، وهو الَّذي كان يحسب نفسه شخصاً سعيداً ومحظوظاً وراشداً إزاء أمرٍ كهذا. لماذا تطعنه هذه الفكرة

الدخيلة وتصيبه بهذا الفزع المستفحل بين ضلوعه؟ ما الَّذي ينقص حياته ممَّا قد يعوزه المرء؟

زوجة؟

لو أراد الزواج لفعل. إنَّه قادرٌ على ذلك حسبما يظنُّ. فقد كان محاطاً بنساءٍ كثيراتٍ غير مرتبطاتٍ، ولم تُبدِ له إحداهنَّ ما يشير إلى عدم استلطافها له.

أمٌّ متفانية؟

أيّ تَفانٍ يمكن لأمٍّ أن تمنحه له أكثر ممَّا منحته العمَّة لين؟ العمَّة العزيزة المُحِبَّة.

ثروة؟

ما الذي احتاج إليه يوماً ولم يتمكَّن من شرائه؟ إن لم تكن تلك ثروة، فهو لا يعرف لها مسمًّىً آخرَ.

حياة مثيرة؟

لم يُرِد إثارةً قطُّ! ليس ثمَّة إثارةٌ تفوق تلك التي يعيشها في يوم صيدٍ، أو تلك التي يجدها في تعادلٍ تامٍّ في المستوى السادس عشر من لعبة الغولف.

ثمَّ ماذا؟ لماذا تطلُّ هذه الفكرة «هذا هو كلُّ ما ستحصل عليه في حياتك؟».

جالساً في مكانه، يحدِّق إلى الطبَقِ الأزرقَ حيثُ كانت قطعتا البسكويت، ففكَّر؛ لعلَّ «الحدس الطفوليَّ» بتوقُّع شيءٍ رائعٍ يأتي به الغد، يظلُّ متشبِّثاً باللاوعي، ما دام المرء قادراً على الإدراك. وبمجرَّد أن يتجاوزَ المرء سنَّ الأربعين، ويصبح تحقيق الإنجازات أمراً بعيد المنال، تقتحم الفكرة مساحة الوعي كقطعة طفولةٍ تائهةٍ تبكي لتسترعي الانتباه.

لا شكَّ في أنَّه، أي روبرت بلير، تمنَّى من كلِّ قلبه لو أنَّ حياته استمرَّت على النحو الذي كانت عليه إلى أن يحل أجله. في أيَّام الدراسة، كان يعلم أنَّه سيدخل الشركة ويخلف والده يوماً ما. وكان ينظر بعين الرأفة إلى الأولاد الذين لم تعطهم الحياة موئلاً جاهزاً يليق بهم، ولا بلدةً مثل ميلفورد، المليئة بالأصدقاء والذكريات، ولا مكاناً إنجليزيّاً ينعم بالتآلف مثلما هي الحال في شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة.

في الوقت الحاضر، لم يعد ثمَّة أحدٌ من أسرة هايوارد في الشركة. لم يعد هناك أحدٌ منهم منذ عام 1843، ما عدا برعماً شابّاً من أسرة بينيت يحتلُّ الغرفة الخلفيَّة، في هذه اللَّحظة. تأتي لفظة ‹احتلال› مُعَبِّرةً تماماً، فاحتمال أدائه لأيِّ عملٍ هو احتمالٌ مُستبَعَد، إذ إنَّ اهتمامه الأساس في الحياة يتمحور حول كتابة قصائدَ متفرِّدةٍ وبدائيَّة، إلى درجة أنَّ نيفيل وحده هو مَن يفهمها. استاء روبرت من القصائد، لكنَّه غضَّ الطرف عن الكسل؛ فهو لم ينسَ أنَّه كان يقضي وقته في التدرُّب على تسديد رمياته إلى الكرسيِّ الجلديِّ، يوم كان يحتلُّ الغرفة نفسها.

تراجع ضوء الشمس عن حافة الصينيَّة، وقرَّر روبرت أنَّ موعد الذهاب قد حان. إن ذهب الآن، ففي وسعه أن يعودَ سيراً على الأقدام إلى المنزل عبرَ الشارع العام، قبل أن يتوارى ضوء الشمس عن الجانب الشرقيِّ من الطريق، إذ لا يزال السير في شارع ميلفورد العامّ يمنحه إحساساً بالمتعة. لا يعني ذلك أنَّ ميلفورد مَعْلَم مميَّز؛ فثمَّة مئة مكانٍ يشبهها إلى الجنوب من نهر (ترينت). لكنَّها، وعلى نحوٍ عفويٍّ، عكست صورة الحياة الرغيدة في إنجلترا طيلة الثلاثمئة عام الفائتة. يمتدُّ الشارع العامُّ من المنزل القديم المتاخم للرصيف، حيث مقرُّ شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة، المنزل المبنيِّ منذ أواخر عهد تشارلز الثاني. وينحدر الطريق انحداراً طفيفاً إلى الجنوب -قرميدٌ وفق الطراز الجورجيِّ، منازل

مؤطَّرةٌ بالخشب وفق الطراز الإليزابيثيِّ، حجرٌ وفق الطراز الفيكتوريِّ، وعمارات جصٍّ وفق الطراز الذي ساد في عهد الوصاية- وصولاً إلى الفيلات المبنيَّة وفق الطراز الإدوارديِّ، حيث تتوارى خلف أشجار الدردار في الطرف الآخر. وبين الورديِّ والأبيض والبنيِّ، هنا وهناك، ظهرت واجهةٌ من الزجاج الأسود، تستعرض بهرجتها المفرطة، تماماً كما يفعل مُحْدَثو النِّعم في الحفلات، لكنَّ ارتفاع المباني الأخرى قد طغى عليها. حتَّى الشركات ذوات النشاطات التجاريَّة المتعدِّدة، لجأت إلى المهادنة من أجل الدخول الناعم في ميلفورد. صحيحٌ أنَّ السوق الأمريكيَّ، عند الطرف الجنوبيِّ، يحمل في طيَّات ألوانه القرمزيَّة والذهبيَّة ما يوحي بوعده المشرق، وأنَّه يُسيء يومياً إلى الآنسة ترولوف في الجهة المقابلة؛ حيث يقوم المقهى الذي تديره، على بقيَّةٍ من آثارٍ خَرِبةٍ من العصر الإليزابيثيِّ، ويتَّخذ مقهى الشاي هذا من اسم الآنسة آن بولين مسمَّىً له، وتستعين الآنسة ترولوف على إدارته بمخبوزات أختها، غير أنَّ بنك ويستمينيستر، وبتواضعٍ غير معهودٍ منه منذ أيَّام الفائدة الربويَّة، كان قد هيَّأ قاعة (ويفرز) لتلائم احتياجاته من دون أن يضيف إليها أيَّ جديد، ولا حتَّى القليل من الرخام. كذلك فعل كيميائيّو سولز، الذين اتَّخذوا من دار الحكمة القديمة مقرّاً لبيع الأدوية بالجملة، فحافظوا على واجهتها العالية المدهشة من دون المساس بأصالتها.

أحبَّ روبرت بلير الشارع الصغير الذي كان جميلاً ونشيطاً ومزدحماً، ذاك الَّذي تحيط به أشجار الليمون المشذَّبة، الَّتي تنمو على أطراف الرصيف المتاخم له.

لمَّا ضمَّ قدميه، إحداهما إلى الأخرى، استعداداً للنهوض، رنَّ جرس هاتفه. في أماكن أخرى من العالم، يعرف المرء أنَّ وظيفة الهواتف هي الرنين في المكاتب الخارجيَّة؛ حيث تردُّ عليك عاملة المقسم، فتسألك عمَّا تريد،

وتطلب إليك الانتظار للحظةٍ ريثما «تضعك على الخطّ»، وسرعان ما تجد نفسك متَّصلاً بمَن أردت أن تحادثه. لكن ليس في ميلفورد؛ فأمرٌ كهذا غير معقول في ميلفورد. فحين تتَّصل بجون سميث في ميلفورد، تتوقَّع أن يردَّ عليك جون سميث نفسُه. لذا، لمَّا رنَّ الهاتف، في ذلك المساء الربيعيِّ، في شركة بلير وهايوارد وبينيت، فقد رنَّ على مكتب بلير، ذاك المصنوع من الماهوجني المطعَّم بالنحاس.

لطالما سأل روبرت نفسه، من بعد ذلك، عمَّا كان سيحصل لو أنَّ تلك المكالمة تأخَّرتْ لدقيقة واحدة. في غضون دقيقةٍ واحدة، في ستِّين ثانيةً تافهة، كان في وسعه أن يتناول معطفه عن المشجب الموجود في الردهة، وأن يطلَّ برأسه نحو السيِّد هيسلتاين ليُعْلِمَه بمغادرته، ثمَّ يمضي إلى الضوء الشاحب ويشقُّ طريقه بعيداً في الشارع. عندئذٍ، سيردُّ السيِّد هيسلتاين على هاتفه، ويخبر المرأة أنَّه قد رحل. وبدورها، ستغلق الخطَّ وتبحث عن شخصٍ آخرَ غيره. وكُلُّ ما سيتلو ذلك، كان ليثير اهتمامه من الناحية النظريَّة فقط.

غير أنَّ الهاتف رنَّ في الوقت المناسب، ومدَّ روبرت يده ليلتقط السمَّاعة.

«هل هذا السيِّد بلير؟»، سأله صوتٌ نسائيٌّ. صوتٌ رنَّان. شعر بلير أنَّ هذا الصوت رزينٌ بطبيعته، وإن بدا الآنَ لاهثاً أو نزقاً. «أوه! كم أنا سعيدةٌ لأنَّني تمكَّنتُ من الوصول إليك. كنتُ أخشى أن تكون قد أنهيت عملك لهذا اليوم. سيِّد بلير، أنت لا تعرفني. اسمي شارب، ماريان شارب. أعيش مع والدتي في منزل فرانشايز الواقع على طريق لاربورو، كما تعرف».

قال بلير: «أجل، أعرفه». كان يعرف ماريان شارب بالمظهر، كما عرف جميع من في ميلفورد والمقاطعة ككلٍّ. طويلةٌ ونحيلةٌ وسمراء، تبدو في الأربعينات من عمرها. تستهويها الأوشحة الحريريَّة الزاهية التي تُظهر سُمرتها الغجريَّة. في صباحات التسوُّق، كانت تقود سيَّارة قديمةً مُتضرِّرة، في حين تجلس

والدتها، ذات الشعر الأبيض، جلسةً مستقيمةً في المقعد الخلفيّ، واهنةً وممانعةً وأبيَّةً بطريقة ما. حين النظر إلى السيّدة شارب العجوز من زاويةٍ جانبيَّة، فإنَّها تبدو شبيهةً بوالدة ويسلر، لكنَّها إذا ما استدارت فرأيت وجهها كاملاً، فإنَّ عينيها الفاتحتين الشَّاحبتين الباردتين كعيون النوارس، تتركان فيك انطباعاً بأنَّها عرَّافةٌ ما. عجوزٌ غير مريحة.

«أنت لا تعرفني»، تابع الصوت كلامه، «لكنَّني رأيتك في ميلفورد، ويبدو أنَّك شخصٌ طيِّب، وأنا في حاجةٍ إلى محامٍ. أعني أنَّني في حاجةٍ إليه الآن؛ في هذه اللَّحظة بالتحديد. المحامي الوحيد الذي سبق لنا أن عملنا معه في لندن الآن -أعني في شركة لندن للمحاماة- ونحن لم نخترهم ممثلين لنا؛ فقد كانوا جزءاً من الميراث الذي حصلنا عليه فحسب. والآنَ، أنا واقعةٌ في مأزق وأحتاج إلى دعم قانونيٍّ، فخطرتَ في بالي، وفكَّرتُ في أنَّك قد...».

بدأ روبرت حديثه: «إن كانت سيَّارتكِ...»؛ فكلمة (مأزق) في ميلفورد تعني واحداً من أمرين؛ إمَّا أن تكون قضيَّة إثبات نسب، وإمَّا أن تكون مخالفة لقوانين السير. وبما أنَّ القضيَّة تخصُّ ماريان شارب، فلا بدَّ أنَّها القضيَّة الثانية، وفي الحالتين، لا فرق في ذلك، فتلك القضيَّة ليست من القضايا التي تتولَّاها شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة. سيُحيلها إلى كارلي، الشابِّ الذكيِّ في آخر الشارع، ذاك الذي تُطربه قضايا المحاكم، ويشتهر عموماً بقدرته على تبرئة الشيطان وإنقاذه من الجحيم. «أنقذَه!» صاح أحدُهم ذات ليلةٍ في فندق (روز آند كراون)، «وإن تطلَّب الأمر لفعل أكثر من ذلك. قد يجمع تواقيعنا في سبيل شهادةٍ رخيصةٍ لصالح الآثم الأزليّ».

«إن كانت سيَّارتكِ...».

قالت بغرابة: «سيَّارة؟»، كما لو كان استحضارُ ماهيَّة السيَّارة في عالمها الحاليِّ شأناً مُضنياً لها، «آهِ، فهمت. لا، لا شيء من هذا القبيل، الأمر أخطر من ذلك. إنَّه يتعلَّق بسكوتلاند يارد».

«سكوتلاند يارد!».

بالنظر إلى محام ريفيٍّ رصينٍ ونبيلٍ، مثل روبرت بلير، تبدو سكوتلاند يارد غريبةً كبلاد الأحلام زاندو، كهوليوود، كالقفز المظليّ. بالنظر إلى مواطنٍ صالحٍ، كانت علاقته طيِّبة مع رجال الشرطة المحليِّين، ولم يكن يتولَّى قضايا جنائيَّة.

كانت آخر زيارةٍ له إلى سكوتلاند يارد، عندما جاء ليلعب الغولف مع المفتِّش المحليّ. شابٌّ ماهرٌ لعب مباراةً هادئةً إلى أن وصل إلى المستوى التاسع عشر، فتخلَّل اللُّعبة بعض الرعونة؛ بسبب الاعتبارات التي يفرضها عليه منصبه.

سارع الصوت إلى القول: «لم أقتل أحداً إن كان هذا ما يشغل تفكيرك».

«النقطة هي: هل يُفتَرضُ أنَّكِ متَّهمةٌ بجريمة قتل؟». كان من الواضح أنَّ هذه القضيَّة تناسب كارلي أيّاً كانت فِعْلَتُها. لا بدَّ أن يترك عبئها على كارلي كي يحمله.

«لا. ليست جريمة قتلٍ على الإطلاق. يُفترض أنَّني اختَطفتُ أحداً ما، أو احتجزته أو ما شابه ذلك. لا يمكنني شرح الأمر عبر الهاتف. وفي كلِّ الأحوال، إنَّني في حاجةٍ إلى أحدٍ الآن. على الفور، وفي الحال، و...».

قال روبرت: «لكن، كما تعرفين، لا أظنُّ أنَّني الشخص الذي تحتاجين إليه تحديداً، فأنا لا أفقه شيئاً في القانون الجنائيّ، فشركتي ليست مهيَّأةً لتسلُّم قضايا من هذا النوع. إنَّ الرجل الذي تحتاجين إليه...».

«أنا لا أريد محامياً جنائيّاً. أريد صديقاً. شخصاً يشدُّ من أزري من دون أن ينظرَ إليَّ بأنَّني استغلاليَّة؛ أعني مثل أن يخبرني عمَّا يمكنني الامتناع عن

الإجابة عنه؛ حال لم أُرد ذلك، وأشياء أخرى من هذا القبيل. لا أحسب أنَّك في حاجةٍ إلى ممارسةٍ في الحقل الجنائيِّ لتحقيق ذلك، أليس كذلك؟».

«لا، لكنَّك ستحظين بخدمةٍ أفضل في شركة محاماةٍ لها باعٌ في القضايا الشرطيَّة. شركة...».

«أنت تحاول إخباري أنَّ هذا العمل لا يروقك وانتهى الأمر. أليس كذلك؟».

«لا. بالطبع لا»، قالها روبرت على عجل، «بصراحة، أنا أشعر أنَّ الحكمة تقتضي منكِ...».

قاطعته: «أتدري بما أشعر؟ أشعر أنَّني مثل فتاةٍ تغرق في النهر وتعجز عن الوصول بنفسها إلى برِّ الأمان، وعوضاً عن مدِّ يد العون إليَّ، أنتَ تشير إلى الضفَّة الأخرى لأسبح باتِّجاهها موضِّحاً لي أنَّها أكثر أماناً».

ساد الصمت للحظة.

قال روبرت: «على العكس من ذلك، في وسعي أن أقدِّمَ لك خبيراً في انتشال الغرقى. أؤكِّد لك أنَّه يفوقني شخصيّاً باحترافيَّته؛ إذ إنَّ بنيامين كارلي يعرف كيفيَّة الدفاع عن المتَّهمين أكثر من أيِّ أحدٍ آخر هنا أو في...»

«ماذا! ذاك الرجل المروّع ذو البدلات المخطَّطة!»، غاب صوتها العميق وتحشرج، وساد الصمت مرَّةً أخرى، ثمَّ قالت بصوتها العاديِّ: «أنا آسفة. كان ذلك سخيفاً كما ترى. لم يكن سبب اتِّصالي بك الآنَ أنَّني أحسبك حاذقاً في أمور بعينها». (فكَّر روبرت: حقاً! ليس من أجل ذلك؟) «وإنَّما لأنَّني وقعتُ في مأزقٍ وأردتُ أن ينصحني شخصٌ يشبهني. وقد بدوتَ لي كذلك. سيِّد بلير. أرجوك أن تأتي. أنا أحتاج إليك الآن. ثمَّة أشخاصٌ من سكوتلاند يارد هنا في المنزل. وإذا ما شعرت أنَّك لا تريد التورُّط في أمرٍ كهذا، فيمكنك،

متى شئتَ، أن توليَ الأمر إلى أحدٍ آخرَ لاحقاً، أليس كذلك؟ وفي النهاية، قد لا تكون هناك أيُّ ورطةٍ في الأمر. إن كان في وسعك المجيء إلى هنا لساعةٍ من الزَّمن (ورعاية مصالحي) أو أياً كانت تسمية ذلك، فقد ينتهي الأمر برمَّته. أنا متأكِّدةٌ من وجود خطأ ما. من فضلك، ألا يمكنك أن تفعل ذلك من أجلي؟».

في المحصِّلة، ظنَّ روبرت بلير أنَّ في مقدوره فعل ذلك. كان طيّباً جدّاً إلى درجةٍ تمنعه من رفضٍ أيّة استغاثةٍ محقّة - كما أنَّها قدَّمت إليه مخرجاً إذا ما تعقَّدت الأمور. وبعد كلِّ ذلك، خطر له أنَّه لم يُرِدْ أن يلقي بها إلى بن كارلي. وعلى الرَّغم من تفاهتها فيما يتعلَّق بالبدلات المخطَّطة، غير أنَّه فهم وجهة نظرها. فإنَّك إذا ما ارتكبت جرماً وأردتَ النجاة بفعلتك، فلا ريب في أنَّ كارلي سيكون حينها نعمةً من الله مُنيتَ بها. لكنَّك حينما تقع في حيرةٍ من أمرك، وتكون في ورطة، وتكون بريئاً، فمن المرجَّح ألَّا يكون بن كارلي، بشخصيّته المندفعة، هو طوق النجاة الأمثل لك.

مع ذلك، تمنَّى، في حين كان يغلق سمّاعة الهاتف، لو أنَّه أعطى للعالم صورةً بغيضةً عنه -مثل كالفن[1] أو كاليبان[2]، لا فرق لديه- المهمُّ أنَّ ذلك كان لينفِّر النساء الغربيات من فكرة اللجوء إليه حين وقوعهنَّ في مأزقٍ ما.

تساءل وهو يسير باتِّجاه المرآب في جادَّة سين قاصداً سيَّارته، ما طبيعة مأزق «الاختطاف» هذا؟ هل توجد جريمةٌ كهذه في القانون الإنجليزيّ؟ ومن الشخص الذي يمكنها أن تسعى إلى اختطافه؟ طفل؟

---

1 جون كالفن: (1509– 1564) مُصلحٌ فرنسيٌّ تخلّى عن مبادئ الكاثوليكية وأسس حركة الإصلاح البروتستانتي التي عُرفت فيما بعد بالكالفينية. المترجمة.

2 إحدى شخصيات شكسبير في مسرحيته: العاصفة. وهو الابن اللقيط للساحرة سيكوراكس، نصفه إنسان ونصفه الثاني وحش. المترجمة.

طفلٌ ما تُعلِّق عليه آمالها؟ ومع أنَّ المنزل كبيرٌ في لاربورو، إلَّا أنَّهم لا يكفُّون عن التلميح إلى أنَّهم لا يملكون إلَّا نزراً قليلاً من المال. أو لعلَّه طفلٌ حسبوا أنَّ أهله قد عاملوه بقسوة. من الممكن ذلك. كان للمرأة العجوز وجه رجلٍ متطرِّف لم يُقدَّر له أن يرى مثله من قبلُ. وبدت ماريان شارب نفسها كأنَّها ساحرة وجب حرقها على وتدٍ[3] لولا أنَّ ثقافة إحراق الساحرات لم تعد رائجةً. أجل. ربَّما كان ذلك محض تطبيقٍ مغلوط للإحسان. الاحتجاز بقصد حرمان الوالد أو الوصيِّ أو غيرهما من حيازته. تمنَّى لو أنَّه تذكَّر المزيد من أعمال (هاريس وويلشر). لم تسعفه الذاكرة في استعادة عقوبة تلك الجناية؛ أهي الأشغال الشاقَّة؟ أم أنَّها مجرَّد جنحة؟ فمنذ عام 1798 لم تُلطِّخ قضايا «الاختطاف والاحتجاز» ملفَّات شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة؛ يوم اختطف مرافق آل ليسوز الآنسة غريتون الشابَّة من حفلٍ في منزل أسرة غريتون، بعد أن أسرف في شرب نبيذ الكلاريت، فامتطى جواده معها ومضى بها بين الفيضانات. ولم تكن ثمَّة شكوكٌ إطلاقاً حول الدَّافع الذي أودى بالمرافق إلى ارتكاب ما ارتكب في ذلك الحفل.

أوه، حسناً، سيكونون الآن عرضةً لتدخُّل سكوتلاند يارد المخيف في ترتيباتهم، وهو نفسه كان يخاف سكوتلاند يارد بعض الشيء. هل كان الطفل مهمّاً إلى درجة أن تصل القضيَّة إلى المقر الرئيس؟

هناك في جادة سين[4] تخطَّفته الحرب المعتادة؛ لكنَّه خلَّص نفسه منها. (في حال كنت مهتمّاً؛ يقول علماء اللُّغة إنَّ كلمة خطيئة (sin) هي مجرَّد تحويرٍ لكلمة

---

3 مطاردة الساحرات: كانت رائجةً زمن سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على أوروبا ما بين عامي 1450– 1700، وهي عقوبة تتعرَّض لها الساحرات والمشعوذات فتُصلب الساحرة على وتدٍ وتُحرق حيَّةً. المترجمة.

4 Sin Lane: معناها الحرفي جادة الخطيئة. المترجمة.

رمال (sand)، غير أنَّ لسكَّان ميلفورد معرفة أعمق في هذا الشأن بالطبع؛ فقد كان الزقاق يُفضي إلى طريق العشَّاق في هاي وود، قبل أن تُبنى دُور المجلس على المروج المنخفضة خلف البلدة).

وعبر الزقاق الضيِّق، ينتصب الإسطبل المحليُّ القديم مقابل المرآب الأحدث في المدينة، في مواجهةٍ تملؤها العداوة الأزليَّة. فالمرآب يثير فزع الخيول (من جهة الإسطبل)، فيما يسدُّ الإسطبل الطريق دوماً، بما يصل إليه من حمولات القشِّ والعلف وغيرها (من جهة المرآب). تولَّى إدارة المرآب كلٌّ من بيل برو، الذي عمل في فيلق المهندسين الملكيين والكهربائيين والميكانيكيين، وستانلي بيترز، الذي عمل سابقاً في فيلق الإشارات الملكيّ، والعجوز مات إيليس، الذي عمل سابقاً ضمن حرَّاس التنين لدى الملك. ومع ذلك، فقد وَجَّهت إليهم النظراتُ وصمةً باعتبارهم رمزاً لجيلٍ دمَّر الفروسيَّة وشوَّه الحضارة.

أيَّامَ كان روبرت يصطاد في موسم الشتاء، تسنَّى له الاستماع إلى الجانب الفروسيِّ من الحكاية، أمَّا في بقيَّة فصول السنة، فقد استمع إلى قصص فيلق الإشارات الملكيِّ ريثما تُمسح سيَّارته أو تُزيَّت أو تُملأ بالوقود أو تُجلب إليه. واليوم، أراد ضابط الإشارات أن يعرفَ الفرق بين التشهير والقدح، وما الذي يشمله تشويه السمعة تحديداً، وإذا ما كانت مقولة «العامل في صناعة علب التَّنَك، لا يفرِّق بين الجوز والبلوط» هي مقولة تندرج تحت بند القذف والتشهير أو لا.

قال روبرت وهو في عجلةٍ من أمره: «لا أدري يا ستان! يحتاج الأمر إلى التفكير»، وأدار محرِّك السيَّارة. انتظر ريثما يعيد ثلاثةٌ من المتسلِّلين المتعبين طفلين بدينَين وسائساً من رحلة ركوب، في فترة ما بعد الظهيرة. (وتناهى إلى مسمعيه صوت ستانلي آتياً من الخلف وهو يقول «أرأيت ما أعنيه؟») ثمَّ انحرف بسيَّارته نحو الشارع العامِّ.

هناك، في الطرف الجنوبيِّ من الشارع العامِّ، اختفت المتاجر تدريجيّاً، وحلَّ محلَّها مساكن بعتباتٍ متاخمةٍ للرَّصيف، ثمَّ منازلُ متراجعة إلى الخلف بأروقةٍ تفصل أبوابها عن الشارع، ثمَّ ڤيلات تنتشر الأشجار في حدائقها، ثمَّ فجأةً، ومن دون مقدِّمات؛ حقول وأرض فلاة.

لقد كان ريفاً زراعيّاً. أرضٌ تلفُّها الحقول المسيَّجة إلى ما لا نهاية. وفيها عدد يسيرٌ من المنازل. ريفٌ غنيٌّ، لكنَّه منعزل. يمكن للمرء أن يسافر فيه ميلاً في إثر ميلٍ ثمَّ لا يلقى في طريقه إنساناً آخرَ غيره. هادئٌ وآمن، لم يمَسَسْه أيُّ تغيير منذ حرب الوردتين[5]، يتفوَّق فيه الحقل المسوَّر على نظيره، ويذوب الأفق في الأفق من دون أيِّ خرقٍ للنظام. وحدها رسائل التلغراف هي مَن خانت القرن.

هناك، خلف حدود الأفق، كانت لاربورو، التي تعجُّ بالدرَّاجات والأسلحة الصغيرة، وبعُلب الصفيح وصلصة (كوان) للتوت البريِّ، وبمليون روحِ إنسانيَّةٍ تعيش جنباً إلى جنب في بيوت من الآجُرِّ الأحمر القذر، تخرقُ الحدود بين حينٍ وآخر، في شوقٍ جارفٍ إلى العشب والتراب. في حين، لم يكن في ريف ميلفورد ما يمكن أن يستهوي فئة من الناس تطالب بالعشب والتراب، بالإضافة إلى المناظر والمقاهي. فحينما تَحُلُّ العطلة في لاربورو، فهي تحُلُّ جملةً واحدةً في الغرب، حيث التلال والبحر، في حين يبقى امتداد ريفيها الشماليِّ والشرقيِّ منعزلاً وهادئاً ونقيّاً، كما كان أيَّام مقهى (سن إن سبلندر)؛ كان 'كئيباً'، وتلك هي اللَّعنة التي حفظته.

---

5 حرب أهليةٌ بين أسرتين ملكيتين (أسرة لانكاستر وأسرة يورك)، دارت معاركها على مدار ثلاثة عقود من (1455- 1485) حول صاحب الأحقية بعرش إنجلترا آنذاك. واتخذت كلّ أسرة من الورد شعاراً لها (الوردة الحمراء لأسرة لانكاستر، والوردة البيضاء لأسرة يورك). المترجمة.

على بعد ميلين في طريق لاربورو، انتصب المنزل المعروف باسم منزل فرانشايز في جانب الطريق، وقد ثُبِّتَ إلى جواره كشك للهاتف لا طائل من وجوده هناك. في الأيام الأخيرة من عهد الوصاية، اشترى أحدهم الحقل المعروف باسم فرانشايز، وبنى وسْطه منزلاً أبيضَ اللَّون، ثمَّ سوَّر الحقل فأحاطه بجدار عالٍ من الطوب المتين، وبنى وسْط السور من الجهة الأماميَّة بوَّابة مزدوجة ضخمة تحاكي في ارتفاعها ارتفاع الجدار، وتُؤدي إلى الطريق. لم يكن المنزل متناغماً مع أيِّ شيء في الريف. لم يكن في فنائه الخلفيِّ مبانٍ زراعيَّة، ولا بوَّابات جانبيَّة تفصله عن الحقول المحيطة به. وقد بُنيت الإسطبلات في الجهة الخلفيَّة من المنزل تماشياً مع الظرف؛ غير أنَّها ظلَّت ضمن السور. كان المكان غريباً ومعزولاً كلعبة طفلٍ سقطت على قارعة الطريق. كان البيت مأهولاً برجلٍ عجوز، حسبما يذكر روبرت، يُفترض أنَّه الرجل نفسه، إذ لم يسبق لأحدٍ أن رأى في ميلفورد أحداً من ساكني البيت؛ فقد كانوا يتسوَّقون من قرية هام غرين القريبة إليهم في لاربورو. إلى أن جاء الوقت الذي شاركت فيه ماريان شارب ووالدتها في مشهد التسوُّق الصباحيِّ؛ فعُرِفَ حينها أنَّهما قد ورثتا منزل فرانشايز عقب وفاة الرجل العجوز.

تساءل روبرت، كم مضى على وجودهم هناك؟ ثلاث سنوات؟ أربع سنوات؟

إنَّ عدم انخراطهم في الحياة الاجتماعيَّة في ميلفورد كان شيئاً لا يستحقُّ الوقوف عنده. فالسيِّدة وارين العجوز، التي اشترت أولى الفيلات المظلَّلة بأشجار الدردار في آخر الشارع العامِّ، قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، ما زالت تُدعى إلى الآن «السيِّدة الوافدة من ويموث»، وهي بالمناسبة قد قَدِمتْ من (سوان إيج)، على أمل أن يناسبها هواء المناطق الداخليَّة أكثر من هواء البحر؛ نظراً لإصابتها بالروماتيزم.

ولعلَّ أسرة شارب بدورها لم تسعَ وراء العلاقات الاجتماعيَّة. لقد كان يلفُّها جوٌّ غريبٌ من الاكتفاء الذاتيِّ. وقد سبق له أن رأى الابنة لمرَّةٍ أو لمرَّتين في ملعب الغولف، تلعب مع الدكتور بورثويك (بصفة ضيفةٍ كما يبدو). كانت ترمي بالكرة عالياً مثلما يفعل الرجل، وتحرِّك معصمها الأسمر النحيل مثلما يحرِّكه الخبير. وهذا هو كلّ ما عرفه روبرت عنها.

لَّما أوقف السيَّارة أمام البوَّابة الحديديَّة العالية، تبيَّن له وجود سيَّارتين أخريين مسبقاً هناك. وتمكَّن بلمحةٍ واحدةٍ فقط -وفي غاية السرِّيَّة والتهذيب والحذر- من تعرُّف السيَّارة القريبة. وتساءل حين كان يخرج من سيَّارته، في أيِّ بلدٍ من هذا العالم يمكن لقوى الشرطة أن تكابد على هذا النحو في سبيل الحفاظ على لطفها وهدوئها؟

رصد بعينه السيَّارة الثانية، وعرف أنَّها سيَّارة هالام، المفتِّش المحليِّ، الذي لعب معه تلك المباراة الهادئة في ملعب الغولف.

ثمَّة ثلاثة أشخاصٍ في سيَّارة الشرطة: السَّائق، وفي المقعد الخلفيِّ ثمَّة امرأة في منتصف عمرها، وما تراءى له كطفلةٍ أو كفتاةٍ شابَّة. رمقه السَّائق بنظرةٍ باردةٍ وشاردة، وتفحَّصه بعينه البوليسيَّة، ثمَّ انسحب بعينيه بعيداً عنه، غير أنَّه لم يتمكَّن من رؤية الوجهين في المقعد الخلفيِّ.

كانت البوَّابة الحديديَّة مغلقة -لا يذكر روبرت أنَّه قد رآها مُشْرَعةً البتَّة-، فتح أحد مصراعيها الثقيلين مدفوعاً بفضولٍ محض؛ فهو لم يرَ من منزل فرانشايز إلَّا ملمحاً بعيداً لسقفه ومداخنه؛ إذ سُدَّت التخاريم المنقوشة في حديد البوَّابة الأصليَّة بصفائح مسطَّحةٍ من الحديد الصلب، فيما يشبه الرغبة في العزلة وفق الطريقة الفيكتوريَّة. كما أنَّ الجدار كان عالياً جدّاً بحيث يحجب رؤية أيِّ شيء في الدَّاخل.

كان انطباعه الأوَّل الخيبة. لم يبدُ له أنَّ المنزل قد مرَّ بأيَّامٍ سود، معَ أنَّه كان مستوفياً لأركان البشاعة كلِّها بوضوح. فإمَّا أنَّه قد بُنِيَ بعد استنفاده المهلة المتاحة إبَّان فترة السماح، وإمَّا أنَّ بانيه يفتقر إلى حِسِّ المهندس المعماريِّ. لقد اعتمد نمطَ البناءِ السَّائد آنذاك، غير أنَّ تطفُّله على الصنعة كان جليّاً. ثمَّة خطأٌ صغيرٌ في كلِّ شيء: خطأٌ في مقاسات النوافذ بمقدار خمسة عشرَ سنتيمتراً، وخطأٌ في مواضعها بمقدارٍ لا يقلُّ عن ذلك، وخطأٌ في عرض المدخل، وخطأٌ في ارتفاع درجات سلَّم المدخل. في المحصِّلة، كان للبيت ملمحٌ قاسٍ لا يشبه عذوبة الطمأنينة التي كانت سائدةً في بيوت تلك الحقبة. ملمحٌ عدائيٌّ متشكِّك. وبينما كان يعبر الفناء باتِّجاه الباب المتجهِّم، أدرك روبرت بماذا يذكِّره هذا؛ بكلبٍ استيقظ من نومه فجأةً حين قدوم غريب، وانتصب على قوائمه حائراً للحظة؛ أيهاجم أم يكتفي بالنباح؟ كما لو أنَّه يسأله: ماذا تفعل هنا؟

وقبل أن يقرع الجرس، فُتِحَ الباب. لم تفتحه الخادمة؛ وإنَّما فتحته ماريان شارب نفسُها.

قالت وهي تمدُّ يدها: «رأيتك قادماً، فلم أنتظرك لتقرع الجرس، لأنَّ أمِّي تنام بعد الظهر. وآمل أن تنتهي هذه المسألة قبل أن تستيقظ، لئلَّا تعرف شيئاً عن هذا الأمر. إنَّني ممتنَّةٌ لمجيئك امتناناً يفوق الوصف».

تمتم روبرت بشيءٍ ما، وانتبه إلى عينيها اللَّتين كان يحسبهما بنيَّتين فاتحتين، كما الغجر، فتبيَّن له أنَّهما عسليَّتان تميلان إلى الاخضرار الباهت. أوصلته إلى الردهة، وبينما كان يُنزِلُ قبَّعته إلى نحو صدره، لفت انتباهه البساط البالي الممدود على الأرض.

قالت وهي تفتح الباب وترشده إلى غرفة الاستقبال: «القانون هنا في الدَّاخل». ودَّ لو أنَّه تكلَّم معها للحظةٍ على انفراد كي يتمكَّن من تحديد

توجُّهه، غير أنَّ الأوان قد فات ليقترحَ أمراً كهذا عليها، ومن الواضح أنَّها أرادت للأمور أن تسيرَ على هذا النحو.

يبدو هالام خجولاً وهو جالسٌ على حافَّة كرسيٍّ مزخرف. وبالقرب من النافذة، كان الشابُّ الموفَد من سكوتلاند يارد مسترسلاً في تأمُّل قطعة أثاثٍ جميلةٍ جدّاً من تصميم (هيبلوايت). كان الشابُّ نحيلاً، ويرتدي بذلةً باذخة الأناقة.

لَّما نهضا، أومأ روبرت وهالام أحدهما إلى الآخر.

قالت ماريان شارب: «إذاً، فأنت تعرف المفتِّش هالام. وهذا مفتِّش التحرِّي غرانت، من المقرِّ الرئيس».

انتبه روبرت إلى قولها ‹المقرّ الرئيس›، وتساءل ما إذا كانت لها أسبقيَّات في التعامل مع الشرطة يوماً ما، أو أنَّها لا تستسيغ الإثارة الطفيفة التي تحملها لفظة ‹سكوتلاند يارد›.

صافحه غرانت، وقال:

«أنا سعيدٌ بقدومك سيِّد بلير، ليس لأجل الآنسة شارب فقط، وإنَّما لأجلي أنا أيضاً».

«لأجلك أنت؟!».

«لم أتمكَّن من المضيِّ قُدماً في عملي قبل أن تحصل الآنسة شارب على شيءٍ من الدَّعم؛ سواء أكان دعماً من ناحية الصداقة أم من الناحية القانونيَّة، وإن كان الدَّعم من الناحية القانونيَّة فإنَّ ذلك أفضل بكثير».

«فهمت، وبماذا تتَّهمونها؟».

ابتدأ غرانت الحديث: «نحن لا نتَّهمها بشيء ...»، لكنَّ ماريان قاطعته قائلةً:

«يُفتَرض أنَّني خطفت أحداً ما، واعتديتُ بالضرب».

قال روبرت بارتباك: «الضَّرب؟!»

قالت، كما لو أنَّها تتلذَّذ بشناعة الجريمة: «ضربتُها ضرباً مبرحاً وسبَّبتُ لها كدمات».

«لها؟».

«إنَّها فتاة، وهي الآن في سيَّارة خارج البوَّابة».

قال روبرت ساعياً إلى الوصول إلى قصَّةٍ منطقيَّة: «أعتقد أنَّ علينا العودة إلى نقطة البداية».

قال غرانت: «ربَّما يجدر بي أن أتولَّى شرح ذلك».

قالت الآنسة شارب: «أجل، ففي النهاية، هذه روايتكم أنتم».

تساءل روبرت فيما لو التقط غرانت السخرية في قولها، كما وتساءل قليلاً عن سرِّ رباطة الجأش التي يمكن أن ترافق تهكُّمها على شخصٍ من سكوتلاند يارد يجلس الآن على واحدٍ من أفخم كراسيها. لم تَبدُ هادئةً عبر الهاتف. بدت مجبرةً ونصف يائسة. لعلَّ حضور حليفٍ في صفِّها هو ما شدَّ من أزرها، أو لربَّما أنَّها التقطت أنفاسها من جديد.

قال غرانت بأسلوبٍ بوليسيٍّ مقتضب: «الفتاةُ تُدعى إليزابيث كين. تعيش مع الأوصياء عليها قرب آليزبيري. وقبل عيد الفصح مباشرةً، ذهبت لقضاء عطلةٍ صغيرة مع عمَّتها المتزوِّجة في مينشيل، ضاحية لاربورو. وقد ذهبت بالحافلة؛ لأنَّ حافلات لندن- لاربورو تمرُّ بآليزبيري، وتمرُّ بمينشيل أيضاً

قبل أن تصل إلى لاربورو. وهكذا، فهي تنزل من الحافلة في مينشيل، وتحتاج إلى ثلاث دقائق من السير على الأقدام للوصول إلى بيت عمَّتها، عوضاً عن النزول في لاربورو، وقطع كلّ تلك المسافة فيما لو سافرت عبر القطار. في نهاية الأسبوع، تلقّى وليّاها -السيّد والسيّدة وين- بطاقةً بريديَّةً منها، تخبرهما فيها أنَّها تستمتع بوقتها كثيراً، وستبقى هناك. فهِمَا من ذلك أنَّ بقاءها هناك سيمتدُّ إلى نهاية عطلة مدرستها. ولمَّا لم تعد في اليوم الذي يسبق يوم عودتها إلى المدرسة، حسبا أنَّها تكاسلت عن العودة إلى المدرسة فحسب، فكتبا إلى عمَّتها لأجل عودتها. وبدلاً من أن تتَّجه العمَّة إلى أقرب مركز اتِّصالٍ أو مكتب تلغراف، آثرت أن تختصرَ الأمر إلى رسالةٍ بريديَّةٍ تخبر فيها أُسرة وين أنَّ ابنة أخيها قد غادرت إلى آليزبيري منذ أسبوعين مضيا. وفي أحسن الأحوال، تحتاج حركة البريد إلى أسبوعٍ آخرَ أيضاً. وهكذا، كان قد مضى على غياب الفتاة أربعة أسابيع حين ذهب الوصيَّان عليها لإبلاغ الشرطة. اتَّخذ رجال الشرطة كلَّ التدابير المعتادة، لكنَّ الفتاة ظهرت قبل أن يتحرَّك رجال الشرطة فعلاً. دخلت الفتاة بيتَها قرب آليزبيري، وكانت في حالة إعياءٍ شديد؛ إذ لم تكن ترتدي سوى ثوبٍ وحذاء».

سأل روبرت: «كم عمر الفتاة؟».

«خمسة عشرَ، ستَّة عشرَ عاماً تقريباً». انتظر لوهلةٍ ليرى ما إذا كان لدى روبرت المزيد من الأسئلة، ثمَّ تابع (وكمحامٍ يتبادل التفكير مع محامٍ آخر، قدَّر روبرت الطريقة التي وقفت فيها السيَّارة عند البوَّابة؛ متوارية تماماً): «قالت إنَّها ‹اختُطِفَتْ› في سيَّارة. وهذا هو كلُّ ما قالته لأيِّ أحدٍ طيلة يومين اثنين. كانت نصف واعيةٍ بعد تلك الصدمة. وبعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعةً، استردَّت عافيتها، وبدأت تروي قصَّتها لهم».

«لهم؟».

«لأُسرة وين. لقد أراد رجال الشرطة الحصول على قصَّتها طبعاً، لكنَّ أيَّ ذِكرٍ للشرطة أمامها، كان ليصيبها بحالةٍ من الهيستيريا. فاضطرَّ رجال الشرطة إلى أخذ القصَّة من مصدرٍ ثانٍ. قالت إنَّها كانت عند مفترق الطرق في مينشيل، بانتظار الحافلة التي ستعيدها، وإنَّ سيَّارة فيها امرأتان قد توقَّفت عند الرصيف، وسألتها الشابَّة التي كانت تقود السيَّارة ما إذا كانت تنتظر الحافلة، وإذا ما رغبت في أن توصلها إلى وجهتها».

«هل كانت الفتاة بمفردها؟».

«أجل».

«لماذا؟ ألم يذهب أحدٌ لتوديعها؟».

«كان زوج العمَّة في عمله، في حين كانت العمَّة مدعوَّةً لتكون العرَّابة في طقس معموديَّة». توقَّف لوهلةٍ ثانيةٍ في انتظار أيِّ أسئلةٍ أخرى قد يرغب روبرت في طرحها. «قالت إنَّها في انتظار حافلة لندن. فأخبرتاها أنَّها قد مرَّت من هنا بالفعل، وهي صدَّقتهما؛ فلمَّا وصلت إلى مفترق الطرق، لم يكن لديها مزيد من الوقت، ولم تكن ساعتها تعمل على نحوٍ دقيق. في الواقع، كان الخوف من فوات الحافلة قد نال منها حتَّى قبل أن تتوقَّف السيَّارة. أصابها الحزن، فقد كانت الساعة الرابعة آنذاك، وبدأ المطر يهطل، والعتمة تهبط. كانتا متعاطفتين معها للغاية، وعرضتا عليها أن توصلاها إلى مكانٍ لم تفهم اسمه، حيث يمكنها من هناك، وفي غضون نصف ساعةٍ، أن تستقلَّ حافلةً أخرى إلى لندن. قبلت عرضَهما ممتنَّة، وركبت إلى جانب السيِّدة العجوز، في المقعد الخلفيِّ من السيَّارة».

تراءت في مخيِّلة روبرت صورة السيِّدة شارب العجوز، منتصبةً ونحيفةً في المقعد الخلفيِّ، مكانها المعتاد. استرق نظرةً إلى ماريان شارب، لكنَّ وجهها كان مطمئناً. هذه قصَّةٌ سبق لها أن سمعتها.

«ألقى المطر غشاوةً على النوافذ، وانشغلت هي بالحديث عن نفسها مع السيِّدة العجوز، فلم تنتبه إلى الوجهة التي يقصدنَها، ولمَّا انتبهت إلى ما حولها أخيراً، كان المساء خارج النوافذ قد أسدل عتمته كلَّها، وبدا لها أنَّ رحلتهنَّ قد استغرقت وقتاً طويلاً. قالت شيئاً عن لطفهما الاستثنائيِّ، إذ غيَّرتا الوجهة بعيداً عن مقصدهما لأجل إيصالها. وهنا تكلَّمت الشابَّة للمرَّة الأولى قائلةً إنَّهما لم تبتعدا عن الوجهة التي تقصدانها، بل على العكس، سيكون لديها وقتٌ الآن للدخول واحتساء شرابٍ ساخنٍ قبل أن تأخذاها إلى مفترق الطرق الآخر الذي تقصده. ساورها الارتياب حيال ذلك، لكنَّ الشابَّة قالت لا طائل من الانتظار لعشرين دقيقة تحت المطر ما دام في وسعها قضاء هذه الدقائق العشرين وهي تأكل في مكانٍ دافيءٍ وجافٌ. بدا لها ذلك معقولاً، فوافقت. أخيراً، ترجَّلت الشابَّة من السيَّارة وفتحت ما بدت أنَّها بوَّابةٌ لمدخل السيَّارات. ثمَّ عادت تقود السيَّارة في اتِّجاه المنزل. سيقت الفتاة إلى مطبخٍ كبير».

كرَّر روبرت: «مطبخ؟».

«نعم، مطبخ. وضعت العجوز القهوة على الموقد لتسخِّنها، في حين كانت الشابَّة تقطِّع (شطائر غير ملفوفة) كما أسمتها الفتاة».

«بوفيه سويديّ؟».

«أجل. وفي أثناء تناولهنَّ الطعام والشراب، قالت لها السيّدة إنَّهما في الوقت الحالي بلا خادمة، وسألتها ما إذا كانت ترغب في أن تعمل خادمةً لديهما لوقتٍ قليل، فأجابت بالنَّفي. لجأتا إلى أسلوب الإقناع؛ لكنَّها أصرَّت على أنَّها لن تمارس ذلك النوع من الأعمال. بدأ الامتعاض يعلو وجهيهما في أثناء حديثها، واقترحتا عليها أن تصعد إلى الطابق العلويِّ لترى كم هي جميلةٌ غرفة النوم التي يمكن أن تحصل عليها فيما لو بقيت لديهما. كان ذهنها مشوَّشاً للغاية، إلى درجة أنَّها لم تجد مفرّاً من الانصياع لاقتراحهما. تتذكَّر أنَّ سجَّادةً كانت

عند درجات السلَّم في الطابق الأوَّل، وأنَّ شيئاً قاسياً تتحسَّسه الأقدام عند الطابق الثاني، وكان هذا هو كلُّ ما تذكَّرته إلى أن استيقظت في وضح النهار على سريرٍ ضيِّقٍ في عليَّةٍ صغيرةٍ وفارغة، ترتدي قميصاً داخلياً فقط، من دون أن تجد أثراً لبقيَّة ملابسها. كان الباب مغلقاً، والنافذة المستديرة الصغيرة لا تنفتح في أيِّ حال».

قال روبرت على مضض: «نافذةٌ مستديرة!».

لكنَّ ماريان هي من أجابته بلؤم، قائلةً: «أجل. ثمَّة نافذةٌ مستديرةٌ في الأعلى قرب السقف».

لم يجد روبرت تعليقاً ملائماً؛ فآخر ما خطر في باله حين قدومه إلى باب منزلها منذ دقائق خلت، هو الموضع السيِّئ الذي وضِعَت فيه النافذة المستديرة قرب السقف. توقَّف غرانت، على سبيل المجاملة، فترته المعتادة، ثمَّ تابع:

«بعد قليل، جاءت إليها الشابَّة تحمل طبقاً من العصيدة، فرفضته الفتاة، وطالبت بثيابها وبتحريرها. فقالت لها المرأة إنَّها ستأكل الطعام حتماً حين يعضُّها الجوع، وذهبت تاركةً العصيدة خلفها. بقيت بمفردها إلى حين حلول المساء، عندما أحضرت لها المرأة الشاي على صينيَّة فيها كعكٌ طازج، وحاولت إقناعها أن تمنح نفسها فرصةً تجرِّب فيها العمل كخادمة. رفضت الفتاة مرَّةً أخرى. وقد استمرَّ هذا التناوب بين ترغيبٍ وترهيبٍ، من السيِّدة الشابَّة، وأحياناً من السيِّدة الثانية، لأيَّامٍ أُخَر، بحسب قصَّتها. ثمَّ قرَّرت أنَّها فيما لو استطاعت كسر النافذة الصغيرة المستديرة، فقد تتمكَّن من الزحف عبرها إلى السطح الذي كان مسوَّراً بالدرابزين، وحينها ستسترعي انتباه أحدٍ من المارَّة أو من التجَّار الجائلين، إلى مصيبتها. لسوء حظِّها، كانت أداتها في تنفيذ ذلك كرسيّاً فقط، وبكلِّ ما أوتيت من همَّة لم تتمكَّن إلَّا من خدش الزجاج، قبل أن تَحولَ السيِّدة الشابَّة دون ذلك. انتزعت الكرسيَّ منها، وانهالت به عليها،

إلى أن أُنهِكَت أنفاسها. ثمَّ غادرت بعد أن أخذت الكرسيَّ معها. حسبت الفتاة أنَّ الأمر قد انتهى عند هذا الحدِّ، غير أنَّ المرأة عادت بعد لحظات تحمل معها ما ظنَّته الفتاة سوطاً للكلاب، وضربتها به إلى أن فقدت وعيها. في اليوم التالي، ظهرت المرأة العجوز تحمل بين ذراعيها ملاءات السرير، وقالت إنَّها في حال لم ترغب في العمل لديها، فيجب عليها، في الأقلِّ، أن تتولَّى الخياطة. رفضُ الخياطة يعني منعَ الطعام عنها. وقد كانت عنيدةً في موضوع الخياطة، لذا لم تحصل على الطعام. في الأيَّام التي تلت، هُدِّدَتْ بالضرب مجدَّداً حال رفضت الخياطة. وهكذا، رتقت بعض البياضات، فقُدِّمَ لها الحساء وقت العشاء. دامت تلك التسوية لبعض الوقت، غير أنَّها كانت تتعرَّض للضرب أو للحرمان من الطعام إذا ما كانت خياطتها رديئةً أو ناقصة. وذات مساء، جاءت السيِّدة العجوز بطبق الحساء المعتاد، ثمَّ خرجت من دون أن تقفلَ الباب. انتظرت الفتاة. ظنَّته فخّاً لها عاقبته الضرب، لكنَّها خاطرت أخيراً بالنزول. لم يكن ثمَّة صوت، وهبطت درجات السلَّم العارية ركضاً وصولاً إلى الطابق الأدنى. ثمَّ هبطت طابقاً ثانياً متجهةً إلى الأسفل. الآنَ، صار في وسعها أن تسمع السيِّدتين تتحدَّثان في المطبخ. تسلَّلت إلى الطابق الأخير، واندفعت نحو الباب. لم يكن مقفلاً، فهربت خارجةً منه، مثلما دخلت عبره في تلك الليلة تماماً».

سأل روبرت: «بقميصها الداخليِّ؟».

«نسيتُ أن أقولِ إنَّ فستانها قد استُبدِل بقميصها الداخليِّ. لا تدفئة في العليَّة، ولو أنَّها بقيت هناك بالقميص الداخليِّ فقط لماتت».

قال روبرت: «هذا إن كانت فعلاً في العليَّة».

وافقه المفتِّش بلطف: «كما تقول، إن كانت فعلاً في العليَّة»، وتابع كلامه من دون أن يتوقَّف وهلته المعتادة، «إنَّها لا تتذكَّر كثيراً ممَّا حصل بعد ذلك. قالت إنَّها سارت مسافةً طويلةً في الظلام. بدا كطريقٍ سريع، لكنَّه خلا تماماً

من السيَّارات، ولم تلتقِ فيه أحداً. وبعد قليلٍ من الوقت، وعلى الطريق العامِّ، رآها سائق شاحنةٍ من خلال المصابيح الأماميَّة، فتوقَّف ليقلَّها. كانت متعبةً للغاية، فغرقت في النوم على الفور. ولمَّا استيقظت، وجدت نفسها تقف على قدميها على قارعة الطريق. كان السائق يسخر منها قائلاً إنَّها شبيهة بالدُّمى المحشوَّة بالنشارة؛ غير أنَّها فقدت حشوها. كان الوقت لا يزال ليلاً. قال السائق إنَّ هذا هو المكان الذي طلبت أن يُنزلها فيه، وابتعد بشاحنته. وبعد حين، عرفَت المكان الذي تقف فيه، لقد كانت تبعد عن بيتها مسافةً تقلُّ عن ميلين. سمعت دقَّات الساعة الحادية عشرة، وقبل حلول منتصف الليل، وصلت إلى بيتها».

-2-

ساد صمتٌ قصير.

قال روبرت: «والفتاة هي تلك التي تجلس هذه اللَّحظة في السيَّارة، خارج بوَّابة منزل فرانشايز؟».

«أجل».

«أحسب أنَّ لديكم أسبابكم الَّتي تدعوكم إلى إحضارها إلى هنا».

«أجل. إذ لمَّا تعافت الفتاة تماماً، أُقنِعَت بإخبار قصَّتها لرجال الشرطة؛ فقد كانت قصَّتها مُسجَّلةً باختصارٍ كما روتها، وهي قرأت النسخة المطبوعة ووقَّعت عليها. وفي تلك الإفادة أمران قد أعانا رجال الشرطة كثيراً. وهذه هي المقتطفات المتعلِّقة بالموضوع:

'بعد وقتٍ من ذهابنا، مررنا بحافلةٍ كُتِبَ على لافتتها المضيئة ميلفورد. لا. لا أعرف أين هي ميلفورد. لم يسبق لي الذهاب إلى هناك قطّ'.

هذه الأولى. الثانية هي:

'من نافذة العليَّة، كان في مقدوري رؤية جدارٍ عالٍ من الطوب، تتوسَّطه بوَّابةٌ حديديَّة. كان هناك طريقٌ خلف الجدار، فقد كان في وسعي رؤية أعمدة التلغراف. لا، لم أستطع رؤية المركبات على الطريق، باستثناء الجزء العلويّ الذي يظهر من البضائع المحمَّلة على الشاحنات في

بعض الأحيان؛ فقد كان الجدار مرتفعاً جداً. لا يمكنك أن ترى شيئاً من خلال البوَّابة؛ فهي مسدودةٌ من الداخل بصفائح من الحديد. يبدأ مسار العربات مستقيماً عند البوَّابة، ثمَّ ينقسم من الداخل إلى مسارين في هيئة دائرة، ويصل المساران إلى الباب. لا. لم تكن حديقة، ثمَّة عشبٌ فقط، عشبٌ بريٌّ كما أظنُّ. لا. لا أتذكَّر أيَّ شجيرات. فقط أذكر العشب والمسارات).

أغلق غرانت دفتر الملاحظات الصغير الذي كان يقتبس منه.

بحسب ما عرفناه -وقد كان البحث شاملاً- ليس هناك منزلٌ آخر يقع بين لاربورو وميلفورد، وينطبق عليه وصف الفتاة إلَّا منزل فرانشايز. وفوق هذا وذاك، فإنَّ منزل فرانشايز يطابق أدقَّ التفاصيل. فاليوم، لَمَّا رأت الفتاة الجدار والبوَّابة، كانت واثقةً بأنَّ هذا هو المكان، لكنَّها طبعاً لم ترَ بَعْدُ ما يقع خلف البوَّابة. كان عليَّ أن أشرح الأمر للآنسة شارب أولاً، وأرى ما إذا كانت راغبةً في مواجهة الفتاة. وقد كانت محقَّةً تماماً عندما اقترحت حضور بعض الشهود القانونيين».

قالت وهي تستدير نحو روبرت: «أتساءل لماذا احتجتُ إلى مساعدةٍ عاجلة؟ هل يمكنك أن تتخيَّل كابوساً أبشع من هذا الهراء؟».

قال روبرت: «إنَّ قصَّة الفتاة هي خليطٌ غير متجانسٍ بين الحقيقيِّ والعبثيِّ بالتأكيد. أعلم أنَّ الحصول على خدمةٍ منزليَّةٍ بات شحيحاً، لكن هل من المعقول أن يرغبَ أحدٌ ما في توظيف خادمةٍ من خلال احتجازها بالقوَّة؟ هذا إن تغاضينا عن ضربها وتجويعها».

«ليس من عاقلٍ يفعل ذلك قطعاً»، وافقه غرانت مبقياً عينيه ثابتتين في عينَي روبرت؛ لئلَّا تنحرفا نحو ماريان شارب، «لكن صدِّقوني، إنَّني في

الاثني عشرَ شهراً الأوائل من عملي في القوّات، صادفتُ بضعة أمورٍ يستحيل تصديقها. ليس ثمّة حدودٌ لغلوِّ السلوك الإنسانيِّ».

«أوافقك، لكن من الواضح أنَّ المغالاة هي أقرب إلى أن تكونَ في سلوك الفتاة. ففي النهاية، بدأت المغالاة لديها؛ فهي مَن بقيت مفقودةً مدَّة ...»، توقَّف متسائلاً.

أسعفه غرانت بالجواب: «شهر».

«مدَّة شهر، في حين أنَّه لم يكن ثمَّة ما يشير إلى أيٍّ تغيير قد طرأ على نظام حياة الأسرة في فرانشايز. ألن يكون ممكناً للآنسة شارب أن تُثبِت مكان وجودها في يوم الحادثة؟».

قالت ماريان: «لا. فقد كان ذلك يوم الثامن والعشرين من مارس، بحسب ما قاله المفتِّش. وهذا زمنٌ بعيدٌ مضى. الفروقات بين أيّامنا شحيحة جدّاً، إن لم تكن معدومةً. سيستحيل علينا حتماً أن نتذكَّر ما كنَّا نفعل يوم الثامن والعشرين من مارس. وفي الأرجح ليس ثمَّة أحدٌ قد يتذكَّر ذلك من أجلنا أيضاً».

اقترح روبرت: «ماذا عن خادمتك؟ للخدم أساليبهم المدهشة غالباً في وسم حياتهم المنزليَّة».

قالت: «لا خادمة لدينا. إنَّنا نواجه صعوبةً في الإبقاء على واحدة؛ فمنزل فرانشايز منعزلٌ للغاية».

كاد الحرج يخيِّم على اللَّحظة، لكنَّ روبرت سارع ليكسره.

«هذه الفتاة، بالمناسبة، أنا لا أعرف اسمها».

«إليزابيث كين. تُعرف باسم بيتي كين».

«أوه، نعم. سبق أن أخبرتني. آسف. هل يمكننا أن نعرف شيئاً عن هذه الفتاة؟ أعتقد أنَّ رجال الشرطة قد استجوبوها قبل أن يُقبَل الكثيرُ من قصَّتها. فمثلاً، لماذا الوصيَّان بدلاً من الوالدَين؟».

«إنَّها يتيمة حرب. لمَّا كانت طفلةً صغيرةً جرى إجلاؤها إلى منطقة آليزبيري، ووُضِعَت في رعاية أسرة وين، فقد كان لديهما طفلٌ يكبرها بأربع سنوات. وبعد اثني عشرَ شهراً، قُتِل والداها في ‹الواقعة› نفسها. ولأنَّ أسرة وين قد رغبتْ دوماً في أن يكون لها ابنة، ولأنَّهما كانا مولعَين بالطفلة، فقد سرَّهما بقاؤها لديهما، وهي تعدُّهما أبوين لها، إذ إنَّها لاتكاد تتذكَّر أبويها الحقيقيَّيْن».

«فهمت. وماذا عن سجلِّها؟».

«ممتاز. فتاةٌ هادئةٌ جدّاً من كلِّ النواحي. جيِّدةٌ في المدرسة، لكنَّها ليست ألمعيَّة. لم تتسبَّب بأيِّ مشكلات، لا داخل المدرسة ولا خارجها، وقد وصفَتْها مديرة المدرسة بأنَّها ‹صادقةٌ إلى حدِّ الشفافية›».

«ولمَّا عادت أخيراً إلى بيتها، هل كان ثمَّة دليلٌ على أنَّها تعرَّضتْ للضرب الذي تحدَّثت عنه؟».

«نعم، بكلِّ تأكيد. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، رآها طبيب أسرة وين. لقد أورد في تقريره أنَّها تعرَّضت لضربٍ مبرح جدّاً. في الحقيقة، بعض تلك الكدمات كان ظاهراً إلى الوقت الذي أدلت فيه بإفادتها لنا».

«أليس لها تاريخٌ مرضيٌّ بداء الصَّرَع؟».

«لا. وقد أوردنا هذا الاحتمال منذ بداية التحقيق. يجدر بي القول إنَّ أفراد أسرة وين عقلانيُّون جدّاً، وهم على الرَّغم من مُصابهم الأليم، لم يلجؤوا إلى تهويل القضيَّة، ولم يسمحوا للفتاة بأن تكون وسيلةً للاستغلال، ولا عُرضةً للشفقة. لقد كانوا موضوعيين في التعامل مع القضيَّة».

قالت ماريان شارب: «وكلُّ ما عليَّ فعله الآن هو أن أختتم القضيَّة بالموضوعيَّة نفسها».

«يجب أن تقدِّري موقفي، آنسة شارب. فالفتاة لم تصف المنزل الذي قالت إنَّها احتُجِزَتْ فيه فحسب؛ بل وصفت ساكنيه أيضاً -وعلى نحوٍ كبيرٍ من الدقَّة. ‹امرأةٌ عجوز، نحيلةٌ بشعرٍ أشيبَ ناعم، ترتدي ثياباً سوداً بلا قبَّعة. وامرأةٌ شابَّة، نحيلةٌ وطويلةٌ وسمراء كالغجريَّات، لا تعتمر قبَّعةً، وتلفُّ وشاحاً حريريّاً زاهياً حول عنقها›».

«نعم. لا يمكنني تقديم تفسيرٍ، لكنَّني أقدِّر موقفك. وأحسب أنَّه حريٌّ بنا أن ندعوَ الفتاة إلى هنا. لكن قبل أن تفعل ذلك عليَّ أن أقول...».

فُتِحَ الباب بهدوء، وظهرت السيِّدة شارب العجوز عند العتبة، وقد تركتْ وسادتُها أثراً في الشعيرات البيض القصيرة التي انتصبت على جانبَيْ وجهها، فبدت كما لو أنَّها عرَّافةٌ حقيقيَّةٌ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

دفعت الباب من خلفها وتفحَّصت الجمع باهتمام خبيث. قالت: «ها!» بصوتٍ أجشَّ، كما لو كان قهقهة دجاجة، «ثلاثة رجالٍ غرباء!».

«دعيني أقدِّمهم لكِ يا أمَّاه»، قالتها ماريان عندما انتصب الثلاثة واقفين على أقدامهم.

«هذا السيِّد بلير من شركة بلير وهايوارد وبينيت للمحاماة -الَّتي تتَّخذ من ذلك البناء الجميل في أوَّل الشارع العامِّ مقرّاً لها». لَّما انحنى روبرت، رمقته العجوز بنظرةٍ من عينيها اللَّتين تشبهان عيون النوارس.

قالت: «يحتاج إلى ترميم».

فعلاً، لكن ليست تلك هي التحيَّة الَّتي كان ينتظرها منها.

وجد في تحيَّتها الفظَّة لغرانت عزاءً له، حين قالت بكلِّ بساطة، وبصوتها الجافِّ: «لا يجدر بك الجلوس على ذاك الكرسيِّ؛ فأنت ثقيلٌ جدّاً عليه»، من دون أيِّ تأثُّرٍ أو رهبةٍ إزاءَ حضور أحدٍ من سكوتلاند يارد إلى غرفة استقبالها في هذا المساء الربيعيِّ.

ولَّما عرَّفتها ابنتُها بالمفتِّش المحليِّ، لم يكن منها إلَّا أن رمقته بنظرةٍ واحدةٍ ثمَّ أشاحتْ بوجهها عنه، وقد بدا جليّاً أنَّها لا تُلقي له بالاً أبداً. وبناءً على تعابير وجه هالام، فقد وجد في ذلك إيذاءً شديداً له، على نحوٍ غريب.

نظر غرانت إلى الآنسة شارب مستفسراً.

«سأفسِّر لها»، قالت، «أمَّاه، يريد المفتِّش أن نلتقي فتاةً صغيرةً تنتظر في سيَّارةٍ خارج البوَّابة. كانت مفقودةً من منزلها قرب آليزبيري منذ شهر. ولَّما عادتْ مجدَّداً -وقد كانت في حالةٍ يُرثى لها- قالت إنَّها كانت محتجزةً لدى أناسٍ أرادوا جعلها خادمةً لهم، فحبسوها عندما رفضت ذلك، وضربوها، وجوَّعوها. وقد وصفت المكان والأشخاص وصفاً دقيقاً. وللمصادفة، فقد انطبقت المواصفات بدقَّةٍ علينا، أنا وأنتِ؛ بل على منزلنا أيضاً. والإفادة تقول إنَّ الفتاة قد احتُجِزَتْ في عليَّة منزلنا ذات النافذة المستديرة».

«مشوِّق للغاية»، قالت السيِّدة العجوز، في حين تجلسُ بتأنٍّ على أريكةٍ ملَكيَّة، «وبماذا ضربناها؟».

«بسوط كلبٍ، حسبما فهمتُ».

«هل لدينا سوطٌ للكلب؟».

«أظنُّ أنَّ لدينا واحداً من تلك الأشياء التي تُستَخدَمُ للقيادة. يمكن استعمالها كسوطٍ عند الحاجة إلى ذلك. المهمُّ، الآن، أنَّ المفتِّش يريدنا أن نلتقي هذه الفتاة؛ لتقول ما إذا كنَّا نحن مَن احتجزها أو لا».

سأل غرانت: «هل لديكِ أيُّ اعتراضٍ، سيِّدة شارب؟».

«على العكس، أيُّها المفتِّش، فأنا أتوق إلى هذا اللِّقاء بفارغ الصبر؛ إذ لن يتسنَّى لِيَ الدخول يوميّاً لأخذ قيلولةٍ وأنا عجوزٌ كئيبةٌ فحسبُ، ومن ثَمَّ أستيقظ منها وأنا وحشٌ كامن. أؤكِّد لك ذلك».

«إذاً، فلتسمحا لي بإحضار...».

أشار هالام بعرض خدماته كساعٍ، لكنَّ غرانت هزَّ رأسه نفياً. من الواضح أنَّه أراد لهالام أن يكون حاضراً عندما ترى الفتاة ما يقع خلف البوَّابة للمرَّة الأولى.

لَّما خرج المفتِّش، فسَّرت ماريان شارب لوالدتها سبب حضور السيِّد بلير، وأضافت: «كان لطفاً بالغاً منه أن يستجيبَ لهذا البلاغ العاجل بسرعةٍ كبيرة». ومن جديد، شعر روبرت بتأثير اللَّون الفاتح الباهت لعين العجوز. ففي رأيه، السيِّدة العجوز قادرةٌ على ضرب سبعة أشخاصٍ مختلفين، ما بين وجبتَي الفطور والغداء، وفي أيِّ يومٍ من أيَّام الأسبوع.

قالت بلهجةٍ تخلو من أيِّ تعاطف: «إنَّني متعاطفةٌ معك سيِّد بلير».

«لماذا يا سيِّدة شارب؟».

«أحسب أنَّ (برومود)[6] بعيدةٌ عن اختصاصك».

«برومود!».

«الجنون الإجراميُّ».

«بل أجده مثيراً على نحوٍ استثنائيٌّ»، قالها روبرت، رافضاً استخفافها به.

ترك هذا لمحةً من التقدير على مُحيَّاها تجلَّتْ في هيئة شبح ابتسامة، واستبدَّ بروبرت شعورٌ غريبٌ بأنَّها استلطفته بغتةً. لكن، حتَّى وإن كان شعوره صحيحاً، فهي لم تصرِّح بذلك فعليّاً. قالت بلهجةٍ لاذعة وجافَّة: «أجل، أتوقَّع أنَّ المشاغل في ميلفورد نادرةٌ وعاديَّة. فابنتي تلاحق كرات (كوتابيرشا)[7] حول ملعب الغولف...»

«لن يتعلَّق الأمر بكُرات (كوتابيرشا) بعد الآن يا أمِّي».

«في زمني، حتَّى الإلهاء لم يكن متوافراً في ميلفورد. لقد انصرفتُ إلى صبِّ المبيد الحشريِّ على الأعشاب -ساديَّةٌ مشروعةٌ، وإغراقٌ للبراغيث في آنٍ واحد. هل تُغرق براغيثك يا سيِّد بلير؟».

«لا، بل أسحقها. إلَّا أنَّ أختي تلاحقها بقطعةٍ من الصابون».

قالت السيِّدة شارب مبديةً اهتماماً حقيقيّاً بالأمر: «صابون؟».

«حسبما فهمت، فهي تضربها بالجهة اللَّزجة منها، فتلتصق بها».

«كم هذا مثير! طريقةٌ لم أسمع بها من قبلُ. يجب أن أجرِّبَها في المرَّة القادمة».

وبأُذنه الأخرى، سمع ملاطفة ماريان للمفتِّش المنبوذ وهي تقول: «أنت تلعب الغولف بمهارةٍ أيُّها المفتِّش».

---

6 مستشفى برومود للأمراض العقليّة. المترجمة.

7 كرات مصنوعة من المطاط، تستعمل في لعبة الغولف. المترجمة.

كان هالام واعياً لذاك الشعور الَّذي يصيبك قبيل انتهاء الحلم بقليل، حين يكون الاستيقاظ قاب قوسين أو أدنى، فتصبح تداعيات الحلم غير ذات أهميَّة؛ لأنَّك توشك أن تعود إلى الحياة الواقعيَّة.

كان ذلك مُضلِّلاً، إذ انبعثت الحياة الواقعيَّة من الباب حين عودة المفتِّش غرانت. دخل غرانت أوّلاً، ليتمكَّن من أن يكون موجوداً في زاويةٍ تسمح له برصد تعبيرات وجوه كلِّ المعنيين. وبيده هو، فتح الباب لكلٍّ من الشرطيَّة والفتاة.

وقفت ماريان شارب بتؤدة، كما لو أنَّها تفضل مواجهة أيِّ شيءٍ آتٍ باتِّجاهها، في حين ظلَّت أمُّها جالسةً على الأريكة. ظهرها الڤيكتوريُّ مشدودٌ كما لو أنَّها فتاةٌ شابَّة، ويداها مستريحتان باطمئنانٍ في حِجْرِها. حتَّى شعرها الأشعث ما كان لينتقصَ شيئاً من قَدْرِها كسيِّدةٍ لهذا المقام.

كانت الفتاة ترتدي معطفها المدرسيَّ، وتنتعل حذاء المدرسة الأسود الطفوليّ الثقيل بكعبه المنخفض، ما جعلها تبدو أصغر من سنِّها الذي توقَّعه لها بلير. لم تكن قامتها طويلةً جدّاً، ولم تكن جميلةً حتماً، لكنَّها كانت تتمتَّع -ما الكلمة المناسبة؟- بالجاذبيَّة. فعيناها داكنتا الزُّرقة، تتباعدان في وجهها الَّذي يُوصَفُ عموماً بأنَّه قلبيُّ الشكل. كان شعرها خرنوبيَّ اللَّون، ويتدلَّى على جبهتها في غُرَّةٍ مستقيمةٍ بدِقَّة. وتحت عظام وجنتيها، ثمَّة غمّازتان خفيفتان. مُعجِزةٌ في جمال التكوين تُضْفي على الوجه سحراً ورِقَّة. شفتُها السُّفلى ممتلئة، لكنَّ الفم صغيرٌ جدّاً، وكذا أذناها صغيرتان كثيراً وملتصقتان برأسها.

في النهاية، فتاةٌ من النوع العاديِّ؛ لا من ذاك النوع الَّذي يَلفِتُك إذا ما كان في حشدٍ من الناس، ولا من ذاك النوع الَّذي يصلح للبطولة أبداً. تساءل روبرت كيف ستبدو هيئتها في الملابس الأخرى.

استقرَّت نظرة الفتاة على العجوز أوَّلاً، ثمَّ انتقلت إلى ماريان. لم تنطوِ النظرة على ذهولٍ ولا على انتصار، ولا على اهتمامٍ شديد.

قالت: «نعم، هاتان هما المرأتان».

«ليس لديكِ أدنى شكٍّ في ذلك؟»، سألها غرانت، ثمَّ أضاف، «هذا اتِّهامٌ خطير للغاية، تعرفين ذلك».

«لا شكَّ لديَّ. أيُعقل أن أشكَّ؟».

«هاتان هما السيِّدتان اللَّتان احتجزتاكِ، وجرَّدتاكِ من ثيابكِ، وأجبرتاكِ على رتق البياضات، وجلدتاكِ؟».

«نعم. هاتان هما السيِّدتان».

«كاذبةٌ لا مثيل لها»، قالتها السيِّدة شارب العجوز بلهجةٍ تجعل المرءَ يُعَقِّبُ قائلاً: (تشابةٌ لا مثيل له).

قالت ماريان: «أنتِ تقولين إنَّنا أخذناكِ إلى المطبخ لشُرب القهوة».

«أجل. أنتِ فعلتِ».

«هل يمكنكِ أن تصفي المطبخ؟».

«لم أنتبه كثيراً. كان كبيراً -أرضيَّته حجريَّةٌ حسبما أظنُّ- وفيه صفٌّ من الأجراس».

«ما نوع الموقد فيه؟».

«لم أنتبه إلى الموقد. لكنَّ الركوة التي استعملتها السيِّدة العجوز لتسخين القهوة كانت زرقاء باهتة، مطليَّة بالمينا، ولها حافَّةٌ كحليَّة، وقد تقشَّرت قاعدتها السفليَّة من قعرها».

قالت ماريان: «أشكُّ في أن يخلوَ مطبخٌ في إنجلترا من ركوةٍ كهذه تماماً».

«لدينا ثلاثٌ منها».

«هل الفتاة عذراء؟»، سألت السيِّدة شارب بنبرة اهتمامٍ لطيفةٍ كما يستفسر شخصٌ قائلاً: «أهذه شانيل[8]؟»

وفيما تلا ذلك من صمتٍ مباغت، كان روبرت قد انتبه إلى وجه هالام الفاضح، وإلى الدِّماء الساخنة المتدفِّقة في وجه الفتاة، وإلى الابنة الَّتي لم تقل «أمَّاه!» معترضةً على والدتها، كما يفترض الحدْسُ أنَّها ستفعل بكلِّ عفويَّة. وتساءل ما إذا كان صمتها يُضمر الموافقة أو أنَّها قد غدتْ منيعةً ضدَّ الصدمات بعد العُمر الذي قضته في صحبة السيِّدة شارب.

قال غرانت مستنكراً ببرود إنَّ هذه مسألةٌ لا شأن لها بهذا الأمر.

«أتظنُّ ذلك؟»، قالت السيِّدة العجوز، «لو أنَّني فُقِدتُ لشهرٍ من الزمان، فإنَّ هذا هو أوَّل ما ستحاول أمِّي معرفته عنِّي. في كلِّ الأحوال، الآنَ، وبعدما تعرَّفتنا الفتاة، ماذا يُفتَرَض بك أن تفعل؟ هل ستعتقلنا؟».

«لا. الأمور بعيدةٌ عن ذلك حتَّى اللَّحظة. أريد أن أصطحب الآنسة كين إلى المطبخ والعليَّة للتحقُّق من وصفها لهما. فإن طابقا المواصفات، أرسلتُ تقريري إلى رئيسي، وهو يقرِّر في اجتماع ما الخطوات التالية الَّتي يجب اتِّخاذها».

«فهمت. يا له من تحذيرٍ بديع!»، نهضتْ برويَّةٍ على قدميها، «حسناً. اسمحوا لي بالعودة إلى قيلولتي التي قاطعتموها».

قال غرانت مندفعاً، وقد فوجئ للحظةٍ بتخلِّيه عن رباطة جأشه: «لكن، ألا تريدين أن تكوني حاضرةً في أثناء معاينة الآنسة كين؛ لتسمعي...».

---

8 علامة تجارية مشهورة للثياب والمستلزمات النسائية. المترجمة.

«لا، يا عزيزي». مسّدتْ ثوبها الأسود، وقد اجتاحها عبوس خفيف. وقالت بحدَّة: «لقد تمكَّنوا من تقسيم الذرَّات التي تتعذَّر رؤيتها، لكنَّ أحداً لم يتمكَّن بَعْدُ من اختراع ثوبٍ لا يتجعَّد»، ثمَّ تابعت، «ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّ الآنسة كين ستتعرَّف العليَّة. في الواقع، سأُصاب بصدمةٍ تفوق الوصف إن هي أخفقت في ذلك».

مضتْ متَّجهةً نحو الباب، ومن ثَمَّ نحو الفتاة. وللمرَّة الأولى التمعتْ عينا الفتاة بالتعبير. اعترتْ وجهها موجةٌ من القلق. تقدَّمت الشرطيَّة خطوةً إلى الأمام في سبيل الحماية، في حين واصلت السيِّدة شارب تقدُّمها المتمهِّل، وتوقَّفت للاستراحة على بعد مترٍ أو نحو ذلك، فأصبحتا واقفتين، إحداهما في مواجهة الأخرى. حلَّ الصمت لخمس ثوانٍ كاملة، وهي تتفحَّص وجه الفتاة باهتمام.

«بالنسبة إلى شخصين متواطئين على الضرب، فإنَّ سوء درايتنا بذلك يُعدُّ شيئاً محبِطاً جدّاً»، قالت أخيراً، «آمل أن أعرفكِ أكثر قبل انتهاء القضيَّة يا آنسة كين». ثمَّ التفتت إلى روبرت، فانحنى، «إلى اللقاء سيِّد بلير، آمل أن يبقى أمرنا مثيراً في نظرك». ومشت متجاهلةً البقيَّة كلَّهم، لتخرج من الباب الَّذي فتحه لها هالام.

خلَّفت مغادرتُها شعوراً جليّاً بالارتباك، وقد حمل لها روبرت إجلالاً مُلتَبساً، فالاستحواذ على اهتمام بطلةٍ ساخطةٍ ليس إنجازاً هيِّناً.

سأل غرانت: «لا مانع لديكِ من السماح للآنسة كين في رؤية أركان المنزل المرتبطة بالقضيَّة، أليس كذلك آنسة شارب؟».

«لا طبعاً. لكن، قبل أن نمضي قُدُماً في الأمر، فإنَّني أودُّ أن أقولَ شيئاً كنتُ أنوي قوله قبل أن تأتوا بالآنسة كين إلى هنا. وإنَّني لسعيدةٌ أنَّ

الآنسة كين حاضرةٌ الآنَ لتسمعَ. إذ إنَّه لم يسبق لي أن عرفتُ هذه الفتاة من قبلُ، ولم أُقلَّها إلى أيِّ مكان، ولا في أيٍّ مناسبة. ولم أُحضِرها إلى هذا المنزل. لا أنا، ولا أمِّي. ولم يسبق لها أن احتُجِزَتْ هنا. وأودُّ أن تفهموا ذلك بوضوح».

«حسناً، آنسة شارب. من الواضح أنَّكِ تنكرينَ القصَّة جُملةً وتفصيلاً».

«إنكاراً تامّاً. من البداية إلى النهاية. والآنَ، هلَّا أتيتم لتروا المطبخ؟».

-3-

رافق غرانت والفتاة كلٌّ من ماريان شارب وروبرت من أجل معاينة المنزل، في حين انتظر هالام والشرطيَّة في غرفة الجلوس. لمَّا وصلوا إلى الطابق الأوَّل، وبعد أن عاينت الفتاة المطبخ، قال روبرت:

«قالت الآنسة كين إنَّ الدَّرج في الطابق الثاني كان مغطًّى بشيءٍ خشنٍ؛ لكنَّ السجَّادة الممدودة من الطابق الأوَّل تصل إلى الأعلى».

قالت ماريان: «ما (يظهر) من القطعة يصل إلى المنعطف فقط. وعند الزاوية ثمَّة حصير. طريقة الفيكتوريين في التوفير. ففي هذه الأيَّام، إن كنت فقيراً يمكنك شراء سجَّادةٍ رخيصةٍ واستعمالها لتغطية الدَّرَج كلِّه، لكن في تلك الأيَّام، كانت نظرة الجيران هي المهمَّة، فتُستَعمل الأشياءُ الدَّالَّة على الترف إلى حدود ما تصل إليه الأنظار فحسب».

كانت الفتاة على حقٍّ فيما يتعلَّق بالطابق الثالث أيضاً. كانت الدَّرجات القصيرة المُفضية إلى العلِّيَّة عاريةً من السجَّاد.

تلك العلِّيَّة المهمَّة كانت شبه غرفة، مجرَّد صندوق. مربَّع صغير. سقفها منخفضٌ ويميل فجأةً إلى الأسفل من ثلاث جهاتٍ ليتلاءم مع مَيَلان السقف الإردوازيّ في الخارج. ومصدر إنارتها الوحيد يأتي من النافذة المستديرة المطلَّة على الواجهة الأماميَّة. تمتدُّ الألواح المائلة من الجهة السُّفلى للنافذة، وتصل إلى

الدرابزين الأبيض الواطئ. وقد قُسِّمَت النافذة إلى أربعة أجزاء، يظهر في أحدها صدْعٌ نجميُّ الشكل. ذلك أنَّ النافذة ليست مصمَّمةً لتُفتَح أصلاً.

خَلَتِ العلّيَّة من الأثاث تماماً. فكَّر روبرت في أنَّ هذا الفراغ غير معقول بالنسبة إلى غرفةٍ مخصَّصةٍ للتخزين، ويسهل الوصول إليها.

«لمَّا أتينا إلى هنا، أوَّل مرَّة، كانت ثمَّة أغراضٌ هنا»، قالت ماريان كما لو أنَّها تُجيبه، «لكنَّنا تخلَّصنا منها ما إن علمنا بأنَّنا لن نجدَ مَن يساعدنا معظم الوقت».

التفتَ غرانت إلى الفتاة مشحوناً بالأسئلة.

أشارت إلى الزاوية البعيدة عن النافذة، وقالت: «كان السرير في تلك الزاوية. وإلى جانبه كومودينو خشبيٌّ. وخلف الباب في هذه الزاوية، كانت هناك ثلاثُ حقائب سفرٍ فارغة، وصندوقٌ ذو غطاءٍ مسطَّح. كان هناك كرسيٌّ؛ لكنَّها أخذته من هنا بعد أن حاولتُ كسر النافذة به». أشارت إلى ماريان بلا تأثُّرٍ كما لو أنَّها لم تكن حاضرة: «وهنا، حيث حاولتُ كسر النافذة».

بدا لروبرت أنَّ الصدع أقدم من أن يكون قد حدث منذ بضعة أسابيع، لكنَّ أحداً لا يختلف على وجوده في ذلك الموضع.

عبَرَ غرانت إلى الزاوية البعيدة وانحنى ليفحصَ الأرضيَّة العارية. لم يحتَجِ الأمرُ فحصاً عن قرب، فمن مكان وقوفه قرب الباب، كان في وسع روبرت أن يرى آثار قوائم السرير على الأرض في المكان الذي كان فيه.

«كان ثمَّة سريرٌ هناك»، قالت ماريان، «وهو أحد الأشياء التي تخلَّصنا منها».

«ماذا فعلتم به؟».

«دعني أفكِّر. أوه. لقد أعطيناه لزوجة راعي الأبقار في مزرعة (ستابلز). فابنها البكر بات أكبر من أن يتشارك الغرفة مع غيره، فنقلَتْه إلى الطابق العلويِّ لديهم. إذ نحن نحصل على منتجات الألبان من مزرعة (ستابلز). لا يمكنك رؤيتها من هنا، لكنَّها فوق الهضبة، على بعد أربعة حقولٍ فقط».

«أين تحتفظين بصناديقك الإضافيَّة آنسة شارب؟ هل لديكم غرفة تخزينٍ أخرى؟».

تردَّدت ماريان للمرَّة الأولى: «لدينا صندوقٌ مربَّعٌ كبيرٌ ذو غطاءٍ مسطَّح فعلاً؛ لكنَّ أمِّي تستعمله لتخزين الأشياء. لمَّا ورثنا منزل فرانشايز، كان في غرفة أمِّي خزانة ملابس نفيسة؛ بعناها واستعضنا بالصندوق عنها، وقد غطَّيناه بقماشٍ منقوش. وحقائبي في الخزانة الموجودة في الطابق الأوَّل».

«آنسة كين. هل تذكرين كيف كان شكل الحقائب؟».

«نعم. كانت إحداهما من الجلد البنِّيِّ، من تلك المزوَّدة بأغطية عند الزوايا. والأخرى يغلِّفها القماش، ولها شرائط وفق الطراز الأميركيِّ».

حسناً. كان ذلك دقيقاً بما فيه الكفاية.

تفحَّص غرانت الغرفة لمدة طويلة. تأمَّل الإطلالة من النافذة. ثمَّ استدار ليغادر.

«هل يمكننا رؤية حقائب السفر التي في الخزانة؟».

«بالتأكيد»، قالت ماريان؛ غير أنَّها لم تبدُ سعيدة بذلك.

في الطابق السفليِّ، فتحتْ باب الخزانة وتنحَّت جانباً، مُفسحةً المجال للمفتِّش كي ينظرَ. ولمَّا ابتعد روبرت عن طريقهما، رصد ابتسامة النصر السَّافرة على وجه الفتاة، فتغيَّرت قسمات وجهها الهادئ، بل الطفوليِّ، إلى

درجةٍ صدمَته بها. كانت مشاعر وحشيَّة وبدائيَّة وقاسية، وإنَّه لأمرٌ مروِّعٌ للغاية أن تتجلَّى تلك المشاعر على وجه تلميذةٍ رزينةٍ، لطالما كانت سبب فخر أولياء أمورها ومعلِّميها.

في الخزانة رفوفٌ وُضِعَت عليها بياضاتٌ منزليَّة، وفي أرضيَّتها أربع حقائب سفر، اثنتان كانتا من نوع الحقائب القابلة للطيِّ. الأولى مصنوعةٌ من الليف المضغوط[9]، والأخرى من الجلد الخام، والاثنتان الأخريان: حقيبة من جلد البقر البنّيِّ ذات أغطيةٍ عند الزوايا، وحقيبة للقبّعات، مربّعة يغلّفها القماش، وقد زُوِّدَتْ من المنتصف في جانبها السفليِّ بشريطٍ عريضٍ مخطَّطٍ بألوانٍ عدَّة.

سأل غرانت: «هل هذه هي الحقائب؟».

«أجل»، أجابت الفتاة، «هاتان الاثنتان».

«لن أزعج أمّي مرَّةً أخرى هذا المساء»، قالت ماريان وقد اعتراها غضبٌ مفاجئ، «أعترف أنَّ الصندوق الذي في غرفتها كبيرٌ ومسطَّح، وهو هناك منذ ثلاث سنواتٍ مضت ولم يتغيَّر مكانه قطُّ».

«جيّد جدّاً آنسة شارب. والآن، المرآب لو تكرَّمتِ».

هناك في الجهة الخلفيَّة للمنزل، حيث استحالت الإسطبلات منذ زمنٍ بعيدٍ إلى مرآب، وقفت المجموعة الصغيرة لتتفحَّص السيَّارة الرماديَّة القديمة المتضرِّرة. قرأ غرانت وصف الفتاة الضعيف تقنياً كما ورد في إفادتها، وفكَّر بلير في أنَّ الوصف مطابقٌ لها، لكنَّه قد يطابق ما لا يقلُّ عن ألف سيَّارةٍ في طرقات بريطانيا اليوم. لم يكن دليلاً على الإطلاق. اختتم غرانت: «كانت إحدى العجلات مطليَّةً بلونٍ مختلفٍ

9 ألياف القنّب، أو ما يُعرَف بالخيش. المترجمة.

عـن نظيراتهـا، ولم تَبْـدُ مثلهـا. وقد كانـت تلك العجلـة في الأمـام من الجهة التـي كنـت أقـف فيهـا عـلى الرصيف».

نظر أربعتُهم بصمتٍ إلى اللَّون الرماديِّ الدَّاكن للعجلة الأماميَّة قربهم. لم يكن ثمَّة ما يمكن قوله.

قال غرانت بإسهاب، وهو يغلق دفتر ملاحظاته وينحِّيه جانباً: «شكراً جزيلاً آنسة شارب، لقد كنتِ لطيفةً ومتعاونةً للغاية، وأنا مُمتنٌّ لك. سأفترض أن أجدكِ في أيِّ وقتٍ قد أهاتفكِ فيه، في غضون الأيَّام القليلة المقبلة، إذا ما أردتُ الحديث معك مجدَّداً؟».

«نعم. أيُّها المفتِّش. فلا نيَّة لنا في الذَّهاب إلى أيِّ مكان».

لم يُبدِ غرانت ما يدلُّ على أنَّ بديهتها الحاضرة قد لفتته، هذا إن كانت قد لفتته فعلاً.

سـلَّم الفتـاة إلى الشرطيَّـة، وغادرتـا مـن دون أن تلتفتـا إلى الخلـف. ثـمَّ اسـتأذن للانـصراف هو وهالام، الَّذي لم يغادره الشـعور بالأسـف إزاء ذاك الانتهاك.

خرجت ماريان إلى الردهة برفقتهما، تاركةً بلير في غرفة الجلوس. ولمَّا عادت، كانت تحمل صينيَّةً عليها شراب (شيري) وأقداح.

«لن أطلب إليك البقاء على العشاء»، قالت وهي تُنزِل الصينيَّة، وقد شرعت تسكب النبيذ، «من ناحية، لأنَّ (عشاءنا) عادةً ما يكون عشاءً متقشِّفاً، بخلاف ما اعتدتَه أنتَ تماماً. (هل تعلم أنَّ طهوَ عمَّتك ذائع الصيت في ميلفورد؟ حتَّى أنا سمعت به). ومن ناحيةٍ أخرى، حسناً، كما قالت لك أمِّي، وكما آمل، لأنَّ برودمور تقع خارج نطاق اختصاصك».

«بالحديث عن ذلك»، قال روبرت، «تدركين أنَّ للفتاة أفضليَّة عليكِ على نحو كبير، أليس كذلك؟ أعني فيما يتعلَّق بالأدلَّة. فقد كانت تصِفُ أيَّ غرضٍ شاءت، براحتها، كما لو كانت فرداً من أفراد الأسرة. إن كان الغرض هناك فهو دليلٌ دامغٌ لصالحها، وإن لم يكن هناك فهوَ ليس دليلاً لصالحك. وببساطة، سيفسِّرون أنَّكِ تخلَّصتِ منه. فعلى سبيل المثال؛ لو لم تكن الحقائب هناك، لقالت إنَّكِ تخلَّصتِ منها خوفاً من قدرتها على وصفها بعد أن رأتها في العلّيَّة».

«لكنَّها وصفتها حتَّى من دون أن تراها من قبلُ».

«تقصدين أنَّها وصفت حقيبتين. لو كانت حقائبك الأربع متماثلةً، فلربَّما لم تحصل سوى على احتمالٍ واحدٍ من خمسة كي تكون على حقٍّ. لكنَّ الاحتمالات غدت متساوية؛ لأنَّك تملكين من كلِّ نمطٍ رائجٍ حقيبةً واحدة».

تناول كأس شراب (شيري) الذي وضعتْه إلى جانبه، وأخذ منه رشفة. أدهشه طعمه الرائع.

ابتسمت له قليلاً، وقالت: «نحن نوفِّر، لكن ليس في النبيذ». تورَّد وجهه قليلاً وتساءل ما إذا كانت دهشته فاضحةً إلى هذا الحدِّ.

«لكن، كيف عرفت بأمر عجلة السيَّارة المختلفة؟ الأمر برمَّته غريب. كيف عرفتني أنا وأمِّي. كيف عرفت شكل المنزل؟ لم يسبق لبوَّاباتنا أن فُتِحتْ، حتَّى وإن فتَحَتها -مع أنَّني لا أستطيع أن أتصوَّر ما الذي كانت تفعله في ذاك الطريق المنعزل- حتَّى وإن فتحَتْها، كيف لها أن تعرفني أنا وأمِّي؟».

«أليس ثمَّة احتمالٌ في أن تكون صديقةً للخادمة؟ أو للبستانيِّ؟».

«لم يسبق أن كان لنا بستانيٌّ، فليس هناك سوى العشب. ومنذ سنةٍ خلت لم نأتِ بخادمة. إن هي إلَّا فتاةٌ تأتي من المزرعة مرَّةً أسبوعيّاً للقيام بأعمال التنظيف الشّاقَّة».

قال روبرت بتعاطفٍ إنَّ المنزل كبيرٌ لتعتني به بنفسها ومن دون مساعدة أحد.

«صحيح، لكن ثمَّة أمران يساعدانني؛ إنَّني لستُ امرأةً مهووسةً بالتنظيف، وإنَّ حصولنا على منزلٍ نملكه هو أمرٌ غايةٌ في الروعة، إلى درجة أنَّني على استعدادٍ لتحمُّل تبعات ذلك. السيّد كراولي العجوز هو ابن عمِّ والدي، لكنَّنا لم نعرفه مطلقاً، فقد عشنا أنا وأمِّي في بيتٍ داخليٍّ في...»، ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ على زاوية فمها، «يمكنك أن تتخيَّل مدى تآلف أمِّي مع السكَّان»، تلاشت الابتسامة، «توفِّي والدي عندما كنت صغيرةً جدّاً. كان من أولئك المتفائلين الذين يحسبون أنَّ الثروة ستطرق بابهم غداً. ولمَّا اكتشف أنَّ تطلُّعاته لم تترك له حتَّى رغيف خبزٍ ليوم غد، انتحر تاركاً أمِّي لتواجه الظروف».

شعر روبرت أنَّ هذا يفسِّر سلوك السيِّدة شارب إلى حدٍّ ما.

«لم أتعلَّم أيَّ حرفة، فقضيت حياتي في أداء أعمالٍ غريبة. ليست أعمالاً منزليَّة؛ فأنا أمقتُ الأعمال المنزليَّة، وإنَّما كنت أساعد في الأعمال النسويَّة المنتشرة في (كينسينغتون)، كمظلَّات المصابيح أو تنظيم الرحلات وتوضيب الزهور أو التُّحف الفنيَّة. لمَّا توفِّي السيِّد كراول، كنت أعمل في مقهىً للشَّاي، في واحدٍ من تلك المحالِّ حيث تصاحبُ الثرثرةُ قهوةَ الصباح. أجل، الأمر صعبٌ قليلاً».

«أيُّ أمر؟».

كان روبرت مرتبكاً، فهو لم يَعْتَدْ أن تُقرَأ أفكاره -لم تتمكَّن العمَّة لين من الإمساك بزمام فِكَرِ أحدٍ حتَّى وإن شرح لها فيمَ كان يفكِّر.

«كنَّا قد بدأنا نشعر بالاستقرار والسكينة والأمان، ثمَّ حدث هذا الأمر».

للمرَّة الأولى، منذ أن طلبت مساعدته، شعر روبرت باندفاعه إلى مناصرتها، فقال: «وكلُّ هذا بسبب زلَّة فتاةٍ تبحث عن حجَّةٍ لغيابها. علينا أن نعرف المزيد عن بيتي كين».

«يمكنني أن أخبرك شيئاً عنها. إنَّها مهووسةٌ بالجنس».

«هل هذا مجرَّد حدْسٍ أنثويٍّ؟».

«لا، فلستُ أميل إلى الأنثويَّة، ولا أملك أيَّ حدْسٍ. لكنَّني لم أعرف أحداً -لا من الرجال ولا من النساء- له لون العيون ذاك، ولم يكن كذلك. ذاك الأزرق الدَّاكن والمعتم، مثل اللَّون الكحليِّ الباهت، سهامه لا تخطئ». ابتسم لها روبرت يجاريها. ففي النهاية كانت أنثويَّةً للغاية.

«وإيَّاك أن تتعالى، فهذا الأمر لا يخضع لمنطق المحامين»، وأردفت، «قلِّبِ النظر في رفاقك من حولك، وسترى أنَّ ذلكِ صحيح».

وقبل أن يتمكَّن من السيطرة على نفسه، خطر في باله جيرالد بلاند، صاحب فضيحة ميلفورد، بالتأكيد، فقد كانت عيناه زرقاوين داكنتين. كذلك كانت عينا آرثر واليس، الذي يعمل في غسل الصحون في (وايت هارت) ويدفع ثلاث غراماتٍ ماليَّة مختلفة أسبوعياً. ما كان عليها... تبّاً للمرأة، ما كان عليها أن ترتجل تعمياً تافهاً كهذا، ولا أن تُثبتَ صحَّته!

قالت ماريان: «مغرٍ هو التكهُّن بما يمكن أن تكون قد فعلَتْه في غضون ذاك الشهر. لقد شعرت برضا عارمٍ لأنَّ أحدَهم قد ضربها ضرباً مبرحاً. على الأقلِّ، ثمَّة شخصٌ في هذا العالم قدْ وصل إلى تقديرها حقَّ قدرها. كم أتمنَّى أن ألتقيه يوماً ما لأتمكَّن من مصافحته يداً بيد!».

«أحدهم؟».

«بتلك العينين، لا بدَّ أن يكون هناك أحد ما».

قال روبرت وهو يستعدُّ للرَّحيل: «حسناً، أشكُّ في أنَّ لدى غرانت رغبة في الوصول بالقضيَّة إلى المحكمة وتمثيلها فيها. ستكون شهادة الفتاة مقابل شهادتك بلا دعم أحدٍ من كلا الجانبين. فشهادتها ضدّك وافيةٌ جدّاً، ومفصَّلةٌ للغاية. ولا شيء ضدّها إلَّا رفضٌ ضمنيٌّ لقصَّتها. لا أظنُّه سيحلم بأخذ حكمٍ فيها».

«لكنَّه غدا أمراً واقعاً، سواءٌ أوَصَلَ إلى قاعات المحكمة أم لم يصل. لن يبقى الأمر حبيسَ ملفَّات سكوتلاند يارد. فأمرٌ كهذا سيصبح موضعاً للتندُّر، عاجلاً أم آجلاً. لن نرتاح ما لم تتَّضح الأمور».

«ستتَّضح الأمور. لو أنَّ بيدي ما يمكن أن أفعله. لكن دعينا ننتظر ليومٍ أو ليومين ريثما نعرف ما تنوي الشرطة فعله. فمن أجل الوصول إلى الحقيقة، لديهم سبلٌ أفضل بكثيرٍ ممَّا قد يكون لدينا».

«كم هو مؤثِّرٌ أن يُثْنِيَ محامٍ على نزاهة رجال الشرطة».

«صدِّقيني. قد تكون الحقيقة فضيلة، لكنَّهم، ومنذ زمنٍ بعيد، اكتشفوا في سكوتلاند يارد أنَّها جوهر عملهم، ولن يُرضيهم شيءٌ آخرُ دونها».

«وإن وصل بها إلى المحكمة»، قالت في طريقها إلى الباب معه، «وأُصْدِر فيها حكمٌ، فماذا يعني ذلك لنا؟».

«لستُ متيقِّناً. إمَّا أن يكون حكماً بالسجن لعامين، وإمَّا بالسجن لسبعة أعوام مع الأشغال الشاقَّة: لقد أخبرتك ألَّا تعوِّلي عليَّ عندما يتعلَّق الأمر بالإجراءات الجنائيَّة. لكن، سيتحتَّم عليَّ أن أبحثَ لك في الأمر».

قالت: «أجل. ابحث. فثمَّة فارقٌ كبيرٌ بينهما».

جزم أنَّه أحبَّ طريقتها في السخرية؛ ولا سيَّما حين مواجهة تهمةٍ جنائيَّة.

«إلى اللقاء»، قالت له، «كان لطفاً منك أن تأتي. لقد وجدتُ فيك سلواناً كبيراً لي».

وبينما هو يمضي نحوَ البوَّابة، تذكَّر روبرت كيف كاد يلقي بها إلى كارلي، فاحمرَّ وجهه خجلاً من نفسه.

-4-

«هل كان يومك حافلاً يا عزيزي؟»، سألت العمَّة لين وهي تفتح منديل المائدة وترتِّبه على حضنها الممتلئ.

هو سؤالٌ مفهوم، غير أنَّه بلا معنى. لم تستمع إلى إجابته، إذ لم تكن تنتظر الإجابة، وإنَّما طرحت سؤالها غير عابئة به؛ مجرَّد استهلالٍ لبدء العشاء، مثل منديل مائدتها تماماً، مثل تَحسُّس رِجلها اليُمنى لمسند القدم الَّذي تتوازن عليه ساقاها القصيرتان.

من فوق الطاولة، نظر إليها روبرت وقد اعتراه الامتنان أكثر من العادة. بعد زيارته المتردِّدة إلى منزل فرانشايز، وجد عزاءً كبيراً له في حضور العمَّة لين المريح. تملَّكَهُ إحساسٌ جديدٌ وهو ينظر إلى الجسد الضئيل المتصلِّب، برقبتها القصيرة، ووجهها الورديِّ المستدير، وشعرها الفضيِّ الذي جعَّدتْه الدَّبابيس الكبيرة. عاشت ليندا بينيت حياةً زاخرةً بوصفات الطهو، ونجوم السينما، وأبناء المعموديَّة، وبازارات الكنائس. وقد وجدتْ حياتَها مثاليَّةً هكذا؛ تلفُّها السعادة والقناعة كما العباءة. قرأت صفحة المرأة في الصحيفة اليوميَّة (كيف تصنعين 'بوتونيير'[10] من قفَّازات طفلٍ قديمة) ولا شيء آخر حسب علم روبرت. ومن حينٍ إلى آخر، قد تستوقفها العناوين العريضة للصحيفة الَّتي يتركها روبرت مرميَّةً هناك، فتقرؤها وتعلِّق عليها حينما تكون بصدد طيِّها.

---

10 زهرة العروة في البدلات الرجالية. المترجمة.

(«رجلٌ يُنهي صيام اثنين وثمانين يوماً»- مخلوقٌ تافه! «اكتشاف النفط في جزر الباهاما»- ألم أخبركَ أنَّ سعر البارافين قد ارتفع بمقدار بنس، يا عزيزي؟) لكنَّها تمنحك انطباعاً بأنَّها لا تؤمن بوجود العالم الذي تتحدَّث الصحف عنه. فبرأي العمَّة لين، يبدأ العالم عند روبرت بلير، وينتهي على بُعد عشرة أميالٍ من دائرة وجوده.

سألَته بعد أن أنهت حساءها: «ما الذي أخَّرك يا عزيزي؟».

بحسب خبرته المديدة، أدرك روبرت أنَّ سؤالها هذا مختلفٌ عن نمط «هل كان يومك حافلاً، يا عزيزي؟» .

«اضطررتُ للذَّهاب إلى منزل فرانشايز، ذاك المنزل الواقع على طريق لاربورو. كانوا في حاجةٍ إلى استشارةٍ قانونيَّة».

«أولئك الأشخاص غريبو الأطوار؟ لم أدرِ أنَّك على معرفةٍ بهم».

«لستُ على معرفةٍ بهم. لقد طلبوا نصيحتي فحسب».

«آمل أن يدفعوا لك لقاء ذلك، فكما تعرف، لا مال لديهم على الإطلاق؛ فقد كان الأب يعمل في استيراد المكسَّرات-كالفول السودانيِّ أو ما شابه- وقد أدمن الكحولَ إلى أن حصدَه الموتُ تاركاً أولئك المساكين بلا أيِّ فلس. كانت السيِّدة شارب العجوز تدير بيتاً داخليّاً من أجل تغطية المصاريف، في حين عملَت الابنة في كلِّ الأعمال. كانتا مهدَّدتين برميهما في الشارع مع أثاثهما، حين مات مالك منزل فرانشايز العجوز. يا للعناية الإلهيَّة!».

«من أين عرفتِ هذه القصص يا عمَّة لين؟».

«لكنَّها حقيقيَّةٌ يا عزيزي. حقيقيَّةٌ بكلِّ معنى الكلمة. لا أذكر مَن الذي أخبرني -شخصٌ ما سبق له أن أقام في الشارع نفسه في لندن- لكن، في كلِّ الأحوال، وصلتني القصَّة من مصدرٍ مباشر. كما تعرف، لستُ من اللاتي

يضيِّعنَ أوقاتهنَّ في النَّميمة. هل البيت جميل؟ لطالما تساءلتُ عمَّا يوجد خلف تلك البوَّابة الحديديَّة».

«لا. بل قبيح. لكن لديها بعض قطع الأثاث الجميلة».

«ليست بجمال ما لدينا، أؤكِّد لك». نظرت من غير تفكيرٍ إلى خزانة (البوفيه) المثاليَّة، وإلى الكرسيَّين البديعين قبالة الجدار، وقالت: «أمس، قال القسُّ لو لم يكن هذا البيت للسَّكن، لكان بالتأكيد صالة عرض». كما لو أنَّ ذِكر الرجل قد ذكَّرها بشيء: «بالمناسبة، هلَّا كنت صبوراً أكثر مع كريستينا في الأيَّام القليلة القادمة؟ أظنُّ أنَّها ستنال الخلاص مجدَّداً».

«مسكينةٌ يا عمَّة لين. يا له من إزعاج لكِ! لكنَّني كنت أخشى ذلك. فقد كانت هناك (آية) في صحن فنجان الشاي الصباحيِّ الَّذي يخصُّني ضمن لفافة ورديَّة. (الله يراني) وتتجلَّى خلفها زخرفة جميلة لزنابق عيد الفصح. هل ستغيِّر كنيستها مرَّةً أخرى؟».

«أجل. لقد اكتشفتُ أنَّ طائفة (المنهاجيَّة[11]) فيما يبدو مجرَّد (قبور مبيضة[12]) وأنهَّا ستنضمُّ إلى أتباع (بيت أيل[13]) فوق مخبز (بنسون)، وهي بمقتضى ذلك ستنال الخلاص في أيِّ يومٍ، بدءاً من الآن. لقد كانت تصدح بالترانيم طوال الصباح».

«لكنَّها تفعل ذلك على الدوام».

---

11 الميثودية: طائفة مسيحية بروتستانتية، ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة. المترجمة.

12 في إشارةٍ إلى آيةٍ من إنجيل متّى، الإصحاح 23:27. «ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من الخارج جميلة وهي من الداخل مملوءة بعظام أموات وكل نجاسة». المترجمة.

13 كنيسة بيثيل. المترجمة.

«ليس مع جماعة (سيف الربّ). كنت أعرف أنَّ الأمور ستبقى على ما يرام مادامت منضمَّةً إلى جماعة (التيجان اللؤلؤيَّة) أو (شوارع الذهب). لكنَّها ما إن التحقت بجماعة (سيف الربّ)، عرفت أنَّ دوري في الخَبْز قد حان الآن».

«حسناً ياحبيبتي، أنتِ تخبزينَ تماماً مثل كريستينا».

«لا، ليس كذلك»، قالتها كريستينا عندما كانت آتيةً بطبق اللَّحم. كيانٌ ضخمٌ ولَدِنٌ، بشعرٍ أملسَ غير مرتَّب، وعينين ضبابيَّتين. «إن هو إلَّا صنفٌ واحدٌ ذاك الَّذي تُحسن عمَّتك لين صنعه أكثر منِّي، وهو خبز البريوش السَّاخن، سيِّد روبرت، ولمرَّةٍ واحدةٍ سنويّاً فقط. لذلك، لا داعي للجدال. وإنَّني إن لم أحْظَ بالتقدير في هذا المنزل، فسوف أذهبُ إلى المكان الذي يقدِّرونني فيه».

قال روبرت: «حبيبتي كريستينا. تعرفينَ تماماً أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يتخيَّل هذا المكان من دونك، وأنَّك إذا ما رحلتِ فسوف ألحقُ بك إلى آخر الدُّنيا، من أجل فطائر الزُّبدة إن لم يكن من أجل شيءٍ آخرَ. بالمناسبة، هل يمكن أن نأكلَ فطائر الزُّبدة غداً؟».

«فطائر الزُّبدة طعامٌ لا يستحقُّه المذنبون العُصاة. كما أنَّني لا أحسب أنَّ لدينا زُبداً. لكن سنرى. وإلى ذلك الحين، حاسب نفسك سيِّد روبرت، وكفَّ عن رمي الحجارة[14]». لمَّا أغلقت الباب من خلفها، تنهَّدت العمَّة لين برقَّة، «عشرون عاماً»، قالت، غارقةً في التأمُّل: «لن تتذكَّر مجيئها الأوَّل من دار الأيتام. بعمر الخامسة عشرة، نحيلة جدّاً. الشقيَّة المسكينة. أكلت رغيفاً كاملاً مع كوب الشاي، وقالت إنَّها ستصلِّي لأجلي مدى حياتها. أظنُّها تصلِّي».

شيءٌ ما يشبه الدمعة التمعَ في العين الزرقاء لدى الآنسة بينيت.

---

14 كناية عن المثل المتداول (من كان بيته من زجاج، لا يقذف الناس بالحجارة). المترجمة.

قال روبرت منغمساً في الملذَّات الدنيويَّة: «آمل أن تؤجِّل الخلاص إلى أن تُنهيَ فطائر الزُّبدة تلك. هل أعجبك الفيلم؟».

«حسناً يا عزيزي. لم أستطع نسيان أنَّ لديه خمسَ زوجات».

«مَن لديه خمس زوجات؟».

«كان لديه. في كلِّ مرَّةٍ زوجة. إنَّه جين دارو. لا بدَّ أن أقولَ إنَّ تلك البرامج البسيطة الَّتي يقدِّمونها مفيدةٌ جدّاً، لكنَّها تخيِّب الآمال قليلاً. كان طالباً كما ترى. أعني في الفيلم. عاطفيٌّ وفي ريعان شبابه. لكنَّني لم أنفكَّ عن تذكُّر أولئك الزوجات الخمسة. وهذا الأمر قد كدَّر أمسيتي. جماله فاتنٌ أيضاً. يقولون إنَّه بيديه قد دلَّى زوجته الثالثة من نافذة الطابق الخامس، لكنَّني لا أصدِّق ذلك حقّاً. لم يبدُ عليه أنَّه قويٌّ كفاية لسبب واحد، يبدو كما لو كان يعاني من مشكلات في الصدر في صغره. هيئته الهزيلة والمعصم الرفيع. ليس قويّاً بما يكفي ليُدلِّي أيَّ أحدٍ. ليس من الطابق الخامس حتماً...».

استمرَّ المونولوج الهادئ طوال وقت التحلية، ثمَّ تراجع روبرت بإصغائه وفكَّر في منزل فرانشايز. طفا على السطح ما إن نهضوا عن الطاولة وانتقلوا إلى شرب القهوة في غرفة الجلوس. كانت تقول: «إنَّه الثوب الأنسبُ، لو أنَّ الخادمات يدركنَ ذلك».

«ما هو؟».

«مئزر. فكما تعرف، لقد كانت خادمةً في القصر، وترتدي واحدةً من تلك القطع البسيطة من القُماش الرقيق. ملائم جدّاً. بالمناسبة، هل يوجد لدى هؤلاء الناس في منزل فرانشايز خادمة؟ لا؟ حسناً، لستُ مستغربةً الأمر، فقد جوَّعتا الخادمة الأخيرة كما تعرف، تعطيانها...».

«أوه. عمَّة لين».

«أؤكِّد لك. كانتا تمنحانها الحوافّ الَّتي تقطعانها من خبز التوست. وحينما تتوافر حلوى المهلَّبيَّة...».

لم يسمع روبرت ما المصيبة التي تمخَّضت عن حلوى المهلَّبيَّة. ومع أنَّ عشاءه كان لذيذاً، غير أنَّه شعر بالتعب والإحباط فجأةً. إن لم تجد العمَّة لين الطيِّبة والسَّاذجة حرجاً من ترديد هذه القصص التافهة، فما طبيعة الثرثرات التي ستحصدها ميلفورد عند وجود مادَّةٍ دسمةٍ لفضيحةٍ حقيقيَّة؟

«وبالحديث عن الخادمات -نفد السُّكَّر البنّيُّ يا عزيزي؛ لذا ستحصل الليلة على قطعةٍ واحدة- بالحديث عن الخادمات، لقد أوقعت خادمة آل كارلي نفسها في مأزق».

«تقصدين أنَّ شخصاً ما قد أوقعها في مأزق».

«أجل. آرثر واليس. العامل في غسل الصحون في (وايت هارت)».

«ماذا؟ واليس مرَّة أخرى!».

«أجل. لقد فاق الأمر حدَّ المجون حقّاً، أليس كذلك؟ لا أجد سبباً لعدم زواج هذا الرَّجُل. سيكون ذلك أوفر بكثير».

لكنَّ روبرت لم يكن مُنصتاً؛ بل عاد إلى غرفة الاستقبال في منزل فرانشايز، حين غدا موضع استهزاءٍ لطيفٍ بسبب تعصُّبه القانونيِّ بشأن التعميم. عاد إلى الغرفة البائسة ذات الأثاث غير المصقول، حيث الأمتعة ملقاةٌ على الكراسي من دون أن يتكبَّد أحدٌ عناء ترتيبها، وقد تذكَّر في لحظته أنَّ أحداً هناك لم يلحق به ليناوله منفضة سجائر.

-5-

بعد مضيِّ ما يزيد على الأسبوع، أطلَّ السيِّد هيسلتاين، برأسه الضامر الصغير والأشيب، من باب غرفة روبرت ليقولَ إنَّ المفتِّش هالام قد وفد إلى المكتب ويودُّ رؤيته للحظة.

لطالما أُشيرَ إلى الغرفة المواجهة للردهة باسم ‹المكتب›، حيث يتولَّى السيِّد هيسلتاين الإشراف على موظَّفي النسخ فيها. على الرَّغم من أنَّ غرفة روبرت، والغرفة الصغيرة الواقعة خلفها التي يستعملها نيفيل بينيت، كانتا مكتبين على نحوٍ جليٍّ أيضاً، على الرَّغم ممَّا فيهما من سجَّاد وقطعٍ من أثاث الماهوجني. ثمَّةَ غرفة انتظارٍ رسميَّة خلف ‹المكتب›؛ غرفةٌ صغيرةٌ كغرفة بينيت الشابِّ، لكنَّها غرفة لم تجد لها صدى بين عملاء شركة بلير وهايوارد وبينيت. يدخل الزوَّار المكتبَ ويعرِّفون أنفسَهم، وعادةً ما يمكثون هناك ويثرثرون إلى أن يتفرَّغ روبرت للقائهم. أمَّا عن ‹غرفة الانتظار› الصغيرة، فمنذ زمنٍ بعيد، كانت الآنسة تاف قد خصَّصتها لكتابة رسائل روبرت بعيداً عن إلهاء الزوَّار لها، وبعيداً عن شخير صبيِّ المكتب.

لَمَّا ذهب السيِّد هيسلتاين لإحضار المفتِّش، انتبه روبرت إلى الخوف الذي اعتراه، وقد تملَّكه الذهول إزاءه؛ فهو لم يذُق طعمَ الخوف منذ شبابه؛ أيَّام كان يقترب من قائمة النتائج الامتحانيَّة المعلَّقة على اللَّوح. هل كانت حياته هادئةً جدّاً إلى درجة أنَّ مأزق أناسٍ غرباء قد هيَّجها إلى هذا الحدِّ؟ أو أنَّ احتلال أسرة شارب أفكارَه طيلة الأسبوع الماضي قد أخرجها من دائرة الغرباء؟

هيَّأ روبرت نفسه لأيِّ شيءٍ قد يقوله هالام، لكنّ ما وصله من عبارات هالام المنتقاة بعناية هو أنَّ سكوتلاند يارد أرادت إعلامهما بأنَّ أيَّ إجراءٍ رسميٍّ لن يُتَّخذ بحقِّهما بناءً على الأدلَّة الراهنة. انتبه بلير إلى لفظة «الأدلَّة الراهنة» وتبيَّن معناها بدقَّة. هم لم يُسقطوا القضيَّة -وهل يمكن لسكوتلاند يارد أن تُسقط قضيَّة؟- كلُّ ما في الأمر أنَّهم يلتزمون الهدوء.

إنَّ فكرة التزام سكوتلاند يارد بالهدوء لم تكن فكرةً مُطمْئِنة، ولا سيَّما في ظلِّ هذه الظروف.

قال: «أفهم من هذا أنَّهم يفتقرون إلى الأدلَّة الدَّامغة».

قال هالام: «لم يتمكَّنوا من الوصول إلى سائق الشاحنة الذي أقلَّها معه».

«يجب ألَّا يُفاجئهم هذا الأمر».

وافقه هالام: «لا. لا يوجد سائقٌ قد يخاطر بصرفه من الخدمة في وظيفته بسبب اعترافه بأنَّه قد أقلَّ أحداً معَه. ولا سيَّما أنَّها فتاة. فمديرو النقل صارمون حيال ذلك. وحينما تتعلَّق القضيَّة بفتاةٍ واقعةٍ في مأزق ما، وحينما تتولَّى الشرطة السؤال عن ذلك، فما من عاقلٍ سيعترف حتَّى برؤيته لها». أخذ السيجارة التي عرضها عليه روبرت، وقال: «إنَّهم في حاجةٍ إلى سائق الشاحنة ذاك»، ثمَّ أردف: «أو إلى أحدٍ مثله».

قال روبرت مفكِّراً: «أجل. ما رأيك فيها يا هالام؟».

«الفتاة؟ لا أدري. فتاة لطيفة. تبدو أنَّها صادقةٌ تماماً. تبدو لي كواحدة من بناتي».

أدرك بلير أنَّ هذا أنموذجٌ مفيدٌ جدّاً لما يمكن أن يواجهوه في حال تحوَّل الأمر إلى قضيَّة. فكلُّ رجلٍ مجبولٍ على الطيبة سينظر إلى الفتاة في منصَّة

الشهود كما لو كانت ابنته. ليس لأنَّها متشرِّدة، وإنَّما لسببٍ وجيهٍ جدّاً؛ لأنَّها ليست كذلك. معطف المدرسة المحتشم، الشَّعر الخرنوبيّ، الوجه الخالي من المستحضرات بغمَّازتيه الساحرتين تحت عظمتَي وجنتيها، العينان الواسعتان المتباعدتان -إنَّها ضحيَّة يحلم بها أيُّ محامي ادِّعاء-.

ما زال هالام يفكِّر في الأمر، فقال: «مثل أيِّ فتاةٍ في سنِّها. ليس لديَّ أيُّ شيء ضدَّها».

فقال روبرت ببرود، والفتاة لا تزال تشغل تفكيره: «إذاً، فأنت لا تحكم على الناس من ألوان عيونهم؟».

قال هالام وقد فوجئ: «أيُعقل ألَّا أفعلَ! صدِّقني، بالنسبة إليَّ، ثمَّة درجة بعينها من الأزرق الفاتح تفضح المرء حتَّى قبل أن يفتحَ فمه. كلُّ واحدٍ منهم هو كاذب مُقْنِع». توقَّف هنيهةً ليسحب من سيجارته. «وإذا ما أمعنَّا التفكير في الأمر، فهم ميَّالون إلى جرائم القتل أيضاً. مع أنَّني لم أقابل كثيراً من القتلة».

قال روبرت: «أنت تخيفني. في المستقبل سأبتعد مسيرة عامٍ عن أصحاب العيون الزرق الفاتحة».

ابتسم هالام ابتسامةً عريضة: «ما دمت تُبقي جيبك مغلقاً فلا داعيَ للقلق، فأصحاب العيون الزرق الفاتحة يكذبون من أجل الحصول على المال. واحدُهم لا يشرع في القتل إلَّا عندما يتورَّط في شبكة أكاذيبه إذا ما ضُبِط. فالعلامة المميِّزة للقتلة ليست لون العينين وإنَّما مكانهما».

«مكانهما؟».

«أجل. فهما غير متناظرتين. أعني العينين. تبدوان كما لو كانتا من وجهين مختلفين».

«خِلْتُ أنَّك لم تلتقِ كثيرين منهم».

«لا. لكنَّني قرأت تاريخ القضايا كلِّها، ومحَّصتُ الصور الفوتوغرافيَّة. ولطالما أدهشني عدم تطرُّق أيِّ كتابٍ عن جرائم القتل إلى هذا الأمر؛ فهو واردٌ في كثيرٍ من الأحيان. أعني انعدامَ التناظر في موضعَي العينين».

«إذاً، فالنظريَّة كلُّها من إبداعك أنتَ».

«أجل. إنَّها خلاصة مشاهداتي. يجب أن تختبرَ هذا الأمر بنفسك في وقتٍ ما. إنَّه رائع. لقد وصلتُ الآن إلى المرحلة التي كنتُ أتطلَّع إليها».

«تعني في الشارع؟».

«لا. ليس إلى هذا الحدِّ السيِّئ. لكنَّني أنتظر رؤية الصورة الفوتوغرافيَّة في كلِّ قضيَّة قتل، وحينها تأتي الصورة أفكِّر: تماماً! مثلما قلت لكم!».

«وإذا ما أتت الصورة وكانت العينان متطابقتين بدقَّة؟».

«هذا ما يمكن أن يُطلق عليه المرء أنَّه جريمة قتل بالخطأ. تلك النوعيَّة من الجرائم التي تحدث لأيِّ أحد بسبب الظروف».

«وماذا إذا نظرتَ إلى صورة قسٍّ (نيذر دمبلتون)، الذي احتفى به أبناء أبرشيَّته ممتنِّين لخدمته المتفانية طيلة خمسينَ عاماً، فرأيتَ أنَّ عينيه غير متناظرتين إلى حدٍّ بعيد، فما الاستنتاج الذي ستصل إليه حينها؟».

«ذاك له زوجة ترضيه وأطفال يطيعونه، أجره يغطِّي احتياجاته، ولا شأن له بالسياسة، وعلى علاقة طيِّبة برجالات السُّلطة المحليَّة، ومتاحٌ له الحصول على ما يشاء من الخدمات. في الحقيقة، ما من شيءٍ يدعوه إلى قتل أحد أبداً».

«يبدو لي أنَّك لم تحصل على كعكتك فحسب، بل تلذَّذت بأكلها أيضاً».

قال هالام بتقزُّز: «هه! كنت أهدرُ مشاهدةً بوليسيَّةً عظيمةً على عقليَّةٍ قانونيَّةٍ». أضاف وهو يستعدُّ للرحيل: «وقد كنت أحسب أنَّ المحامي سيُسَرُّ للحصول على بعض المعلومات السّريَّة عن الحكم المثاليِّ على الغرباء».

فأشار روبرت: «كلّ ما فعلتَه هو أنّك لوَّثتَ عقلاً بريئاً. فمن الآن فصاعداً، لن أتمكَّن من استقبال موكِّل جديد من دون أن يصنِّفَ عقليَ الباطن لون عينيه وتناظرهما».

«حسناً. هذا شيءٌ من أشياء. فمعرفتك ببعض حقائق الحياة هي أمرٌ مرهون بالوقت».

قال روبرت مستعيداً جدِّيَّته: «شكراً لقدومك لأجل إخباري بشأن قضيَّة فرانشايز».

قال هالام: «الهاتف في هذه البلدة بمنزلة المذياع، من حيث الخصوصيَّة».

«شكراً لك، على كلِّ حال. يجب أن أبلغَ أسرة شارب على الفور».

ما إنْ غادر هالام، تناول روبرت سمَّاعة الهاتف.

وكما قال هالام، لن يتمكَّن من التحدُّث بأريحيَّة عبر الهاتف، لكنَّه سيقول إنَّه قادمٌ من فوره لرؤيتهما، وإنَّه يحمل أخباراً سارَّة، فمن شأن ذلك أن يخفِّفَ من عبء التفكير لديهما. كما وأنَّه- استرق نظرةً إلى ساعته- الوقت اليوميُّ لقيلولة السيِّدة شارب، ومن المحتمل حينَها أن يكون لديه أملٌ في تجنُّب ملاقاة التنِّين العجوز، وأملٌ آخر في محادثة الآنسة شارب على انفراد. ومع أنَّ تلك الفكرة قد مرَّت مرور الكرام في عقله، إلَّا أنَّه قد أضمرها في إحدى زوايا عقله المعتمة.

لم يجِبْ أحدٌ عن مكالمته.

وبمساعدة مقسم الهاتف، اتَّصل بالرقم على مضضٍ وقد تملَّكه الملل، منتظراً لخمس دقائق كاملةٍ من دون فائدة. أُسرة شارب ليست في المنزل.

وبينما هو متَّصلٌ بالمقسم، دخل نيڤيل بينيت يتمشَّى ببدلته (التويد) الصارخة، مرتدياً قميصاً ورديّاً وربطة عنق أرجوانيَّة. رصدته عينا روبرت

من فوق السمّاعة، وتساءل للمرَّة المئة عمّا ستؤول إليه شركة بلير وهايوارد وبينيت عندما ستُفلِتُها قبضةُ بلير المُحْكَمة وتقع في النهاية بين يدَي هذا الشابِّ الغضِّ من أُسرة بينيت. وهو يعلم أنَّ الشابَّ يتمتَّع بالذكاء، لكنَّ ذكاءه لن يوصله إلى مكانٍ مرموقٍ في ميلفورد. إذ تنتظر ميلفورد من شابٍّ قد بلغ سنَّ التخرُّج أن يكفَّ عن كونه طالباً لم يتخرَّج بعدُ.

غير أنَّه لم يكن ثمَّة ما يشير إلى تقبُّل نيڤيل للعالم خارج حدود إطار جماعته. إذ لا يزال إلى الآن، وإن من غير قصدٍ منه، يدأب على إبهار العالم، وثيابُه خير شاهدٍ على ذلك.

لم يرغب روبرت في رؤية الصبيِّ في بدلة سوداء رسميَّة، فهو نفسه يرتدي بدلة (تويد) رماديَّة. إذ ينظر الموكِّلون في بلدته بريبةٍ نحو ثياب ‹المدينة›. ففي تلك اللَّحظة العفويَّة عبر الهاتف، قالت ماريان شارب عن ثياب محامٍ في المدينة: ‹ذاك الرَّجل المروّع ذو البدلات المخطَّطة›. لكن ثمَّة نوعان من بدلات (تويد). وكان نيڤيل بينيت ممَّن يمثِّلون النوع الثاني. النوع الثاني الصَّارخ جدّاً.

قال نيڤيل عندما استسلم روبرت وأغلق سمّاعة الهاتف: «روبرت، لقد انتهيت من الأوراق المتعلِّقة بتحويل (كالثورب)، وكنت أفكِّر في الذهاب إلى لاربور هذا المساء؛ إن لم تُرِدْني أن أنجزَ عملاً آخرَ».

سأله روبرت: «ألا يمكنك التحدُّث إليها عبر الهاتف؟». كان نيڤيل قد خطب ابنة مطران لاربور الثالثة، خطبةً غير رسميَّةٍ على الطراز الحديث.

«لا. ليس من أجل روز ماري. فهي في لندن لمدَّة أسبوع».

قال روبرت، الذي تمكَّن الاستياء منه إزاء إخفاقه في التواصل مع أسرة شارب بعدما كان يحمله لها من أنباءٍ سارَّة: «أفترض إذاً أنَّه لقاءٌ احتجاجيٌّ في قاعة آلبرت».

قال نيڤيل: «لا. بل في (جيلدهول)[15]».

«وما الدَّاعي إلى الاحتجاج هذه المرَّة؟ أهو احتجاج على تشريح الحيوانات الحيَّة؟».

قال نيڤيل يحدوه جوٌّ من الصبر المهيب: «اليوم وغداً، ستبقى عالقاً في القرن المنصرم على نحوٍ مخيف يا روبرت. في أيَّامنا هذه، لم يعد ثمَّة مَن يعترض على تشريح الحيوانات الحيَّة إلَّا ثلةٌ من المهووسين. الاحتجاج ضدَّ هذه الدولة التي ترفض أن تمنحَ لجوءاً آمناً للبطل كوتوڤيتش».

«حسبما فهمت، فهذا البطل المذكور ‹مطلوبٌ› في بلاده، وبشدَّة».

«مِن قِبَل أعدائه».

«من قِبَل رجال الشرطة، لارتكابه جريمتَي قتل».

«إعدامات».

«هل أنت من أتباع جون نوكس يا نيڤيل؟».

«يا إلهي! ما شأن هذا بذاك؟».

«هو يؤمن بأولئك الذين ينصِّبون أنفسَهم جلَّادين. وحسبما فهمت فالفكرة ‹خاملةٌ› قليلاً في هذا البلد. في كلِّ الأحوال، لو أنَّني خُيِّرْتُ بين رأي روز ماري بكوتوڤيتش ورأي الفرع الخاصّ به فسأختار الفرع الخاصّ».

«الفرعِ الخاصُّ ينصاع لِما تمليه عليه وزارة الخارجيَّة فقط. الجميع يعرف ذلك. لكنَّني إذا ما بقيت لأشرح لك تداعيات قضيَّة كوتوڤيتش، فسأتأخَّر عن الفيلم».

---

15 مبنى البلدية. المترجمة.

«أيّ فيلم؟».

«الفيلم الفرنسيّ الذي سأذهب لمشاهدته في لاربورو».

«أفترض أنّك تعلم أنّ معظم هؤلاء الفرنسيين التافهين، الذين يلهث وراءهم المثقّفون البريطانيون، يعدّونهم في بلادهم بلا أيّ قيمة. في كلّ الأحوال، أتظنُّ أنَّ في وسعك التوقُّف قليلاً لترك ملاحظةٍ في صندوق رسائل منزل فرانشايز بما أنّك ستمرُّ من هناك؟».

«ربّما. لطالما أردتُ أن أرى ماذا هناك خلف الجدار. مَن يسكن هناك الآن؟».

«سيّدة عجوز وابنتها».

«ابنة»، ردّدها نيڤيل تلقائيّاً وكلّه آذانٌ مُصغية.

«ابنةٌ في منتصف العمر».

«حسناً. سأُحضِر معطفي فقط».

كتب روبرت باختصار أنّه حاول أن يكلّمَهما، وأنّه اضطرَّ إلى الخروج في عملٍ لمدّة ساعة أو نحو ذلك، لكنّه سيتّصل بهما مجدّداً ما إنْ يتسنّى له ذلك. وبما أنّه لم تعد ثمّة قضيّةٌ في سكوتلاند يارد، إذْ إنَّ القضيّة أُوقِفَت، وقد أدركوا واقع الأمر.

عاد نيڤيل يحمل على ذراعه معطفاً ذا تفصيلة كريهة، فانتزع الرسالة واختفى تاركاً خلفه عبارة «أخبر عمّتي لين أنّني قد أتأخّر؛ فقد دعتني إلى العشاء».

اعتمرَ روبرت قبّعته الرماديّة الرسميّة واتّجه إلى (روز آند كراون) ليقابل موكّله. مزارع عجوز، هو آخر رجلٍ مصابٍ بداء النقرس المزمن في إنجلترا.

لم يكن العجوز قد وصل بعد، وروبرت الذي عادةً ما يكون هادئاً وحسن المراس حدَّ البرود، كان مدركاً نفادَ صبره. لقد تغيَّر نمط حياته. حتَّى الآن، كان السياق هادئاً فيما يتعلَّق بالمُغريات المتماثلة، فكان ينتقل من أمرٍ إلى آخر بتمهُّل وفتور. الآن، هناك محور لاهتمامه، وبقيَّة الأمور تدور حول هذا المحور.

جلس على المقعد المنجَّد ذي القماش المزركش في الصالة، ونظر إلى حوافِّ الصحف المطويَّة فوق بعضها بعضاً على المنضدة المجاورة. لم يكن بينها عددٌ جديدٌ ما عدا مجلَّة (واتشمان) الأسبوعيَّة، فتناولها على مضضٍ وهو يفكِّر مرَّة أخرى في ملمس الأوراق الخشن الذي يضايق أطراف أصابعه، وفي حوافِّ الأوراق الحادَّة التي تَضْرَسُ لها أسنانه. تتناول المجلَّة التشكيلة المعتادة من الاحتجاجات والقصائد والتبجُّح. كان حمو نيفيل المستقبليُّ في مقدَّمة المحتجِّين، وقد أُنيطت به مكانة الشرف، إذ أطلق لقلمه العنان كي يكتبَ ثلاثة أرباع عمودٍ صحفيٍّ عن العار الذي لحق بإنجلترا بسبب رفضها تقديم ملاذٍ آمن للطريد الوطنيِّ.

منذ زمنٍ بعيد، وسَّع مطران لاربورو الفلسفة المسيحيَّة لتشملَ الإيمان بأنَّ المستضعف على حقٍّ دوماً. وقد حظي بشعبيَّةٍ كبيرةٍ بين صفوف ثوَّار البلقان ولجان الإضراب البريطانيَّة وجميع المعتقلين في المنشآت الجزائيَّة المحليَّة. والاستثناء الوحيد بينَ هؤلاء كان لصاحب السوابق باندي برين، الذي وجَّه إهانة جمَّة إلى المطران الطيِّب منحازاً بعاطفته إلى الحاكم، فالدَّمعة في عينيه مجرَّد قطرة ماءٍ يذرفها ببرودٍ أثناء ما يرويه من قصصه الحزينة بخفَّة وإتقان. قال السجناء القدامى بمودَّةٍ إنَّ ما من شيءٍ لا يصدِّقه الرجلُ العجوز؛ يمكنك المبالغة على النحو الذي تريده.

عادةً ما يرى روبرت أنَّ المطران ظريفٌ إلى حدٍّ ما، لكنَّه مغتاظٌ اليوم فحسب. لجأ إلى قصيدتين، لم تُرضِ أيٌّ منهما ذائقته، فألقى بالمجلَّة إلى

الطاولة. سأله بن كارلي وهو يتوقَّف قرب كرسيِّه ويُومئ برأسه نحو مجلَّة (واتشمان): «هل يلقي اللوم على إنجلترا مجدَّداً؟».

«أهلاً كارلي».

قال المحامي النحيل، وهو ينقر المجلَّة باحتقارٍ بإصبعٍ اصفرَّ من أثر النيكوتين: «قوس الرخام[16] للأثرياء، أتريد شراباً؟».

«شكراً. لكنَّني في انتظار السيِّد وينيارد العجوز، فهو لا يخطو خطوةً في هذه الأيَّام ما لم يكن مضطرّاً إلى الخروج».

«لا. يا للمسكين العجوز! خطايا الآباء. من المؤسف أن تعاني من خمر لم تشربه البتَّة! رأيت سيَّارتك في ذلك اليوم خارج منزل فرانشايز».

«أجل». قالها روبرت وقد استغرب قليلاً. بخلاف بن كارلي الَّذي كان فظّاً. وهو إن رأى سيَّارة روبرت، فقد رأى سيَّارتَي الشرطة أيضاً.

«إن كنت على معرفةٍ بهما، فبإمكانك إذاً إخباري بشيءٍ لطالما أردتُ أن أعرفه عنهما. هل الشائعة صحيحة؟».

«شائعة؟».

«هل هما ساحرتان؟».

قال روبرت باستخفاف: «هل يُفترض أن تكونا كذلك؟».

قال بِنْ، وقد استقرَّت عيناه السوداوان اللامعتان على روبرت للحظة قبل أن تطوفا في أرجاء الصالة في استفسارهما الخاطف المعتاد: «حسب علمي، ثمَّة تمسُّكٌ قويٌّ بالإيمان في الريف».

---

16 قوس نصر من الرخام الأبيض، عند تقاطع أكسفورد ستريت، وإدجوير رود، وبارك لين في لندن. المترجمة.

فهم روبرت أنَّ الرجل النحيل يُقدِّم له -ضمنيّاً- معلومات يحسب أنَّها قد تفيده.

قال روبرت: «حسناً. منذ وصل الترفيه إلى البلاد مع السينما، أدامها الله من نعمة، فقد انتهى عهد مطاردة الساحرات».

«لا تصدِّق ذلك. فما إنْ تمنح هؤلاء الحمقى المحلِّيّين عذراً جيّداً، فسيطاردون من الساحرات أفضلهنَّ، ولو سألتني عنهم، فإنَّهم ثُلَّةٌ منحطَّةٌ غريزيّاً. هو ذا قد أتى رجُلك العجوز. حسناً، سأراك لاحقاً».

كان روبرت يهتمُّ بالناس وبمشكلاتهم من صميم قلبه، وتلك واحدةٌ من الخصال الأساسيَّة له. وقد أصغى إلى قصَّة السيِّد وينيارد المبعثرة بلطفٍ كسب من خلاله امتنانَ العجوز -وقد أضاف مئةً إلى المبلغ المقابل لاسمه في وصيَّة المزارع العجوز، مع أنَّه لم يكن مدركاً ذلك- وما إن انتهى عملهما، اتَّجه مباشرةً نحو هاتف الفندق.

كان أمامه أناس كثر، فقرَّر استعمال هاتف المرآب في جادَّة سين. إذ لا بدَّ أنَّ المكتب قد أُغلق الآن، فضلاً عن كونه أبعد. وبينما هو يسير عبر الشارع بخُطى واسعة، استرسل في أفكاره؛ فإنَّه إذا ما اتَّصل من المرآب، فستكون سيَّارته في متناول يده، إن طلبتْ -إن طلبتا- إليه القدوم لمناقشة المزيد من الأمور، كما وإنَّهما قد ترغبان، بل إنَّهما حتماً وبالتأكيد- أجل، سترغبان طبعاً في مناقشة ما يمكنهم فعله من أجل تكذيب قصَّة الفتاة، سواءً أكان هناك قضيَّة أم لا -كان مرتاحاً جدّاً حين سماعه الخبر من هالام، إذ لم يكن عقله قد أسعفه بعدُ بالتفكير في ما ...

قال بيل برو وهو ينزلق بجسده الضخم من باب المكتب الضيِّق، وقد بدا اللُّطف والترحاب على وجهه المستدير الهادئ: «عمتَ مساءً، سيِّد بلير. هل تريد سيَّارتك؟».

«لا. بل أريد استعمال هاتفك أوّلاً لو سمحت لي».

«بالطبع. تفضّل».

سأل ستانلي وقد أطلّ بوجهه الودود من أسفل السيّارة التي كان تحتها: «هل عرفتَ شيئاً؟».

«لا شيء ستان. لم أُرَاهِنْ منذ أشهر».

«خسرت جنيهين على بقرةٍ اسمها ‹الوعد المشرق›. هذا ما يحصل عندما تضع ثقتك بالخيول. إذا عرفت شيئاً في المرّة القادمة--».

«في المرّة القادمة سأخبرك إن راهنت. لكنّها ستكون خيولاً أيضاً...».

قال ستانلي وهو يختفي تحت السيّارة مجدّداً: «طالما أنّها ليست بقرة--». اتّجه روبرت إلى المكتب الصغير الدّافئ والمضاء، وتناول السمّاعة.

ماريان هي الّتي ردّت عبر الهاتف، وبدا صوتُها حانياً وسعيداً.

«لا يمكنك أن تتصوّر مدى الراحة التي بثّتها فينا رسالتك. ففي الأسبوع الفائت، كنت وأمّي نتجهّز لجمع بقايا حبال القنّب[17]. بالمناسبة، هل ما زالوا يجمعون بقايا الحبال؟».

«لا أظنُّ ذلك. فحسبما فهمتُ ثمّة أشياء بنّاءة أكثر في هذه الأيّام».

«علاجٌ مهنيٌّ».

«إلى حدٍّ ما».

«لا يمكنني التفكير في أنّ خياطةَ إلزاميّةً من شأنها أن تُحسّن في شخصيّتي».

---

17 عقوبة السجينات في بريطانيا آنذاك. المترجمة.

«لا بدَّ أنَّهم سيجدون شيئاً يلائمك أكثر. فإرغام السجين على ممارسة ما لا يروق له هو أمرٌ ينافي الفكر الحديث».

«إنَّها المرَّة الأولى التي أسمعك فيها وأنت تتكلَّم على هذا النحو اللاذع».

«هل كنت لاذعاً؟».

«مثل أنجوستورا[18] صافية».

حسناً، ها قد أتت على ذكر الشراب، في الأرجح أنَّها ستعرض عليه المجيء لتناول كأسٍ من نبيذ (شيري) قبل العشاء.

«بالمناسبة، ابن أختك ساحرٌ للغاية».

«ابن أختي؟».

«الشابُّ الذي أحضر لي الرسالة».

قال روبرت ببرود: «ليس ابن أختي»، لماذا تبدو الخؤولة رديفةً للتقدُّم في السنِّ؟، «تجمعنا قرابة بعيدة من طرف الأعمام. لكنَّني سعيد لأنَّك أحببته». لن ينفع هذا الأسلوب، سيتحتَّم عليه أن يبادرَ بنفسه للوصول إلى مآربه. «يجب عليَّ أن أراك في وقتٍ ما؛ لنناقش ما يمكننا فعله من أجل وضع النقاط على الحروف. لتهيئة ظروفٍ أكثر أمناً...» وانتظر.

«أجل. بالتأكيد. قد نمرُّ بمكتبك ذات صباحٍ في أثناء تسوُّقنا. ماذا سنفعل حسب رأيك؟».

«بعض الاستفسارات الشخصيَّة التي لا يمكن التحدُّث عنها بأريحيَّة عبر الهاتف».

---

18 نوعٌ من أنواع الجعة لها طعمٌ مرّ. المترجمة.

«لا، بالطبع لا يمكن ذلك. هل يناسبك أن نأتي صباح الجمعة؟ يوم تسوُّقنا الأسبوعيّ. أو أنّك مشغول يوم الجمعة؟».

«لا. الجمعة يومٌ مناسبٌ جدّاً»، قالها روبرت مبتلعاً خيبة أمله، «عند الظهيرة تقريباً؟».

«أجل. سيكون ذلك مناسباً جدّاً. بعد غدٍ الساعة الثانية عشرة، في مكتبك. إلى اللقاء وشكراً مرَّةً ثانية على دعمك ومساعدتك».

أغلقت الخطَّ بحزمٍ ووضوح. من دون كلِّ تلك الثرثرات التي اعتاد روبرت أن ينتظرها من النساء في سبيل التمهيد للحديث.

ولَمَّا خرج إلى ضوء النهار الباهت في المرآب، سأله بيل: «هل أُخرجها لك؟».

«ما هي؟ السيَّارة. لا. فلن أحتاج إليها هذه الليلة. شكراً».

انطلق إلى مسيرته المسائيَّة المعتادة في الشارع العامِّ وهو يكابد شعوره بالصدود. فمنذ اللَّحظة الأولى، لم يكن متلهِّفاً للذهاب إلى منزل فرانشايز، وقد صرَّح عن تمنُّعه التّامِّ عن ذلك بوضوح؛ وهي كانت تتجنَّب تكرار الظروف بالطبع. وهو إذ عرَّف نفسه كراعٍ لمصالحها، فقد أحال العلاقة إلى عملٍ بحتٍ لا بدَّ من تسويته بموضوعيَّة في المكتب. فهما لن تُشركاه في أكثر من ذلك مرَّةً أخرى.

«حسناً». بينما هو يرتمي على كرسيِّه المفضَّل قرب مدفأة الحطب في غرفة الجلوس، ويفتح صحيفة المساء (المطبوعة صباحاً في لندن)، فكَّر في أنَّه سيفعل شيئاً حين قدومهما إلى مكتبه يوم الجمعة؛ ليجعل العلاقة تأخذ طابعاً شخصيّاً أكثر، فيمحو بذلك ذكرى رفضه الأخرق للقضيَّة بادئ الأمر.

أراحه هدوء المنزل القديم. فكريستينا في غرفتها لمدَّة يومين؛ معتكفةً في صلاةٍ وتأمُّل. والعمَّة لين في المطبخ تحضِّر العشاء. كانت ثمَّة رسالةٌ مبهجةٌ من أخته الوحيدة ليتيس، التي قادت شاحنةً لسنواتٍ عدَّة من الحرب الدَّامية، ووقعت في حبِّ كنديٍّ طويلٍ هادئ، وها هي ذي الآن تربِّي خمسة أشقياء شُقرٍ في (ساسكاتشيوان[19]).

اختتمت رسالتها بالقول: «تعالَ قريباً يا عزيزي روبن. قبل أن يكبر الأشقياء وتتكاثر الطحالب من حولك. فأنت تعرف كم هي متعبةٌ لك العمَّة لين». كان في وسعه أن يسمعَ ذلك بصوتها. فهي والعمَّة لين لم تتوافقا قطُّ.

كان مبتسماً؛ مسترخياً وغارقاً في الذكريات، عندما تبعثر كلُّ هدوئه وسلامه، في إثْر اقتحام نيڤيل.

طالبه نيڤيل: «لماذا لم تخبرني أنَّها كانت على تلك الصورة؟».

«مَن؟».

«المرأة من أسرة شارب، لماذا لم تخبرني؟».

قال روبرت: «لم أتوقَّع أنَّك ستقابلها. فكلُّ ما كان عليك فعله هو دسُّ الرسالة عبر الباب».

«لم تكن هناك ثغرةٌ لدسِّ الرسالة عبر الباب، فقرعت الجرس. كانتا قد عادتا توّاً من المكان الذي كانتا فيه. على كلِّ حال. لقد ردَّت».

«حسبت أنَّها تنام بعد الظهر».

«لا أظنُّها تنام إطلاقاً، فهي ليست من بني البشر أبداً، إذ هي معجونةٌ من النار والمعدن».

---

19 مدينة في كندا. المترجمة.

«أعرف أنَّها عجوزٌ في غاية الفظاظة، لكن عليك أن تستحقَّ ما تأخذه من الأتعاب. فهي قاسيةٌ جدّاً في...».

«عجوز؟ عمَّن تتحدَّث؟».

«عن السيِّدة شارب العجوز طبعاً».

«إنَّني حتَّى لم أرَ السيِّدة شارب العجوز، فأنا أتحدَّث عن ماريان».

«ماريان شارب؟ وكيف عرفت أنَّ اسمها ماريان؟».

«هي أخبرتني. إنَّه يناسبها فعلاً، أليس كذلك؟ لا يليق بها أن تكون إلَّا ماريان».

«هذه ألفةٌ لافتةٌ للنظر بالنسبة إلى تعارفٍ عند الباب».

«لقد قدَّمت لي الشاي».

«شاي! حسبتك في عجلةٍ من أمرك من أجل مشاهدة فيلمٍ فرنسيٍّ».

«حينما تدعوني امرأةٌ مثل ماريان شارب إلى شرب الشاي فمن المستحيل أن أكون في عجلةٍ من أمري لفعل أيِّ شيء. هل انتبهت إلى عينيها؟ من المؤكَّد أنَّك انتبهت. أنت محاميها. ذلك التدرُّج الرائع من اللَّون الرماديِّ إلى اللَّون البندقيِّ. وشكل حاجبيها الحانيين فوقهما. لكأنَّ ريشة رسَّام عبقريٍّ أبدعتهما. إنَّهما حاجبان مجنَّحان. كتبتُ فيهما قصيدةً وأنا في طريق العودة إلى المنزل. أتريد سماعها؟».

قال روبرت بحدَّة: «لا. هل استمتعت بفيلمك؟».

«لا. لم أذهب لحضوره».

«لم تذهب!».

«قلت لك إنَّني استعضت عنه بشرب الشاي مع ماريان».

«هل تعني أنَّك قضيت فترة ما بعد الظهر كلَّها في منزل فرانشايز؟».

«أظنُّ ذلك.» قال نيڤيل حالماً: «لكن، والله لم أشعر أنَّ المدَّة تجاوزت أكثر من سبع دقائق».

«وماذا حدث لتعطُّشك للسينما الفرنسيَّة؟».

«لكنَّ ماريان فيلمٌ فرنسيٌّ. حتَّى أنت يجب أن تراه». جفل روبرت حين سماعه لفظة (حتَّى أنت). «لماذا تلهث وراء الخيال ما دام في وسعك أن تكون مع الحقيقة؟ الحقيقة. هي تلك صفتها العظيمة. أليس كذلك؟ لم يسبق لي أن قابلت أحداً حقيقيّاً كما هي الحال مع ماريان».

«ولا حتَّى روز ماري؟». كان روبرت قد وصل إلى المرحلة التي تسمِّيها العمَّة لين (أطفئه).

«روز ماري حبيبة، وسأتزوَّجها. لكنَّ هذا الأمر مختلفٌ تماماً».

قال روبرت بلطفٍ مزيَّف: «حقّاً؟».

«بالطَّبع. فزواج النَّاس من نساءٍ من أمثال ماريان شارب هو كالزواج من النسيم والسَّحاب. كالزواج من جان دارك[20]. التفكير في الزواج من امرأةٍ مثلها هو محض انتهاكٍ لها. بالمناسبة، لقد تحدَّثتْ عنك بلطفٍ بالغ».

«كان ذلك لطفاً منها».

كانت نبرته جافَّةً للغاية إلى درجة أنَّ نيڤيل استشعرها.

«ألا تروقك؟»، سأل وتوقَّف لينظر إلى ابن عمِّه مذهولاً بإنكاره.

---

20 جان دارك: (1412-1431) بطلةٌ قومية وقديسة فرنسية. المترجمة.

الآن، ما عاد روبرت ذاك اللطيف الهادئ المتسامح، روبرت بلير. كان مجرَّد رجلٍ متعبٍ لم يتناول عشاءه ويعاني من ذكرى الخيبة والصدود.

قال: «بالنسبة إليَّ، ليست ماريان شارب سوى امرأةٍ نحيلةٍ، في الأربعينات من عمرها، تعيش مع أمِّها العجوز الفظَّة في بيتٍ قديمٍ وقبيح. وهي مثل أيٍّ شخصٍ آخرَ تحتاج إلى استشارةٍ قانونيَّةٍ أحياناً».

وعلى الرَّغم من أنَّه رغب في حبسها، غير أنَّ تدفُّق الكلمات لم ينقطع، لكأنَّها صديقٌ خائن.

قال نيڤيل متسامحاً: «لا. بل في الأرجح أنَّها ليست من النمط الذي يعجبك. فلطالما كنت تريدهنَّ ساذجات قليلاً وشقراوات. أليس كذلك؟».

ما قيل لم يكن بدافع الحقد، وإنَّما تسليماً بالحقيقة البليدة.

«لا يمكنني أن أتصوَّر ما الذي يدعوك إلى التفكير على هذا النَّحو».

«جميع النساء اللاتي كدت تتزوَّجهنَّ، كنَّ من ذلك النَّمط».

قال روبرت بعناد: «لم (أكد أتزوَّج) أيَّ واحدة».

«هذا ما تظنُّه أنت. فأنت لن تعرف كيف كادت مولي ماندرز تُوقعك».

«مولي ماندرز»، قالتها العمَّة لين وهي متورِّدةٌ من الطَّهو وتحمل صينيَّة النبيذ، «يا لها من سخيفة. تخيّلت أنَّك تستعمل لوحاً للخَبْز من أجل صنع (بانكيك)[21]. وهي دائماً ما تنظر إلى نفسها في مرآة جيبها الصغيرة».

«لقد أنقذتك العمَّة لين في تلك المرَّة. أليس كذلك يا عمَّة لين؟».

---

21 فطائر المقلاة.

«لست أفهم عمَّ تتحدَّث يا عزيزي نيفيل. كفَّ عن الوثب على بساط المدفأة و ضع في النار قطعة حطب. هل أعجبك فيلمك الفرنسيّ عزيزي؟».

«لم أذهب لحضوره. شربت الشاي في منزل فرانشايز عوضاً عن ذلك». سدَّد نظرةً إلى روبرت بعد أن عرف توّاً أنَّ تعبيراته تنطوي على شيءٍ دفينٍ أكثر ممَّا يبدو عليه.

«مع أولئك الغرباء؟ وعمَّ تحدَّثتم؟».

«عن الجبال... عن موباسان[22]... عن الدَّجاج...».

«عن الدَّجاج يا عزيزي؟».

«أجل. عن الشرِّ المتمركز في وجوه الدَّجاج إذا ما نظر المرء عن كثب».

بدت العمَّة لين مشوَّشة، فالتفتت إلى روبرت كما لو كانت تهبط على أرضٍ صلبة.

«هل كان حريّاً بي أن أتَّصل بهما يا عزيزي ما دمت قد تعرَّفت إليهما؟ أو عليَّ أن أطلبَ إلى زوجة القسِّ الاتِّصال؟».

قال روبرت بجفاء: «لا أظنُّني سأورِّط زوجة القسِّ في أيِّ أمرٍ لا رجعة عنه، أبداً».

بدت متشكِّكةً للحظة، لكنَّ هموم ربَّة البيت محت السّؤال من ذهنها: «لا تسرف في شرب النَّبيذ وإلَّا فلن تأكلَ كما يجب، وسيفسد ما لديَّ في الفرن. الحمد لله. ستعود كرستينا إلينا غداً. هذا ما أتمنَّاه في الأقلِّ، إذ لم يسبق لخلاصها أن استغرقَ وقتاً أكثر من يومين اثنين. وإن كان الأمر سيَّان بالنسبة إليك،

22 غي دي موباسان: 1850– 1893 كاتبٌ وروائيٌّ فرنسّي، وأحد آباء القصّة القصيرة الحديثة. المترجمة.

يا عزيزي، فلست أظنُّ بأنّني سأتَّصل بصاحبتَي منزل فرانشايز. بصراحةٍ، وبغضِّ النظر عن كونهما دخيلتين وغريبتين جدّاً، فإنَّهما تثيران رعبي».

نعم، ذلك أنموذجٌ من ردود الفعل التي كان يتوقَّعها عند الإتيان على ذِكر أسرة شارب.

لقد بذل بن كارلي قصارى جهده اليوم ليُفهمه أنَّ التّخلُّص من المتاعب التي يواجهها منزل فرانشايز مع رجال الشرطة، ليس متاحاً له بوجود هيئة محلَّفين نزيهة. يجب أن يتَّخذ تدابير لحماية أسرة شارب. إن هو قابلهما يوم الجمعة، فسيقترح عليهما استئجار محقِّقٍ خاصٍّ. فالشرطة منهكة -منهكةٌ منذ عقدٍ ونيِّف- ويمكن لرجلٍ واحدٍ متفرِّغٍ للعمل على قضيَّةٍ بعينها، أن يحظى بفرصةٍ للنجاح أكثر من تلك التي يمكنُ أن يحظى بها التحقيق التقليديُّ أو الرسميُّ.

-6-

إلى حين صباح الجمعة،كان الوقت قد فات لاتّخاذ تدابير السلامة اللازمة لأجل منزل فرانشايز.

كان روبرت متّكلاً على يقظة رجال الشرطة، والانتشار البطيء للشائعات، لكنَّه لم يحسب حساب صحيفة (آك إيما).

كانت صحيفة (آك إيما) هي آخر صحيفةٍ شعبيَّةٍ من الغرب تدخل ميدان الصحافة البريطانيَّة. وقد كانت تعلم ، أنَّ دفعَ تعويضٍ بقيمة ألفي جنيهٍ عوضاً عمَّا تسبَّبه من العطل والضرر هو ثمنٌ بخسٌ مقابل ما ستحقِّقه من مبيعاتٍ قيمتها نصف مليون جنيهٍ.

كانت عناوينها ذوات سوادٍ فاحم، وصورها هي الأجمل، ونصوصها فاضحة أكثر من غيرها من الصُّحف البريطانيَّة المطبوعة حتَّى ذلك الحين. وقد أطلق عليها شارع (فليت[23]) تسميةً خاصّةً بها- مقتضبة ولا تصلح للطباعة- لكنَّ ذلك لم يحمِه منها. لطالما كانت الرقابة على الصحافة نابعةً من ذاتها؛ فاتّخاذ قرارٍ بالنَّشر أو بعدمه يخضع لمبادئ تتعلَّق بالحسِّ الرَّاقي والذَّائقة السَّليمة للصحيفة. وإذا ما قرَّرت إحدى المطبوعات (المارقة) ألَّا تمتثل لتلك المبادئ فليس ثمَّة سلطةٌ تجبرها على ذلك. منذ عشر سنواتٍ حتَّى الآن،

23 شارع الصحافة في لندن آنذاك. المترجمة.

استطاعت صحيفة (آك إيها) أن تكون من الصُّحف الأكثر مبيعاً في البلاد؛ إذ تجاوز صافي مبيعاتها قيمة نصف مليون جنيه يوميّاً. ففي أيِّ عربةٍ من شبكة قطارات الضَّواحي، يوجد سبعة أشخاصٍ من أصل عشرةٍ يقرؤون صحيفة (آك إيها) في الصباح وهم في طريقهم إلى العمل.

كانت صحيفة (آك إيها) هي مَن فتح أبواب قضيَّة فرانشايز على مصارعها.

خرج روبرت في الصَّباح المبكر من تلك الجمعة إلى الرّيف لمقابلة عجوزٍ على مشارف الموت، تريد تعديل وصيَّتها. وكان تكرار هذه الفعلة بمعدَّل مرَّة كلَّ ثلاثة أشهرٍ؛ هذا وقد أخبرها طبيبها صراحةً برأيه في كونها 'ستُطفئ شموع عيد ميلادها المئة بنفخةٍ واحدةٍ'، في حين لا يمكن للمحامي أن يخبرَ موكِّلته، التي استدعته على وجه السرعة، منذ الثامنة والنصف صباحاً، ألَّا تكونَ سخيفةً. وهكذا، حمل روبرت معه استماراتٍ جديدةٍ للوصيَّة، وأخرج سيَّارته من المرآب وقادها متَّجهاً إلى الرِّيف. لكنَّه استمتع بالربيع في الريف، على الرَّغم من صراعه المعتاد مع العجوز المستبدَّة وسْط تلك الوسائد -العجوز التي لم تستوعب الحقيقة البدائيَّة الَّتي تنصُّ على أنَّها لن تتمكَّن من وهب أربع حصص، قيمةُ كلٍّ واحدةٍ منها الثلث. في طريق عودته، كان روبرت يدندن معَ نفسه شوقاً إلى رؤية ماريان شارب في أقلَّ من ساعة.

قرَّر أن يغفرَ لها إعجابها بنيڤيل. ففي النهاية، لم يكن نيڤيل هو من أراد التَّخلِّي عنها ورميها إلى كارلي. على المرء أن يكونَ عادلاً. انطلق بسيَّارته إلى المرآب، خارجاً من الإسطبل القديم تحت الأنظار، وفي وضح النَّهار. ركن سيَّارته، ثمَّ تذكَّر أنَّ مدَّةً قد مضت على مطلع الشهر؛ فاتَّجه إلى المكتب ليدفعَ فاتورته إلى برو الَّذي يتولَّى إدارة الأمور المكتبيَّة. لكنَّ ستانلي هو مَن كان في المكتب يقلِّب القوائم والفواتير بيديه القويتين اللتين تدعوان إلى الدهشة؛ إذ تنحدران من ذراعين نحيلتين.

قال ستانلي موجِّهاً إليه نظرةً شاردة: «لمَّا كنت في فيلق الإشارات، كنت على قناعةٍ بأنَّ الضابط المسؤول عن التموين هو رجلٌ غشَّاش، أمَّا الآن، فلم أعد متأكِّداً من ذلك».

قال روبرت: « هل من شيءٍ ناقص؟ لقد أتيت إلى هنا لأدفع فاتورتي. وعادةً ما يجهِّزها لي بيل مسبقاً».

قال ستانلي مواصلاً تقليب القوائم: «أتوقَّع أن تكون في مكانٍ ما هنا، ألقِ نظرةً».

اعتاد روبرت أساليبَ العمل المكتبيِّ، فجَمَع الأوراق المتفرِّقة التي رماها ستانلي على منضدة بيل كي يعيدَ ترتيب ما تحتها. ولمَّا رفع الكومة الفوضويَّة، كشف عن وجه فتاة؛ صورةٌ في الصحيفة لوجه فتاة. لم يميِّزها في البداية، لكنَّها ذكَّرته بأحدٍ ما؛ فنظر إليها بإمعان.

قال ستانلي بنبرة انتصار، وهو يسحب الورقة ليخلِّصها من المشبك: «وجدتها!». جمع ما تبقَّى من الأوراق المبعثرة في كومةٍ على طاولة المكتب، و اكتشف ما يحدق إليه روبرت في صفحة الغلاف لصحيفة (آك إيما) لذاك الصباح.

حدَّق إليها روبرت وقد جمَّدته الصدمة.

استدار ستانلي ليأخذ الصحيفة من بين يديه، فلفَتَه انغماسه فيها، وأيَّده في ذلك.

قال: «صغيرة جميلة، إنَّها تذكِّرني ببنتٍ كنت أعرفها في مصرَ. العينان المتباعدتان نفساهما. كانت طفلة لطيفة. تجيد الكذب على أصوله».

عاد إلى ترتيب أوراقه، في حين ظلَّ روبرت مواصلاً تحديقه.

كتبت الصحيفة في أعلى الصفحة بالخطِّ الأسود العريض.

هذه هي الفتاة

واحتلَّت صورة الفتاة ثُلثي الصفحة أسفل العنوان، ثمَّ جاء أسفلها، بخطٍّ أصغر من دون التَّخلِّي عن الصورة الهجوميَّة:

هل هذا هو المنزل؟

وثمَّة صورةٌ لمنزل فرانشايز أسفله.

ثمَّ جاء العنوان التفصيليُّ في أسفل الصفحة:

تقول الفتاة نعم: فماذا يقول رجال الشرطة؟

للمزيد، تابعوا القصَّة داخل العدد.

مدَّ يده، وقلب الصفحة.

نعم، كلُّ شيءٍ مذكورٌ فيها، ما عدا اسم أُسرة شارب.

تخلَّى عن قراءة الصفحة، وعاد لينظر إلى صفحة الغلاف الصادمة. بالأمس كان منزل فرانشايز محمياً بأربعة جدران عالية؛ منيعةٍ للغاية، وكافيةٍ لحمايته تماماً، إلى درجة أنَّ أحداً في ميلفورد لا يعلم كيف يبدو المنزل، وهو ذا قد أصبح الآن مشاعاً للتحديق، في كلِّ كشكٍ لبيع الكتب، وفي كلِّ منصَّةٍ لباعة الصُّحف من (بينزانس) إلى (بنتلاند). واجهته المسطَّحة المنيعة خذلت براءة الوجوه التي كانت مختفية خلفها.

كانت صورة الفتاة مأخوذةً للرأس والكتفين، كأنَّها التُقطت لها في استديو تصوير. شعرها مصفَّفٌ ليليقَ بحضور حفلٍ ما، وقد كانت مرتديةً ما بدا أنَّه فستان سهرة. تجرُّدها من معطفها المدرسيِّ لم يجرِّدها من البراءة، ولم يُضْفِ

عليها سنّاً تكبر سنّها، لا. فتّش عن الكلمة التي قد تعبّر عنها. بدت أقلَّ حشمةً، أليس كذلك؟ فتأثير المعطف المدرسيّ كتأثير رداء الرّاهبة؛ يحول دون أن ينظر المرء إليها كامرأة. وراح يفكّر في إمكان كتابة أطروحةٍ مفصّلةٍ تتناول خاصيَّة الحماية التي يمنحها المعطف المدرسيُّ. الحماية من حيث التَّحصين والتمويه، كلاهما معاً. والآن، بما أنَّ المعطف لم يعُد يحجبها، فقد بدت أنثويَّةً أكثر من كونها أنثى فقط.

غير أنّه ظلَّ وجهاً فتيّاً بائساً غريراً وجذّاباً. الحاجبان الواضحان، العينان الواسعتان، والشفة المكتنزة التي أضفت على فمها هيئة طفلٍ خائب الرَّجاء -كلُّ هذا جعل الأمر صعباً برمَّته. ولن يكون مطران لاربورو وحدَه مَن سيصدِّق قصَّةً ترويها هذه القَسَمات.

توجَّه بسؤاله إلى ستانلي: «هل يمكنني استعارة هذه الصحيفة؟».

قال ستانلي: «خذها، لقد قرأناها في أثناء تناولنا وجبة الغداة[24]. ليس فيها شيءٌ مهمٌّ».

استغرب روبرت، وسأله مشيراً إلى صفحة الغلاف: «ألا تجد هذا مهمّاً؟».

ألقى ستانلي نظرةً إلى الوجه المصوَّر: «لا شيء، باستثناء أنّها ذكَّرتني بتلك الفتاة في مصرَ، والأكاذيب، وكلِّ ذلك».

«إذاً أنت لم تعد تصدِّق تلك القصَّة التي روتها؟».

قال ستانلي بتهكُّم: «ما رأيك!».

«إذاً، فأين كانت الفتاة طوال تلك المدَّة حسب رأيك؟».

---

24 وجبة طعامٍ بين الفطور والغداء، عادةً ما تؤكل عند الساعة الحادية عشرة ولهذا يسميها الإنجليز Elevenses. المترجمة.

«إن كنت أتذكَّر شيئاً، فإنَّني أتذكَّر سيِّدة البحر الأحمر. سأقول طبعاً... لولا أنَّها... طبعاً... من جماعة إطالة السهرة حتَّى الصباح»، قالها ستانلي، وخرج لخدمة زبون.

حمل روبرت الصحيفة ومضى بها بهدوء. ثمَّة رجلٌ واحدٌ على الأقلِّ لم يصدِّق القصَّة؛ بدا كأنَّ ما يدعوه إلى ذلك هو ذكرى قديمةٌ مبنيةٌ على مقدارٍ من سخريةٍ راهنة.

ومع أنَّ ستانلي قد قرأ القصَّة بالتأكيد من دون التدقيق في أسماء الأطراف المعنيَّة أو حتَّى أسماء الأماكن؛ فإنَّ عشرةً في المئة فقط من القرَّاء يفعلون ذلك (بحسب أفضل ملاحظةٍ جماهيريَّة[25])، في حين يقرأ تسعون في المئة منهم كلَّ كلمة، ولعلَّهم الآن يتلذَّذون بمناقشة القضيَّة، كلٌّ حسب هواه.

في مكتبه، عرف أنَّ هالام قد سعى جاهداً إلى الاتِّصال به هاتفيّاً.

كان السيِّد هيسلتاين العجوز واقفاً بباب غرفته الآن، وقد وافاه بالأخبار من فور وصوله، فقال له: «هلّا أغلقت الباب ودخلت، فألقيتَ نظرةً إلى هذا».

تناول سمّاعة الهاتف بيدٍ، ووضع الصحيفة أمام السيِّد هيسلتاين باليد الأخرى.

تلمَّسها العجوز بيده الضامرة المتقزِّزة، كما لو أنَّه للمرَّة الأولى يرى مستنداً غريباً كهذا. قال: «إذاً، هذه هي الصحيفة التي يسمع عنها المرء كثيراً»، ومنحها اهتماماً كما يفعل مع أيِّ وثيقةٍ غريبةٍ.

---

25 Mass Observation: منظَّمة دراسات بريطانية. المترجمة.

لَمَّا جمعهما الاتِّصال، قال هالام: «كلانا في ورطة، أليس كذلك!».

راح ينبش من المفردات بعض الصفات لوَصْمِ صحيفة (آك إيما) بها. واختتم يقول، متبنِّياً موقف الشرطة بعفويَّة: «وكأنَّ الشرطة لا ينقصها إلَّا صحيفةٌ كهذه؛ لتنشغل بها في آخر الأمر».

«هل سمعت شيئاً من سكوتلاند يارد؟».

«لم يهدأ هاتف غرانت منذ التاسعة صباحاً. غير أنَّهم عاجزون عن فعل أيِّ شيء؛ ما عدا التبسُّم والتحمُّل. فرجالُ الشرطة لقمةٌ سائغةٌ على الدوام. وما بيدك حيلة حتَّى وإن وصل الأمر إلى هذا الحدِّ».

قال روبرت: «لا حيلة. لدينا صحافةٌ حرّةٌ ونظيفة».

ذكر هالام بضعة أمورٍ أخرى عن الصحافة، ثمَّ سأل: «هل تعرف موكِّلتاك بالأمر؟».

«لا أظنُّ ذلك. لكنِّي على يقين من أنَّهما غير معتادتين مطالعة صحيفة (آك إيما)، ولم يُتح الوقت بَعدُ لفاعل خيرٍ كي يرسلَ إليهما نسخةً منها. لكنَّهما ستصلان إلى هنا في غضون عشر دقائق، وعندئذٍ سأريهما إيَّاها».

قال هالام: «لو كنت سأتأسَّف يوماً لتلك العجوز سليطة اللسان، لتأسَّفت في هذه اللَّحظة».

«كيف حصلت صحيفة (آك إيما) على القصَّة؟ حسبتُ أنَّ أُسرة الفتاة -أعني الوصيين عليها- كانت تعارض بشدَّة هذا النَّوع من الإشهار».

«قال غرانت إنَّ أخَ الفتاة قد ضاق ذرعاً بعناصر الشرطة الَّذين لم يتَّخذوا أيَّ إجراءٍ، فذهب إلى صحيفة (آك إيما) من تلقاء نفسه. وهم ضليعون في تحشيد المناصرين. فصحيفة (آك إيما) تفعل ذلك على أكمل

وجه! ذات مـرَّةٍ، علمـت أنَّ إحدى حملاتهم الشرسـة اسـتمرَّت حتَّى ثلاثة أيَّام».

لَّما أغلق روبرت الخطَّ، فكَّر في أنَّ هذه الاستراحة كانت سيِّئة لكلا الطرفين، لكنَّها استراحةٌ عادلةٌ في الأقلّ. فرجال الشرطة، من دون أدنى شكٍّ، سيضاعفون جهودهم من أجل العثور على دليل دامغ، ومن جهةٍ أخرى، نشرُ صورة الفتاة قد يمنح أسرة شارب أملاً، وإن كان ضئيلاً، في تعرُّف أحدٍ ما، في أيِّ مكان على الفتاة، ولربَّما يقول: لا يمكن لهذه الفتاة أن تكون في فرانشايز في اليوم المذكور؛ لأنَّها كانت في مكان كذا وكذا.

قال السيِّد هيسلتاين: «قصَّةٌ مروِّعةٌ. وإن جاز لي القول، فالبيان يبعث على الصدمة أيضاً. هجوميٌّ إلى أبعد حدٍّ».

قال روبرت: «ذاك هو منزل فرانشايز، حيث تقطن السيِّدة شارب العجوز وابنتها، حيث ذهبت يومذاك لتقديم استشارةٍ قانونيَّةٍ لهما، إن كنتَ تذكر ذلك».

«تقصد أنَّ هاتين موكِّلتانا؟».

«نعم».

«لكن، يا سيِّد روبرت، هذا ليس ضمن اختصاصنا على الإطلاق»، جفل روبرت إزاء الفزع في صوته، «إنَّ هذا خارج إطار ما اعتدناه كلّيّاً. إنَّه يفوق ما اعتدناه... لسنا مؤهَّلين...».

قال روبرت ببرود: «نحن مؤهَّلون للدِّفاع عن أيِّ موكِّلٍ ضدَّ منشور من مثل ما تنشره (آك إيما)».

نظر السيِّد هيسلتاين إلى الجريدة الفاضحة على الطاولة، وكان جليّاً أنَّه أمام اختيارٍ صعبٍ ما بين موكِّلتين مُتَّهمتين وصحيفةٍ شائنة.

سأل روبرت: «هل صدَّقت قصَّة الفتاة عندما قرأتها؟».

قال السيِّد هيسلتاين ببساطة: «لا أدري كيف استطاعت اختلاق القصَّة، فالقصَّة محبوكةٌ بإحكامٍ شديد، أليس كذلك؟».

«إنَّها محبوكةٌ فعلاً. لكن، سبق لي أن رأيت الفتاة عندما أُحضِرتْ إلى منزل فرانشايز لتتعرَّفه في الأسبوع الماضي- تلك هي المرأة التي هرعتُ إليها بعد شرب الشاي على الفور- ولا أصدِّق كلمةً واحدةً ممَّا قالت. ولا كلمة». كرَّرها واغتبط لقولها بصوتٍ عالٍ وواثقٍ أمام نفسه، وليطمئنَّ أنَّه صدَّق القصَّة أخيراً.

«لكن، كيف خطر في بالها منزل فرانشايز تحديداً وعرفت تلك التفاصيل كلَّها مادامت لم تكن هناك؟».

«لست أدري، ليس لديَّ أدنى فكرة».

«إنَّه حتماً أغرب مكانٍ يمكن أن يقع الاختيار عليه، فهو منزلٌ بعيدٌ، ومتوارٍ، وعلى طريقٍ ناءٍ في بلدٍ لا يتبادل فيه الناس الزيارات كثيراً».

«أعرف. ولا أدري كيف نجحت هذه الخدعة، لكنَّني متأكِّدٌ من أنَّها خدعة. هذا الانتقاء لم يكن للقصص، وإنَّما كان للأشخاص. فأنا واثقٌ جدّاً بأنَّ السيِّدتين شارب لن تتمكَّنا من القيام بسلوكٍ جنونيٍّ كهذا، في حين أنَّني لا أصدِّق أنَّ الفتاة لن تتمكَّن من سرد قصَّةٍ كهذه. هذا ما أعنيه». توقَّف للحظةٍ ثمَّ أضاف معوِّلاً على اسم الكاتب القانونيِّ العجوز الذي كان يناديه به في طفولته، «وكلُّ ما عليك يا تيمي، هو أن تثقَ برأيي».

سواء أكان ذلك بتأثير مناداته بِـ (تيمي) أم بتأثير قوَّة الحجَّة، فقد بدا جليّاً أنَّ السيِّد هيسلتاين قد استنفد اعتراضاته.

قال روبرت: «ستُتاح لك رؤية المجرمتين بنفسك؛ إذ أسمع صوتيهما في الردهة الآن. هل يمكنك إحضارهما إلى هنا؟».

خرج السيِّد هيسلتاين لأداء مهمَّته بصمت، فيما رتب روبرت الصحيفة ليُظهِرَ الفتاة المسالمة نسبياً على متن الصَّحيفة؛ فتكون أوَّل ما تقع عليه أعين زائرتيه.

خذلها حدسها إزاء الاجتماع، فاعتمرت السيِّدة شارب قبَّعةً على شرف المناسبة. كانت قبَّعةً مسطَّحةً من الساتان الأسود، وقد أسبغت عليها هيئة دكتورة في الجامعة، ولم يذهب ذلك سدىً؛ فقد بدت نظرة الارتياح جليَّةً على وجه السيِّد هيسلتاين، فمن الواضح أنَّها لم تكن موكِّلةً من ذاك الصنف الذي توقَّعه، بل على العكس، كانت من صنف الموكِّلين الذين اعتادهم.

وبينما كان روبرت يرحِّب بضيفتيه، قال له: «لا تذهب»، ثمَّ اتَّجه بحديثه إليهما: «أريد أن أعرِّفكما إلى السيِّد هيسلتاين، أقدم أعضاء الشركة».

الأناقة تليق بالسيِّدة شارب، وقد بدت في أناقتها أشبه ما تكون بِـ (ڤيكتوريا ريجينا[26]). كان السيِّد هيسلتاين مفعمًا بالارتياح؛ لقد استسلم، وانتهت معركة روبرت الأولى.

لَّما انفردتا به، لحظ روبرت أنَّ ماريان كانت تنتظر لتبوحَ بأمرٍ ما.

قالت: «حصل معنا أمرٌ غريبٌ اليوم. ذهبنا لنحتسيَ القهوة في مقهى (آن بولين)- كثيراً ما نذهب إلى هناك- وقد كانت ثمَّة طاولتان شاغرتان، غير

26 مسرحية للكاتب البريطاني لورنس هوسمان، وڤيكتوريا ريجينا في المسرحية شخصية الملكة ڤيكتوريا (التي حكمت المملكة المتحدة: بريطانيا العظمى وأيرلندا 1837-1876) وقد عُرِضَت المسرحية على المسرح الخاص في لندن، 1935، ثم عُرضت على المسرح العام في 1937. المترجمة.

أنَّ الآنسة ترولوف أسرعت إلى مساند الكراسي لتثنيهما لتقابل الطاولتين، قائلةً إنَّهما محجوزتان. كنت لأصدِّقها لو أنَّها لم تبدُ مرتبكةً للغاية. هل تظنُّ أنَّ الشائعات قد عملت عملها، وأنَّ ما فعلته إنَّما يُعزى إلى ثرثراتٍ تناهت إلى مسمعيها؟».

قال روبرت بحزنٍ: «لا. بل لأنَّها قرأت هذا الصباح صحيفة (آك إيما)». رفع صفحة الغلاف من الصحيفة إلى الأعلى: «يؤسفني أنَّ لديَّ أخباراً سيِّئة لك، يجب ألَّا تلقي لها بالاً، مثل كلام الأولاد الصغار. لا أفترض أنَّه قد سبق لك رؤية هذه الصحيفة الخبيثة عن قرب. إنَّه لمن المؤسف أن يقومَ تعارفنا في بدايته على هذا النحو الشخصيِّ».

لَمَّا وقعت عينا ماريان على صورة منزل فرانشايز، قالت بحرقة: «آه... لا».

ثمَّ هبط صمتٌ طويلٌ في أثناء استغراق المرأتين في محتويات الصفحة الداخليَّة.

قالت السيِّدة شارب: «أفهم من هذا أنَّه لا حقَّ لنا في أيِّ تعويضٍ فيما يتعلَّق بهذا النوع من الأشياء؟».

قال روبرت: «لا، فكلُّ البيانات صحيحةٌ تماماً. وهي مبنيَّةٌ على الإفادة، وليست تعليقاً عليها -ولا أشكُّ في أنَّ التعليق آتٍ- فليس ثمَّة تهمةٌ، وبذلك فالقضيَّة لم تُقدَّم إلى القضاء بعد. ولهم مطلق الحرِّيَّة في التعليق عليها متى شاؤوا».

قالت ماريان: «إنَّ المقال برمَّته عبارةٌ عن تعليقٍ هائلٍ مبطَّنٍ يُشير إلى إخفاق رجال الشرطة في أداء واجبهم. ماذا يحسبون أنَّنا فعلنا؟ رشوناهم؟».

«أظنُّ أنَّهم يشيرون إلى أنَّ تعاطف رجال الشرطة مع الضحيَّة المسكينة أقلُّ من تعاطفهم مع الأشرار الأغنياء».

كرَّرت ماريان بصوتٍ قد غشيته المرارة: «أغنياء!».

«إنَّ أيَّ شخصٍ لديه ستُّ مداخن هو شخصٌ غنيٌّ. والآن. إن لم تمنعك الصدمة من التفكير؛ ففكِّري. نحن نعرف أنَّ الفتاة لم تكن في منزل فرانشايز مطلقاً، وأنَّها لن تتمكَّن من...» لكنَّ ماريان قاطعته.

«أنت تعرف ذلك؟» سألته.

قال روبرت: «أجل».

قالت بهدوء: «شكراً لك».

«إن لم تذهب الفتاة إلى هناك قطُّ؛ فكيف تسنَّى لها أن ترى المنزل؟... لقد رأته بطريقةٍ ما، إنَّه لمن غير المرجَّح تصديق أنَّها تكرِّر وصفاً قد لقَّنها إيَّاه أحدٌ آخر. فكيف تمكَّنت من رؤيته؟ أعني بحالةٍ طبيعيَّة».

قالت ماريان: «أفترض أنَّ مشاهدته ممكنةٌ من على سطح الحافلة، غير أنَّ الحافلات ذات الطابقين لا تمرُّ من طريق ميلفورد. أو من فوق شاحنةٍ محمَّلةٍ بالتبن؛ غير أنَّ هذا الوقت من السنة ليس موسم تِبْن».

قالت السيِّدة شارب بصوتها الأجشِّ: «لعلَّه ليس موسمَ تبن، لكن ليس هناك موسمٌ لشاحنات النَّقل. لقد رأيت شاحناتٍ محمَّلةً ببضائعَ بارتفاع أيِّ عربةٍ تنقل التبن».

قالت ماريان: «أجل. أفترض أنَّ شاحنةً هي التي أقلَّت الفتاة، وليست سيَّارة».

«ثمَّة شيءٌ واحدٌ فقط ينافي ذلك. فلو أنَّ شاحنةً هي التي أوصلت الفتاة، فإنَّها ستركب في القُمرة؛ حتَّى وإن اضطُرَّت إلى الجلوس في حِجرِ أحدهم، فهم لن يقذفوا بها فوق الحمولة. ولا سيَّما أنَّها كانت أمسية ماطرة. لعلَّك تذكرين... ألم يأتِ أحدٌ إلى فرانشايز للسؤال عن الطريق، أو لبيع شيءٍ ما، أو لإصلاح شيءٍ ما -أحدٌ ما كانت الفتاة بصحبته- حتَّى لو ظلَّت خارج المنزل؟».

لكن لا، كلتاهما كانت متيقِّنة من أنَّ أحداً لم يأتِ عندما كانت الفتاة تقضي إجازتها.

«فلنُسَلِّمْ إذاً أنَّ ما عرفته عن منزل فرانشايز، إنَّما قد عرفته حين أُتيحت لها فرصةٌ ما لتكون على ارتفاعٍ يسمح لها برؤية ما وراء الجدار. قد لا نعرف كيف ومتى حدث ذلك، حتَّى وإن عرفنا ذلك، فقد لا نتمكَّن من إثباته. لذا، فإنَّنا سنبذل كلَّ جهودنا، لا من أجل إثبات أنَّها لم تكن في منزل فرانشايز وإنَّما لنثبت أنَّها كانت في مكانٍ آخر غيره».

سألت السيِّدة شارب: «وما احتمال حدوث ذلك؟».

قال روبرت مشيراً إلى الصَّفحة الأولى من صحيفة (آك إيما): «احتمالٌ أفضل بكثيرٍ ممَّا كان عليه قبل نشر هذه. حتماً إنَّه الإيجابيَّة الوحيدة في هذا العمل المشين. إذ لم يكن في وسعنا أن ننشرَ صورة الفتاة بغية الحصول على معلوماتٍ عن مكان وجودها إبَّان ذاك الشهر. لكنَّهم بعد أن نشروها -أقصد أهلها- فسنحصل على الفائدة نفسها. لقد نشروا القصَّة -وهنا يكمن سوء حظِّنا، لكنَّهم نشروا الصورة أيضاً- وإذا ما حالفنا الحظُّ، ولو قليلاً، فسوف يلحظ أحدٌ ما، في مكانٍ ما، أنَّ هذه الصورة ليست لتلك القصَّة. إذ يستحيل أن تكون صاحبة الصورة في المكان المذكور في زمن وقوع الحادثة، كما ورد في القصَّة؛ لأنَّ هذا الشخص يعرف بنفسه أنَّ هذه الفتاة كانت في مكان آخرَ في ذلك الحين».

تخلّى وجه ماريان عن مظهره الكئيب قليلاً، وبدا ظهر السيّدة شارب النحيل أقلّ تشنُّجاً. فلربّما كانت تلك المصيبة هي السبيل إلى خلاصهما بعد كلّ هذا.

سألت السيّدة شارب: «وماذا يمكن أن نفعل فيما يتعلّق بالتحقيق الخاصّ؟ وأظنُّك تعرف أنَّ ما لدينا من المال قليلٌ جدّاً؛ وإنَّني أرى أنَّ إجراء تحقيقٍ خاصٍّ هو محض هدرٍ للمال».

«عادةً ما يحصل هذا فعلاً إن كانت المساومة مع أكثر من تحرٍّ واحد، فمن الصعب رصد ميزانيَّةٍ لذلك. لكنَّني في البداية سأذهب بنفسي لمقابلة مختلف الأشخاص المعنيِّين، وسأتحرَّى المجالات التي سيستند إليها أيُّ تحقيقٍ ما أمكنني ذلك. وسأكتشف ما كان بصدد فعله».

«وهل سيُخبرونك بذلك؟».

«لا، لعلَّهم، هم أنفسهم، غير مدركين لنواياها. لكنَّ الصورة قد تكتمل تقريباً إن هم تحدَّثوا عنها، هذا ما آمله في الأقلّ».

ساد الصمت لبضع لحظات.

«أنت غايةٌ في اللطف سيِّد بلير».

عاد رُقيُّ (فيكتوريا ريجينا) إلى السيِّدة شارب مرّةً أخرى، إنَّما معَ تلميح إلى شيءٍ آخرَ. شيءٌ يشبه الدَّهشة. كما لو أنَّ اللُّطف واحدٌ من الأشياء التي لم تعتدْ أن تصادفها، ولا أن تنتظرها في حياتها. كان عرفانها بالجميل راقياً أبيّاً، كما لو أنَّها تقول بفصاحة: ‹أنت عالمٌ بفقرنا، وقد لا نستطيع أن ندفع لك ما يكفي، ولعلّنا لسنا من النوع الذي قد ترغب في أن تتوكّل عنه. لكنَّك مع ذلك تبذل قصارى جهدك لتقدِّم أفضل ما لديك، ونحن ممتنّتان لك›.

سألته ماريان: «متى ستذهب؟».

«بعد الغداء مباشرةً».

«اليوم!».

«خيرُ البرِّ عاجله».

قالت السيِّدة شارب وهي تقف: «إذاً، فلن نعطِّلك». توقَّفت للحظةٍ تنظر إلى الصحيفة الملقاة على المنضدة. وقالت: «لقد نعمنا بقدرٍ كبيرٍ من الخصوصيَّة في منزل فرانشايز».

لَمَّا رآهما تخرجان من الباب وتتَّجهان نحو سيَّارتها، دعا نيڤيل إلى المجيء إلى غرفته، وتناول سمَّاعة الهاتف، وتكلَّم مع العمَّة لين كي تجهِّز له الحقيبة.

وجَّه السؤال إلى نيڤيل: «أحسب أنَّك لا تتابع جريدة (آك إيما) مطلقاً».

قال نيڤيل: «أرى أنَّها مسألة بلاغة».

«ألقِ نظرةً على عدد هذا الصباح. مرحباً عمَّة لين».

«هل ثمَّة من يريد مقاضاتهم لأجل شيءٍ ما؟ إن كان الأمر كذلك فهذا يعني أنَّنا سننتفع ماليّاً. عمليّاً هم يلجؤون إلى التسوية دوماً خارج حدود المحكمة. إذ يرصدون مبالغ مخصَّصةً من أجل...» غاب صوت نيڤيل تماماً. لقد رأى صفحة الغلاف تحدِّق به من على الطاولة.

اختلس روبرت نظرةً إليه من فوق الهاتف، متشفِّياً بمراقبة الصَّدمة البحتة وهي تغزو ملامح ابن عمِّه الفتيَّة. هو يعرف أنَّ شبَّان اليوم يحسبون أنفسهم منيعين على الصدمات. أراحه أن يعرف أنَّهم يتصرَّفون مثل أيِّ إنسانٍ آخر حين يواجهون صفعةً عاديَّةً في الحياة الواقعيَّة.

«هلّا تفرَّغتِ لأجلي وجهَّزتِ لي حقيبة السفر يا عمَّة لين؟ لقضاء ليلةٍ واحدةٍ فقط...».

فتح نيڤيل الصحيفة. إنَّه يقرأ القصَّة الآن.

«إلى لندن، وعائدٌ على الفور كما أتوقَّع. لكنَّني غير متأكِّد،على أيِّ حال. الحقيبة الصغيرة تفي بالغرض. أريد أقلَّ ما يمكن من الأغراض، فلن أحتاج إلى كلِّ الأغراض. هذا إن كنتِ تحبِّينني. ففي آخر مرَّة، كانت هناك عبوةٌ من مسحوق الهضم تزن ما يقارب نصف كيلوغرام؛ وهل يمكن أن أحتاج إلى مسحوقٍ للهضم عندما أكون في عجلةٍ من أمري؟... حسناً، عندها سأصاب بالتقرُّحات... أجل سآتي إلى الغداء في غضون عشر دقائق تقريباً».

قال الشَّاعر والمفكِّر: «الخنازير المنحرفة!»، متقهقراً إلى العاميَّة الدَّارجة التي تعوزه.

«حسناً، ماذا استنتجت من ذلك؟».

«استنتجت! ممَّ؟».

«من قصَّة الفتاة».

«هل يمكن لأحدٍ أن يستنتجَ منها شيئاً؟ واضحٌ أنَّها مراهقةٌ مختلَّةٌ تُحدِث موجةً من الإثارة».

«وإن أخبرتك بأنَّ المراهقة المذكورة تلميذةٌ عاديَّةٌ، وهادئةٌ جدّاً، وفصيحة اللسان، وبعيدةٌ كلَّ البعد عن الإثارة؟».

«هل رأيتها؟».

«نعم، ولهذا السبب ذهبت في الأسبوع الفائت إلى منزل فرانشايز أوَّل مرَّة؛ كي أكون هناك عندما أحضرت شرطة سكوتلاند يارد الفتاة لمواجهتها».

عليك أن تتقبَّل الحقيقة أيُّها الشابُّ نيڤيل. قد تتكلَّم معك عن الدَّجاجات وعن موباسان، لكنَّها حينما تقع في مأزقٍ فهي تلجأ إليَّ أنا. «لأكون هناك ممثِّلاً لها؟».

«بالتأكيد».

هدأ بال نيڤيل فجأة. «حسناً، هذا جيّد. حسبتُ للحظةٍ أنَّك ضدّها. ضدّهما. لكن هذا جيّد. يمكننا أن نوحّد قوانا لنُحبط مسعى هذه الـ...» نقر الصحيفة بإصبعه. «هذه الفصعونة[27]». ضحك روبرت لاختيار نيڤيل الأنموذجيّ للَّقب. «ماذا ستفعل حيال الأمر، روبرت؟».

أخبره روبرت: «أنت ستتولَّى الأمر في غيابي». و لما رأى أنَّ نيڤيل قد أولى اهتمامه ‹الفصعونة› مجدَّداً، تحرَّك نحوه لينضمَّ إليه، وتأمَّل كلٌّ منهما الوجه الفتيَّ الَّذي ينظر إليهما بِرقة.

قال روبرت: «وجهٌ جذَّابٌ في العموم، فماذا تقول فيه؟».

قال ذوَّاق الجمال ببطءٍ وغلٍّ: «قد يبدو ما أريد قوله سخيفاً وبذيئاً للغاية».

---

27 لفظة تستخدمها العامَّة في إشارة إلى الطفل الذي تصدر عنه أقوال وأفعال أعلى من مستواه العُمري. المترجمة.

-7-

كان منـزل أُسرة ويـن خـارج آليزبـيري، في حيٍّ تعـرِّش فيـه البيـوت عـلى تخـوم الحقـول في صفـوف شـبه منفصلـة، تلك الحقـول التـي حافظت عـلى نقاوتها، مدركـةً جوهرَهـا، وغير عابئـةٍ بالبيـوت الدخيلـة والمتعجرفة والمهمَلـة بحسـب الطابـع الذي منحهـا إيَّـاه بنَّاؤوها. عاشـت أُسرة وين في واحـدٍ من تلـك الصفوف الكئيبة. سلسـلة مـن الـدُّور المتداعيـة، المبنيَّة من الطـوب الأحمر، جعلـت روبرت يضغـط على أسـنانه. كانت بدائيَّـةً للغاية، شـنيعةً للغايـة، وتدعـو إلى الشـفقة كثـيراً. وبينـما كان يقـود سـيَّارته بتمهُّل بحثـاً عـن الرقـم المنشـود، غلبـه الحـبُّ متجلِّيـاً في الزخرفـة التـي قـد تزيِّن قبـحَ هـذه المنشـآت. لم يصلهم الحبُّ، بـل طالتهـم تصفية الحسـابات فقط. لكـنَّ كلَّ واحـد مـن أصحـاب هذه البيـوت، يـرى أنَّ هـذا البيـت العاري الصغـير، الذي حصـل عليه، فآواه، هـو بيتٌ ذو جمـال كافٍ. كانت الحدائق معجـزاتٍ صغـيرةً مـن الجـمال، تصلح كلُّ واحـدة منهـا لتكون وحيـاً عذبـاً يداعـب قلـب شـاعرٍ مغمور.

وبينما كان روبرت يُبطئ القيادة مرَّة أخرى، أسرَ عينيه إبداعٌ جديدٌ، وفكَّر في أنَّ على نيفيل أن يأتي إلى هنا؛ فالشعر هنا أكثر ممَّا يمكن أن يجده في أعداد اثني عشرَ شهراً من مجلَّته الأثيرة (واتشمان). كلُّ العناصر التي تلزمه متوافرة هنا: الفكرة، الإيقاع، اللَّون، الدلالات المتكاملة، التصوير، والتأثير...

أم أنَّ نيڤيل سيرى صفّاً من حدائق الضواحي فقط؟ جادَّة (ميدوسايد) في آليزبيري، وقليلاً من نباتات (وولورث[28]) الرخيصة في حدائقها فحسب؟

محتمل.

البيت رقم 39، بعشب أخضر عاديٍّ تؤطِّره الصخور. وقد تميَّز أيضاً بأنَّ ستائره غير ظاهرةٍ. ليس ثمَّة ستائر خفيفةٌ من ‹التول› المنسدل على الزجاج، ولا ستائر قماشيَّةٌ بيض معلَّقةٌ على جانبَي النافذة. كانت النوافذ مُشرَعةً للشمس والهواء ونظرات الناس. وقد أذهل هذا الأمر روبرت، كما أذهل الجيران غالباً. بدا له ذلك نذيراً بتمرُّد لم يحسب حسابه.

قرع الجرس آملاً ألَّا يظهرَ بمظهر البائع الجائل. كان مرافعاً. وهذا جديد على روبرت بلير.

فاجأته السيِّدة وين أكثر ممَّا فاجأته نوافذها. ما إنِ التقاها أدرك إسهابه في تخيُّل صورة المرأة التي تبنَّت وربَّت بيتي كين: الشعر الرماديُّ، الشخصيَّة الوقور والمريحة، والوجه الحكيم منفرج الأسارير، ولربَّما كانت ترتدي مئزراً أو حتَّى ثوباً مزهَّراً ممَّا ترتديه ربَّات البيوت عادةً. لكنَّ السيِّدة وين لم تكن أيّاً من ذلك. لقد كانت نحيفةً ومرتَّبةً وشابَّةً وعصريَّةً وعابسةً، وخدَّاهاورديَّان، ولا تزال جميلةً على الرَّغم من ذلك كلِّه. لها عينان بنيَّتان لامعتان متَّقدتان، لم يسبق لروبرت أن رأى مثيلاً لهما قطُّ.

لَّما رأت شخصاً غريباً، اتَّخذت موقفاً دفاعيّاً، وبحركة عفويَّةٍ واربت البابَ الذي كانت تمسك به؛ لكنَّ نظرةً ثانيةً كانت كفيلةً بطمأنتها. شرح لها روبرت

---

28 سلسلة متاجر شهيرة في بريطانيا آنذاك، تبيع كلّ شيءٍ تقريباً (من البقالة إلى أصص النباتات الوارد ذكرها هنا). المترجمة.

مَن يكون، فأنصتت إليه ولم تقاطعه، ما أثار إعجابه. قلّةٌ قليلةٌ من موكّليه، الذكور والإناث، مَن يُنصتُ إليه بلا مقاطعة.

بعد أن أوضحَ لها سبب حضوره، اختتم بقوله: «لستِ مُجبرةً على التحدُّث إليَّ. لكنَّني آمل كثيراً في ألَّا ترفضي. لقد أخبرت المفتِّش غرانت أنَّني آتٍ لرؤيتكم هذا المساء، نيابة عن موكِّلتيَّ».

«ما دامت الشرطة على علم بهذا، ولا مانع لديها»، تنحَّت إلى الخلف مفسحةً له في المجال للمرور أمامها، «أتوقَّع منك أن تبذلَ قصارى جهدك من أجل أولئك الأشخاص ما دمتَ محاميهم. وليس لدينا ما نخفيه. لكنَّني أخشى أنَّك لن تستطيعَ مقابلة بيتي إن جئتَ لأجلها فعلاً، فقد أرسلناها إلى أصدقائنا في الريف لقضاء اليوم، لتفادي تلك الجلبة كلّها. كانت نوايا ليزلي طيِّبةً، غير أنَّ تصرُّفه كان غبيّاً».

«ليزلي؟».

«ابني. تفضَّل بالجلوس إن أحببت». وعرضت عليه الجلوس على أحد الكراسي المريحة في غرفة جلوسٍ لطيفة وبسيطة. «لقد كان غاضباً من رجال الشرطة إلى درجةٍ كبيرةٍ منعته من التفكير بسلاسة، أعني أنَّه غاضبٌ من عجزهم عن فعل أيِّ شيء على الرَّغم من وجود ما بدا أنَّه دليلٌ قاطع. لطالما كان مخلصاً لبيتي. في الواقع، إلى حين خطوبته، كانا لا يفترقان أبداً».

أرخى روبرت أذنيه. هذا هو الحديث الذي جاء لسماعه.

«خطوبته؟».

«أجل. لقد خطب فتاةً جميلةً بعد بدء العام الجديد مباشرةً. وقد أسعدنا جميعاً ذلك».

«هل سعدَتْ بيتي بذلك؟».

قالت وهي تنظر إليه بعينيها اللَّماحتين: «لم تشعر بالغيرة، إن كنت تلمِّح إلى ذلك. أقدِّر افتقادها لأولويَّاتها عنده كما كانت في سابق عهدها، لكنَّها كانت لطيفةً جدّاً بشأن ذلك. إنَّها فتاةٌ لطيفةٌ، سيِّد بلير. صدِّقني، فقد كنتُ مُدرِّسةً قبل أن أتزوَّج- لم أكن مُدرِّسةً جيِّدةً، لهذا تزوَّجتُ عند أوَّل فرصة- وأعرف الكثير عن الفتيات. لم يسبق لبيتي أن أتعبتني قطُّ».

«أجل. أعرف. جميعهم يمتدحونها. هل خطيبة ابنك زميلة لها في المدرسة؟».

«لا. إنَّها غريبة. انتقل أهلها للعيش بالقرب من هنا، وقد التقاها في حفلٍ راقص».

«هل تذهب بيتي إلى حفلاتٍ راقصة؟».

«ليس إلى حفلات رقص الكبار. فهي صغيرةٌ على حضورها».

«إذاً، لم تقابل الخطيبة مُسبقاً؟».

«لأكون صادقةً معك؛ لم يسبق لأيٍّ منَّا أن قابلها، فقد آثر أن يُفاجئنا بها. لكنَّنا أحببناها كثيراً، والأمر لدينا سيَّان».

«لا بدَّ أنَّه صغيرٌ جدّاً كي يتزوَّج».

«الأمر سخيفٌ تماماً. فهو في العشرين وهي في الثامنة عشرة. لكنَّهما لا ثقان أحدهما للآخر. وأنا شخصيّاً كنتُ صغيرةً جدّاً عندما تزوَّجت، لكنَّني كنتُ سعيدةً جدّاً. لم يكن ينقصني إلَّا وجود ابنة، وقد ملأت بيتي هذا الفراغ».

«ماذا تريد أن تفعل عندما تترك المدرسة؟».

«هي لا تعرف. بحسب المعطيات التي أراها، فهي لا تتمتَّع بأيِّ موهبةٍ مميَّزةٍ في أيِّ مجال. لديَّ حدْسٌ بأنَّها ستتزوَّج في سنٍّ مبكرة».

«بسبب جاذبيَّتها؟».

«لا، بل...» توقَّفت لوهلة، وبدا أنَّها غيَّرتْ ما كانت بصدد قوله، «لأنَّ الفتيات اللواتي لا يتمتَّعنَ بموهبةٍ معيَّنة، يستسلمنَ للزواج بسهولة».

تساءل ما لو أنَّها توشك أن تقولَ شيئاً ذا علاقة، ولو من بعيدٍ، بأصحاب العيون الزرق المتباعدة.

«لمَّا لم تُفلح بيتي في المجيء في موعدها من أجل العودة إلى المدرسة، حسبتِ أنَّها تكاسلت عن العودة إلى المدرسة فحسب؟ معَ أنَّها طفلةٌ حسنة التهذيب».

«أجل. فقد بدأتْ تشعر بالملل من المدرسة، وكانت تقول دوماً- وقولها صحيحٌ فعلاً- إنَّ اليوم الأوّل للعودة إلى المدرسة هو يومٌ مهدور. لهذا، حسبنا أنَّها (تستغلُّه) لمرَّةٍ واحدةٍ كما يقولون. ولمَّا سمع ليزلي أنَّها لم تعد بعدُ، قال إنَّها تجرِّب التّغيُّب».

«فهمت. هل كانت مرتديةً ثياب المدرسة في عطلتها؟».

للمرَّة الأولى، نظرت السيِّدة وين إليه بارتياب، وقد اعتراها الشكُّ في غرضه من السؤال.

«لا. لا، كانت ترتدي ثياب الخروج... أتعرف أنَّها لمَّا عادت كانت ترتدي ثوباً وتنتعلُ حذاءً فقط؟».

أومأ روبرت.

«من الصعب عليَّ أن أتصوَّر أنَّ امرأتين تصلُ بهما الخِسَّةُ إلى درجة معاملة طفلةٍ ضعيفةٍ على ذاك النحو».

«حتَّى إنِ التقيت السيِّدتين، فسيصعب عليكِ تصوُّر ذلك أكثر من ذي قبل».

«لكن، يمكن لأسوأ المجرمين أن يظهروا بمظهر الأبرياء والمسالمين، أليس كذلك؟».

تغاضى روبرت عن ذلك، فقد أراد أن يقفَ على موضوع الكدمات على جسد الفتاة.

«هل كانت الكدمات ذات عهدٍ قريب؟».

«جديدة تماماً. حتَّى إنَّ معظمها لم يكن ظاهراً بَعدُ».

فُوجِئ روبرت بهذا قليلاً.

«أفهم من هذا أنَّ ثمَّة كدماتٍ أقدم أيضاً؟».

«إن كان ثمَّة كدماتٌ، فلا بدَّ أنَّها قد بهتَتْ كثيراً، وما عاد بالإمكان ملاحظتها بين مثيلاتها الجديدة والمؤذية».

«كيف بدا شكل الكدمات الجديدة؟ أناتجةٌ عن الجَلْد؟».

«لا. في الواقع لقد تعرَّضتْ للضرب، حتَّى إنَّها أُصيبَتْ في وجهها الصغير الغضِّ؛ انتفاخٌ في الحنك، وكدمةٌ كبيرةٌ على الصّدغ من الجهة الأخرى».

«يقول رجال الشرطة إنَّها كانت تُصاب بحالةٍ هيستيريَّةٍ كلَّما قيل لها إنَّ عليها إخبارهم بقصَّتها».

«حصل هذا عندما كانت مريضة. ما إنْ باحت لنا بالقصَّة، وحصلتْ على نقاهةٍ طويلة، صار من السَّهل إقناعها بإعادة سرد القصَّة لرجال الشرطة».

«أعرف أنَّكِ ستجيبين عن هذا بصراحة، سيِّدة وين: ألم يساورك شكٌّ في صحَّة قصَّة بيتي؟ ولو للحظةٍ واحدة؟».

«ولا للحظة. لماذا قد يساورني شكٌّ؟ لقد كانت طفلةً صادقةً على الدوام. حتَّى وإن لم تكن كذلك، فكيف لها أن تختلقَ قصَّةً طويلةً مفصَّلةً كهذه من دون أن ينكشفَ أمرها؟ لقد سألها رجال الشرطة ما طاب لهم من أسئلة، ولم تكن هناك أيُّ تلميحاتٍ تحول دون قبول شهادتها كما هي».

«لمَّا أخبرتكِ قصَّتها للمرَّة الأولى، هل سردَتها لكِ دُفعةً واحدة؟».

«لا. احتاج ذلك إلى يومٍ أو يومين. الخطوط العريضة أوَّلاً، ومن ثمَّ التفاصيل التي تتذكَّرها لتُرمِّم بها شكوكها، من مثل النافذة المستديرة في العليَّة».

«هل تشوَّشت ذاكرتها في غضون الأيَّام التي قضتها في الصدمة؟».

«لا أظنُّ ذلك ممكناً في حالٍ من الأحوال. أعني، بالنسبة إلى عقلٍ مثل عقل بيتي؛ فهي تتمتَّع بذاكرةٍ صوريَّة».

حقّاً! فكَّر روبرت وكلُّه آذانٌ مصغية.

«حتَّى لمَّا كانت طفلةً صغيرةً. كان في وسعها النظر إلى صفحةٍ في كتاب -كتاب للأطفال طبعاً- وإعادة ذِكر معظم المحتويات من الصورة التي احتفظ بها عقلها. وحينما نلعب لعبة الذَّاكرة -أتعرفها؟- لعبة الأغراض على الصينيَّة- فإنَّ علينا ألَّا نُشرِكَ بيتي في اللُّعبة، لأنَّها ستفوز بالتأكيد. لا. ستتذكَّر ما رأته».

حسناً. هناك لعبةٌ أخرى يتذكَّرها روبرت، يكون فيها التنافس على البكاء (حامياً).

«أنتِ تقولين إنَّها كانت طفلة صادقة على الدوام -والكلُّ يؤكِّد قولك هذا- لكن، ألم يسبق لها أن أطلقت العنان للنزعة الرومانسيَّة في حياتها كما يفعل الأطفال أحياناً؟».

قالت السيِّدة وين بحزم: «إطلاقاً». ثمَّ أضافت: «بدت الفكرة هزيلةً لتُغريها. لم تستطع. إن لم يكن الأمر جديّاً فلن تعيرَه بيتي اهتماماً. حتَّى لعبة حفلات الشاي الَّتي كانت تلعبها بالدُّمى، لم تكن تتوهَّم وجود شيءٍ على الأطباق كما يفعل بقيَّة الأطفال بسعادة، وكان لا بدَّ من وجود شيءٍ حقيقيٍّ، حتَّى وإن كان قطعة خبزٍ صغيرة. عادةً ما يكون شيئاً أحسنَ بالطبع، وقد كانت تلك طريقة جيّدة للتخلُّص من زوائد الطعام بالطبع. ومن جهتها هي، لطالما كانت طمَّاعة قليلاً».

أكبَرَ روبرت فيها موضوعيَّتها فيما تعدُّه من خصوصيَّات ابنتها التي تحنُّ إليها. أيكون هذا ما تبقَّى من قلَّة ثقة المُعلِّمة في أفعال الآخرين؟ في كلِّ الأحوال، إنَّ ذلك مدعاة تقديرٍ أكثر بكثيرٍ ممَّا لو كان حبّاً أعمى للطفلة.

مؤسفٌ أن تُكافأَ على ذكائها وتفانيها بهذا الأسلوب السيِّئ.

قال روبرت: «لا أريد الاستمرار في حديث لا يروقك. لكن، ربَّما يمكنك إخباري عن الوالدين قليلاً».

سألته السيِّدة وين دَهِشةً: «والداها؟».

«أجل. هل كنتِ على معرفةٍ جيِّدةٍ بهما؟ كيف كانا؟».

«لم نعرفهما قطُّ. ولم نرهما قطُّ».

«لكنَّك اعتنيتِ ببيتي لمدَّة -كم كانت المدَّة؟ لتسعة أشهر؟- قبل أن يُقتل والداها، أليس كذلك؟».

«بلى، لكنَّ والدتها كتبت إلينا بعد مدَّةٍ قصيرة من مجيء بيتي إلينا، وقالت إنَّ مجيئها لرؤية الطفلة لن يزيد الطفلة إلَّا غضباً وحزناً، وإنَّ الحلَّ الأمثل للجميع يكمن في تركها في عهدتنا إلى أن تسنحَ لها الفرصة للعودة إلى لندن. ورجتْ لو أمكنني أن أحدِّث بيتي عنها في كلِّ يومٍ مرَّةً واحدةً في الأقلِّ».

امتلأ قلب روبرت بالشَّفقة على هذه المرأة المجهولة الميتة، التي كانت على استعداد لاقتلاع قلبها فداءً لطفلتها الوحيدة. يا لهذا الكنز من الحبِّ والاهتمام الذي أغدقته على الطفلة التي جرى إجلاؤها، بيتي كين!

«هل استعادت هدوءها بسهولة عندما أتت؟ أو أنَّها كانت تبكي على أمِّها؟».

«بكت لأنَّ الطعام لم يعجبها. لا أذكر بكاءها لأجل أمِّها البتَّة. لقد أحبَّت ليزلي من الليلة الأولى -كانت مجرَّد طفلة، كما تعرف- وأظنُّ أنَّ اهتمامها به قد محا أيَّ حزن كان ليصيبها. وقد كان له من العمر أربع سنوات، وهو العمر الأمثل للشعور بمسؤوليَّته في رعايتها. وهو يشعر بهذا الآن -وهذا ما أوقعنا في هذه الورطة اليوم-».

«وكيف حدثت قصَّة (آك إيما) هذه؟ أعرف أنَّ ابنك هو مَن ذهب إلى الجريدة. لكن، ألم تؤيِّديه في نهاية الأمر...».

«يا إلهي! لا»، قالت السيِّدة وين بسخط، «لقد حصل الأمر برمَّته قبل أن نتمكَّن من فعل أيِّ شيءٍ حياله. لقد كنتُ وزوجي خارج المنزل عندما أتى ليزلي ومعه المراسل -فقد أرسلوا معه رجلاً حين سماعهم القصَّة لينقلوها عن بيتي مباشرةً- وعندما ...».

«ومنحتْها لهم بيتي بطواعية».

«لا أدري كيف منحتْها لهم. فأنا لم أكن موجودة. أنا وزوجي لم نعرف شيئاً عن الأمر، قبل صباح هذا اليوم، ولمَّا وضع ليزلي أمامنا صحيفة (آك إيما)، فقد فعل ذلك بشيءٍ من التحدِّي، إن صحَّ التعبير. إنَّه لا يشعر بالرضا إزاء فعلته. غير أنَّ الأمر قد انتهى. لا بدَّ أن أؤكِّد لك، سيِّد بلير، إنَّ صحيفة (آك إيما) ليست من النوع الذي يستهوي ولدي عادةً. ولو لم يكن ثائراً...».

«أعرف. أعرف كيف حدث ذلك تماماً. وأسلوب ‹أخبرنا- بمشكلاتك- وسنأتي- لك- بحقّك› إنَّما هو تغريرٌ لئيم»، انتصب واقفاً، «لقد كنتِ فعلاً في غاية اللُّطف سيِّدة وين. وأنا جدُّ ممتنٌ لك».

بدت نبرته مفرطةً في التودُّد على نحوٍ فاق توقُّعها، ما دعاها إلى النظر إليه بارتياب، كما لو أنَّها تسأل وقد اعتراها شيءٌ ما شبيهٌ بالجزع: ‹وماذا قلتُ لأساعدك؟›.

سأل عن المكان الذي عاش فيه والدا بيتي في لندن، فأخبرته. وأضافت: «لم يعد ثمَّة شيءٌ هناك. لا شيء سوى العراء. سيكون المكان جزءاً من مشروع بناءٍ جديد، لذلك لم يغيِّروا فيه شيئاً حتَّى الآن».

عند عتبة الباب، التقى ليزلي مصادفةً.

كان ليزلي شابّاً بهيَّ الطلعة، منقطع النَّظير، وقد بدا أنَّه غير عابئٍ بأنَّ هذه السِّمة تحبِّبه إلى روبرت الذي لم يطق نظراته اللطيفة. تخيَّله روبرت كالثور الهائج؛ لكنَّه، بخلاف ذلك؛ كان فتىً مهذَّباً ولطيفاً. عيناه خجولتان صادقتان، وشعره ناعمٌ غير مرجَّل. لَّما قدَّمت له أمُّه روبرت، وعرَّفته سبب مجيئه إليهم، نظر إليه بعين العداوة البحتة، وقد اتَّشحت حملقته الغاضبة بصيغة التّحدِّي، تماماً كما قالت أمُّه عنه؛ فقد كان جليّاً أنَّ ليزلي لم يكن، في صميمه، سعيداً جدّاً هذا المساء.

لَمَّا استهجن روبرت تصرُّفه، قال محتدّاً: «لا يمكن لأحدٍ أن يضربَ أختي وينجو بفعلته».

قال روبرت: «أنا متعاطفٌ مع وجهة نظرك، لكنَّني شخصيّاً كنت لأفضِّل أن أُضربَ كلَّ ليلة، لأسبوعين كاملين، على أن تُنشر صورتي في صفحة غلاف جريدة (آك إيما). ولا سيَّما إن كنتُ فتاةً شابَّة».

أبدى ليزلي ملاحظته بإصرار: «لو أنَّك تعرَّضت للضرب كلَّ ليلةٍ، ولأسبوعين كاملين، ولم يحرِّك أحدٌ ساكناً، لكنت في قمَّة السرور عند نشر صورتك في أيِّ جريدة، مادام ذلك سيُنصِفُك». وانسلَّ ليزلي من بينهما داخلاً المنزل.

التفتت السيِّدة وين إلى روبرت وهي تبتسم ابتسامةً خفيفةً، في سبيل الاعتذار، فقال روبرت مستغلًّا لحظة ضعفها: «سيِّدة وين، في حال تبيَّن أنَّ شيئاً ما في القصَّة الَّتي روتها بيتي غير صحيح، فأتمنَّى منك ألَّا تفضلي إبقاء المارد في سُبَاته[29]».

«لا تعلِّق آمالك على هذا الاعتقاد، سيِّد بلير».

«هل ستتركين المارد لسُباته والبريء لمعاناته؟».

«لا. لم أقصد ذلك. قصدتُ آمالك في أن أشكَّ في قصَّة بيتي. ما دمتُ قد صدَّقتها في البداية، فالأرجح أنَّني لن أشكَّ فيها لاحقاً».

«لا أحد يدري. قد يتبيَّن لك، يوماً ما، أنَّ هذا الأمر أو ذاك غير مقنع، وأنت تتمتَّعين بذهنٍ قادرٍ على التحليل بالتأكيد، وقد يفاجئك بشيءٍ ما في أثناء اللاوعي، ولربَّما في اللحظة التي لن تتوقَّعيها. لعلَّه شيءٌ ما قد حيَّركِ في الصميم فأبى أن يبقى دفيناً في أعماقكِ أكثر من ذلك».

---

29 المَثَل الإنجليزي sleeping dogs are best left، ويكافئه في العربية: الفتنة نائمة. المترجمة.

رافقته في مسيرِهِ باتِّجاه البوَّابة. ولمَّا وصل بكلامه إلى جُملَتِه الأخيرة، استدارَ ليوَدِّعَها، وفي تلك الحركة المباغِتة، ثمَّة شيءٌ قد تحرَّك وتوارى في عينيها، ذاك ما لحِظَه.

إذاً، على الرَّغم من ذلك، هي لم تكن متيقِّنة.

في موضعٍ ما من القصَّة، من الملابسات، ثمَّة شيءٌ صغيرٌ خلَّفَ سؤالاً في عقلها التحليليِّ الرَّزين.

ما هذا الشيء؟

طوال مسيرته المهنيَّة لاحقاً، سيتذكَّر على الدوام أنَّ هذا هو الأنموذج المثاليُّ الوحيد للتواصل عبر التخاطر. وبينما أوشك أن يركبَ سيَّارته، توقَّف اوهلةٍ، وقال: «لمَّا عادت إلى المنزل، هل كانت تحمل أيَّ شيءٍ في جيوبها؟».

«كان جيباً واحداً فقط. ذاك الذي في فستانها».

«وهل كان فيه أيُّ شيء؟».

اجتمعت شفتاها في زمَّةٍ خفيفةٍ، وقالت بحياد: «أحمر شفاهٍ فقط».

«أحمر شفاه؟ مازالت صغيرةً على هذا. أليس كذلك؟».

«عزيزي السيِّد بلير. إنَّهنَّ يبدأنَ بتجربة أحمر الشفاه في سنِّ العاشرة. فهو يوازي سعادة يومٍ ممطر. يستعضنَ به عن ارتداء ثياب أمَّهاتهنَّ».

«أجل، ربَّما. إنَّ (وولورث) صاحب يدٍ بيضاء عظيمة».

ابتسمت وقالت: «وداعاً مرَّةً أخرى». واتَّجهت قاصدةً المنزل، فيما ابتعد هو بسيَّارته.

تساءل روبرت بينما كان عائداً من جادَّة (ميدوسايد) ذات الطريق الوعر إلى الشارع الدَّاكن المعبَّد لطريق لندن - آليزبيري الرئيس، ما الذي أربكها بخصوص أحمر الشفاه؟ هل لأن اللَّعينتين في منزل فرانشايز قد تركتاه مع الفتاة؟ أهذا هو الأمر الغريب في نظرها؟

كم هو مثيرٌ أن يقتحمَ القلقُ عقلَها الباطن، ليمكِّن روبرت من التواصل معه بنفسه، بهذه السرعة. هو نفسه لم يكن يدري أنَّه سيقول تلك الجملة بخصوص جيوب الفتاة، إلَّا في اللَّحظة التي سمع فيها نفسه يقولها. لو أنَّ الأمر متروكٌ إليه، لما خطر في باله أن يتساءلَ عمَّا في جيوب الفتاة البتَّة؛ بل ولما خطر في باله أنَّ لثوبها جيباً في الأصل.

إذاً، فقد كان هناك أحمر شفاه.

وقد كان وجوده مدعاةً لحيرة السيِّدة وين.

حسناً، كان في وسعه أن يضيفَ تلك القشَّة إلى كومته الصغيرة التي جمعها. إلى الفتاة التي تتمتَّع بذاكرةٍ صوريَّة. إلى الفتاة التي خسرت مكانتها الأثيرة بغير سابق إنذارٍ، منذ شهرٍ أو شهرين. إلى جشعها. إلى مللها من المدرسة. إلى حبِّها «للواقعيَّة».

وقبل كلِّ شيءٍ، إلى الأسرة التي عجز أفرادها عن معرفة ما يدور في عقل بيتي كين، بمن فيهم السيِّدة وين الحياديَّة والعاقلة. ففتاةٌ في عمر الخامسة عشرة، لطالما كانت محور الكون لشابٍّ فتيٍّ، ألفت نفسها وقد أُبعدت عنه بين عشيَّةٍ وضحاها، من غير المعقول حتماً أن تردَّ على الموقف من غير عنف. لكنَّ بيتي كانت «لطيفةً جدّاً بشأن ذلك».

وجد روبرت في هذا ما يثلج الصدر. فهذا يثبت أنَّ ذاك الوجه النقيَّ الفتيَّ لا ينتمي إلى شخصيَّة بيتي كين إطلاقاً.

-8-

قرَّر روبرت أن يضربَ عصافير عدَّةً بحجر واحدٍ في أثناء قضائه تلك الليلة في لندن.

بادئ ذي بدء، كان في حاجةٍ إلى سند. وفي ظلِّ الظروف الراهنة، لن يجد سنداً له أفضل من صديق المدرسة القديم كيڤين ماكديرموت. فعلى الأرجح أنَّ ما يجهله كيڤين عن الجنايات ليس بالشيء الكثير. وباعتباره محاميَ دفاعٍ مشهوراً، فقد كانت معرفته بالطبيعة الإنسانيَّة معرفةً شاملةً ومتنوِّعةً ومميَّزة.

حتَّى تلك اللَّحظة، تساوت كفَّتا الرهان على ميتة ماكديرموت، فهل سيموت تحت تأثير ضغط الدَّم قبل بلوغه الستين من عمره، أو أنَّه سيموت مُنعَّماً في فراشه الوثيرِ في عمر السبعين؟ تمنَّى روبرت أن تكون الثانية. إذ كان كيڤين مفضلاً لديه.

كان السبب الأوَّل لتقرُّبهما، أحدهما من الآخر، في المدرسة، هو طموحهما إلى دراسة الحقوق، لكنَّهما أصبحا صديقين وبقيا كذلك؛ لأنَّ أحدهما يُكمل الآخر. فالرَّجُلِ الأيرلنديُّ يرى أنَّ وقار روبرت ظريفٌ واستفزازيٌّ ومريحٌ -إن كان متعباً-، فيما يرى روبرت أنَّ تفاخر القِلْطي[30] كيڤين كان نادراً

30 مجموعة من الشعوب الهندو-أوروبيّة التي كانت تقطن بريطانيا القديمة قبل الرومان. وتُستَعمل لفظة القلطي للإشارة إلى الشخص الذي ينتمي إلى شعوب القِلط البريطانية العتيقة، ولا سيَّما للإشارة إلى شخصٍ من أيرلندا، اسكتلندا، ويلز أو بريتاني. المترجمة.

وآسراً. كان طموح روبرت إلى العودة إلى البلدة الريفيَّة الصغيرة ومواصلة الحياة وفق الصورة التي كانت عليها، هو شيءٌ أنموذجيٌّ، في حين كان كيڤين يطمح إلى تغيير كلِّ ما يمكن تغييره في القانون، متفانياً في إحداث الجَلَبة اللازمة لذلك.

حتَّى الآن، لم يغيِّر كيڤين كثيراً -مع أنَّه بذل قصارى جهده في سبيل بعض الأحكام القضائيَّة- لكنَّه أحدث ضجَّةً ملحوظةً بأسلوبه البسيط والخبيث. فحضوره في قضيَّةٍ ما يرفع من قيمة الصحيفة الَّتي تكتب عنه بنسبة خمسين في المئة، ما يعني رفْع قيمة النَّشر لديها إلى أكثر من ذلك بكثير.

تزوَّج -بدافع المصلحة، لكنَّه سعِدَ بزواجه- وصار له بيتٌ بالقرب من (ويمبردج)، وثلاثة أبناءٍ ورثوا عن أبيهم جرأته ونحافته وسُمْرته وحيّويَّته. وتلبيةً لأغراضه في المدينة، كانت له شقَّةٌ صغيرة في ساحة كنيسة القدِّيس بولُس، حيث «في وسعه النَّظر إلى 'الملكة آن[31]'» كما قال. وكلَّما قدم روبرت إلى المدينة -وقلَّما يحدث ذلك- يتناولان عشاءهما معاً، إمَّا في الشقَّة وإمَّا في آخِرِ مكانٍ تذوَّق فيه كيڤين شراب (كلاريت) لذيذاً. بعيداً عن مجال القانون، تَنْصَبُّ ميول كيڤين على عروض الخيَل ونبيذ (كلاريت) الفرنسيِّ والأفلام الفكاهيَّة الَّتي تُطلِقها (وارنر بروس Warner Bros).

يُفترض أنَّ كيڤين كان يتناول عشاءه اللَّيلة في إحدى الحانات، هذا ما قالته السكرتيرة لروبرت عندما اتَّصل ليكلِّمه من ميلفورد؛ لكن أسعده هذا العذر المنطقيّ الذي سيعفيه من الكلام؛ لذا فقد كان على روبرت أن يذهبَ مباشرةً بعد انقضاء وقت العشاء إلى ساحة كنيسة القدِّيس بولُس؛ لينتظره هناك.

---

31 تمثال في ساحة الكنيسة. المترجمة.

وهذا أمرٌ جيِّد؛ فبعد عودته من العشاء، سيكون كيڤين مرتاحاً ومهيّأً للتركيز طيلة وقت المساء، لا قلِقاً تاركاً ثلاثة أرباع عقله في قاعة المحكمة، كما يحدث معه في بعض الأحيان.

في هذه الأثناء، سيتّصل بغرانت في سكوتلاند يارد، ويرى إذا ما أمكنه لقاؤه لبضع دقائق في الصباح. عليه أن يفهمَ كيف ستكون علاقته مع سكوتلاند يارد: رفاقُه الصابرون، إلّا أنّهم خصومه في هذه المبارزة.

رحَّبوا به في فندق (فورتيسكيو) كما لو أنَّ صلة قرابةٍ تربطهم به، ذاك المكان الإدوارديُّ العتيق في شارع (جيرمان)، حيث نزل فيه للمرَّة الأولى منذ أن سُمِحَ له بالقدوم إلى لندن بمفرده.

أعطوه «الغرفة التي نزل فيها آخر مرّة»؛ غرفةٌ هادئةٌ ومريحةٌ، بسريرٍ وثيرٍ وأريكةٍ منجّدةٍ فاخرة. أحضروا له صينيةً عليها إبريق شاي كبير الحجم، وإبريق قشدة من الفضَّة وفق النمط الجورجيِّ، وطبقٌ بلوريٌّ فيه رطلٌ من مكعَّبات السكَّر، وكوبٌ فاخرٌ من صُنع (دريسدن) منقوشٌ عليه أزهارٌ وقلاعٌ صغيرة، وطبقٌ أحمرُ مُذَهَّبٌ من نوعِ (وارسيستر)، صُنع خصيصاً «القائدهم اللّواء» ويليام الرابع وملكته، وسكّينٌ ذو نصلٍ منحنٍ ومقبضٍ بنيٍّ مُلطَّخ.

الشَّاي والصينيَّة، بثّا الانتعاش في روبرت. نزل إلى الشوارع المعتمة، وقد تملَّكه شعورٌ غريبٌ بالتفاؤل.

ما بين تيقُّظٍ وغفلة، أوصلَه بحثُه عن حقيقة بيتي كين، إلى الأرضِ الخاوية، التي انتصبتْ فيها آنفاً بنايةٌ للشقق السكنيَّة، حيث قضى والداها في انفجارٍ قويٍّ مُدمِّر. كانت الأرض مُقفِرةً تماماً، تنتظر حِصَّتها الموعودةَ من خطَّةٍ ما. لم يكن ثمَّة ما يدلُّ على أنَّ المبنى قد انتصب ذات يومٍ على تلك الأرض، في حين

اصطفَّت حولها البيوت غير المتضرِّرة، بواجهاتها البيضاء النظيفة، مثل أطفالٍ معتوهين يحول غباؤهم دون إدراكهم معنى الكارثة. لم يتأثَّروا بها، وهذا هو كلُّ ما عرفوه عنها، أو كلُّ ما اهتمُّوا لأمره.

على الجهة المقابلة من الشارع الواسع، انتصب صفٌّ من المتاجر الصَّغيرة؛ ومن الواضح أنَّه قد ظلَّ في هذه الحال منذ ما يزيد عن الخمسين عاماً. عبَرَ روبرت الطريق باتِّجاهها، وقصدَ متجراً للدُّخان ليشتريَ سجائر؛ فبائع السجائر والجرائد يعرف كلَّ شيء.

سأله روبرت، وهو يميل برأسه باتِّجاه الباب: «هل كنتَ هنا عندما حصل هذا؟».

«عندما حصل ماذا؟»، سأله الرَّجُل الضئيل المتورِّد، الذي اعتاد منظر الأرض الخاوية، ولم يعد يعبأ بها منذ زمنٍ بعيد.

«الواقعة؟».

«لا، فقد كنت في الخدمة. كنت مراقِباً».

قال له روبرت إنَّه قصد هل كانت تجارته قائمةً آنذاك.

«أوه... أجل». كانت تجارته قائمةً حينها، وقبل ذلك الحين بكثير، فقد نشأ في الحيِّ، وخلَفَ والده في تجارته.

«إذاً فأنت تعرف أهالي المنطقة جيّداً. بالمناسبة، هل تذكر الزوجين اللَّذين كانا يعتنيان بمبنى الشقق السكنيَّة؟».

«أسرة كين؟ أذكر طبعاً. ولِمَ لا أتذكَّرهما؟ لقد كانا يتردَّدان على هذا المكان طوال اليوم. فهو يأتي لأجل جريدته الصباحيَّة، وبعد وقتٍ قصيرٍ تأتي هي لأجل سجائرها. ثمَّ يعود لأجل جريدته المسائيَّة، وتعود هي للمرَّة الثالثة

غالباً لأجل السجائر. وقد اعتدنا، أنا وهو، أن نذهبَ لتناول الشراب في الجوار، بعد أن يأتي ابني لأخذ العمل عن عاتقي هنا، إن هو أنهى مراجعة دروسه. هل تعرفهما يا سيِّدي؟».

«لا، لكنَّني قابلت ذات يومٍ شخصاً تحدَّث عنهما. كيف استحال المكان حطاماً؟».

عبس الرجل الضئيل المتورِّد في إيماءة ساخرة.

«بناءً هشّاً، هكذا كان. مجرَّد بناءٍ هشٍّ. سقطت القذيفة في تلك المنطقة -وهكذا قُتلت أسرة كين. كانا في القبو يشعران بأنَّهما في مأمنٍ- ثمَّ انهار كلُّ شيء كما لو كان بيتاً من ورق[32]. مروِّع». رتَّب حوافَّ الصحف المسائيَّة المتكوِّمة أمامه لتصبح على سويَّةٍ واحدةٍ.

«من سوء حظِّها أنْ سقطت قذيفة في الأمسية الوحيدة التي بقيتْ فيها مع زوجها منذ أسابيع خلت»، بدا كما لو أنَّه يجد لذَّةً في سخرية الفكرة. سأله روبرت: «إذاً، فأين تكون عادةً؟ هل تعمل في وظيفة مسائيَّة؟».

قال الرَّجل الضئيل باحتقارٍ بالغ: «تعمل! هي!»، ثمَّ قال وقد انتبه إلى الأمر: «أنا آسف، إنَّني جدُّ آسف. نسيت للحظة أنَّهما قد يكونان صديقين...».

هرع روبرت يطمئنه أنَّ الغرض من اهتمامه بأسرة كين هو أكاديميٌّ صِرف، وأنَّ كلَّ ما في الأمر أنَّ أحدهم تذكَّر أنَّهما كانا يعتنيان بالمبنى السكنيِّ فقط. «وما الذي كانت السيِّدة كين تخرج لأجله ليلاً ما دامت لا تعمل؟».

---

32 ورق اللعب، الكوتشينة. المترجمة.

«للاستمتاع بوقتها طبعاً. أجل. حتَّى في ذلك الحين- كان في وسع الناس الاستمتاع بأوقاتهم- إن هم أرادوا ذلك فعلاً، وسَعَوا إليه سَعيَه. أراد منها السيِّد كين أن تذهبَ مع ابنتها الصغيرة إلى الريف، لكن أيُعقل أن تقبل؟ ليست هي مَن يقبل بهذا. قالت إنَّ قضاء ثلاثة أيَّامٍ في الريف كفيلةٌ بقتلها. حتَّى إنَّها لم تذهب لرؤية تلك الصغيرة عندما عمدوا إلى إجلائها. أعني أنَّ السلطات هي مَن أجْلَتْها مع بقيَّة الأطفال. برأيي، إنَّها كانت على استعدادٍ لتدفع عمرها ثمناً لأجل أن تُعفى من عبء الطفلة، وتتمكَّن من الخروج للرقص ليلاً».

«مَن كان يرافقها للرقص؟».

قال الرجل الضئيل باقتضاب: «الضُّبَّاط». ثمَّ قال على عجل: «فذاك أكثر إثارةً من مراقبة العشب وهو ينمو. أنا لا أقول إنَّ في ذلك أيَّ أذيَّةٍ ملموسة. تذكَّرْ أنَّها ميتة، وإن كنتَ تفهم قصدي، فأنا لا أريد أن أُلصقَ بها أيَّ تهمة؛ لأنَّها ليست هنا لتدافع عن نفسها منها. لكنَّها كانت أمّاً سيِّئةً، وزوجةً سيِّئةً، وذلك جليٌّ، ولا يمكن لأحدٍ أن يقول خلاف ذلك».

قال روبرت وهو يفكِّر في عواطفه التي راحت هدراً على والدة بيتي: «هل كانت فاتنة؟».

«أجل، متجهِّمة إلى حدٍّ ما. كما لو أنَّها تكابر على مشاعرها. قد تتساءل عن حالها إذا ما كانت منتشيةً. وإنَّني أقصد بهذا أن تكون مثارةً، لا ثملة. لم أرَها ثملةً قطُّ. فالإثارة وفق تلك الطريقة لا تستهويها».

«وماذا عن زوجها؟».

«حسناً. كان يدعى بيرت كين. كان يستحقُّ أن يحظى بامرأةٍ أفضل منها. لقد كان بيرت واحداً من خيرة الرجال. كان مولعاً بالطفلة

الصغيرة كثيراً، وقد أفسدها بدلاله طبعاً. يكفي أن ترغبَ في شيءٍ ليأتيها به؛ لكنَّها مع ذلك، كانت طفلةً جميلة. جادَّة. لا يذوب الزُّبدُ في فمها[33]. أجل. كان بيرت يستحقُّ أن تمنحه الحياة أكثر من مجرَّد زوجةٍ لاهيةٍ وطفلةٍ نفعيَّةٍ. لقد كان بيرت واحداً من أفضل الرجال...» نظر متأمِّلاً المكان الخاوي خلْف الطريق، وقال: «احتاجوا إلى ما يقرب من أسبوع لإيجاده».

دفع روبرت ثمن سجائره، وخرج إلى الشارع محزوناً ومرتاح البال في آنٍ معاً. حزيناً على بيرت كين الذي كان يستحقُّ أفضل من ذلك؛ لكنَّه سعيدٌ لأنَّ والدة بيتي كين لم تكن المرأة التي تصوَّرها. فطوال الطريق إلى لندن، كان عقله يتحسَّر على تلك المرأة المتوفَّاة. المرأة التي اقتلعت قلبها لأجل مصلحة ابنتها. لم يتحمَّل فكرة أن تكون بيتي كين هي الابنة التي أحبَّتها أمُّها حبّاً جمّاً. لكنَّه تحرَّر الآن من ذاك الحزن. فلو كان إلهاً، لاختار والدة بيتي كين تحديداً لتكون أمّاً لها. وهي بدورها بدت ابنة أمِّها فعلاً.

‹طفلةٌ نفعيَّةٌ›. حسناً، حسناً. وما الَّذي قالته السيِّدة وين عن ذلك؟ ‹بكت لأنَّ الطعام لم يعجبها. لا أذكر بكاءها على أمِّها البتَّة›.

ولا على أبيها الذي تفانى في تدليلها،كما يبدو.

لَّما عاد إلى الفندق، أخرج من حقيبة أوراقه نسخته من صحيفة (آك إيما)، وبينما كان يتناول عشاءه في (فورتيسكيو) بمفرده، راح يتمعَّن على مهله بالقصَّة الواردة في الصفحة الثانية بدءاً من الإعلان -الافتتاحيَّة البسيطة-: «في ليلة من ليالي أبريل، عادت فتاةٌ إلى بيتها، لا شيء يسترها سوى ثوبٍ وحذاء. غادرتِ البيتَ تلميذةً مشرقةً وسعيدةً، بلا...».

---

33 تعبيرٌ شائعٌ لدى البريطانيين يفيد أنّها باردة المشاعر؛ كثلّاجة. المترجمة.

وصولاً إلى النهاية المشحونة بالتنهُّدات. لقد كانت تحفةً صغيرةً فريدةً في نوعها. وصلتْ إلى مبتغاها الذي كُتِبَتْ لأجله بإتقان؛ وهو جذب أكبر عددٍ من القرَّاء بقصَّةٍ واحدةٍ، فأعطت لذوي الاهتمامات الجنسيَّة فتاةً تنقصُها الثياب، وللعاطفيين سحرها وشبابها، وللحزانى حالتها البائسة، وللساديّين تفاصيل ضربها، وللضحايا من مناهضي الطبقيَّة وصفاً للبيت الأبيض خلف أسواره العالية، ولعامَّة الشعب البريطانيِّ الطيّب إيحاءً بأنَّ رجال الشرطة متقاعسين، في الأقلِّ، فيما لو لم تكن (متواطئة)، وبأنَّها لم تفعل ما هو الصواب بعدُ.

نعم. كان ذلك ألمعيّاً.

بالتأكيد، فالقصَّة أُهديت إليهم -وهذا ما دعاهم، وعلى وجه السرعة، إلى إرسال رجلٍ ليرافق ليزلي وين في عودته- لكنَّ روبرت شعر أنَّ لصحيفة (آكـ إيها) قدرة خلق قصَّةٍ مقنعةٍ من لا شيء، إن هم بذلوا قصارى جهدهم.

إنَّه لعملٌ محزنٌ ذاك الذي لا يقتات إلَّا على خيبات البشر. قلَّب الصفحات وقد استرعت انتباهه الكيفيَّة الَّتي سُبكت فيها كلُّ قصَّةٍ على هذا النحو المتَّسق بهدف استجداء شجون القارئ. حتَّى في القصَّة التي تحمل عنوان (تخلَّى عن مليون)، لَحِظَ روبرت أنَّها عن عجوز مشينٍ دفعها للتخلُّص من ضريبة دخله، لا عن صبيٍّ ارتقى من حياة البؤس بفضل عزمه ومشاريعه.

أعاد ذلك الشيء إلى حقيبته بنوعٍ من التقزُّز، وأخذ الحقيبة معه إلى ساحة كنيسة القدِّيس بولس. وهناك، كانت عاملة التنظيفات في انتظاره معتمرةً قبَّعتها. اتَّصلتْ سكرتيرة السيِّد ماكديرموت به لتخبرَه بمجيء صديقه، وهكذا أُتيح له دخول البيت، ومن دون تردُّد، تُرك هناك بمفرده، فهي قد بقيت إلى ذلك الحين من أجل أن تُدخله فقط، وسترحل الآن وتتركه في المكان. توجد منضدةٌ صغيرةٌ بالقرب من المدفأة، عليها زجاجة ويسكي،

وكانت هناك زجاجةٌ أخرى في الخزانة، فلعلَّ الحكمة اقتضت منها ألَّا تذكِّر السيِّد ماكديرموت بها، وإلَّا فسيبقى إلى وقتٍ متأخِّرٍ، وستتكبَّد هي عناء إيقاظه في الصباح؛ فيما لو أنَّك سألْتَها عنها.

قال بلير وهو يبتسم لها: «لا تكمن العلَّة في الويسكي، وإنَّما في دمه الأيرلنديِّ. فكلُّ الأيرلنديُّون يمقتون الاستيقاظ».

استوقفها ذلك على عتبة الباب، فمن الواضح أنَّ الفكرة الجديدة قد أذهلتها.

قالت: «لم أكن لأستغرب ذلك. فزوجي العجوز مثله، وهو أيرلنديٌّ. وعلَّته ليست في الويسكي، هي الخطيئة الأصليَّة فحسب. في الأقلِّ، هذا ما كنت أفكِّر فيه على الدَّوام. لكن، لعلَّ سوء حظِّه يكمن في أنَّه واحدٌ من بني مورفي[34]».

كان مكاناً لطيفاً ومتواضعاً، دافئاً وحميميّاً، ينعم بالسَّكينة الآن، وقد هدأ هدير السيَّارات في المدينة. صبَّ لنفسه شراباً، واتَّجه به نحو النافذة ينظر إلى (الملكة آن). توقَّف لوهلة ليتأمَّل، مرّةً أخرى، كيف تتألَّق القبَّة العظيمة بهذه الخفَّة فوق قاعدة الكنيسة، بهذا التناسق، وهذا التوازن، إلى درجة يتخيَّل فيها المرء أنَّ في وسعه حملها على راحته، وهدهدتها هناك. وبعد ذلك، جلس واسترخى للمرَّة الأولى منذ ذلك الصباح الذي خرج فيه لرؤية تلك المرأة المزعجة التي أرادت تغيير وصيَّتها مجدَّداً.

كان نصفَ نائم عندما سمع صوت مفتاح كيڤين في القفل، وقبل أن يستطيعَ النهوض، كان مضيفه في الغرفة.

---

34 في إشارةٍ إلى أصله الأيرلندي. المترجمة.

قرصَـهُ ماكديرمـوت مـن رقبتـه قرصـةً مشاكسـةً وهـو يمـرُّ مـن خلفـه قاصـداً الآنيـة عـلى المنضـدة. قـال: «لقـد بـدأتَ أيُّهـا الفتـى العجـوز، إنَّهـا البدايـة».

سأل روبرت: «بداية ماذا؟».

«تشنّج رقبتك الجميلة تلك».

فرك روبرت بتكاسلٍ موضع القرصة في رقبته، وقال: «لقد انتبهتُ توّاً إلى تيّار الهواء الّذي تلقَّيتُه من الخلف، وها أنت ذا تذكِّرني به».

قال كيڤين وعيناه ممتقعتان وملتمعتان وساخرتان تحت حاجبيه الأسودين: «بحقِّ المسيح يا روبرت! أما من شيءٍ يثير قلقك، ولا حتَّى احتمال خسارتك الوشيكة لمظهرك الجذّاب؟».

«يعتريني بعض القلق في هذه اللَّحظة، لكن ليس بشأن هيئتي».

«حسناً، ما الَّذي يمكن أن يُقلق شركة بلير وهايوارد وبينيت. يستحيل أن يكون إفلاساً. لذا فإنَّني أرجِّح أن تكون امرأة».

«أجل، لكن ليس كما تُضمر».

«هل تفكِّر في الزواج؟ عليك أن تفعل روب».

«سبق أن قلت لي هذا».

«ألا تريد وريثاً لشركة بلير وهايوارد وبينيت؟».

تذكَّر روبرت أنَّ الهدوء الواثق لشركة بلير وهايوارد وبينيت كان يحرِّض كيڤين دوماً على إلقاء النكات التافهة، «ما من ضمانةٍ بأنَّ الوريث لن يكونَ فتاةً. في كلِّ الأحوال، نيفيل هو مَن سيتولَّى أمر ذلك».

«لن تنجبَ تلك الشابَّة، امرأة نيڤيل، إلَّا أسطوانة غرامافون. سمعتُ أنَّها كانت تعتلي المنبر مجدَّداً في ذلك اليوم. ولو أنَّها كانت تدفع نفقات رحلاتها في القطار، لما كانت على هذا النحو من الإصرار في قدومها إلى البلد لتعبِّر عن الأقليَّة الصاخبة».

قال وهو يجلس حاملاً شرابه: «لن أسألك إن كنت هنا في زيارة عمل، لكن عليك أن تأتيَ في وقتٍ ما، في زيارةٍ تشاهد فيها معالم هذه المدينة. أظنُّك ستعود أدراجك غداً بعد مقابلة الساعة العاشرة التي ستعقِدها مع محامي أحدهم».

قال روبرت: «لا. بل مع أحدٍ من سكوتلاند يارد».

أطرق كيڤين ولمَّا تصل الكأس إلى فمه، ثمَّ قال: «روبرت، أنت تمزح، ما شأن عمل الشرطة ببرجك العاجيِّ؟».

«كلُّ ما في الأمر»، قال روبرت بهدوء، متجاهلاً هذه الفقرة الإضافيَّة التي وُجِّهَتْ إلى تَحصُّنه في ميلفورد، «أنَّني تحمَّلتُ مسؤوليَّة ذلك، ولا أعرف كيف سأتصرَّف فيه. أردتُ أن أسمعَ شخصاً بارعاً في هذا الشأن. لا أدري ما الذي دعاني لأثقلَ كاهلك به. لا بدَّ أنَّك سئمت المشكلات. لكنَّك دائماً ما كنتَ تحلُّ لي مسائل الجبر».

«وإن لم تخنِّي الذَّاكرة، فقد كنتَ تحسب لي دوماً الحصص والأسهم. لطالما كنت غبيّاً فيما يتعلَّق بالأسهم. ما زلت أدين لك بإنقاذي من استثمارٍ خاسر»، ثمَّ أضاف، «بل استثمارين خاسرين».

«اثنين؟».

«تمارا وتوبيكا تين».

«أتذكَّر أنَّني أنقذتك من توبيكا تين، لكن لم تكن لي يدٌ إطلاقاً في انفصالك عن تمارا».

«حقّاً! ألم تكن لك يدٌ في ذلك؟ أيُّها الطيِّب روبرت، لو أمكنك أن تنظرَ إلى وجهك عندما قدَّمتكَ لها. لا. لست أقصد هذا، بل نقيضه تماماً، فتعابير وجهك الفوريَّة قالت كلَّ شيء -قناع المجاملة وحسن التهذيب الإنجليزيِّ المزعج. تصوَّرت كيف سأمضي في الحياة أعرِّف الناس إلى تمارا وأرقب وجوههم تتلوَّن تهذيباً لأجلها... لقد شفاني ذلك منها في زمن قياسيٍّ. لم أكفَّ يوماً عن الاعتراف بفضلك عليَّ. لذا، اعرض عليَّ ما في حقيبة أوراقك».

فكَّر روبرت، وهو يُخرج نسخته من إفادة بيتي كين للشرطة، في أن لا شيء يفوت كيفْين.

«هذه إفادةٌ قصيرة جداً. أتمنَّى أن تقرأها وتخبرني ما وقعها عليك». أراد أن يرصد تأثيرها في كيفْين من دون مقدَّمات تُخفِّف من وطأتها.

أخذها ماكديرموت، وقرأ الفقرة الأولى بلمحةٍ سريعةٍ من عينيه، وقال: «عرفتُها. هذه فتاة صحيفة (آك إيما)».

قال روبرت مذهولاً: «لم يكن لديَّ أدنى فكرة بشأن اطِّلاعك على صحيفة (آك إيما) قبل الآن».

«فليحبُّك الله، أنا أقتاتُ على صحيفة (آك إيما). فمن دون جريمة لن تكون هناك أسبابٌ للشهرة، ومن دون أسبابٍ للشهرة لن يكون هناك كيفْين ماكديرموت. أو لربَّما كانت هناك قطعةٌ منه فقط». وغرق في صمتٍ مطلق. ظلَّ في استغراقٍ تامٍّ لمدَّة أربع دقائق، حتَّى شعر روبرت أنَّه وحيدٌ في الغرفة، كما لو أنَّ مضيفه قد غادره.

خرج عن صمته، وقال: «أفٍّ!».

«إذاً؟».

«أفهم أنَّ المرأتين هما موكِّلتاك في هذه القضيَّة، وليست الفتاة؟».

«بالطبع».

قال كيڤين: «والآن، أخبرني إلامَ انتهيت؟». وأصغى إليه.

أخبره روبرت بالقصَّة كلِّها. زيارته المحيِّرة، انحيازه الزائد؛ فقد صار جليّاً أنَّها مسألة اختيارٍ بين بيتي كين والمرأتين. قرار سكوتلاند يارد برفض التحرُّك بناءً على الدليل المتاح لهم. وتهوُّر ليزلي وين في زيارته إلى مكاتب (آك إيما).

قال ماكديرموت: «فالليلة إذاً لن توفِّر سكوتلاند يارد جهداً في سبيل إيجاد دليل إثباتٍ يدعم قصَّة الفتاة».

قال روبرت وهو محبطٌ: «أفترض ذلك. لكن ما أريد معرفته منك هو: هل تصدِّق قصَّة الفتاة أم لا؟».

أشار كيڤين بمكرٍ محمودٍ: «أنا لا أصدِّق قصَّة أيِّ أحدٍ على الإطلاق. ما تريد معرفته منِّي فعلاً هو: هل أرى أنَّ قصَّة الفتاة مقنعةٌ؟ بالتأكيد أراها كذلك».

«حقّاً!».

«أجل. ولِمَ لا؟».

قال روبرت بانفعال أكبر ممَّا كان يضمر: «لكنَّها قصَّةٌ عبثيَّة».

«لا شيء عبثيٌّ فيها. فالنساء اللاتي يعشنَ حياةً منعزلةً يقمنَ بأفعالٍ مجنونة -وبصفة خاصَّة إذا ما كُنَّ سيِّدات مجتمع فقيرات. منذ أيَّامٍ فقط، وُجِدت

سيِّدةٌ كبيرةٌ في السنِّ وقد احتَجزتْ أختَها وأبقتْها مقيَّدةً بالسلاسل إلى سريرٍ في غرفة أكبر من خزانة الملابس بقليل. وقد أبقتْها في تلك الحال لثلاثة أيّام، وكانت تُطعمها حوافَّ الخبز اليابسة وقشور البطاطا وبقايا طعامٍ كانت هي نفسها ترفض أكلها. لمَّا انكشف الأمر، قالت إنَّ وضعهما الماليَّ يتردَّى بسرعةٍ كبيرةٍ، وكانت هذه هي الطريقة التي ارتأتها لأجل تغطية النفقات. في الواقع، كانت تمتلك رصيداً مصرفيّاً وفيراً وجيّداً، لكن هاجس الخوف من الفقر دفع بها إلى الجنون. وهذه قصَّةٌ -عبثيَّةٌ بحسب وجهة نظرك- وعصيَّةٌ على التصديق أكثر بكثيرٍ من قصَّة الفتاة».

«حقّاً؟ لقد بدت لي قصَّةً مألوفةً عن الجنون».

«هذا لأنَّك تعرف أنَّ ذلك قد حصل فعلاً. أي لأنَّ أحداً ما قد شهد الواقعة. وبافتراض أنَّ ما حدث كان عكس ذلك، فلو انتشرت الشائعات، وسمعت بها الأخت المجنونة، فأطلقت سراح ضحيَّتها قبل إجراء أيِّ تحقيق، بحيث لم يرَ المحقِّقون إلَّا سيِّدتين تعيشان حياةً طبيعيَّةً ظاهريّاً، باستثناء أنَّ إحداهما طبيعتُها معلولة. ماذا يحدث آنذاك؟ هل كنت لتصدِّق حكاية ‹التقييد بالسلاسل›؟ أو أنَّك في الأرجح كنت لتصفها بِـ ‹القصَّة العبثيَّة›؟

غرق روبرت في كآبته أكثر فأكثر.

«ها هما، امرأتان وحيدتان، مثقلتان بمنزلٍ كبيرٍ في الريف كان نصيبَهما التَّعِس من الميراث، إحداهما عجوزٌ لا تقوى على القيام بأعمالٍ منزليَّةٍ كثيرةٍ، والأخرى تكره القيام بها. ما هو أقرب سيناريو يمكن أن يعكس جنونهما الخفيف؟ الانقضاض على فتاةٍ تجعلانها خادمةً لهما بكلِّ تأكيد».

تبّاً لكيفْين ولعقليَّة المحامي المسيطرة عليه. كان يحسب أنَّه يريد رأي كيفْين، لكن ما أراده فعلاً هو دعم كيفْين لرأيه.

«وللمصادفة، فقد أسرتا تلميذةً بريئةً، مستفيدتَيْن من بُعدِها عن منزلها. من سوء حظِّهما أنَّ الفتاة كانت في غاية البراءة؛ إذ لم يضبطها أحدٌ بالكذب المشهود من قبلُ قطُّ، وبهذا سيصدِّق الجميع كلامها هي، لا كلامهما. لو كنتُ مكان رجال الشرطة لخاطرتُ بذلك. يبدو لي أنَّهم يكادون يفقدون صوابهم».

رمى روبرت بنظرة استمتاع، وهو غارقٌ في كرسيِّه، مستغرقاً في ساقيه الطويلتين قرب المدفأة. وللحظة أو اثنتين جلس متلذِّذاً بِحَيْرة صديقه.

ثمَّ قال بإسهاب: «طبعاً، لربَّما تذكَّروا قصَّةً شبيهةً بها، حين صدَّق الجميع قصَّة الفتاة التي تفطَّرت لها الأفئدة، وخُدعوا بها كليّاً».

قال روبرت، وهو يطوي ساقيه الممدودتين، ويعتدل في جلسته: (شبيهة!! متى؟).

«في السابع عشر من شيءٍ ما، نسيتُ التاريخ على وجه الدِّقَّة».

قال روبرت وقد أُحبط مجدَّداً: «آه!».

قال ماكديرموت بهدوء: «لستُ أدري علامَ تتأوَّه. آه؟ فنوعيَّة الأعذار لم تتغيَّر كثيراً في غضون قرنين من الزمن».

«أعذار؟».

«إن كانت ثمَّة فائدةٌ في القضيَّة المشابهة، فستكون قصَّة الفتاة مجرَّد حجَّة غياب».

«إذاً، فأنت تصدِّق -أعني تجد أنَّ من المعقول- أنَّ قصَّة الفتاة كلام فارغ».

«محض اختلاقٍ من البداية إلى النهاية».

«كيفين أنت مخبولٌ. لقد قلتَ إنَّها مُقنعة».

«وما زلتُ أراها كذلك، وأراها أيضاً نسيجاً من الأكاذيب. لستُ مطَّلعاً على أيٍّ من القصَّتين. ويمكنني أن أخرجَ بقضيَّة رابحة في كلتا الحالتين، وبأقصر مدَّة ممكنة. في العموم، سأميل لأكون محامياً لتلك الشابَّة من آليزبيري. ستكون جميلةً في منصَّة الشهود. وبحسب ما أخبرتني به، فإنَّ أيّاً من نساء أسرة شارب لن تُمتِّعَ أنظار المحامي».

نهض ليصبَّ لنفسه المزيد من الويسكي، ومدَّ يده الأخرى بكأسٍ لروبرت. لكنَّ روبرت لم يكن في مزاج جيد للمسامرة. هزَّ رأسه من دون أن يرفعَ بصره عن النار. كان منهكاً، وما عاد راغباً في البقاء مع كيڤين. لقد أخطأ بمجيئه إلى هنا. حينما يمضي رجل مثل كيڤين حياته محامياً في المحاكم الجنائيَّة، فلا مكان في عقله للاتِّهامات، وإنَّما لوجهات النظر. سينتظر ريثما يُنهي كيڤين شرب نصف كأسه الَّتي كان يحملها وهو جالس، ومن ثمَّ سيهمُّ بالانصراف. سيكون مريحاً له أن يضع رأسه على وسادة، وأن ينسى ولو قليلاً أنَّه مسؤولٌ عن مشكلات الآخرين.

قال كيڤين بأسلوبٍ حواريٍّ، وهو يأخذ جرعةً كبيرةً من الويسكي المركَّز: «أتساءل ماذا كانت تفعل طيلة ذاك الشهر».

انفتح فمُ روبرت ليقول ‹إذاً، أنت مؤمنٌ بأنَّ الفتاة مدَّعيةٌ كاذبة›، لكنَّه ردع نفسه في الوقت المناسب.

أبى أن يعاودَ الرَّقص على أنغام مزمار كيڤين في هذا المساء.

فقال: «إن أنتَ شربت كثيراً من الويسكي فوق نبيذ كلاريت، فالعلاج هو ما ستفعله طيلة شهر، يا صديقي». ولفرط دهشته، استند كيڤين بظهره إلى الوراء وراح يضحك كالصِّبْية.

قال بابتهاج: «آهٍ يا روبرت، أنا أحبُّك. إنَّك روح إنجلترا فعلاً. كلُّ ما فيك يثير إعجابنا وحسدنا. تجلس هناك بكلِّ هدوء، وبكلِّ تهذيب، تاركاً للناس إطعامك، إلى أن يستنتجوا أنَّك قِطٌّ عجوزٌ، وأنَّ في مقدورهم أن يفعلوا بك ما طاب لهم. ومن ثمَّ، ما إنْ يبدؤوا بالإعجاب بأنفسهم، ويتمادوا معك، وإذ بذاك المخلب قد خرج ليقوم بواجبه في أثناء غياب القفَّاز!». سحب الكأس من يد روبرت من غير استئذان، ورفعها ليملأها له، وتركه روبرت يفعل. كان قد شعر بتحسُّن حاله.

-9-

كان طريق لندن -لاربورو مثل شريطةٍ سوداء مستقيمةٍ تحت نور الشمس. تتلقَّف السيَّارات المزدحمة ومضات الضوء الماسيَّة وتفقدها من جديد. عمَّا قريب، سيكتظُّ الجوُّ والطرقات معاً، فلن يتمكَّن أحدٌ من التّنقُّل بأريحيَّة، وسيتحتَّم على كلِّ مَن يريد السفر سريعاً أن يعودَ أدراجه إلى السكك الحديديَّة. كان هذا هو: التّقدُّم.

وقد أشار كيڤين في الليلة الماضية إلى سهولة الاتِّصالات في الوقت الحاضر، فمن خلالها، ستكشف التذاكر أنَّ بيتي كين قد أمضت شهرَ إجازتها في (سيدني، نيو ساوث ويلز). كانت تلك فكرةً عويصة. ففي وسعها أن تكون في أيِّ مكان، من (كامشاتكا[35]) إلى (بيرو[36])، وكلُّ ما كان عليه فعله؛ أي بلير، هو أمرٌ تافه، كإثبات أنَّها لم تكن في المنزل الواقع على طريق لاربورو- ميلفورد. لو لم يكن صباحاً مشمساً، ولو لم يكن حزيناً على سكوتلاند يارد، ولو لم يكن كيڤين يشدُّ من أزره، ولو لم يكن يُبلي بلاءً حسناً حتَّى الآن، وبمفرده، لشعر بالإحباط.

آخر ما كان يتوقَّعه هو أن يشعرَ بالحزن على سكوتلاند يارد، لكنَّه كان حزيناً عليهم. كانت إمكانات سكوتلاند يارد برمَّتها مكرَّسةً لإدانة السيِّدتين

35 شبه جزيرة في أقصى شرق روسيا. المترجمة.

36 دولة في قارّة أمريكا الجنوبية. المترجمة.

شارب، وإثبات صحَّة قصَّة بيتي كين؛ لسببٍ وجيهٍ، وهو أنَّهم يصدِّقون أنَّ السيِّدتين شارب مذنبتان. إلَّا أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان يتمنَّى في عميق روحه لو أمكنه رمي بيتي كين إلى صحيفة (آك إيما)، ويمكنهم ذلك فقط إن هم أثبتوا أنَّ قصَّتها ملفَّقة. أجل، كانت هناك حالة إحباطٍ حقيقيَّةٍ وهائلةٍ تعيش في تلك الأجساد الساكنة الضخمة في سكوتلاند يارد.

كان غرانت ساحراً بأسلوبه العقلانيِّ الواضح -وخطر في باله الآن أنَّ زيارته له كانت أشبه بزيارة طبيب- ووافق برحابة صدرٍ على إعلام روبرت بأيِّ رسائل تحريضيَّةٍ قد تثيرها صحيفة (آك إيما).

«لا تعلِّق آمالك كثيراً على هذا، اتفقنا؟»، قال بنبرة تحذيرٍ وديَّة، «إذ تتلقَّى سكوتلاند يارد رسالةً واحدةً ذات أهميَّةٍ في مقابل خمسة آلاف رسالةٍ تافهة؛ فكتابة الرسائل هي المنفذ الطبيعيُّ للمعارضين، والفضوليين، والعاطلين من العمل، والمنحرفين، والمهووسين وجماعة واجبي يحتِّم عليَّ...»

«ولمتطوِّع المصلحة العامَّة...».

قال غرانت مبتسماً: «هو ومتطوِّع الشؤون المدنيَّة. الأصفياء فسدوا أيضاً. كلُّهم يكتبون الرسائل. إنَّه منفذهم الآمن. كما ترى، فعلى الورق يمكنهم أن يتطفَّلوا، وأن يستفيضوا، وأن يشتِموا، وأن يتباهوا، وأن يتشبَّثوا بفكرٍ أوحد، وأن يكونوا كما يريدون، ولا يمكن لأحدٍ أن يعاقبهم على ذلك؛ لذا تراهم يكتبون. يا إلهي كيف يكتبون!».

«لكن ثمَّة فرصة...».

«نعم. ثمَّة فرصة. وستُرمى هذه الرسائل كلُّها، فهي تافهةٌ على أيِّ حال. وأعدك في حال ورود أيِّ شيءٍ مهمٍّ، فسوف يُحال إليك. لكنَّني أذكِّرك أنَّ المواطن الذَّكيَّ يكتب مرَّةً واحدةً من بين خمسة آلاف مرَّة. فهو لا يحبُّ أن

«يحشر أنفه» في أمرٍ يرى أنَّه لا يخصُّه -وهذا ما يدعوه إلى الجلوس بصمتٍ في عربة القطار ولوم الأمريكيين الذين ما فتئوا يتدخَّلون في شؤون الآخرين- وفي كلِّ الأحوال، هو رجلٌ مشغول، تغمره مشاغله الخاصَّة، وجلوسه من أجل كتابة رسالةٍ إلى الشرطة عن شيءٍ لا يعنيه هو أمرٌ ينافي فطرته كليّاً».

لهذا، عاد روبرت راضياً عن سكوتلاند يارد، حزيناً عليهم. في الأقلّ، لديه، أي روبرت، قضيَّةٌ عادلةٌ ليمثّلها، ولن يندم من حينٍ إلى آخرَ، ويتمنّى لو أنَّه كان ممثِّلاً عن الطرف الآخر في قضيَّته. وفوق كلِّ ذلك، فقد حصل على موافقة كيڤين بشأن الطرف الذي اختاره.

قال كيڤين: «كنت أعني ذلك عندما قلت لو أنَّني كنت مكان رجال الشرطة لخاطرت بذلك. لديهم قضيَّةٌ جيِّدةٌ بما يكفي. والإدانة الجيِّدة هي دوماً الخطوة الأولى التي يتَّخذها شخصٌ ما في سلَّم الترقيات. لسوء الحظِّ -أو لحسن حظِّ المواطَنة- أنَّ القرار بإيقاف القضيَّة أو عدم إيقافها هو أمرٌ يعود إلى الرَّجل الأعلى رتبة، ولن تستهويه أيُّ ترقياتٍ سريعةٍ لمرؤوسيه. مذهلٌ أنَّ الحكمة هي حصيلةٌ ثانيةٌ للإجراء المكتبيِّ».

منتشياً بالويسكي، أفسح روبرت في المجال للسخرية كي تتدفَّق أمامه.

«إنَّما، ما إنْ يحصلوا على بارقة أملٍ واحدةٍ بوجود دليل، فسوف يقفون بالمذكِّرة أمام باب منزل فرانشايز حتَّى قبلَ أن تمدَّ يدك إلى سمّاعة الهاتف».

قال روبرت الثملِ: «لن يحصلوا على أيِّ دليل، لِمَ قد يحصلون عليه؟ كيف سيحصلون عليه؟ إنَّ ما نسعى إلى فعله هو دحض قصَّة الفتاة بأيدينا؛ كي لا تعكِّر صفوَ حياة أسرة شارب طوال عمرها. ما إنْ أقابل زوج عمَّة الفتاة وعمَّتها يوم غدٍ، فستكون لدينا صورةٌ عامَّةٌ عنها، كافيةٌ لنرسم بداية تحقيقنا الخاصِّ».

مسرعاً في طريق لاربورو الأسود المضيء، كان الآنَ متَّجهاً إلى أقارب بيتي في مينشيل، الناس الذين قضت لديهم عطلتها خالدةَ الذِّكْر. يُدْعيان السيِّد والسيِّدة تيلسيت.

منزل تيلسيت، 93 شارع شيريل، مينشيل، لاربورو -يعمل الزوج وكيل سفرٍ لشركة تصنيع فُرَشٍ في لاربورو، وليس لديهما أطفال. كان هذا كلَّ ما عرفه روبرت عنهما.

توقَّف للحظةٍ عندما انعطف مبتعداً عن الشارع الرئيس في مينشيل. تلك هي الزاوية حيث انتظرت بيتي كين حافلتها. أو الَّتي قالت إنَّها انتظرتها. لا بدَّ أنَّها كانت هناك على الجهة الأخرى. إذ لم يكن ثمَّة منعطفٌ من تلك الجهة، لا شيء سوى الشارع الممتدِّ على امتداد البصر من اتِّجاهيه الاثنين. افترض روبرت أنَّه شارعٌ مزدحمٌ تماماً في مثل هذا الوقت من النَّهار، وخالٍ تماماً في ساعة الإغلاق وقت المغرب.

على طول شارع شيريل تمتدُّ سلسلةٌ طويلةٌ من النوافذ الخليجيَّة[37] المضلَّعة التي يحيط بها الطوب الأحمر المتَّسخ، وتكاد الجدران القرميديَّة تتآكل تحتها وهي تحمل واجهاتها البارزة لترفعها عن مستوى الرَّصيف في الأسفل.

وعلى جانبَي النافذة، تنمو زهور لندن برايد[38] وحشائش المنثور وزهرة أذن الفأر[39] التي تتغذَّى عليها فراشات العثّ، ولا ينمو سواها في التربة الرديئة التي تقوم مقام حديقةٍ ليس فيها أيٌّ من الجماليَّات الَّتي تتمتَّع بها الأراضي الجديدة في ميدوسايد في آليزبيري.

---

37 نوافذ بارزةٌ، ثلاثية الزوايا غالباً. ترتفع عن الرصيف، وتتجاوز واجهة البناء فتظهر ناتئةً منه. المترجمة.

38 زهرة فخر لندن. المترجمة.

39 أذن الفأر: تُسمّى أيضاً زهرة لا تنساني. المترجمة.

وفي شارع شيريل، كما في آليزبيري، تتشابه ربَّات البيوت في تفاخرهنَّ، وتتشابه النَّوافذ في الستائر الخفيفة المعلَّقة عليها. لكن، إن كان هناك شعراء في شارع شيريل، فعليهم أن يجدوا ضالَّة أرواحهم في مكانٍ آخرَ غيرِ الحدائق.

قرع الجرس بلا جدوى، وبلجأ بعدها إلى الطَّرق على الباب 93- الذي يرى أنَّه لا يفرق عن سواه إلَّا بالرقم المنقوش عليه- وإذ بامرأةٍ تفتح نافذة غرفة نومها في البيت المجاور وتطلُّ منها، وتقول:

«هل تبحث عن السيِّدة تيلسيت؟».

قال روبرت: «إنَّه كذلك فعلاً».

«ذهبت لإحضار حاجيَّاتها من البقالة، المتجر عند الزاوية».

«شكراً. إن كان هذا كلَّ ما في الأمر؛ فسأنتظر».

«إن كنت تريد رؤيتها قريباً، فلا يجدر بك الانتظار. عليك أن تذهبَ وتحضرها».

«هل هي ذاهبةٌ إلى مكانٍ آخر؟».

«لا. إلى البقَّال فقط. إنَّه المتجر الوحيد في هذه الأرجاء. لكنَّها تستغرق شطر الصباح محتارةً ما بين نوعين من رقاقات القمح. اختر لها الشركة الفضلى، وضعِ العبوة في حقيبتها وستكون في غاية السرور».

شكرها روبرت، ومضى في سبيله مبتعداً باتِّجاه نهاية الشارع عندما نادته مجدَّداً.

«لا يجدر بك ترك سيَّارتك هنا. خذها معك».

«لكنَّ الطريق قصيرٌ جدّاً. أليس كذلك؟».

«ربَّما. لكنَّ اليوم هو السبت».

«السبت؟».

«عطلةٌ مدرسيَّة».

«فهمت. لكن ليس فيها ما...» كان سيقول 'يستحقُّ السرقة' لكنَّه استعاض عنها بـِ «ما يمكن حمله».

«يمكن حمله! هه! هذا جيّد! يوماً ما كان لدينا أصصٌ للزرع على النافذة، وكان لدى السيِّدة لافيرتي في الجانب الآخر بوَّابة، وكان لدى السيِّدة بيدوز منشرٌ للثياب من عمودين خشبيِّين وستَّة عِشر متراً من الحبال. كلُّهنَّ حسبنَ أنَّها أشياء لا يمكن حملها. اترك سيَّارتك هنا لعشر دقائق، وستكون محظوظاً إن وجدت الشَّاسّيه[40]».

وهكذا، ركب روبرت سيَّارته طائعاً، وقادها في اتِّجاه متجر البقالة. وتذكَّر شيئاً في أثناء قيادته، فحيَّرته الذكرى. هنا كانت بيتي كين تشعر أنَّها في غاية السَّعادة.

هذا الشارع الكئيب للغاية، هذا الشارع القاتم للغاية، الَّذي يليق به أن يكون واحداً من الشوارع العشوائيَّة المكتظَّة. سعيدةٌ جدّاً إلى درجة أنَّها كتبت تقول إنَّها ستمضي بقيَّة عطلتها هنا.

ما الذي وجدته هنا فاستحبَّته إلى هذه الدرجة؟!

لم يغادره ذاك التساؤل وهو يدخل متجرَ البقَّال وقد هيَّأ نفسه لرصدِ السيِّدة تيلسيت من بين زبائن الصباح. لم يكن ثمَّة داعٍ للتخمين. كانت في المتجر امرأةٌ واحدةٌ فقط، وقد بدا جليّاً، من نظرةٍ واحدةٍ إلى وجه البقَّال الصبور، وإلى العبوتين الكرتونيَّتين في يدَي المرأة، أنَّ هذه هي السيِّدة تيلسيت.

---

40 الهيكل المعدني. المترجمة.

محرِّراً نفسَه من تأمُّلات المرأة –في مسحوق الغسيل هذا الصباح، وليس في رقائق القمح– قال البقَّال وهو يتَّجه نحو روبرت: «هل أحضر لك شيئاً يا سيِّدي؟».

قال روبرت: «لا، شكراً لك. إنَّني أنتظر هذه السيِّدة فحسب».

قالت المرأة: «تنتظرني؟ إن كان ذلك بشأن الغاز، إذاً...».

قال روبرت مستعجلاً إنَّه ليس بشأن الغاز.

استبَقَت القول: «لديَّ مكنسةٌ كهربائيَّة، وهي في حالةٍ جيِّدة». وتأهَّبت للعودة إلى معضلتها.

قال روبرت إنَّ سيَّارته في الخارج، وسينتظرها إلى أن تفرغ، وشرع في الانسحاب على عجل، لكنَّها قالت: «سيَّارة؟ حسناً، بإمكانك أن تقلَّني في عودتي، وتعفيني من حمل هذه الحاجيَّات كلِّها، أليس كذلك؟ سيِّد كار، كم الثَّمن من فضلك؟».

تسلَّم منها السيِّد كار عبوة رقائق الصابون في أثناء انشغالها بروبرت، ودسَّها لها في كيس التسوُّق. أخذ النقود منها وأعاد إليها البقيَّة متمنِّياً لها يوماً سعيداً، مُولياً روبرت نظرة رثاءٍ لحاله في أثناء خروجه مع المرأةِ في اتِّجاه سيَّارته.

كان روبرت على يقينٍ من أنَّ رجاءه لقاءَ امرأةٍ أخرى بحياديَّة السيِّدة وين وذكائها هو أمرٌ مستبعَدٌ للغاية، إلَّا أنَّ تفكيره في السيِّدة تيلسيت قد أصاب قلبه بالوجل. كانت السيِّدة تيلسيت واحدةً من أولئك النسوة اللاتي ينشغل فكرهنَّ بشيءٍ آخرَ على الدَّوام. يحادثنك متهلِّلات، ويتَّفقْنَ معك، ويُبدينَ إعجابهنَّ ببيتك، ويُسدينَ إليك النصيحة، لكنَّ اهتمامهنَّ الحقيقيَّ منصرفٌ إلى ما يجب أن يفعلنَه بالسَّمك، أو إلى ما قالته لهنَّ فلوري بشأن بِكر

أسرة فيني، أو إلى المكان الذي تركن فيه كتاب الغسلٍ، أو حتَّى إلى الحشوة الرديئة في سنِّك الأماميَّة. ينصرفنَ إلى أيِّ شيء، وإلى كلِّ شيءٍ ما عدا موضوع النقاش الحالي.

بدت معجبةً بمظهر سيَّارة روبرت، ودَعَته إلى احتساء الشاي عندها. إنَّه لجليٌّ أنَّ كوب الشاي صنفٌ مرحَّبٌ به ضمن قائمة الضيافة في أيِّ ساعةٍ من ساعات النهار. شعر روبرت أنَّ مشاركتها الشرب -حتَّى وإن كان كوباً من الشايِ- هو أمرٌ متعذِّرٌ عليه؛ ما لم يخبرها بأنَّه محامي الخصم، إن جاز التعبير. لقد بذل في سبيل ذلك قصارى جهده؛ لكنَّ استيعابها للأمر كان شيئاً مشكوكاً فيه. كان ذهنها قد اتَّجه مباشرةً ليقرِّر ما ستقدِّم له مع الشاي؛ البسكويت السَّادة (ريتش تي) أم تشكيلة البسكويت الفاخر (فانسي ميكسد)؟ وذِكْرُه لابنة أخيها لم يكن ليحرِّك فيها أيّاً من المشاعر التي كان ينتظرها منها.

قالت: «كان ذلك من أشنع الأشياء، أليس كذلك؟ اختطافها وضربها. ما المنفعة التي حسبوا أنَّهم سيحصلون عليها من جرَّاء فعلتهم تلك؟ اجلس سيّد بلاين، تفضَّل اجلس. سوف...».

وتردَّد صدى زعيقٍ مروِّعٍ في أرجاء البيت. زعيقٌ مستمر وحادٌّ ومستميتٌ ظلَّ متواصلاً من غير انقطاعٍ ولا توقُّفٍ حتَّى لالتقاط الأنفاس.

جمعت السيِّدة تيلسيت حاجيَّاتها بحركةٍ ساخطة. انحنت مقرِّبةً فمها من أذن روبرت مسافةً تسمح لها بالصياح. صرخت: «إنَّها غلَّايتي. سأعود على الفور». جلس روبرت، وراح يتأمَّل المحيط من حوله ويتساءل مجدَّداً لماذا وجدته بيتي كين ممتعاً للغاية. كانت غرفة جلوس السيِّدة وين في الواجهة، غرفة جلوسٍ دافئة بساكنيها وبحركتهم فيها. لكنَّ هذه الغرفة، كما هو جليٌّ، هي (أفضل) مكانٍ لاستقبال الزوَّار غير المقرَّبين إلى درجةٍ تخوِّلهم دخول القسم الخلفيِّ، في الغرفة الضيِّقة الَّتي تكمن فيها الحياة الحقيقيَّة لهذا المنزل.

لربَّما كانت مطبخاً، أو غرفة جلوسٍ تشاطر المطبخ. ومع ذلك، اختارت بيتي كين البقاء. هل وجدت صديقاً لها هنا؟ جاراً أو جارة؟

عادت السيِّدة تيلسيت في غضون دقيقتين تقريباً، تحمل صينيَّة الشاي. استغرب روبرت قليلاً سرَّ هذا الإنجاز السريع إلى أن رأى محتويات الصينيَّة. لم تنتظر السيِّدة تيلسيت أن تتَّخذ قراراً، فأحضرتهما معاً؛ رقائق البسكويت (ثين واين) وكعك الغُرَيْبَة (سويت شورت بريد). فكَّر وهو يشاهدها تصبُّ الشاي، في أنَّ هذه المرأة أوضحت أمراً واحداً في الأقلِّ من الأمور الغريبة في القضيَّة: إنَّ هذه المرأة عندما تلقَّت رسالةً من أُسرة وين تطلب فيها إرسال بيتي إلى البيت على الفور، لم تمضِ إلى مكتب التلغراف لتخبرها بمغادرة بيتي منذ قرابة الأسبوعين. فإنَّ بيتي، حتَّى قبل أن تغادرَ منذ أسبوعين، لم تكن تشغل في تفكير السيِّدة تيلسيت أكثر ممَّا يمكن أن تشغله حلوى الجيلاتين التي تركَتْها تبرد على حافَّة النافذة.

كأنَّها تردُّ على أفكاره، قالت السيِّدة تيلسيت: «لم أكن قلقةً عليها. إذ لمَّا كتبوا إليَّ من آليزبيري يخبرونني بشأنها، عرفت أنَّها ستعود. لمَّا عاد السيِّد تيلسيت إلى المنزل وعرف بأمرها ساءه ذلك كثيراً، وتصرَّف كما المجنون حقّاً، فهو وكيلٌ لشركة (ويكسيس)، ويسافر ما بين أسبوعٍ إلى عشرة أيَّامٍ في كلِّ مرَّة. لكنَّني قلت له انتظر فقط وستعود وتكون بخيرٍ، وقد عادت. حسناً وهي بخيرٍ تقريباً».

«قالت إنَّها استمتعت كثيراً بعطلتها هنا».

لم تبدُ مغتبطةً بذلك كما توقَّع منها روبرت، وقالت بطريقة غريبةٍ: «أفترض أنَّها كذلك». نظر إليها وأدرك أنَّ ذهنها كان قد وجد له شيئاً آخرَ ليشغله، وقد يخمِّن المرء أنَّه انشغل بثقل الشاي في كوبه؛ بناءً على الاتِّجاه الذي نظرت إليه.

«كيف كانت تمضي وقتها؟ هل كوَّنت لها صداقات؟».

«لا. كانت في لاربورو معظم الوقت».

«لاربورو!».

«حسناً. سأظلمها إذ أقول معظم الوقت. ففي كلِّ صباح كانت تساعد في البيت، لكن في بيتٍ بهذه المساحة -وقد اعتدتُ أن أنجز كلَّ شيءٍ فيه بنفسي- لم يكن ثمَّة الكثير لتفعله. والمسكينة جاءت إلى هنا لقضاء العطلة، أليس كذلك، بعد كلِّ ذلك العناء في المدرسة. لا أدري ما الجدوى التي ستنالها فتاةٌ شابَّةٌ من كلِّ تلك الدراسة. فابنة السيِّدة هاراب في الجهة المقابلة، تكاد لا تُفلح في كتابة اسمها، لكنَّها تزوَّجت ثالثَ أبناءِ أحد اللوردات، أو لربَّما كان ابن الابن الثالث»، قالت وقد بدت متشكِّكةً في ذلك، «نسيت توّاً، هي...».

«كيف كانت تمضي وقتها في لاربورو؟ أقصد بيتي».

«غالباً في العروض».

«العروض؟ تقصدين السينمائيَّة. فهمت».

«إن كنت في حلٍّ من أمرك في لاربورو، يمكنك أن تحضرَ من الصباح إلى المساء. تفتح الدُّور الكبيرة أبوابها في العاشرة والنصف، وغالباً ما يغيِّرون ذلك في منتصف الأسبوع، وهناك أربعون داراً للعرض. وبهذا، يمكنك أن تنتقل من دارٍ إلى أخرى إلى أن يحين وقت العودة إلى البيت».

«هل هذا ما فعلته بيتي؟».

«لا. إنَّها عاقلةٌ تماماً. إنَّها بيتي. اعتادت أن تذهب إلى حفل الصباح لأنَّ حضورك قبل الظهر أرخص تكلفةً. ومن ثمَّ تذهب لركوب الحافلة».

«ركوب الحافلة؟ أين؟».

«إلى حيث يأخذها هواها. أتفضَّل قطعةً أخرى من هذه البسكويتات سيّد بين؟ إنّها طازجةٌ من العلبة المعدنيَّة. ذهبتْ في أحد الأيّام لتشاهد القلعة في نورتون. أنت تعرف أنَّ نورتون هي عاصمة المقاطعة. الكلُّ يتخيَّل أنَّها لاربورو بسبب اتِّساعها، لكن لطالما كانت نورتون...».

«ألم تعد لتناول الغداء بعد ذلك؟».

«ماذا؟ بيتي. لا. كانت تتناول وجبةً مع القهوة في مكانٍ ما. فعلى أيِّ حال، نحن نتناول الوجبة الرئيسة ليلاً، لأنَّ السيِّد تيلسيت في الخارج طوال النهار، كما ترى. وهكذا، فحينما تعود إلى البيت، تجد وجبةً في انتظارها على الدَّوام. لطالما كان من دواعي افتخاري أن نجلسَ إلى وجبةٍ غنيَّةٍ لذيذةٍ جاهزةٍ من أجل...».

«متى يكون موعدها؟ السادسة؟».

«لا، فالسيِّد تيلسيت لا يعود إلى البيت عادةً قبل السَّابعة والنصف».

«هذا يعني أنَّ بيتي قد عادت إلى البيت قبل ذلك بكثيرٍ إذاً؟».

«غالباً ما تكون قد عادت. تأخَّرت مرَّةً واحدةً عندما حضرت حفلاً مسائيّاً في السينما. غير أنَّ السيِّد تيلسيت قد خلق مشكلةً من ذلك -على الرَّغم من أنّني متأكِّدةٌ من عدم وجود حاجةٍ إلى ذلك. فما الضَّرر الذي يمكن أن يصيبَها في السينما؟- وبعد ذلك، كانت تعود دوماً إلى البيت قبل وصوله. هذا إن كان هنا، لكن حينما يكون مسافراً، فلا تكون في القدر نفسه من الحرص».

وهكذا كانت الفتاة سيِّدة نفسها لأسبوعين كاملين. حرَّة في خروجها وعودتها بلا حساب. ولا شيء يحدُّ من حريَّتها سوى ما في جيبها من نقودٍ مخصَّصةٍ للعطلة.

بدا أنَّهما أسبوعان عاديّان، ومثل معظم الفتيات اللاتي في سنِّها، لا يمكن أن يكونا إلَّا هكذا. السينما في الصباح، أو التحديق عبر النافذة، وجبة مع القهوة، ركوب الحافلة إلى الريف بعد الظُّهر. عطلةٌ هانئةٌ بالنسبة إلى مراهقة؛ المذاق الأوَّل للحريَّة البعيدة عن الرقابة.

غير أنَّ بيتي كين لم تكن مراهقةً عاديَّة. لقد كانت الفتاة التي روت لرجال الشرطة تلك القصَّة الطويلة والمحبوكة بإحكام، من دون أن يرفَّ لها جفن. الفتاة التي لم يُعرف مآلُ أربعة أسابيع من حياتها. الفتاة التي انتهى أمرها إلى أن يضربها أحد ما. إذاً، كيف استغلَّت بيتي كين حرّيَّتها البعيدة عن الرَّقابة؟

«هل تعرفين إن كانت قد ذهبت إلى ميلفورد في الحافلة؟».

«لا. وقد سألوني عن ذلك فعلاً، لكنَّني لم أستطع أن أقرَّ أو أنفي».

«سألوكِ؟».

«الشرطة».

«أجل. بالتأكيد». لقد نسيَ لوهلةٍ أنَّ عناصر الشرطة سيتحقَّقون، ضمن حدود صلاحياتهم، من كلِّ جملةٍ قالتها بيتي كين.

«أظنُّ أنَّك قلت إنَّك لست شرطيّاً».

قال روبرت للمرَّة الثانية: «لا. إنَّني محامٍ. وأنا أمثِّل السيِّدتين اللَّتين يُزعم أنَّهما قد احتجزتا بيتي».

- «أجل. لقد أخبرتني بذلك. أفترضُ أنَّهما في حاجةٍ إلى محام مثل أيِّ شخصٍ آخر، كي يستفهم الأمور من أجلهما، تلكما المسكينتان. آملُ أنَّني أخبرك بما تريد معرفته. سيِّد بلاير».

أخذ كوباً آخرَ من الشاي آملاً في أن تخبره عاجلاً أم آجلاً بما أراد معرفته. لكنَّه لم ينل سوى التكرار.

سألها: «هل عرف رجال الشرطة أنَّ بيتي كانت تخرج بمفردها طوال اليوم؟».

فكَّرت مليّاً في ذلك وقالت: «هذا ما لا أتذكَّره. لقد سألوني كيف كانت تمضي وقتها، وقلت إنَّها تذهب غالباً إلى السينما أو ركوب الحافلة. وسألوا إن كنتُ أذهب معها -فقلت حسناً، سأعترف أنَّني كذبت كذبةً بيضاء في ذلك، فقلت إنَّني أخرج معها من حينٍ إلى آخر. لم أردهم أن يفكِّروا أنَّ بيتي تذهب إلى الأماكن بمفردها. لكنَّ ذلك لم يضرَّ أحداً بكلِّ تأكيد».

يا لهذا الذكاء!

سألها وهو يستعدُّ للرحيل: «هل تلقَّت رسائل في أثناء وجودها هنا؟».

«من البيت فقط. أجل، كنت لأعلم. فأنا التي أُدخل الرسائل دائماً. في أيِّ حال، لم يكونوا ليكتبوا إليها، أليس كذلك؟».

«مَن؟».

«السيِّدتان اللَّتان اختطفتاها».

قاد روبرت سيَّارته إلى لاربورو وقد خامره شعورٌ بالخلاص.

وتساءل ما إذا كان السيِّد تيلسيت بعيداً دائماً عن منزله (لعشرة أيَّامٍ في كلِّ مرَّة)، أم إنَّه لجأ إلى وظيفته المحكومة بالسفر كبديلٍ للفرار أو الانتحار.

في لاربورو، بحث بلير عن (المرآب الرئيسِ لخدمات المركبات في لاربورو والمقاطعة). طرق على باب المكتب الصغير الَّذي يشرف على جانبٍ واحدٍ

من المدخل، ودخل. كان الرجل الذي يرتدي زيَّ مفتِّش الحافلة منهمكاً في الأوراق على المكتب. ألقى نظرةً سريعةً على روبرت، ومن دون أن يسأله عن حاجته واصل انهماكه في مشاغله.

قال روبرت إنَّه يريد أن يقابلَ أحداً لديه معرفةٌ بخدمات حافلة ميلفورد.

قال الرجل من دون أن يرفعَ بصره: «جدول المواعيد معلَّقٌ على الحائط في الخارج».

«لا أريد أن أعرف شيئاً عن المواعيد، فأنا أعرفها. أنا أعيش في ميلفورد. أريد أن أعرف إن كنتم تسيِّرون حافلةً من طابقين على ذاك الخطِّ».

هبط الصمت لوقتٍ طويل، صمتٌ مدروسٌ بخبرةٍ تُنْهيهِ في اللَّحظة التي يهمُّ بها روبرت بفتح فمه من جديد.

قال الرجل: «لا».

سأل روبرت: «مطلقاً؟».

في هذه المرَّة، لم تعد ثمَّة إجابةٌ على الإطلاق. لقد أفهمه المفتِّش أنَّ حديثه معه قد انتهى.

قال روبرت: «اسمع. فالأمر مهمٌّ. أنا شريكٌ في شركةٍ للمحامين في ميلفورد، وأنا...».

ثار الرجل عليه: «لا يهمُّني إن كنت الشَّاه في بلاد فارس؛ ليست ثمَّة حافلةٌ من طابقين على طريق ميلفورد. وماذا تريد أنت؟». وجَّه إضافته الأخيرة إلى ميكانيكيٍّ صغيرٍ ظهر عند مدخل الباب خلف روبرت.

تردَّد الميكانيكيُّ، كما لو أنَّ العمل الَّذي جاء من أجله قد طغى عليه اهتمامٌ جديد.

لكنَّه تمالك نفسه، وشرع يتحدَّث عن مسألته: «إنَّه بشأن قطع غيار نورتون، هل عليَّ أن...».

وبينما كان روبرت يتجاوزه ليخرجَ، شعر بشيءٍ يشدُّ معطفه، وأدرك أنَّ الميكانيكيَّ الصغير يريد منه أن يبقى إلى أن يتمكَّنَ من محادثته. خرج روبرت واستند إلى سيَّارته. وعمَّا قريب، ظهر الميكانيكيُّ بالقرب من مرفقه.

«كنت تسأل عن حافلاتٍ بطابقين؟ لم أستطع أن أناقضه بالقول صراحةً وهو بهذا المزاج، فكما تعرف، قد يكلِّفني ذلك وظيفتي. هل تريد استعمال حافلةٍ بطابقين، أو أنَّك كنت تسأل إن كانت تسير على الخطِّ فقط؟ إذ لا يمكنك أن تركب حافلةً بطابقين على ذلك الطريق، لأنَّ الحافلات المخصَّصة له كلَّها ...».

«أعرف. أعرف. كلّها بطابقٍ واحد. ما أريد معرفته هو إن سبق تسيير حافلاتٍ بطابقين على طريق ميلفورد من قبل».

«حسناً. أنت تدرك أنَّه من غير المفترض أن يكون هناك، لكنَّنا اضطررنا في هذا العام إلى استعمال حافلةٍ بطابقين لمرَّةٍ أو لمرَّتين؛ عندما تعطَّلت إحدى الحافلات الأحاديَّة القديمة على نحوٍ مفاجئ. عاجلاً أم آجلاً، ستصبح الحافلات كلُّها من طابقين، إلَّا أنَّ الضغط المروريَّ على طريق ميلفورد لا يصل إلى درجةٍ تدعو إلى استعمال حافلاتٍ مزدوجة، وتالياً، تُفرَزُ المركبات القديمة الأحاديَّة إلى ذلك الطريق، وإلى بعض الطرقات الشبيهة به. لذا...».

«إنَّك عونٌ عظيم. هل يمكننا أن نعرفَ متى تحديداً استُعملت حافلة الطابقين على ذاك الطريق؟».

قال الميكانيكيُّ بشيءٍ من المرارة: «بالتأكيد. في هذه الشركة يسجِّلون كلَّ مرَّةٍ تبصق فيها. لكنَّ السجلَّات موجودةٌ هناك». وأمال رأسه إلى الخلف ليقصد الإيماء نحو المكتب، «ومادام موجوداً هناك، فليس ثمَّة ما نفعله».

سأل روبرت عن السَّاعة التي يمكنهما فيها فعلُ شيءٍ ما.

«حسناً. ينتهي دوامه بانتهاء دوامي: في السَّادسة. لكن، إن كان الأمر يهمُّك كثيراً، يمكنني أن أبقى لبضع دقائق أخرى، وأبحث لك في الجداول بعد مغادرته».

لم يدرِ روبرت كيف سينتظر تلك الساعات إلى أن تحينَ السَّادسة، لكنَّ الساعة السَّادسة آتيةٌ لا محالة.

«اتَّفقنا. ألتقيكَ عند السَّادسة والربع تقريباً في حانة الجرس، تلك الواقعة في آخر الشارع. هل هذا مناسب؟».

قال روبرت: «مناسبٌ تماماً. تماماً».

ومضى يبحث عن طريقةٍ لرشوة النادل في البهو في (ميدلاند) كي يتركه هناك لساعات.

-10-

قالت العمَّة لين: «أفترض أنَّك تعرف ما أنت فاعله يا عزيزي، لكنَّني لا أستطيع أن أكفَّ عن التفكير في دفاعك الغريب للغاية عن أولئك الناس».

قال روبرت بتصبُّر: «أنا لا (أدافع) عنهما. أنا أُمثِّلهما. وليس هناك أيُّ دليل ضدّهما لنشيرَ إليهما بِـ (أولئك الناس)».

«ثمَّة إفادة الفتاة يا روبرت. لا يمكن أن تكونَ قد اختلقت ذلك كلَّه».

«لا يمكنها!».

«ما الفائدة التي ستجنيها من كلِّ هذه الأكاذيب؟»، كانت تقف في طريقه عند الباب وتنقل كتاب الصلاة من يد إلى أخرى، ريثما ترتدي قفَّازيها الأبيضين، «إن لم تكن في منزل فرانشايز، فما الذي كانت تفعله إذاً؟».

كبح روبرت نفسه عن قول: «ستُفاجَئِين!».

فمن الأفضل له دوماً أن يختصرَ النقاش معَ العمَّة لين.

مسَّدت قفَّازيها ليستقرَّا في مكانيهما. «إن كنت تتصرَّف بدافع من النبل، فيجب أن أقول لك إنَّك أخطأت الفهم يا عزيزي روبرت. وهل عليك أن تذهبَ إلى المنزل؟ يمكنهما المجيء إلى المكتب يوم غدٍ بكلِّ تأكيد. لا شيء

يدعو إلى العجلة، أليس كذلك؟ فليس الأمر كما لو أنَّ أحداً سيذهب لاعتقالهما في التوِّ واللَّحظة».

«أنا من اقترح الذهاب إلى منزل فرانشايز. لو أنَّ أحداً ما اتَّهمكِ بسرقة أشياء من الصندوق في محالِّ (وولورث)، ولم تستطيعي نفي التهمة عنكِ، فلا أحسب أنَّك ستستمتعين بالسير في شارع ميلفورد العام في وضح النهار».

«قد لا يروقني ذلك، لكنَّني سأفعله بكلِّ تأكيد، وسأوضِّح موقفي للسيِّد هينسل».

«مَن هو السيّد هينسل؟».

«المدير. ألا يمكنك مرافقتي إلى الكنيسة أوَّلاً ومن ثمَّ الذهاب إلى فرانشايز. لقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ آخر مرَّةٍ لك يا عزيزي».

«إن بقيتِ واقفةً هناك لوقتٍ أطول فستتأخَّرينَ للمرَّة الأولى منذ عشر سنوات. اذهبي أنتِ وصلِّي لعلَّ التوفيق يكون حليفي».

«سأصلِّي لأجلك بالتأكيد يا عزيزي. أفعل هذا دائماً. ويجب أن أصلِّيَ من أجلي قليلاً. فهذا كلّه سيكون صعباً جدّاً عليَّ».

«صعباً عليكِ؟».

«الآن، بعد أن توكَّلتَ بقضيَّة أولئك الناس فلن أتمكَّنَ من الحديث عن ذلك إلى أيِّ أحد. فإنَّ ذلك يدعو إلى الجنون فعلاً يا عزيزي. أن تجلسَ صامتاً وأنت تسمع الجميع يتحدَّث عن أشياء يصدِّقونها بلا أدنى شكّ، في حين أنَّك متيقِّنٌ تماماً من أنَّها باطلة. الأمر أشبه بالرغبة في التقيؤ والاضطرار إلى تأجيل ذلك. أوه، عزيزي، لقد توقَّف قرع الأجراس. أليس كذلك؟ سأضطرُّ إلى أن أنسلَّ في مقعد كنيسة (براكيتس) على الفور. لن يمانعوا. لن تبقى إلى الغداء في ذلك المكان، أليس كذلك يا عزيزي؟».

«لا أظنُّ أنَّني مدعوٌّ إلى الغداء».

لكن، ما حظي به من ترحيبٍ حارٍّ في منزل فرانشايز، أورثه شعوراً بأنَّه قد يُدعى إلى الغداء بعد ذلك. كان ليرفض الدعوة بالتأكيد، وليس ذلك بسبب دجاج العمَّة لين، الذي كان في انتظاره، وإنَّما ليوفِّر على ماريان شارب عناء التنظيف بعد ذلك. فلربَّما كانتا ستأكلان من الآنية مباشرةً إن لم يكن في رفقتهما أحد. أو لربَّما تأكلان في المطبخ، على حدِّ علمه.

قالت ماريان و هي تعتذر مجدَّداً: «أعتذر لامتناعنا عن الردِّ على الهاتف ليلة البارحة، لكنَّنا بعد المكالمة الرابعة أو الخامسة، كنَّا قد ضقنا ذرعاً. ولم نتوقَّع أن تحملَ لنا أخباراً بهذه السرعة. ففي النهاية، كان انطلاقك بعد ظهر الجمعة فقط».

«أكان المتَّصلون رجالاً أم نساءً؟».

«بحسب ما أذكر، كانوا رجلاً وأربعَ نساء. ولمَّا اتَّصلتَ بنا هذا الصباح، حسبتُ أنَّهم عادوا إلى ذلك مجدَّداً، لكن يبدو أنَّهم يستيقظون في وقتٍ متأخِّر. أو لعلَّ الأفكار الشريرة لا تساورهم قبل المساء. بالتأكيد، فقد استضفنا شبَّان البلدة في حفل مساء السبت. حيث احتشدوا في مجموعة عند البوَّابة يُطلِقون الصيحات الماجنة، ثمَّ وجد نيڤيل قطعةً من الخشب خارج المنزل...».

«نيڤيل؟».

«نعم. ابن أختك. أقصد ابن عمِّك. لقد جاء في زيارة مواساة كما أسماها، وقد كان ذلك لطفاً منه. ووجد قطعة خشبٍ يمكن تثبيتها على البوَّابة لإبقائها مغلقةً، فنحن لا نملك مفتاحاً لها كما ترى. لكنَّ ذلك لم يعطِّلهم طويلاً: لم يلبثوا أن رفع بعضُهم بعضاً على الجدار، وجلسوا فوقه في صفٍّ يكيلون الإهانات إلى أن حان موعد خلودهم إلى النوم».

قالت السيِّدة شارب العجوز بتمعُّن: «إنَّ قلَّة التربية هي إعاقة لا نظير لها لدى الشخص المسيء. فهؤلاء يعوزهم الفهم تماماً».

قال روبرت: «وكذلك الببغاوات. لكنَّها مستفزَّة بما فيه الكفاية. يجب أن نرى ما هي الحماية التي يمكننا أن نطالب رجال الشرطة بها. وإلى ذلك الحين، سأخبركما بشيء مفرحٍ عن هذا الجدار. أعرف كيف نظرت الفتاة من فوقه».

أخبرهما بزيارته للسيِّدة تيلسيت، واكتشافه أنَّ الفتاة كانت تسلِّي نفسها بركوب الحافلة. وعن زيارته الأخرى إلى ‹المرآب الرئيس لخدمات المركبات في لاربورو والمقاطعة›.

«في غضون الأسبوعين اللَّذين قضتهما الفتاة في مينشيل، تعطَّلت الحافلة الأحاديَّة المخصَّصة لطريق ميلفورد مرَّتين، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تُستَبْدَل بحافلةٍ من طابقين. وكما تعرفين، هناك ثلاث رحلاتٍ يوميَّةٍ فقط. وفي كلِّ مرَّة منهما، كانت حافلة منتصف النهار هي الحافلة المعطَّلة. وبهذا، فقد كان أمامها فرصتان على الأقلِّ في غضون هذين الأسبوعين لترى المنزل، وساحته، والسيَّارة، وأنتما الاثنتان. كلُّ ذلك جملةً واحدة».

«لكن، هل يمكن للمرء أن يلتقطَ ذلك كلَّه من أعلى الحافلة بمجرَّد مرورها العابر؟».

«هل سبق لك أن ركبتِ في الطابق العلويِّ في حافلةٍ إلى الريف؟ حتَّى وإن كانت سرعة الحافلة ثابتةً على طول خمسة وثلاثين كيلو متراً، فتلك سرعة تشبه المسيرة الجنائزيَّة. يصبح ما ترينه متاحاً من مسافةٍ أبعد بكثير، ولوقتٍ أطول بكثير. أمَّا في الأسفل، فتلامس الشجيرات النوافذ، وتبدو السرعة مقبولةً نظراً لقرب الأشياء. كان هذا أوَّلاً، أمَّا ثانياً؛ فلأنَّ الفتاة تتمتَّع بذاكرةٍ صوريَّة». وأخبرهما بما قالته السيِّدة وين.

سألت السيِّدة شارب: «هل سنقول ذلك لرجال الشرطة؟».

«لا. إنَّه لا يُثبت أيَّ شيء؛ إنَّه فقط يحلُّ لغز معرفتها بكما. لَمَّا كانت في حاجةٍ إلى حجَّة الغياب تذكَّرتكما، وخاطَرَتْ معتمدةً على عجزكما عن إثبات وجودكما في مكانٍ آخرَ. بالمناسبة، حينما تعبرين بالسيَّارة إلى الباب، فأيُّ جزءٍ من السيَّارة يكون أقرب إلى الباب؟».

«سواءً أتيتُ بها من المرآب أم دخلتُ بها من الطريق، يكون الجانب الأيمن محاذياً للباب، فذلك أسهل عند الترجُّل منها».

قال روبرت حاسماً: «نعم. إذاً، فقد كانت العجلة الأماميَّة ذات الطلاء الداكن تظهر في الجانب المكشوف من جهة البوَّابة. تلك هي الصورة الَّتي رأتها. العشب والطريق المنقسم إلى مسارين، والسيَّارة ذات العجلة الغريبة قرب الباب، وامرأتان -اثنتان- ونافذة العليَّة المستديرة في السقف. كلُّ ما كان عليها فعله هو النظر إلى الصورة العالقة في ذهنها ووصفها. وقد استعملت الصورة -في قصَّة اختطافها المزعوم- بعد مضيٍّ أكثر من شهر، حيث فرصتكما لن تتجاوز الواحد بالألف لتقولا ماذا كنتما تفعلان، وأين كنتما يومذاك».

قالت السيِّدة شارب: «أفهم من هذا أنَّ الظروف ليست في صفِّنا إطلاقاً؛ لنقول ماذا كانت تفعل وأين كانت في ذلك الشهر».

«أجل. الظروف ليست في صفِّنا. وكما قال صديقي كيفين ماكديرموت، ليلة أمس، لا شيء يمنع أنَّها كانت في سيدني، نيو ساوث ويلز. لكنَّني، بطريقةٍ ما، متفائلٌ اليوم أكثر بكثيرٍ ممَّا كنتُ عليه يوم الجمعة. لقد عرفنا أشياء كثيرة عن الفتاة الآن». وأخبرهما عن المقابلات التي أجراها في آليزبيري ومينشيل.

«لكن، إن لم تكشف تحقيقات عناصر الشرطة أين كانت في ذلك الشهر...».

«كانت تحقيقات عناصر الشرطة مكرَّسةً للتحقُّق من إفادتها. فهم لم ينطلقوا مفترضين كذب إفادتها من البداية إلى النهاية، مثلما نفترض نحن. هم تحقَّقوا منها وتأكَّدوا. ليس لديهم سببٌ بعينه يدعوهم إلى الشكِّ فيها. فهي تتمتَّع بسمعة طيِّبة، ولمَّا حقَّقوا معَ عمَّتها مستفسرين عن كيفيَّة قضائها عطلتها، اكتشفوا أنَّها كانت مجرَّد زيارات بريئة إلى السينما، ورحلات إلى الريف بالحافلات».

سألت السيِّدة شارب: «وأنت، كيف تظنُّ أنَّها قضتها؟».

«أظنُّ أنَّها التقت أحداً ما في لاربورو. أيّاً كان، فهذا هو التفسير البديهيُّ لذلك. وأيّ تحقيقٍ من جانبنا لا بدَّ أن ينطلق من هذه الفرضيَّة حسبما أرى».

سألت السيِّدة شارب: «وماذا سنفعل بشأن تعيين تحرٍّ خاصّ؟ هل تعرف شخصاً بعينه؟».

قال روبرت متردِّداً: «حسناً. لقد خطر في بالي أنَّكِ قد تسمحين لي أن أخوضَ في تحقيقاتٍ أكثر قليلاً قبل أن نُشرك خبيراً معنا. أعلم أنَّ...».

قاطعته السيِّدة العجوز قائلةً: «سيِّد بلير، لقد استُدعيتَ إلى هذه القضيَّة البغيضة من غير سابق إنذار، ولم يكن ذلك بمحض اختيارك، وقد كنتَ لطيفاً جدّاً في تفانيك لأجلنا. لكن، لا يمكننا أن نأمل منك أن تتحوَّل إلى متحرٍّ خاصٍّ لحسابنا -لسنا أغنياء- في الحقيقة لدينا مالٌ قليل نعتاش به -لكن ما إن نحصل على أيِّ مبالغ ماليَّة، فنحن سندفع لقاء الخدمات المستَحقَّة. وليس

من اللائق أن تحوِّل نفسك إلى... ماذا كان اسمه؟- سيكستون بليك[41]، من أجل مصلحتنا».

«قد لا يكون ذلك لائقاً، لكنَّه يتَّفق كثيراً مع ميولي. صدِّقيني سيِّدة شارب، لم تراودني في تخطيطي لذلك أيُّ فكرةٍ القصد منها توفير مصاريفكم. فعند عودتي إلى البيت بالسيَّارة ليلة أمس، كنت في غاية السعادة بما حقَّقتُه حتَّى الآن، وأدركتُ كم سأمقت التنازل عن البحث لشخصٍ آخر. لقد صار الأمر تقصّياً شخصياً. وأرجوكِ ألَّا تثنيني عن...».

قاطعته ماريان: «برأيي إن كان السيِّد بلير يرغب في المواصلة لمدَّة أطول، فعلينا شكره من كلِّ قلبَينا والقبول بذلك. أعرف تماماً كيف يشعر. وأتمنَّى لو أمكنني أن أذهبَ للتقصّي بنفسي».

«لا شكَّ في أنَّه سيأتي عليَّ زمن أضطرُّ فيه إلى إحالة البحث إلى متحرٍّ خاصٍّ مناسب، شئتُ ذلك أم أبيتُ. كأن نصل بالتقصِّي إلى مكان أبعد من لاربورو مثلاً. إذ لديَّ التزاماتٌ أخرى كثيرةٌ لن أتمكَّن من تركها والذهاب بعيداً. لكنَّني مُصِرٌّ على أن أكونَ الشخصَ الَّذي يستقصي الأمر، ما دام ذلك ضمن الجوار».

سألته ماريان باهتمام: «وكيف خطَّطت لتقصِّي الأمر؟».

«حسناً، فكَّرتُ في أن أبدأ بالأماكن التي توفِّر وجبة طعام مع القهوة. أعني ضمن لاربورو. فمن ناحيةٍ لا يمكن أن يكون عدد هذه الأماكن كثيراً هناك، ومن ناحيةٍ أخرى، فنحن نعرف نوعيَّة الطعام الَّتي كانت تتناسب مع ميزانيَّتها بادئ الأمر».

---

41 شخصية خيالية لمحقق ظهر في عديدٍ من القصص المصوّرة والروايات والإنتاج الدرامي البريطاني منذ عام 1893. المترجمة.

سألت ماريان: «لماذا تقول ‹بادئ الأمر›؟».

«لأنَّها ما إن تلتقي مَن نفترضه (س) من الناس، فستتمكَّن من تناول الطعام في أيِّ مكانٍ آخر. لكنَّها كانت حتَّى تلك اللَّحظة، تدفع ثمن طعامها بنفسها، وتلك كانت ‹وجبات مع القهوة›. وفتاةٌ في مثل سنِّها، ستفضِّل وجبةً متنوِّعة في كلِّ الأحوال، حتَّى وإن كانت تملك مالاً يخوِّلها شراء وجبة من صنفين. لذا، سأركِّز على المقاهي. ألوِّح بصحيفة (آك إيما) أمام النادلات لأكتشف بمهارة المحامي الريفيِّ إن سبق لهنَّ رؤية الفتاة في أماكن عملهنَّ. هل يبدو هذا مقنعاً لك؟».

قالت ماريان: «مُقْنِعٌ بدرجة جيِّدة جدّاً».

التفت روبرت إلى السيِّدة شارب، وقال: «إلَّا إن كنتِ تعتقدين أنَّ شخصاً محترفاً سيؤدِّي لك الخدمة على نحوٍ أفضل -وهذا الأمر واردٌ جدّاً- فعندها سأنسحب مع...».

قالت السيِّدة شارب: «لا أظنُّ أنَّنا سنحظى بخدمة أفضل من هذه، وسبق أن أعربتُ لك عن تقديري لتجشُّمك العناء من أجلنا. إن كنتَ سعيداً فعلاً بإحباط هذه... هذه...».

أسعفها روبرت بسعادة: «الصغيرة».

صحَّحت السيِّدة شارب: «المتصاغرة، فحينها، لا يسعنا إلَّا أن نرضى ونكون شاكرتين. لكن، يبدو لي أنَّها ستكون رحلةً طويلةً جدّاً».

«لماذا طويلة؟».

«ثمَّة هوَّةٌ عميقةٌ كما يبدو، ما بين لقائها بـ (س) من الناس في لاربورو، وعودتها إلى بيتٍ بالقرب من آليزبيري، عاريةً إلَّا من ثوبٍ

وحذاءٍ، وقد أُثْخِنَتْ ضرباً. ماريان. أظنُّ أنَّه لا يزال لدينا شيءٌ من نبيذ (أمونتيلادو)».

صار هدوء المنزل جليّاً في الصمت الَّذي أعقب انصراف ماريان لإحضار الشراب، ولم يكن ثمَّة أشجار في الفناء ليُسمع حفيفها كلَّما هبَّت الريح، ولا طيورٌ لتزقزق عليها. كان الصمت مطبقاً كصمت منتصف الليل في بلدةٍ صغيرةٍ. تساءل روبرت، هل كان الهدوء مطمئناً بعد تلك الحياة الصاخبة في البيت الداخليِّ؟ أو أنَّه كان مُوحشاً ومخيفاً بعض الشيء؟

لقد قالت السيِّدة شارب العجوز، في مكتبه يوم الجمعة، إنَّهما كانتا تنعمان بالخصوصيَّة فيه. لكن، هل يمكن أن تكون الحياة الحبيسة خلف الأسوار العالية هانئةً في ظلِّ الصمت السرمديِّ؟ قالت السيِّدة شارب: «يبدو لي أنَّ الفتاة قد جازفت مجازفةً كبيرة باختيارها منزل فرانشايز من دون أن تعرف شيئاً عن الأسرة أو عن ظروفها».

قال روبرت: «لقد جازفت بذلك فعلاً، وكان عليها خوض ذلك. لكنَّني لا أظنُّها مقامرةً كبيرةً كما تحسبين».

«حقّاً؟».

«حقّاً. ما تريدين قوله هو أنَّ الفتاة خاطرت باحتمال وجود أسرةٍ كبيرةٍ، قد يكون أفرادها في سنِّ الشباب، ولربَّما كان لديهم ثلاثة من الخدم في منزل مثل فرانشايز».

«أجل».

«لكنَّني أظنُّ أنَّها كانت على يقين من أنَّ شيئاً من ذلك لا وجود له».

«كيف أمكنها ذلك؟».

«إمَّا أنَّها قد تحدَّثت إلى الجابي في الحافلة، وإمَّا -وأظنُّ أنَّ هذا الاحتمال هو الأرجح- أن تكون قد سمعتْ تعليقاً من زملاء الرحلة مصادفةً. من ذلك النوع الذي تعرفينه: ‹ها هي ذي أسرة شارب. هما الاثنتان فقط تعيشان وحدهما حياةً رغيدة في منزلٍ كبيرٍ كهذا. إذ ترفض الخادمات أن يبقينَ في مكانٍ منعزلٍ وبعيدٍ جدّاً عن المتاجر ودور السينما...› وما إلى ذلك من كلام. كثيرٌ من ركَّاب حافلة لاربورو وميلفورد هم من ‹أهالي المنطقة›. والطريق منعزلٌ، لا أكواخ على جانبيه، وليس ثمَّة قرى يمرُّ بها، عدا قرية هام غرين. لذا، فإنَّ منزل فرانشايز وحده محطُّ اهتمام الناس لأميال. فتجاهل ذلك الاهتمام المتمثِّل بالبيت وصاحبتيه وسيَّارتهما من دون أيِّ تعليقٍ، هو أمرٌ لا تحتمله الطبيعة البشريَّة».

«فهمت. أجل هذا يفسِّر الأمر».

«أتمنَّى أن تكون قد عرفت بشأنكما من خلال ثرثرتها مع جابي التذاكر، بطريقةٍ ما. وبتلك الطريقة، على الأرجح، سيتذكَّرها. لقد قالت الفتاة إنَّها لم تزر ميلفورد من قبل قطُّ، ولا تدري أين تقع. إن تذكَّرها جابي التذاكر، فيمكننا أن نطعنَ بقصَّتها ضمن هذا الحدِّ في الأقلِّ».

«إن كنتُ أعرف شيئاً عن شخصيَّة تلك الشابَّة، فإنَّها ستفتح عينيها بطابعهما الطفوليّ، وتقول: ‹هل تلك هي ميلفورد؟ لقد ركبت حافلة من بداية الخطِّ إلى نهاية الخطِّ وعدت فقط›».

«أجل. لن يفيدنا ذلك كثيراً. لكن، إن أخفقت في اقتفاء أثرٍ للفتاة في لاربورو، فسأجرِّب أن أعرض صورتها للجباة المحلِّيين. أتمنَّى أن تكون الفتاة إنساناً عصيّاً على النسيان».

لفَّهما الصمتُ من جديدٍ في أثناء تفكُّرهما في طبيعة بيتي كين التي لا تُنسى.

كانا جالسَيْن في غرفة الاستقبال، يواجهان النافذة، وينظران عبرها إلى ساحة الفناء العشبيَّة، وإلى طوب الجدار ذي اللَّون الورديِّ الباهت. وبينما هما ينظران، فُتحت البوَّابة ودلفت منها مجموعةٌ صغيرةٌ من سبع أو ثماني أشخاص، وقفوا في مرمى بصرهما. كانوا على راحتهم تماماً، ويشيرون بين بعضهم بعضاً إلى ما يبدو أنَّه قد حاز اهتمامهم .وقد بدا جليّاً أنَّ النافذة المستديرة في السقف كانت هي محطَّ أنظارهم. ويبدو أنَّ منزل فرانشايز، الَّذي أغدق ليلة أمس على شبَّان البلدة بسهرة السبت، يغدق الآن على لاربورو بمتعة الصباح. لا شكَّ في أنَّ السيَّارات كانت في انتظارهم خارج البوَّابة، إذ إنَّ نساء الحفل كنَّ ينتعلنَ أحذيةً سوقيَّةً ويلبسنَ أثواباً منزلية.

نظر روبرت إلى السيِّدة شارب التي لم تحرِّك ساكناً باستثناء أنَّها زمَّت فمها المتجهِّم على الدوام.

وأخيراً، قالت بازدراء: «بنو جلدتنا».

قال روبرت: «هل أذهب لأخرجهم؟ فهذا خطأي؛ إذ لم أقفل البوَّابة بالعارضة الخشبيَّة التي تركتماها لي».

قالت: «دعهم. سيرحلون قريباً. هذا ما تتحمَّله الأسرة الملكيَّة في كلِّ يوم. يمكننا أن نشاركها المعاناة لبضع لحظات».

لكن، لم يُظهر الزوَّار أيَّ بادرةٍ تشير إلى الرَّحيل. وإنَّما دارت فئةٌ منهم حول المنزل لتتفحَّص الأبنية الخارجيَّة، في حين بقي الآخرون هناك عندما عادت ماريان بالنبيذ. اعتذر روبرت مرَّةً أخرى عن إغفاله قفل البوَّابة. كان يشعر أنَّه ضئيلٌ و مبتدئ. لم يرُقْ له البقاء ساكناً هناك ومشاهدة الغرباء يطوفون بالمكان وكأنَّه لهم، أو كأنَّهم يفكِّرون في شرائه. لكنَّه إن خرج إليهم، وطلب إليهم الانصراف فرفضوا، فبأيِّ سلطةٍ سيرغمهم على الخروج؟ وأيَّ انطباعٍ

سيترك لدى أسرة شارب إن اضطرَّ إلى التراجع وترك هؤلاء الأشخاص ضمن حدود ملْكيَّتهم؟

عادت مجموعة المستكشفين من رحلتها حول المنزل، وعبَّر أفرادها عمّا شاهدوه ضحكاً وإيماءً. سمع ماريان تتمتم بشيءٍ ما، وتساءل ما لو كانت تشتمهم. كانت تبدو امرأةً بعيدةً كلَّ البعد عن تعاطي الشتائم. وضعت صينيَّة الشراب من يدها ونسيت أمرها كلّياً، فليس هذا وقت الضيافة. كان يتوق إلى فعل شيء حاسم ومذهل في سبيل إرضائها، كتوقه إلى إنقاذ محبوبته من البناء المشتعل حين كان في الخامسة عشرة. لكنَّه، يا للأسف، لم يجد مفرّاً من الأربعين عاماً التي بلغها، ولا من الحكمة الَّتي تعلَّمها، الَّتي تُملي عليه انتظار سلَّم النجاة.

وبينما كان يتأرجح ما بين غضبه من نفسه، وغضبه من أولئك الناس الهمجيين، وصل سلَّم النجاة في هيئة شابٍّ طويل القامة ببدلة (تويد) رهيبة.

زفرت ماريان ارتياحاً وهي تشاهد المنظر: «نيفيل».

تفحَّص نيفيل المجموعة بكلِّ ما أوتي من فوقيَّةٍ كريهة، وبدا أنَّهم تراجعوا قليلاً، غير أنَّ عزمهم على التشبُّث بمواقعهم كان واضحاً، في حين كان الرجل ذو السترة الرياضيَّة والبنطال المخطَّط يهيِّئ نفسه لافتعال مشكلةٍ بسبب ذلك.

نظر إليهم نيفيل بصمتٍ لبضع ثوانٍ أخرى، ثمَّ تحرَّى في جيب سترته الداخليِّ عن شيءٍ ما. وما إن حرَّك يده، غشي المجموعةَ شتاتٌ غريب. إذ انسلَّ أفرادها البعيدون إلى خارج البوَّابة، ليبعدوا أنفسهم إلى النفاذ، فيما تخلَّى القريبون منهم عن روح التبجُّح، وتلبَّستهم المداهنة. وأخيراً، تمكَّن ذو السترة الرياضيَّة من إبداء تحرّكاتٍ صغيرةٍ رفضاً للاستسلام، وانضمَّ إلى الجمع المنحدر عند البوَّابة.

صفق نيڤيل البوَّابة من خلفهم، ورفع العارضة الخشبيَّة إلى مكانها، ومضى في طريقه إلى الباب وهو يمسح يده بمنديلٍ مروِّعٍ للغاية. وانطلقت ماريان إلى الباب لمقابلته.

سمع روبرت قولها: «نيڤيل! كيف فعلت ذلك؟»

سألها نيڤيل: «ماذا فعلت؟»

«تخلَّصتَ من تلك المخلوقات».

قال نيڤيل: «لقد سألتُهم عن أسمائهم وعناوينهم فقط. ليس لديكِ أدنى فكرةٍ عن مدى تخوُّف الناس إذا ما أخرجتِ دفتر ملاحظاتكِ وسألتِهم عن أسمائهم وعناوينهم. فذلك بديلٌ جديدٌ لـ 'اهربوا لقد انكشف كلُّ شيء' ولن يتريَّثوا ليتعرَّفوا صفتكِ الرسميَّة في حال كانتْ لكِ صفة. مرحباً روبرت. صباح الخير سيِّدة شارب، في الحقيقة، كنت في طريقي إلى لاربورو، لكنَّني رأيت البوَّابة مفتوحة، وهاتان السيَّارتان المروّعتان في الخارج، فتوقَّفت لأستطلع الأمر. لم أعلم أنَّ روبرت هنا».

تلقَّى روبرت أقسى طعنةٍ على الإطلاق بذلك التلميح البريء الذي يشير إلى قدرته على تولِّي زمام الأمور بالكفاءة نفسها. يكاد روبرت يسحق له جمجمته.

قالت السيِّدة شارب: «حسناً، بما أنَّك هنا الآن، وقد خلَّصتنا بحصافةٍ من تلك الإزعاجات، فلزاماً عليك البقاء وشرب كأس من الشراب».

قال نيڤيل: «هل يمكنني المجيء لشربه حين عودتي إلى المنزل مساءً؟ فكما ترينَ، إنَّني في طريقي لتناول الغداء مع حميَّ المستقبليِّ؛ وهذا واحدٌ من طقوس يوم الأحد هناك. يجب أن يذهبَ المرء إلى هناك لأجل التحضيرات المسبقة».

قالت ماريان: «يمكنك المجيء في أثناء عودتك إلى المنزل بكلِّ تأكيد، إنَّه لمن دواعي سرورنا. لكن، كيف سنعرف أنَّه أنت؟ أعني بخصوص البوَّابة». كانت تصبُّ الشراب وتناوله لروبرت.

«هل تعرفين شيفرة مورس؟».

«أجل. لكن لا تقل لي إنَّك تعرفها».

«ولِمَ لا؟».

«لأنَّك تبدو بعيداً كلَّ البعد عن التعاطي بمورس».

«لَّما كنت ذاهباً إلى البحر في الرَّابعة عشرة من عمري، أصابتني حمَّى الطموح فتعلَّمت من خلالها كثيراً من الحماقات الطارئة. وكانت شيفرة مورس إحداها. سأطلق من بوق السيَّارة الأحرف الأولى من اسمك الجميل؛ صفرتان طويلتان وثلاث صفرات قصيرة. يجب أن أمضيَ. وستمدُّني فكرة التحدُّث إليكما الليلة بالحماس في أثناء مأدبة الغداء في مطعم القصر».

سأله روبرت وقد هزمه لؤمه: «ألن تمدّك روز ماري بأيِّ حماس؟».

«لا أظنُّ ذلك. فيوم الأحد تكون روز ماري ابنةً في بيت والدها. وهو ما يُخرجها عن سجيَّتها. أورفوار سيّدة شارب. لا تتركي روبرت يقضي على الشراب كلِّه».

سمع روبرت ماريان تسأله في أثناء مرافقتها له إلى الباب: «ومتى أقلعتَ عن الذهاب إلى البحر؟».

«عندما بلغتُ الخامسة عشرة. لجأت إلى المناطيد عوضاً عنه».

«من الناحية النظريَّة كما أظنُّ».

«حسناً، تسمَّمت بالغاز».

تساءل روبرت عن سرِّ هذا الودِّ والارتياح الَّذي كانا فيه، كما لو أنَّهما يعرف أحدهما الآخر منذ زمن طويل. لماذا أعجبها ذاك النحيل نيڤيل؟

«وعندما كنتَ في السادسة عشرة؟».

لو أنَّها عرفت الأشياء التي جرَّبها نيڤيل ثمَّ تخلَّى عنها، فلن يسرَّها أن تكون هي آخر تلك الأشياء.

سألت السيِّدة شارب: «هل تجد الشراب لاذعاً جدّاً بالنسبة إليك سيِّد بلير؟».

«لا. أوه. لا. شكراً لك، إنَّه ممتاز». أيعقل أنَّ تعكُّرَ مزاجه في تقبُّل الفكرة قد ظهر جليّاً على وجهه إلى هذا الحدِّ؟

استرق نظرةً حذرة إلى السيِّدة العجوز، وظنَّ أنَّها تبدو مستمتعة قليلاً. ولم تكن رؤية السيِّدة شارب وهي مستمتعةٌ شيئاً مريحاً البتَّة.

فقال: «أظنُّ أنَّه يَحسُنُ بي الذهاب قبل أن تغلقَ الآنسة شارب البوَّابة خلف نيڤيل؛ وإلَّا فستضطرُّ إلى العودة إليها مرَّة أخرى برفقتي».

«لكن، ألن تبقى هنا لتتناول الغداء معنا؟ ليس ثمّةَ أيُّ طقوس تتعلَّق بذلك في منزل فرانشايز».

لكنَّ روبرت اختلق الأعذار. لم يعجبه أن يتحوَّل إلى بلير الذي كان يصير إليه. تافهٌ وصبيانيٌّ وغرٌّ. سيعود ليحظى بغداء يوم الأحد المعتاد مع العمَّة لين، ليعود روبرت بلير، من شركة بلير وهايوارد وبينيت، الرصين والمتسامح والمتصالح مع عالمه.

لَمَّا وصل إلى البوَّابة، كان نيڤيل قد غادر وسط موجةٍ عارمةٍ من الضجيج الَّذي بدَّد هدوء يوم العطلة، وكانت ماريان توشك أن تغلق البوَّابة.

قالت وهي تتابع بعينيها ذاك الشيء الهادر وقد انطلق على الطريق: «لا يمكنني أن أتصوَّر أنَّ المطران راضٍ عن وسيلة تنقُّل صهره المستقبليّ».

قال روبرت بنبرة لا تزال لاذعة: «مهترئة».

ابتسمت وقالت: «أظنُّ أنَّ هذه أوَّل تورية ذكيَّة سمعتها في حياتي من أحدٍ ما، كنتُ آمل لو بقيتَ لتناول الغداء، لكنَّني، وبطريقةٍ ما، أشعر بالراحة لأنَّك لن تبقى».

«هل تشعرين بذلك حقّاً؟».

«صنعتُ ‹شكلاً› لكنَّه لم يرتفع. إنَّني طاهيةٌ فاشلةٌ جدّاً. إنَّني ألتزم حرفيّاً بتعليمات الطهو في الكتاب، لكن من النادر جدّاً أن ينجحَ ذلك. بل إنَّني أُذهل في الحقيقة عندما أُوَفَّقُ فيه. لذا، فمن الأفضل لك أن تمضيَ إلى فطيرة تفَّاح عمَّتك لين».

وفجأةً، ومن غير انصياع للمنطق، تمنَّى روبرت لو أنَّه باقٍ ليشاركها ‹الشكل› الَّذي لم يرتفع، وليكون هو وطبخها عرضةً لدعاباتها الساخرة. ولأنَّه لم ينخرط معها في أحاديث بشأن الدجاج وموباسان، فقد آثر أن يبقى الحوار في إطاره العمليّ؛ فقال بأسلوب، جدّيّ: «سأوافيك ليلة غدٍ بمجريات أموري في لاربورو. وسوف أهاتف المفتّش هالام لأرى إن كان في وسعهم إرسال رجالٍ من عندهم لتفقُّد محيط منزل فرانشايز مرّةً أو مرَّتين في اليوم، كي يخاف المتسكّعون حين رؤية أحدٍ بالزيِّ الرسميِّ، إن جاز التعبير».

قالت: «أنت بالغ اللطف سيِّد بلير. لا يمكنني أن أتخيَّل نفسي من دون وجودك لتسندَني».

حسناً، إن لم يكن في وسعه أن يكون شابّاً ولا شاعراً، ففي وسعه أن يكون عكَّازاً، شيئاً مملّاً، يُلجأ إليه في الأزمات فقط، لكنَّه مفيد. مفيد.

-11-

في العاشرة والنصف من صباح الاثنين، كان يجلس في مقهى (كارينا) وأمامه كوب من القهوة التي يتصاعد البخار منها. وهو إذ بدأ بمقهى (كارينا)، فلأنَّه أوَّل مقهى يخطر في بال المرء، إنْ هو فكَّر في شرب القهوة، هو مقهى (كارينا)، برائحة البنِّ المحمَّص في الطابق السفليِّ للمتجر، وبمنظر الشراب المنتظَر في الطابق العلويِّ بين الطاولات الصغيرة. وإن كان سيُتخم نفسه بالقهوة، فلربَّما عليه أن يختارَ نوعيَّةً جيِّدةً بحيث لا يسأم مذاقها.

كان يمسك بيده صحيفة (آك إيبا) وقد فتحها إلى صورة الفتاة لتواجه أنظار النادلات إذا ما مررنَ أمامها. يحدوه أملٌ غامضٌ في أنَّ اهتمامه بها قد يدفع إحداهنَّ لتقول: ‹اعتادت هذه الفتاة أن تأتي إلى هنا كلَّ صباح›. فوجئ بالصحيفة وقد سُحبت من قبضته بلطف، فارتقى بنظره ليرى نادلته تنظر إليه بابتسامة لطيفة، وقالت: «هذه صحيفة الجمعة الماضية. تفضَّل». وناولته العدد الصادر في ذلك الصباح من صحيفة (آك إيبا).

شكرها وقال إنَّه سيسعده الاطِّلاع على عدد هذا الصباح من الصحيفة، لكنَّه سيحتفظ بعدد يوم الجمعة:

«هل سبق لهذه الفتاة، الفتاة الموجودة على صفحة غلاف عدد الجمعة، أن جاءت إلى هنا لتشرب القهوة؟».

«لا. كنَّا لنتذكَّر لو أنَّها أتت. كنَّا نناقش معاً تلك القضيَّة يوم الجمعة. تخيَّل أنَّها ضُربت حتَّى كادت تموت».

«إذاً، فأنتِ تعتقدينَ أنَّهما ضربتاها؟».

نظرت باستغراب: «قالت الصحيفة إنَّهما فعلتا!».

«كلَّا. الصحيفة نشرت ما قالته الفتاة».

واضح أنَّها لم تنصع لذلك. هذه هي الديمقراطيَّة التي نعظِّمها.

«ما كانوا ليطبعوا قصَّةً كهذه ما لم تكن حقيقيَّة. إنَّها تساوي حياتهم. هل أنت محقِّق؟».

قال روبرت: «بدوام جزئيٍّ».

«وكم تتقاضى عن كلِّ ساعة من عملك؟».

«شيئاً غير كافٍ».

«لا. لا أظنُّه كافياً. فليس لديكم اتِّحادٌ كما أظنُّ. وفي هذا العالم، لا يمكن أن تأخذَ حقوقك ما لم يكن ثمَّة اتِّحادٌ ليمثِّلك».

قال روبرت: «هذا حقيقيٌّ فعلاً. هلَّا سمحتِ لي بفاتورتي من فضلك؟».

«حسابك. أجل».

في (القصر)، أكبر وأحدث دور السينما، احتلَّ المطعمُ الطابقَ المفضي إلى الشرفة من الجهة الخلفيَّة. يتعثَّرُ المرء بسجَّاده السميك، وتبدو الثياب متَّسخةً تحت إضاءته الخافتة. من دون أن ترفعَ نظرها إليه، سجَّلتْ طلبَه حوريَّةٌ ضجرةٌ ذات شعرٍ ذهبيٍّ، ترتدي تنورة متعرِّجة الحوافِّ، وتلوك في الجانب الأيمن من حنكها قطعةً من العلكة. وبعد خمس عشرة دقيقةً،

وضَعتْ أمامه كوباً من سائلٍ مذاقه حاد، من دون أن تحيدَ عيناها باتِّجاهه ولو قليلاً. اكتشف روبرت، في غضون الخمسَ عشرة دقيقةً، أنَّ عدم النظر إلى المرتادين مطلقاً هو الأسلوب العامُّ الذي تنتهجه النادلات هنا- مفترضاتٍ أنهنَّ سيصبحنَ جميعاً نجماتٍ في السينما بعد عامين، ومن غير المتوقَّع منهنَّ إبداء أيِّ اهتمامٍ بزبون ساذج- دفع ثمن السائل الذي لم يتذوَّقه وغادر.

في دار سينما القلعة، وهي دارٌ كبرى أيضاً، لا يفتح المطعم أبوابه قبل حلول وقت العصر.

وفي (فيوليت) -ذي الستائر الصفر و القريب من الأرجوانيِّ الملكيِّ، المنتشرة في كلِّ مكان- سألهم روبرت صراحةً، ضارباً اللباقة عُرض الحائط، ولم يرَها هناك أحد.

كان الوقت ساعة الذروة في الطابق العلويِّ لمتجر (غريفون ووالدرون) الكبير، فقالت النادلة: «لا تزعجني»، في حين قالت له المديرة، وهي تنظر إليه بريبة وشرود: «نحن لا نعطي أيَّ معلومات عن مُرتادي محلِّنا مطلقاً».

وفي (أولد أوك) -المكان الحميميّ والمعتم واللطيف- تحاورت معه النادلات المسنَّات وقد أبدينَ اهتمامهنَّ بالقضيَّة. فكُنَّ يقلنَ: «يا للحبيبة المسكينة! يا لها من تجربة قد مرَّت بها! وجهها جميلٌ أيضاً. ليست سوى طفلة. الحبيبة المسكينة».

في (ألينكون) -ذي الطلاء الحليبيِّ والأرائك الورديَّة القديمة المستندة إلى الجدار- كانوا صريحين بأنَّهم ما سمعوا قطُّ بصحيفة (آك إيما)، ومن المستحيل أن يكونوا قد استقبلوا زبونةً سبق لصورتها أن نُشِرَتْ في صحيفةٍ كهذه.

في (هيڤين هو) -حيث اللوحاتُ الجداريَّة البحريَّة والنادلات مرتديات سراويل الشارلستون[42]- أبدى الحاضرون رأياً واحداً، مجمعين على أنَّ أيَّ فتاةٍ تحظى بتوصيلةٍ فلا بدَّ أنَّها تتوقَّع إيصالها إلى منزلها.

في (بريمروز) -كانت الطاولات القديمة مصقولةً، والأرض يفرشها الحصير، والنادلات النحيلات ذوات الأثواب المزهَّرة تعوزهنَّ الخبرة- ناقش الآثار الاجتماعيَّة لنقص الخدم في المنازل والتقلُّبات المزاجيَّة للمراهق.

في (تي بوت)، لم تكن ثمَّة طاولات، ولم تأتِ أيُّ نادلة لخدمته. نظرةٌ ثانيةٌ منه كانت كفيلة بإقناعه أنَّ بيتي كين لن تأتي إلى هذا المكان الذي يعجُّ بالذباب بين كلِّ الأماكن الأخرى.

في الثانية عشرة والنصف، تهاوى من التعب في البهو في (ميدلاند)، فطلب شراباً قويّاً. وحسب علمه، فقد غطَّى جميع الأماكن المرجَّح تناول الطعام فيها في قلب لاربورو، ولم يذكر أحد في أيٍّ من تلك الأماكن أنَّه قد رأى الفتاة. وما زاد الأمر سوءاً، اتِّفاقهم جميعاً على أنَّهم كانوا ليتذكَّروها لو أنَّها أتت إليهم. وأمام تشكيك روبرت في ذلك، أوضحوا له أنَّ نسبةً كبيرةً من مُرتادي صالتهم هم أُناسٌ مداومون على المجيء إليهم في أيِّ يوم، وبهذا يمكن تمييز المرتادين الطارئين على المكان وتذكُّرهم بعفويَّة من بين بقيَّة المرتادين.

لَمَّا وضع له آلبرت، نادل الصالة القصير والبدين، شرابه أمامه، سأله روبرت بحكم العادة لا الإرادة: «أفترض أنَّك لم ترَ هذه الفتاة عندك هنا قبل الآن يا آلبرت؟».

42 سراويل ضيّقةٌ من الخصر إلى الركبة، وعريضةٌ مخروطياً من عند الركبة نزولًا إلى الكاحل. المترجمة.

نظر آلبرت إلى صفحة غلاف (آك إيما)، وهزَّ رأسه نفياً: «لا يا سيِّدي. ليست هذه هي من أتذكَّرها. إن كان يسعني القول، فهذهِ أصغر قليلاً ليُسمح لها بدخول بهو (ميدلاند)».

قال روبرت و هو يفكِّر في ذلك: «قد لا تبدو صغيرةً جدّاً إن هي اعتمرت قبَّعة».

توقَّف آلبرت لوهلة: «قبَّعة. انتظر دقيقة. قبَّعة». ترك آلبرت الصينيَّة من يده وتناول الصحيفة ليتأمَّلها.

«نعم. بالتأكيد، هي الفتاة ذات القبَّعة الخضراء!».

«أتعني أنَّها جاءت إلى هنا لتشربَ القهوة؟».

«لا. بل الشاي».

«الشاي!».

«أجل. بالتأكيد. هذه هي الفتاة. تصوَّر أنَّني لم أفطن إلى ذلك. وقد كانت الجريدة لدينا في المخزن يوم الجمعة الماضي مرميةً فوق الأغطية القماشيَّة لساعات! طبعاً حصلَ هذا منذ وقت ليس بالقريب، أليس كذلك؟ لا بدَّ أنَّه قد مرَّ ما يقرب من ستَّة أسابيع على ذلك. كانت تأتي في وقتٍ مبكِّرٍ دوماً. في الثالثة تقريباً، عندما نبدأ بتقديم الشاي».

إذاً، فهذا ما كانت تفعله. من الغباء أنَّه لم ينتبه إلى الأمر. كانت تذهب إلى العرض الصباحيِّ في السينما لأنَّها تدفع مبلغاً أقلَّ -وقد كان ذلك قبل الظهيرة- وتخرج قرابة الساعة الثالثة، وتشرب الشاي، لا القهوة. لكن، لماذا في (ميدلاند)؟ حيثِ الشاي الرخيص -عادةً- يُقدَّم هنا بثمنٍ فندقيٍّ باهظ، في حين يمكنها التلذُّذ بتناول الكعك في مكان آخر.

«لقد شدَّت انتباهي لأنَّها كانت تأتي إلى هنا بمفردها دوماً. لَمَّا جاءت أوَّل مرَّة، حسبتُ أنَّها في انتظار أحدٍ ما من الأقارب. فقد بدت من تلك النوعيَّة من الأطفال. كما تعرف: ملابس عاديَّة جميلة؛ من دون تكلُّف».

«هل يمكن أن تتذكَّر ما كانت ترتدي؟».

«بالطبع. فقد كانت ترتدي الثياب نفسها على الدَّوام. قبَّعةٌ خضراء وثوب يتلاءم معها، ومعطفٌ رماديٌّ فاتح. لكنَّها لم تلتقِ أحداً مطلقاً. وذات يوم، اختارت الرَّجل الجالس إلى الطاولة المجاورة. لقد أذهلني ذلك تماماً».

«تقصد أنَّه: هو مَن اختارها».

«إن شئتَ فلا تصدِّق! إنَّه لم يفكِّر فيها مجرَّد تفكير عندما كان يجلس هناك. دعني أخبرك يا سيِّدي، لم يبدُ عليها أنَّها من ذلك النوع. كان سيرد إلى ذهنك أنَّ أمَّها أو عمَّتها مثلاً ستظهر في أيِّ لحظةٍ وهي تقول: 'آسفة لأنَّني تركتك تنتظرينَ يا حبيبتي'. لم يبدُ عليها أنَّها سهلة المنال لأيِّ رجل كان. لا. قد بدا أنَّه عملٌ طفوليٌّ. ودعني أخبرك، يا سيِّدي، إنه كان عملاً متقناً كما لو أنَّها أمضت سنيَّ عمرها في ذلك. يا للسذاجة! وحسبتُ أنَّني لم أعرفها من دون القبَّعة». وحملق مذهولاً في صورة الوجه.

«كيف يبدو الرَّجل؟ هل كنتَ تعرفه؟».

«لا. لم يكن ممَّن يرتادون صالتنا دائماً. أسمر. شابٌّ حدث السنِّ، يمكنني أن أقول إنَّه رجل أعمال. أذكر أنَّ ذوقها قد أدهشني. والآن، إذ أفكِّر فيه فلستُ أراه من أولئك الذين تُعلَّق عليهم الآمال».

«إذاً، فأنت لم تَرَه مرَّة أخرى؟».

«ربَّما يا سيِّدي. ربَّما. لكنَّني لن أقسم على ذلك. أنت لا تفكِّر في موضوع القسم -صحيح يا سيِّدي؟».

كان روبرت يعرف آلبرت منذ قرابة عشرين عاماً، ولطالما كان يكنُّ له التقدير الكبير. قال: «الأمر كذلك يا آلبرت. هاتان هما موكِّلتايَ». وأشار إلى صورة منزل فرانشايز، فأطلق آلبرت صفرةً خفيفة:

«موقفك حرجٌ يا سيِّد بلير».

«أجل. كما تقول: موقفٌ حرج. لكنَّه حرج بالنظر إليهما، غالباً هما في موقفٍ حرجٍ للغاية. فمن دون أيِّ مقدِّمات، ظهرت الفتاة ذات يومٍ برفقة رجال الشرطة بعد أن سردتْ لهم هذه القصَّة الخياليَّة. حتَّى ذلك الحين، لم يسبق لأيٍّ من السيِّدتين أن وقعت عيناها عليها. كان رجال الشرطة متحفِّظين للغاية، وقرَّروا أنَّهم لا يملكون الأدلَّة الكافية ليجعلوا منها قضيَّةً كاملة. وحينذاك، سمعت صحيفة (آك إيما) بالقصَّة، وحصدت ثروةً من ورائها. وقد انتشرت القصَّة في أنحاء بريطانيا كافَّة. ومنزل فرانشايز غدا عُرضةً للاقتحام بالطبع؛ فعناصر الشرطة عاجزون عن تأمين رجال لحمايته دوماً، ولك أن تتخيَّل الحياة التي تعيشها هاتان الامرأتان. يقول ابن عمِّي، الَّذي أطلَّ عليهما قبل العشاء ليلة البارحة، إنَّ حشود السيَّارات ظلَّت تتوافد من لاربورو منذ وقت الغداء، والناس وقوفٌ على أسطح السيَّارات، وعلى الجدار الَّذي كانوا يتسلَّقونه للتلصُّص أو لالتقاط الصور. وقد دخل نيڤيل لأنَّه وصل في الوقت نفسه الذي وصل فيه الشرطيُّ في أثناء ورديَّة المساء. لكن، ما إنْ غادرا، عادت حشود السيَّارات مجدَّداً. ولم يتوقَّف رنين الهاتف إلى أن طلبتا إلى عاملة المقسم إيقاف تحويل أيِّ مكالمات إلى رقمهما».

«هل أسقطها رجال الشرطة على نحوٍ نهائيٍّ إذاً؟».

«لا. غير أنَّهم عاجزون عن مساعدتنا. فما يبحثون عنه فعليّاً هو دليل يؤكِّد قصَّة الفتاة».

«حسناً. في الأرجح أنَّهم لن يفلحوا. صحيح؟ أعني في الحصول على ذلك».

«لا. لكنَّك تدرك الموقف الذي نحن فيه. فإنَّنا ما لم نعثر على المكان الَّذي كانت فيه الفتاة في غضون الأسابيع التي قالت إنَّها قد قضتها في منزل فرانشايز، فستبقى أسرة شارب عرضةً للإدانة دوماً. حتَّى وإن لم تُوجَّه إليها تهمة رسميَّة».

«حسناً. إن كانت هي الفتاة ذات القبَّعة الخضراء -وأنا متأكِّدٌ من أنَّها هي يا سيِّدي- فسأقول إنَّها كانت من أولئك الذين يُعرف عنهم ‹إطالة السَّهر إلى الصباح›، يا سيِّدي. كانت زبونةً في غاية البرود بالنظر إلى فتاة في مثل سنِّها. وكأنَّ الزُّبْد لا يذوب في فمها».

‹وكأنَّ الزُّبْد لا يذوب في فمها›. وهو ما قاله بائع التبغ عن الطفلة بيتي.

‹وإطالة السهر إلى الصباح›. هو رأي ستانلي في صورة الوجه، شديد الشبه ‹بالبنت التي كان معها في مصرَ›.

وها هو ذا النادل القصير المحنَّك قد استعمل التعبيرين في تقييمه لها. الفتاة العفيفة في الثياب ‹المحتشمة›، التي كانت تأتي وحدَها كلَّ يومٍ لتجلسَ في بهو الفندق.

استنهضته الطيبة داخله!

لعلَّه كان محض اشتهاءٍ طفوليٍّ لولوج ‹عالم الكبار›، لكنَّ حدسه السليم رفض ذلك. كان في وسعها دخول عالم الكبار في (آلينكون)، وأن تأكل طعاماً جيّداً، وتتفرَّج على ملابس أنيقة في الوقت نفسه.

ذهب لتناول الغداء، ومن ثمَّ أمضى جُلَّ وقته بعد الظهر في محاولة التواصل مع السيِّدة وين عبر الهاتف. لم يكن لدى السيِّدة تيلسيت هاتف، ولم تكن لديه، هو، نيَّةٌ للانخراط في محادثة (تيليسيَّة)، هذا إن استطاع تحمُّلها مرَّة أخرى. ولمَّا أخفق في الاتِّصال، تذكَّر أنَّ لدى عناصر سكوتلاند يارد، بكلِّ تأكيد، وصفاً -دقيقاً كعادتهم- للثياب التي كانت ترتديها الفتاة عندما فُقدتْ. وفي أقلَّ من سبع دقائق، كان الوصف بين يديه: قبَّعة خضراء من الجوخ، وثوبٌ صوفيٌّ أخضرُ يلائمها، ومعطفٌ قماشيٌّ ذو لونٍ رماديٍّ فاتح بأزرار رماديَّة كبيرة. جوارب من الحرير الصناعيِّ الرماديِّ، وحذاءٌ أسودُ رسميٌّ ذو كعبٍ متوسِّط.

حسناً. أخيراً عرفه، المكان الذي كانت تُمضي فيه وقتها، نقطةُ انطلاقِ التحقيق. ملأته الغبطة، وبينما كان في طريقه إلى الخروج، جلس في البهو قليلاً ليكتب ملاحظة إلى كيفين ماكديرموت، يخبره فيها أنَّ امرأة آليزبيري الشابَّة لم تكن جذَّابةً كما كانت ليلة الجمعة، وليوصل إليه -بين السطور- طبعاً قدرة شركة بلير وهايوارد وبينيت على اتِّخاذ خطوةٍ إلى الأمام عند الضرورة.

لكن، كيف سيتمكَّن من البحث عن رجل أعمالٍ شابٍّ وأسمر، حدث أن شرب الشاي في بهو فندق (ميدلاند) منذ ما يقرب من ستَّة أسابيع مضت؟ فقد كان كلُّ نزلاء فندق (ميدلاند) من رجال الأعمال شبَّاناً وسُمراً، ولا يمكن أن يميِّز بلير واحداً منهم عن الآخر، كما هي حال حبَّات البازلاء تماماً. كان خائفاً جدّاً أن تكون هذه النقطة هي الَّتي سيتنحَّى عندها جانباً ويسلِّم زمام الأمور إلى محقق محترف. إذ ليست لديه الآنَ صورةٌ فوتوغرافيَّةٌ ليستعينَ بها؛ ولا يعرف صفات الرجل (س) ولا عاداته، كما كان لديه في حالة الفتاة. ستكون حينها العمليَّة طويلةً للوصول إلى معلومات قليلة، وتلك هي وظيفة الخبير. وكلُّ ما يمكنه فعله، في هذه اللَّحظة، حسبما يرى، هو أن يحصل على قائمةٍ بأسماء المقيمين في فندق (ميدلاند) في أثناء الفترة المعنيَّة بالتحقيق.

لأجل ذلك، ذهب إلى المدير، وهو رجلٌ فرنسيٌّ أبدى ترحيباً وتفهُّماً كبيرين بشأن عمليَّة التحقيق السرّيَّة هذه، متعاطفاً بشدَّةٍ مع السيِّدتين المظلومتين في منزل فرانشايز، ومريحاً في تهكُّمه من الفتيات الشابَّات ذوات الوجوه الناعمة والثياب المحتشمة، ممَّن لا يذوب الزُّبْدُ في أفواههنَّ. أرسل مساعداً لينسخ قائمة أسماء الزوَّار من السجلِّ الكبير، ودعا روبرت إلى شراب من خزانته الخاصَّة.

لم يسبق لروبرت أن انخرط في شرب سائلٍ غير معروفٍ في أوقاتٍ غريبة، لكنَّه اِبتلع تلك الجرعات القليلة الحلوة ذات المذاق الفرنسيِّ بامتنان، ودسَّ القائمة التي أحضرها له المساعد في جيبه كما يدسُّ المرء جواز سفره. لربَّما كانت غير ذات قيمة حقيقيَّة، لكنَّها منحته شعوراً جميلاً عندما حصل عليها.

وإن اضطرَّ إلى إحالة العمل إلى المحترف، فسيجد المحترف مكاناً ليبدأ تنقيبه منه. لربَّما لم ينزل الرجل (س) في (ميدلاند) مطلقاً، ولربَّما كان مجيئه يوماً ما لشرب الشاي فقط. ومن ناحيةٍ أخرى، قد يكون اسمه ضمن تلك القائمة في جيبه، تلك القائمة الطويلة المروِّعة.

قرَّر في أثناء طريق عودته إلى المنزل ألَّا يتوقَّف عند منزل فرانشايز. فمن غير المنصف أن يأتي بماريان إلى البوَّابة من أجل إخبارها بأنباءٍ يمكنه أن يوصلها إليها عبر الهاتف. سيخبر عاملة المقسم بهويَّته، وأنَّ المكالمة ذات صفة رسميَّة، وهكذا سيُجاب عن مكالمته. ولربَّما انحسر هذا التدفُّق العارم إلى المنزل بحلول الغد، وغدا فتح البوَّابة شأناً آمناً. مع أنَّه قد شكَّ في ذلك. فلا يُحتسب عدد اليوم من صحيفة (آك إيما) كمؤشِّرٍ على تهدئة جموح الغوغائيين. صحيحٌ أنَّ الصفحة الرئيسة قد خلت من العناوين المتعلِّقة بقضيَّة فرانشايز، التي انتقلت إلى صفحة المراسلات -وقد كان ثُلثا تلك الرسائل يتناول قضيَّة فرانشايز- إلَّا أنَّ صحيفة (آك إيما) كانت قد آثرت نشر الرسائل التي لا تُطفئ نار الجدل؛ وإنَّما تصبُّ الزيت على النار المتأجِّجة في كلِّ الأحوال.

وبينما كان يشقُّ طريقه خارجاً من زحمة لاربورو، عادت تلك العبارات السخيفة تثير دهشته إزاء هذا الحقد كلِّه الَّذي أجَّجته هاتان المرأتان المجهولتان في عقول الكُتَّاب. تفشَّى الغضب والكره في الصحيفة، وتدفَّق الحقد من غير رادعٍ له في العبارات الأميَّة عموماً. لقد كان استعراضاً مذهلاً. ومن أغرب الأمنِيات المفضلة، لكثيرٍ من أولئك المحتجِّين الناقمين على العنف، توقُّهم إلى جلد المرأتين المذكورتين إلى أن تفارقا الحياة. أمَّا أولئك الذين لم يرغبوا في جلد النساء، فقد أرادوا إصلاح جهاز الشرطة. واقترح واحدٌ من الكتَّاب أن تُعوَّض الضحيَّة الشابَّة المسكينة ماديّاً؛ لانعدام كفاءة عناصر الشرطة وانحيازهم. واقترح آخر أن يَكتب كلُّ رجلٍ حرٍّ إلى نائبه في مجلس النوَّاب عن هذا الأمر، وأن تُحال حيواتهم إلى جحيم إلى أن تُتَّخذ إجراءاتٌ بشأن هذا الإخفاق في تحقيق العدالة. وسأل ثالث ما إذا انتبه أحدٌ إلى الشبه الملحوظ ما بين بيتي كين والقدِّيسة برناديت.[43]

إن كانت صفحة الرسائل في عدد اليوم من صحيفة (آك إيما) تشكِّل معياراً ما، فقد حملت كلَّ دلالةٍ تشير إلى ولادة أنصار بيتي كين. وأمِلَ ألَّا يفضي ذلك إلى طلب الثأر من أصحاب فرانشايز.

لَّما اقترب من المنزل البائس، تنامى فيه القلق، وتساءل ما إن كان يوم الاثنين أيضاً قد نال حصَّته من جموع المتفرِّجين. كانت أمسيةً بديعةً، مالت الشمس إلى الأسفل بأشعَّتها الذهبيَّة الممتدَّة فوق حقول الربيع. أمسية تغري لاربورو لتخرج هي الأخرى إلى الهدوء في قلب ميلفورد. ستكون معجزةً إن لم يتحوَّل منزل فرانشايز إلى قِبْلة يقصدها حجَّاج المساء عقب تلك المراسلات في (آك إيما). لكنَّه لَّما صار على مقربةٍ منه، وجد الطريق الطويل خاوياً، ولَّما دنا

---

43 القدّيسة بيرناديت: اسمها الكامل ماري برنارد سوبيروس 1844- 1879، قدّيسة كاثوليكية، ولدت في قرية اللورد في فرنسا، وتوفيت بمرض السلّ، جسدها محفوظٌ في كنيسة اللورد ولم يتحلّل. أُعلِنت قدّيسة في 8 ديسمبر 1939. المترجمة.

منه أكثر، أدرك السبب. فعند بوّابة منزل فرانشايز، تألّقت قامة الشرطيِّ تحت ضوء المساء، صلباً وثابتاً بزيِّه الكحليِّ والفضيِّ.

اغتبط لتكرُّم هالام، على الرَّغم من محدوديَّة سلطته، وأبطأ من سرعته ليتبادل التحيَّة معه، لكنَّ سلامه مات على شفتيه. لطَّخ الشعارُ الجدارَ القرميديَّ العالي بطوله، وبأحرف يقارب طولها المترين. صرختْ الأحرف البيض الكبيرة «فاشيُّون!». ومرَّة ثانية، على الجانب الآخر من البوَّابة أيضاً «فاشيُّون!».

قال الضابط المسؤول بهوادةٍ وتهذيبٍ محذِّراً روبرت، الذي كان شاخصاً ببصره، من الاقتراب: «تحرَّك إلى الأمام من فضلك. يمنع الوقوف هنا».

ترجَّل روبرت ببطءٍ من سيَّارته.

«سيِّد بلير. لم أتعرَّفك يا سيِّدي. اعذرني».

«هل هذا كلس؟».

«لا يا سيِّدي؛ بل طلاء عالي الجودة».

«يا إله السموات!».

«بعض الأشخاص لا يكبرون على فعل ذلك أبداً».

«على فعل ماذا؟».

«الكتابة على الجدران. هناك أمرٌ واحدٌ جيِّدٌ: كان في وسعهم كتابة شيءٍ أسوأ من هذا».

قال روبرت متهكِّماً: «لقد كتبوا أسوأ شتيمةٍ عرفوها. أفترض أنَّك لم تمسك بالجناة؟».

«لا يا سيِّدي. لقد جئت في جولتي المسائيَّة لأفرِّق جموع المتجمهرين المعتادين -صحيح أنَّ العشرات منهم كانوا هنا- وقد كان الوضع على هذه الحال عندما وصلت. إنْ صدقت الأنباء، فقد كانا شابَّين في سيَّارة».

«هل علمت أسرة شارب بالأمر؟».

«أجل. كان عليَّ أن أستعمل الهاتف. لقد اتَّفقنا على شيفرة مع قاطنتَي فرانشايز الآن. فإذا ما أردت التحدُّث إليهما، أربط منديلي في نهاية الهراوة، وألوّح بها من فوق البوَّابة. أتريد الدخول يا سيِّدي؟».

«لا. لا، لا أظنُّني سأفعل عموماً. سأتَّصل بالبريد لوصلي بهما هاتفيّاً. لا حاجة إلى إحضارهما إلى البوَّابة. إن كان هذا الأمر سيستمرُّ، فلا بدَّ من صنع مفاتيح للبوَّابة، وعندها سيكون بالإمكان أن أحصل على نسخةٍ منها».

«على الرَّغم من هذا، يبدو أنَّ الأمور ستسير على ما يرام يا سيِّدي. هل اطَّلعت على عدد اليوم من صحيفة (آك إيما)؟».

«اطلعت».

قال الضابط المسؤول الذي فقد رباطة جأشه أمام التفكير في (آك إيما): «يا إلهي! قد تفكِّر في الاستماع إليهم، لم نكن سوى مجموعةٍ من المرتشين! بمناسبة الحديث عن ذلك، فإنَّ لمن العجيب أنَّنا لسنا بمرتشين. كان الأجدر بهم أن يطالبوا بزيادة أجورنا بدلاً من قذفنا بالاتِّهامات يُمنةً ويُسرةً».

قال روبرت: «إن كان في ذلك أيُّ عزاء لك، فأنت في سَريَّةٍ نزيهةٍ جدّاً. لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ مبنيٌّ على الاحترام، وجدير بالثناء، من دون أن يتعرَّضوا له بالقذف من حين إلى آخر. سأرسل أحداً الليلة أو في الصباح الباكر ليفعل شيئاً بخصوص هذا -الفحش. هل أنت باقٍ هنا؟».

«قال الرقيب عندما هاتفته إنَّ عليَّ البقاء حتَّى هبوط الظلام».

«لن يكون ثمَّة أحد في أثناء الليل؟».

«لا يا سيِّدي. لا يوجد رجالٌ احتياطيُّون لأجل ذلك. في كلِّ الأحوال، ستكونان بخير ما إن يزول الضوء، فالناس يعودون إلى منازلهم، ولا سيَّما في منطقة لاربورو. فهُم لا يحبُّون الريف بعد هبوط الظلام».

تذكَّر روبرت كم كان البيت المنعزل موحشاً، وشعر بالارتياب. لم تكن بالفكرة المريحة؛ أن تكون امرأتان بمفردهما في هذا المنزل الكبير الهادئ بعد حلول الظلام، وينتظرهما كلُّ تلك الكراهية، وذلك العنف خارج حدود الجدار. كانت البوَّابة موصدة، لكنَّ الناس الذين تمكَّنوا من تسلُّق الجدار والجلوس عليه، وصدحوا بالشتائم من فوقه، لن يصعبَ عليهم النزول من الجانب الآخر تحت جنح الظلام.

قال له الضابط المسؤول وهو يراقب وجهه: «لا تقلق يا سيِّدي. لن يحصل لهما شيء. ففي النهاية، هذه إنجلترا».

«وكذلك صحيفة (آك إيما) في إنجلترا». ذكَّره روبرت. لكنَّه عاد ليركبَ سيَّارته. ففي نهاية الأمر، تلك كانت إنجلترا، وفيما يتعلَّق بذلك، فالريف الإنجليزيُّ مشهورٌ بقدرته على تولِّي أموره بنفسه.

لم تكن الأيادي الريفيَّة هي التي لطَّخت الجدار بكتابة 'فاشيُّون!'. فإنَّه لأمرٌ يدعو إلى الشكِّ في أن يكون الريف قد سبق له سماع هذا المصطلح. فحينما يسعى الريف إلى شتم أحدهم، فسيلجأ إلى مصطلحات أقدم من هذا: ألفاظ ساكسونيَّة.

كان الضابط المسؤول محقّاً بلا شكٍّ. ما إن يهبط الظلام، فسيعود كلُّ إنسان إلى منزله.

-12-

لَمَّا انحرف روبرت بسيَّارته وأوقفها في مرآب جادَّة سين، قال له ستانلي، الذي كان يخلع (أفرول) العمل خلف باب المكتب، وهو يحدِّق إلى وجهه: «خسارةٌ أخرى».

قال روبرت: «ليس في الرهان. وإنَّما في الطبيعة البشريَّة».

«ما إنْ تشعر بالأسى تجاه الطبيعة البشريَّة، فلن يكون لديك وقتٌ لأيِّ شيءٍ آخر. هل كنت في سعيٍ لتهذيب أحدهم؟».

«لا، وإنَّما كنت أقنع أحدهم بإزالة طلاءٍ عن جدار».

قال ستانلي: «أوه! العمل!»، وقد أخفى في نبرته أنَّ مجرَّد التفكير في قبول أحدهم أداء عملٍ ما في هذه الأيَّام هو تفاؤلٌ يبلغ حدَّ الحماقة.

«كنت أحاول إحضار أحدٍ ليزيل شعاراً عن جدران منزل فرانشايز، لكنَّهم جميعاً انشغلوا فجأةً، وعلى نحوٍ غريب».

توقَّف ستانلي عن التملُّص من ثيابه، وقال: «شعار؟ شعارٌ من أيِّ نوع؟».

ولَمَّا سمع بيل الحوار المتبادل، أطلَّ من باب المكتب الضّيِّق ليستمعَ إليه.

أخبرهما روبرت: «بطلاءٍ أبيض عالي الجودة، كما أكَّد لي الشرطيُّ المناوب».

صفَّر بيل، ولم يقل ستانلي أيَّ شيء. كان واقفاً وقد انسدلت ثيابه عن خصره، وانكمشت مجعَّدةً حول ساقيه.

سأله بيل: «ممَّن حاولت أن تطلب؟».

أخبرهما روبرت: «كلُّهم لا يستطيعون فعل شيءٍ الليلة. ويبدو أنَّهم جميعاً سيرسلون رجالهم لأداء وظائفَ مهمَّة غداً في الصباح الباكر».

قال بيل: «هذا لا يصدَّق. لا تقل لي إنَّهم يخشون الانتقام منهم».

«لا. ولأكون منصفاً معهم، فلا أظنُّ أنَّ هذا هو السبب. ومع أنَّ أحداً منهم لم يقلها في وجهي، لكنَّني أظنُّ أنَّهم يحسبون أنَّ السيِّدتين في منزل فرانشايز تستحقَّان ذلك». ساد الصمت لدقيقة.

قال ستانلي، وقد شرع يرتدي ملابسه بهدوءٍ ويصل إلى الجزء العلويِّ ثانيةً: «لمَّا كنت في فيلق الإشارات، مُنِحتُ رحلةً مجَّانيَّةً إلى إيطاليا. وقد استغرقتُ قرابة عامٍ في ذلك. نجوتُ من الملاريا، ومن السطوح الكهرطيسيَّة، ومن الثوَّار، ومن شركة (يانك) للنقل، ومن معظم المضايقات التافهة الأخرى. لكنَّني أُصبت بالفوبيا. فقد كرهت الشعارات على الجدران كراهيةً شديدة».

سأل بيل: «بمَ سنزيله؟».

قال ستانلي وهو يغلق سحَّابه الأماميَّ: «ما نفع أن نمتلك المرآب الأحدث والأفضل جاهزيَّةً في ميلفورد، إن لم يكن لدينا فيه ما يمكن أن نزيل به بقعةً من الطلاء؟».

قال روبرت مذهولاً ومسروراً: «هل ستحاول حقّاً أن تفعل شيئاً حيال ذلك؟».

ابتسم بيل ابتسامته المتمهِّلة العريضة: «فيلق الإشارات الملكيَّة، وفيلق المهندسين الملكيّين والكهربائيّين والميكانيكيّين مع اثنتين من المكانس. ماذا تريد أكثر من ذلك؟».

قال روبرت: «بارك الله فيك، بارك فيكما كليكما. لديَّ مطمحٌ واحد لهذه الليلة فقط؛ أن يُزال الشعار عن الجدار قبل موعد فطور الغد. سأرافقكما وأساعدكما».

قال ستانلي: «ليس وأنت ترتدي بدلةً من (سافيل روو). وليس لدينا ثيابٌ إضافيَّةٌ لأجلك...».

«سأحضر شيئاً قديماً وألحق بكما من فوري».

قال ستانلي بأناة: «انظر. لسنا في حاجةٍ إلى أيِّ مساعدةٍ من أجل أداء عملٍ هيِّنٍ كهذا. ولو احتجنا إلى شيءٍ لأخذنا هاري معنا»، هاري هو صبيُّ المرآب، «وأنت لم تأكل بعدُ، أمَّا نحن فأكلنا. وسمعت أنَّ الآنسة بينيت لا تحبُّ أن يفسدَ طعامها اللذيذ. أظنُّ أنَّك لا تمانع إن بدا الجدار ملطَّخاً، صحيح؟ فنحن عاملو مرآبٍ طيّبو النوايا، ولسنا فنّيي ديكور».

في أثناء سيره في الشارع العامِّ باتِّجاه بيته، عند الرقم 10، كانت المتاجر مغلقةً، وهو ينظر إلى مكانٍ كما لو كان غريباً يجوس الطريق يومَ أحد. في يومه الذي أمضاه في لاربورو، شعر أنَّه ابتعد عن ميلفورد لسنوات.

استقبله المنزل رقم 10 بهدوئه المريح الباعث على طمْأنَتِه -بخلاف الصمت الموحش في منزل فرانشايز. تنبعث رائحة التفَّاح المشويِّ خفيفةً من المطبخ. ويرى من الباب المُوارب ارتعاش نيران المدفأة منعكساً على جدار غرفة الجلوس. تعلوه موجةٌ من الدفء والأمان والراحة وتحتضنه بلطفٍ.

رفع السَّماعة ليكلِّم ماريان، وقد شعر بالذنب لأنَّه ينعم بهذا الانتظار الهادئ.

لَّا تمكَّن أخيراً من إقناع مكتب البريد بنواياه الشريفة، باغته دفء صوتها، فقبض على قلبه وقطع أنفاسه للحظةٍ حين قالت -وعقله لا يزال منشغلاً بالطلاء الأبيض-: «هذا أنت. كم هذا لطيف. إنَّني في غاية السرور، لقد كنت أتساءل كيف كنَّا سنكلِّمك. لكن لعلِّي شعرت في قرارة نفسي أنَّك ستتدبَّر الأمر. أظنُّك قد قلت فقط إنَّك روبرت بلير؛ فمنحك مكتب البريد حرِّيَّة الاتصال».

فكَّر كم أحبَّها. العرفان الصادق في قولها: «شعرت أنَّك ستتدبَّر الأمر»، ثمَّ أتبعتها بالدعابة الباهتة في قولها التالي:

«أظنُّ أنَّك قد رأيت النقوش على جدارنا؟».

قال روبرت نعم، لكنَّ أحداً لن يرى ذلك أبداً، لأنَّها ستكون قد محيت بحلول شروق الشمس.

«غداً؟».

«قرَّر الرجلان اللذان يملكان المرآب الذي أستعمله أن يطمساها هذه الليلة».

«لكن... أيمكن لسبع خادماتٍ بسبع ممسحاتٍ أن...؟».

«لا أدري، لكن حينما يصمِّم ستانلي وبيل على طمسها، فستُطْمَس. لقد ترعرعا في مدرسةٍ لا تتسامح مع الإخفاقات».

«أيُّ مدرسةٍ هذه؟».

«الجيش البريطانيّ. ولديَّ المزيد من الأخبار السّارَّة لكِ: لقد تثبَّتُّ من حقيقة وجود الرجل (س). لقد شربَتِ الشاي معه ذات يوم. اختارته في بهو فندق (ميدلاند)».

«اختارته؟ لكنَّها مجرَّد طفلة، وبهذا...، حسناً. لقد روت تلك القصَّة. بالتأكيد. ومن بعدها، غدا كلُّ شيءٍ ممكناً. كيف اكتشفت ذلك؟».

أخبرها. ثمَّ قال بعد ملحمة المقاهي: «لقد مررتِ بيومٍ سيِّئ في منزل فرانشايز، أليس كذلك؟».

«نعم. أشعر بالقذارة في كلِّ مكان. ما كان أسوأ من الحشود ومن الجدار هو الرسالة. سلَّمها ساعي البريد إلى الشرطيِّ ليُدخلها إلينا. ليس من العادة أن يهتمَّ جهاز الشرطة بنشر الأدب الفاحش».

«أجل. يمكنني أن أتصوَّر مدى بشاعتها. وهذا أمرٌ متوقَّع».

«حسناً، لقد وصلتنا بعض الرسائل التي جعلتنا نتَّخذ قراراً بإحراق كلِّ ما يَرِدُ مستقبلاً، ومن دون فتحه، ما لم نتعرَّف خطَّ المرسِل. لذا، إنْ راسلتنا، فلا تستعمل الآلة الكاتبة».

«لكن، أتعرفينَ خطَّ يدي؟».

«أجل. كتبتَ لنا رسالةً، أنت تذكر ذلك. تلك التي أحضرها نيڤيل ذاك المساء. خطُّك جميل».

«هل رأيت نيڤيل اليوم؟».

«لا. لكنَّ إحدى تلك الرسائل كانت منه. في الأقلِّ لم تكن رسالة».

«هل كانت مستنداً ما؟».

«لا. بل قصيدة».

«هل فهمتِها؟».

«لا. لكنَّ رنينها جميل».

«وكذا هي أجراس الدرَّاجات».

حسب أنَّها قد ضحكت قليلاً. قالت: «جميلٌ أن يحظى المرء بقصيدةٍ كُتبت في حاجبيه. لكن الأجمل أن يحظى بجدارٍ نظيف. إنَّني أشكرك حقّاً لأجل ذلك -أنت، وماذا كان اسماهما- بيل وستانلي. إن كنت ترغب في أن تكون بالغ اللطف، فلربَّما يجدر بك إحضار أو إرسال بعض الطعام غداً؟».

قال، وقد تملَّكه الذعر لأنَّه لم يفكِّر في ذلك قبل الآن: «طعام!». هذا ما يحدث عندما تعيش حياةً تتكفَّل فيها العمَّة لين بإحضار كلِّ شيءٍ إلى خدمتك. وليس عليك إلَّا أن تضعَ الأشياء في فمك، فتخسر قدرتك على التّخيُّل.

«أجل، بالطبع. نسيت أنَّك لن تستطيعي الذهاب لأجل التسوُّق».

«ليس هذا فحسب» وإنَّما حتَّى شاحنة البقالة التي تنادي كلَّ يوم اثنين لم تأتِ اليوم. أو لعلَّها»، ثمَّ أضافت على عجل: «أتت ولم تنادِ لكيلا ننتبه. في أيِّ حال، سنكون في غاية الامتنان لإحضارك بعض الأشياء. ألديك قلم رصاصٍ بالقرب منك؟».

أعطته قائمةً بالأشياء ثمَّ سألته: «لم نرَ عدد اليوم من صحيفة (آك إيما). هل كان فيها أيُّ شيءٍ عنَّا؟».

«بعض الرسائل في صفحة المراسلات، وهذا كلُّ شيء».

«كلّها ضدّنا حسبما أظنُّ؟».

«أخشى ذلك. سأحضر لكما نسخةً منها غداً صباحاً عندما أحضر لكما البقالة، ويمكنكما رؤيتها بنفسيكما».

«أخشى أنَّنا نأخذ كثيراً من وقتك».

قال: «لقد أصبحت هذه المسألة شخصيَّة لديَّ».

بدا صوتها متشكِّكاً: «شخصيَّة؟».

«المطمح الأوَّل في حياتي هو تكذيب بيتي كين».

«فهمت». بدا صوتها نصف مرتاحٍ ونصف من-هل يمكن أن تكون- خاب أمله. «حسناً. في انتظار أن نراك غداً».

لكنَّها كانت ستراه قبل ذلك بوقتٍ طويل.

ذهب إلى السرير مبكِّراً، لكنَّه ظلَّ مستيقظاً لوقتٍ طويل، وهو يكرِّر في رأسه الحوار الهاتفيَّ الذي يخطِّط لإجرائه غداً مع كيڤين ماكديرموت، وهو يفكِّر في المسائل التي سيتناول من خلالها مشكلة الرجل (س)، وهو يتساءل إن كانت ماريان قد خلدت إلى النَّوم في ذلك المنزل القديم الموحش أم أنَّها ما زالت مستيقظةً تنصت إلى الأصوات.

كانت غرفته مطلَّةً على الشارع، وعند منتصف الليل تقريباً، سمع صوت سيَّارةٍ تسير ثمَّ تتوقَّف، من النافذة المفتوحة، سمع بعد ذلك نداءات بيل الخفيضة، همساً لا يكاد يتعدَّى الحنجرة: «سيِّد بلير! هيه. سيِّد بلير!».

كان يقف عند النافذة قبيل نطق اسمه للمرَّة الثانية.

همس بيل: «الحمد لله، خشيت أن يكون هذا ضوء غرفة الآنسة بينيت».

«لا. إنَّها تنام في الجهة الخلفيَّة، ما الأمر؟».

«ثمَّة مشكلةٌ في منزل فرانشايز. عليَّ الذهاب إلى الشرطة لأنَّ سلك الكهرباء قد قُطع. لكن فكَّرت في أنَّك قد ترغب في أن تُستدعى إلى هناك، لذلك أنا...»

«أيّ نوعٍ من المشكلات؟».

«مشاغبون. سأعود لاصطحابك في طريق عودتي. في غضون أربع دقائق تقريباً».

«هل ستانلي معهما؟»، سأل روبرت عندما كان بيل يندسُّ بجسده الضخم في السيَّارة مجدَّداً.

«أجل. لقد أصيب ستان في رأسه. سأعود في غضون دقيقة». ومضت السيَّارة بعيداً في صمت وظلمة الشارع العام.

وقبل أن يرتديَ روبرت ملابسه، سمع «شش» خفيفةً تمضي قاطعةً أمام نافذته، فأدرك أنَّ رجال الشرطة كانوا قد انطلقوا في طريقهم. يمضي القانون ليأخذ مجراه، بلا صفَّارات إنذارٍ في الليل، وبلا عوادم سيَّاراتٍ صاخبة، وبلا أيِّ صوتٍ؛ إن كانت إلَّا نسمات صيفيَّة تتخلَّل أوراق الشجر. وصل بيل بسيَّارته وأوقفها بمحاذاة الرصيف، عندما فتح روبرت الباب الأماميَّ محاولاً عدم إيقاظ العمَّة لين (أمَّا كرستينا، فلم يكن ثمَّة شيءٌ يمكن أن يوقظها سوى النفخة الأخيرة في الصور[44])

ما إنْ تحرَّكا في طريقهما، قال روبرت: «والآن، أخبرني».

«حسناً، لقد أنهينا عملنا على ضوء المصابيح الأماميَّة -لم يكن العمل احترافيّاً تماماً، لكنَّه أفضل بكثيرٍ ممَّا كانت عليه الحال عند وصولنا- ثمَّ أطفأنا المصابيح الأماميَّة، وبدأنا نلملم أغراضنا لنمضيَ، ومن غير استعجال، فقد كانت ليلةً رائعة. أشعلنا سيجارةً وكنَّا عازمَين على الرحيل حين سمعنا تحطُّم زجاجٍ من داخل المنزل. لم يدخل أحدٌ من الجهة التي كنَّا نقف عندها، فعرفنا أنَّه قد يكون دخل من إحدى الجهات الجانبيَّة أو الخلفيَّة. أحضر ستان مصباحه من السيَّارة -فمصباحي كان على المقعد لأنَّنا كنَّا نستعمله- وقال:

44 كناية عن يوم البعث. المترجمة.

«أنت اذهب من تلك الجهة وسأذهب أنا من الجهة الأخرى، وسنحاصرهم في المنتصف»».

«هل تمكَّنت من الالتفاف؟».

«حسناً، بدا أنَّه عملٌ لن ينتهيَ. إنَّه مُسَيَّجٌ إلى نهاية الجدار. لم أكن لأحبَّ أن أفعل ذلك بثيابٍ عاديَّة، لكن حينما تكون مرتدياً (الأفرول) فلا يسعك إلَّا أن تندفعَ بقوَّةٍ متمنِّياً أطيب التمنِّيات. الأمر هيِّنٌ على ستان، فهو نحيل. أمَّا أنا فما من طريقةٍ أمامي للدخول سوى بالاستلقاء على السياج إلى أن يسقط بي إلى الأسفل. على كلِّ حال، بلغنا النهاية، واحدٌ من كلِّ جانب، من خلال الزوايا الخلفيَّة، والتقينا في منتصف الطريق في الخلف من دون أن نرى أحداً. ثمَّ سمعنا تحطيم المزيد من الزجاج، وأدركنا أنَّهم سيقضون ليلتهم في تلك الحال. قال ستان: «ارفعني، ومن ثمَّ سأمدُّ لك يدي لتلحقَ بي». حسناً، لا يمكن ليدٍ أن تنجح في سحبي، لكن ما حدث هو أنَّ ارتفاع الحقل المحاذي للجدار من الجهة الخلفيَّة كان مقارباً لارتفاع الجدار –وفي الحقيقة، إنَّني أرجِّح أنَّه قد بدَّد الغرض الذي بُني الجدار لأجله– وهكذا فقد عبرناه بسهولة. قال لي ستان إن كان معي أيُّ شيءٍ لأضرب به غير المصباح، وقلت له نعم، لديَّ مفتاح الربط. قال ستان: «انسَ أمر مفتاح الربط اللعين واستعمل قبضتك الخرقاء، إنَّها أكبر حجماً»».

«وهو، ماذا كان سيستعمل؟».

«رافعة الرُّكبي[45] القديمة، كما قال. لطالما كان ستان لاعبَ نصف وسط بارعاً تماماً. في أيِّ حال، تابعنا في العتمة باتِّجاه مصدر صوت تحطُّم الزجاج. ظهر كما لو أنَّهم في جولة تكسيرٍ حول المنزل. حاصرناهم بالقرب من الزاوية

---

45 كرة القدم الإنجليزية، ذات كرة لوزية الشكل، قوانينها تختلف عن قوانين كرة القدم العادية المعروفة عالمياً. المترجمة.

الأماميَّة ثانيةً، وشغَّلنا مصباحينا. أظنُّ أنَّ عددهم كان سبعة أنفار. يفوقون توقُّعاتنا. في كلِّ الأحوال، أطفأنا المصباحين على الفور قبل أن يدركوا أنَّنا كنَّا اثنين فقط، وبذلك نتمكَّن من الانقضاض على الأقرب بينهم. قال ستان: «أنت تولَّ أمرَ ذاك يا حضرة الرقيب»، وحسبتُ أنَّه يناديني برتبتي كعادته القديمة فحسب، لكنَّني أدركت أنَّه كان يوهمهم أنَّنا من جهاز الشرطة. وفي كلِّ الأحوال، فقد انطلى الأمر على بعضهم، فعلى الرَّغم من وجود سبعةٍ منهم هناك، إلَّا أنَّ ذاك التنوُّع لن يجعل السبعة متشابهين تماماً في ابتلاع ذلك الطُّعم. ثمَّ، هدأ المكان فجأةً -إذ كنَّا قد أثرنا ضجَّةً كبيرة- وأدركت أنَّنا بذلك قد أفسحنا لهم في المجال كي يهربوا، وقال ستان من مكانٍ ما على الأرض: «أمسك بواحدٍ منهم يا بيل قبل أن يتجاوزوا الجدار!»، فذهبت خلفهم وقد أشعلت مصباحي، وكانوا يساعدون آخرَ واحدٍ منهم على الهرب، لكنَّني أمسكت بساقيه وتعلَّقت بهما. لولا أنَّه كان يركل بهما كالبغل، وأنَّ المصباح في يدي التي كنت أمسكه بها. انزلق كسمكة سلمونٍ من بين يديَّ، وهرب قبل أن أتمكَّن من إمساكه مجدَّداً. وبهذا انتهيت، فقد كان الجدار الخلفيُّ من الداخل أعلى من الجدار الأماميِّ للمنزل. وهكذا، عدت أدراجي إلى ستان. كان لا يزال جالساً على الأرض، فقد ضربه أحدهم على رأسه بقوَّةٍ بما قال إنَّها قارورةٌ، وإنَّه قد بدا وضيعاً جدّاً. ومن ثمَّ، خرجت الآنسة شارب إلى أعلى الدرجات الأماميَّة، وسألت هل أصيب أحدٌ بأذى؟ كان في وسعها رؤيتنا على ضوء المصباح. وهكذا أدخلنا ستان داخلاً -كانت السيِّدة العجوز هناك، وقد أضيء المنزل عندها- وذهبتُ باتِّجاه الهاتف، لكنَّ الآنسة شارب قالت: «لا فائدة منه، إنَّه لا يعمل. حاولنا أن نطلب الشرطة لحظة وصولهم». فقلت لها إنَّني ذاهب لإحضارهم، وقلتُ إنَّه يحسن بي أن أحضرك أيضاً، لكنَّ الآنسة شارب قالت: لا، فقد كان يومك شاقّاً للغاية، وعليَّ ألَّا أزعجك. لكنَّني فكَّرت في أنَّ عليَّ أن أشركك في الأمر».

«أنت محقٌّ تماماً يا بيل. عليَّ ذلك».

لَّما اقتربا، كانت البوَّابة مفتوحة على مصراعيها، فيما كانت سيَّارة الشرطة عند الباب، ومعظم المنزل قد أُضيء، ونسائم الليل تؤرجح الستائر برقَّة عند النوافذ المحطَّمة. وفي غرفة الاستقبال – ومن الواضح أنَّ أسرة شارب كانت تستعملها كغرفةٍ للجلوس- كان ستانلي قد أصيب بجرحٍ فوق حاجبه، وقد انضمَّ إليه كلٌّ من ماريان ورقيبٌ من الشرطة يسجِّل ملحوظاته، وقد كان مساعده يرتِّب الأدلة. وبدا أنَّ الأدلة كانت عبارةً عن نصف طوبةٍ من القرميد، وزجاجات وقصاصات من الورق مكتوب عليها.

قالت ماريان عندما ارتفعت ببصرها فرأت روبرت: «بيل. أخبرتك ألَّا...».

لحظ روبرت مدى كفاءتها في التعامل مع إصابة ستانلي، تلك المرأة التي تستصعب الطهو. حيَّا الرقيب، وانحنى لينظر إلى الأدلة. كانت هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من المقذوفات، وأربع رسائل فقط، تُقرأ على الترتيب: «اخرجوا من هنا»، «اخرجوا من هنا وإلَّا أجبرناكم!»، «العاهرات الغريبات!»، «هذا مثالٌ فقط!».

قال الرقيب: «حسناً، أعتقد أنَّنا جمعناها كلَّها. والآن سنذهب لنبحث في الحديقة عن آثار أقدامٍ أو أيِّ دلائل أخرى قد نجدها». نظر باحترافيَّةٍ إلى نعلَي بيل وستانلي، اللذَيْن رفعاهما بناءً على طلبه، وذهب مع مساعده إلى الحديقة، عندما جاءت السيِّدة شارب تحمل أكواباً وإبريقاً يتصاعد منه البخار.

قالت: «سيِّد بلير، أما زلت تجد أنَّنا مثيرون؟».

كانت بكامل هندامها -فبدت غير متأثِّرةٍ إطلاقاً بهذه الأحداث، على عكس ماريان التي بدت إنساناً عاديّاً، لا تشبه جان دارك في تلك العبارة القديمة- وتساءل روبرت ما الحادثة التي يمكن أن تؤثِّر في السيِّدة شارب؟

ظهر بيل آتياً بالعصيِّ من المطبخ ليُضرم النار الخابية، وصبَّت السيِّدة شارب الشراب الساخن -كان الشراب قهوةً، فرفضها روبرت، فمؤخَّراً، كان قد رأى ما يكفي من القهوة ليفقد رغبته فيها. بدأ وجه ستان يستعيد لونه. وإلى أن عاد رجلا الشرطة من الحديقة، كانت الغرفة محفوفةً بجوٍّ من الفرح الأُسَريِّ، على الرَّغم من تطاير الستائر وانعدام النوافذ. ولحظ روبرت أنَّ ستانلي وبيل لا يجدان غرابة ولا تعقيداً في أسرة شارب، بل على العكس من ذلك، فكلاهما مرتاح ويشعر كما لو أنَّه في بيته. لربَّما يرجع ذلك إلى الأريحيَّة التي تتعامل بها أسرة شارب، وإلى تقبُّلهما غزو الغرباء هذا كما لو كان حدثاً يوميّاً. وفي كلِّ الأحوال، كان بيل يتحرَّك في المنزل جيئةً وذهاباً كما لو كان قد عاش فيه لسنوات، وقد وضع ستانلي فنجانه في انتظار ملئه من جديد، من دون أن ينتظر ليُدعى إلى ذلك. وفكَّر روبرت بعفويَّة، لو كانت العمَّة لين مكانهما لكانت لطيفةً ومسكونةً بهواجس النظافة، وكانا سيجلسان على حافَّتَي الكرسيّين، مستحضرَيْن قذارة ثيابهما.

لربَّما كانت تلك الأريحيَّة في التعامل هي نفسها ما جذبت نيڤيل.

سأل الرقيب عندما دخل مع مساعده: «هل تخطِّطين للبقاء هنا سيِّدتي؟».

قالت السيِّدة شارب وهي تصبُّ لهما القهوة: «بالتأكيد».

قال روبرت: «لا. لا يجدر بكما هذا. حقّاً، لا يجدر بكما أن تفعلا. سأجد لكما فندقاً هادئاً في لاربورو، حيث...».

«لم يسبق لي أن سمعت أسخف من هذا. سنبقى هنا بالطبع. ما المشكلة إن كانت بعض النوافذ محطَّمة؟».

قال الرقيب: «قد لا ينتهي الأمر عند تحطيم النوافذ. وإنَّك تحمِّليننا مسؤوليَّة كبيرة ببقائك هنا. ونحن لا نملك القوَّة الحقيقيَّة اللازمة لحمل هذه المسؤوليَّة».

«إنَّني آسفةٌ لأنَّنا نقلق راحتكم أيُّها الرقيب. ولو كان الأمر بيدنا، لما تركنا نوافذنا لتُقذف بالطوب، صدِّقني. لكنَّ هذا منزلنا، وسنبقى فيه. وبعيداً عن المسائل الأخلاقيَّة، إن نحن غادرنا المنزل، وظلَّ خالياً، فماذا سيبقى لنا منه عند عودتنا إليه؟ أعني إن لم يكن لديكم ما يكفي من الرجال لحراسة الناس، فمن باب أولى ألَّا يكون لديكم رجال يحمون الأملاك الخالية؟».

بدا الرقيب مرتبكاً قليلاً، حاله حال كلِّ مَن تعاملت معه السيِّدة شارب. اعترف على مضض: «حسناً، هذا الاحتمال واردٌ يا سيِّدتي».

«وأظنُّ أنَّ هذا يلغي أيَّ احتماليَّة لتركنا منزل فرانشايز. أتريد سكَّراً حضرة الرقيب؟».

لَّما غادر الشرطيَّان، أحضر بيل من المطبخ مكنسة ومجرفة وراح يجمع الزجاج المكسور من غرفةٍ تلو الأخرى. وعاد روبرت يحثُّها مجدَّداً على تحرِّي الحكمة في موضوع الفندق في لاربورو، غير أنَّ كلماته لم تجد لها صدىً في عواطفه، ولا في عقله. فلو أنَّه وضع نفسه مكان أسرة شارب، لما غادر هو أيضاً، ولا يمكنه أن يتخيَّل أنَّهم قد يغادرون، إضافة إلى أنَّه قد أقرَّ برجاحة رأي السيِّدة شارب حول مصير المنزل إن تُرك خالياً.

قال ستانلي، الذي لم يُسمح له بكنس الزجاج لأنَّه مصنَّف في عداد الجرحى: «أنتما في حاجة إلى نزيل. نزيلٍ مسلَّح. ما رأيكما في أن آتي ليلاً إلى هنا لأنام؟ من دون وجبات طعام. حارسٌ ليليٌّ فقط. فكلُّ الحرَّاس ينامون ليلاً على أيِّ حال».

بدا واضحاً من خلال قسماتهما أنَّ السيِّدتين شارب تقدِّران هذا الولاء المعلن والصريح، فيما كان يعدُّ بمنزلة حربٍ أهليَّة، لكنَّهما لم تُحرِجاه بعبارات الشكر.

سألته ماريان: «أليس لديك زوجة؟».

قال ستانلي بوقار: «ليس لي أنا».

لفتت انتباهه السيِّدة شارب: «يجب أن تسمح لك زوجتك بالنوم هنا -إن كانت لك زوجة- لكنَّني أشكُّ في أن يسمح لك عملك يا سيِّد... سيِّد بيترز».

«عملي؟».

«أتصوَّر أنَّ عملاءك سيبحثون عن مكانٍ آخرَ ليذهبوا إليه فيما لو عرفوا أنَّك صرت حارساً ليليّاً في منزل فرانشايز».

قال ستانلي بسلاسة: «ليس لعملائي أن يفعلوا ذلك، فلا يوجد مكانٌ آخر يذهبون إليه. لينش مخمورٌ لخمس ليالٍ من أصل سبع، وبيجينز لا يعرف كيفيَّة تركيب سلسلة الدرَّاجة الهوائيَّة. وفي أيِّ حال، أنا لا أسمح لهم أن يُملوا عليَّ ما يمكنني فعله في وقت فراغي».

ولمَّا عاد بيل، أيَّد ستانلي. فقد كان بيل رجلاً متزوِّجاً، ومن غير الوارد أن ينامَ في مكانٍ آخر سوى منزله. لكنَّ نوم ستانلي في منزل فرانشايز بدا لهما حلًّا طبيعيّاً للمشكلة.

كان روبرت مرتاحاً إلى حدٍّ بعيد.

قالت ماريان: «حسناً، إن كنت ستحلُّ ضيفاً على ليلتنا، فلنبدأ من الآن. أنا متأكِّدةٌ من أنَّ رأسك يؤلمك بشدَّة. سأذهب لأجهِّز لك سريراً. هل تفضِّل الإطلالة الجنوبيَّة؟».

قال ستانلي بجديَّة: «أجل. بعيداً عن ضجيج المطبخ والأجهزة».

«سأفعل ما في وسعي».

جرى الاتِّفاق على أن يدسَّ بيل رسالةً عبر باب مسكن ستانلي ليقول إنَّه سيعود لتناول الغداء كعادته. قال ستانلي قاصداً الحديث عن صاحبة المسكن: «لن تقلق عليَّ، سبق أن قضيت ليالي في الخارج من قبل». انتبه إلى نظرة ماريان، فأضاف: «لنقل سيَّارات العملاء، ففي الليل؛ يحتاج ذلك إلى نصف الوقت فقط».

ثبَّتوا ستائر الطابق الأرضيِّ بمسامير من الأسفل ليؤمِّنوا الحماية لأغراضهم في حال هطل المطر قبل الصباح. ووعد روبرت بأنَّه سيُحضر من يركِّب الزجاج في أبكر وقتٍ ممكن. وقد أضمر في نفسه نيَّته في الذهاب إلى شركةٍ في لاربورو؛ لئلَّا يخوضَ مجدَّداً غمار سلسلة الاعتذارات المجامِلة التي خاضها في ميلفورد.

وقال عندما رافقتهما ماريان لتغلق البوَّابة خلفهما: «وسأفعل شيئاً لتدبُّر مفتاحٍ للبوَّابة، وبهذا سأحتفظ بنسخةٍ لي وأعفيك من وظيفة حراسة البوَّابة وكلِّ شيءٍ غير ذلك».

مدَّت يدها إلى بيل أوَّلاً: «لن أنسى أبداً ما فعلتموه ثلاثتكم من أجلنا. وحينما أتذكَّر هذه الليلة، فلن أعبأ بذاك الحطام». أمالت رأسها لتومئ إلى المنزل الذي أمسى بلا نوافذ، «سأتذكَّركم أنتم الثلاثة».

قال بيل، وهما في طريق العودة إلى المنزل، في تلك الليلة الربيعيَّة الهادئة: «أفترض أنَّك تعرف أنَّ الأهالي هم المسؤولون عن ذاك الحطام».

وافق روبرت: «نعم، أدركت ذلك. فمن جهة، لم تكن لديهم سيَّارة، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ رائحة الريف تفوح من ‹العاهرات الغريبات!› تماماً كما تفوح رائحة المدينة المتقدّمة من ‹فاشيُّون!›».

قال بيل بعض الأشياء عن التقدُّم.

«لقد أخطأت في إقناع نفسي مساء أمس. كان الرجل في أثناء مناوبته متيقِّناً جدّاً، إلى درجة أنَّني سمحت لنفسي أن تصدِّق بأنَّه حين يهبط الظلام، فسيعود كلُّ امرئٍ إلى منزله، في حين كان عليَّ أن أتذكَّر تحذيراً سمعته عن مطاردة الساحرات».

لم يكن بيل مصغياً، قال: «مضحكٌ هو شعورك بانعدام الأمان في بيتٍ بلا نوافذ. إن كان لديك منزلٌ قد دُمِّر من الخلف تماماً، ولا باب له لتغلقه عليك، إلَّا أنَّ واجهته الأماميَّة قد حافظت على نوافذها، فستعيش بسعادةٍ غامرة. لكنَّ انعدام النوافذ في منزلٍ لم يصبه أيُّ ضررٍ حتَّى يورث شعوراً بانعدام الأمان».

ولم تكن تلك الملحوظة لتورث روبرت أدنى شعورٍ بالراحة.

-13-

بعد ظهر الثلاثاء، قالت العمَّة لين عبر الهاتف: «أتساءل هل تمانع في أن تطلبَ لنا السمك يا عزيزي. نيڤيل قادمٌ على العشاء؛ لذا، سيكون لدينا طبقٌ إضافيٌّ إلى ما كان مقرَّراً أن نأكله في فطورنا. إنَّني حقّاً لا أجد سبباً لإضافة أيِّ شيء فقط لأجل نيڤيل، لكنَّ كريستينا تقول إنَّ ذلك سيحول دون ما تُسمِّيه (غاراته) على طبق التورتة الذي ستصنعه مجدَّداً لأجل سهرتها غداً. لذا، إن لم يكن لديك مانع يا عزيزي».

لم يكن يتوق كثيراً إلى قضاء ساعةٍ أو ساعتين أخريين برفقة نيڤيل، لكنَّه كان مغتبطاً من نفسه كثيراً، وعلى غير عادته، فقد كان في مزاجٍ عالٍ يدعوه إلى الامتثال لطلبها. فقد اتَّفق مع شركة لاربورو بشأن إعادة تركيب نوافذ منزل فرانشايز. وقد عثر بأعجوبة على مفتاح ملائم لبوَّابة منزل فرانشايز، وبحلول يوم غد ستكون هناك نسختان من المفتاح. كما أنَّه تكفَّل شخصيّاً بإحضار أغراض البقالة، إلى جانب أجمل باقة من الزهور الَّتي يمكن أن توجد في ميلفورد.

لقي من الترحيب في منزل فرانشايز ما جعله يكفُّ عن التأسُّف على حصَّته القليلة من الحوارات الخفيفة التي كان يحظى بها نيڤيل. ففي النهاية، كانت هناك أشياء أخرى لمناقشتها في غضون نصف الساعة الأولى، غير ظروف اسم المعموديَّة.

في أثناء الساعة المخصَّصة للغداء، اتَّصل بكيفين ماكديرموت، واتَّفق مع سكرتيرته لتخبر كيفين أن يتَّصل به في البيت، ما إن يتسنَّى له ذلك في المساء. إذ كانت الأمور تخرج عن السيطرة، وقد أراد الاستماع إلى نصيحة كيفين.

رفض ثلاث دعواتٍ للعب الغولف، وقد كانت ذريعته أمام رفاقه المستغربين أنْ «لا وقت لديه ليلاحق كرة (كوتا بيرشا) حول ملعب غولف».

ذهب لرؤية موكِّلٍ مهمٍّ كان يسعى إلى مقابلته منذ يوم الجمعة الماضي، وقد استفزَّه بسؤاله إيَّاه عمَّا إذا كان «لا يزال يعمل لصالح شركة بلير وهايوارد وبينيت إلى الآن».

قوبل تأخُّره المتكرِّر عن العمل بعتابٍ صامتٍ من السيِّد هيسلتاين، الذي ظلَّ يلازمه شعورٌ جليٌّ بأنَّ قضيَّة فرانشايز لا تتماشى مع القضايا التي تُوكل إلى شركتهم، على الرَّغم من انحيازه شخصيّاً إلى صفِّ أسرة شارب.

قدَّمت له الآنسة تاف الشَّاي في فنجان الخزف الصينيِّ الأزرق المزخرف، فوق الصينيَّة اللامعة المغطَّاة بالمفرش القماشيِّ الأبيض النظيف، وأرفقته بقطعتَي بسكويت نخالةٍ على طبق.

صينيَّة الشَّاي على مكتبه، مثلما كانت تماماً منذ أسبوعين فائتين عندما رنَّ جرس الهاتف ورفع السمَّاعة ليسمع صوت ماريان شارب للمرَّة الأولى. منذ أسبوعين قصيرين، جلس يتأمَّلها تحت لطخةٍ من ضوء الشمس، مُغْتَمّاً لحياته المرفَّهة والزمن المنفلت من بين يديه. لكن اليوم، ما عادت قطعتا بسكويت النخالة تقرِّعانه، فقد خطا خارج حدود الرّوتين الَّذي كانتا ترمزان إليه؛ إذ كان مضطرّاً إلى التعامل مع شرطة سكوتلاند يارد، وأُوكل عن امرأتين وُصِمَتا بالفضيحة، وأصبح مُتَحَرِّياً هاوياً، وشهد همجيَّة الغوغاء بنفسه. بدا عالمه بأكمله مختلفاً. حتَّى الأشخاص الَّذين التقاهم، بدوا مختلفين. ففي

سبيل المثال، تلك المرأة النحيلة السمراء الَّتي اعتاد أن يراها تتسوَّق أحياناً في الشارع العامّ، تحوَّلت إلى ماريان.

حسناً. حين لا يكون في وسعك اعتمار قبَّعتك والتنزُّه باتِّجاه المنزل عند السَّاعة الرابعة مساءً، فتلك حتماً إحدى نتائج الخروج من الحياة الروتينيَّة. دفع صينيَّة الشَّاي يزيحها عن طريقه، وانطلق إلى العمل. كانت السادسة والنصف قبل أن يرفع رأسه ثانيةً لينظرَ إلى الساعة، وكانت السابعة قبل أن يفتح باب المنزل رقم 10.

كان باب غرفة الجلوس موارباً كعادته -مثل كثيرٍ من الأبواب في المنازل القديمة، إذ تبقى متأرجحةً ما لم تُثبَّت بالمزلاج- وتناهى إلى مسمعيه صوت نيڤيل في الغرفة من خلفه.

كان نيڤيل يقول: «على العكس من ذلك، أظنُّك سخيفةً للغاية».

تعرَّف روبرت النبرة من فوره. الحنق البارد الذي يمكن أن يصدر عن نيڤيل كما لو كان ابن أربع سنوات يقول لضيفٍ ما: ‹إنَّني في قمَّة الأسف لدعوتي إيَّاك إلى حفلي›.

توقَّف روبرت ليُصغيَ وهو يخلع معطفه.

«إنَّكِ تتدخَّلين في أمرٍ لا تعرفين عنه أيَّ شيء؛ ولا يمكنك أن تزعمي أنَّ هذا التصرُّف ذكيٌّ».

لم يكن ثمَّة صوتٌ آخرُ غير صوته. إذاً، لا بدَّ أنَّه يكلِّم أحداً ما عبر الهاتف، ولربَّما يحول هذا الشابُّ الأبله دون تمكُّن كيڤين من الاتصال.

«لستُ مفتوناً بأحد، ولم يسبق لي أن فُتِنتُ بأحدٍ قطُّ. إنَّما أنتِ الَّتي فُتِنتْ -بالأفكار. وكما قلت لك آنفاً، إنَّكِ سخيفةٌ للغاية... أنتِ تشاركين مراهقةً

مختلَّةً في قضيَّةٍ لا تعرفين عنها شيئاً، وإنَّني لأظنُّ أنَّ هذا دليلٌ دامغٌ على الافتنان... يمكنكِ أن تخبري والدكِ على لساني أنَّه تدخُّلٌ غير مسوَّغ، وليس فيه أيُّ شيءٍ من الديانة المسيحيَّة. ولستُ متأكِّداً ما إذا كان في ذلك أيُّ تحريضٍ على العنف. نعم، ليلة البارحة... لا، كُسِرَت كلُّ نوافذها، وكُتِبتْ أشياء على الجدران... إن كان مغنيّاً بالعدالة حقّاً، فلعلَّه يفعل شيئاً حيال ذلك. لكنَّ جماعتك لا تكترث للعدالة مطلقاً، أليس كذلك؟ إنَّهم مكترثون للظلم فقط... ماذا أقصد بجماعتك؟ أقصد ما قلته فقط. أنتِ وجمعك الغفير كلّه ممَّن يرعون مصالح النَّكِرات دوماً، ويناصرونهم ضدَّ العالم. لن تجدي سبيلاً إلى الحفاظ على حقِّ إنسان بسيط ومجتهدٍ من الضياع. لكنَّ نحيبك قد يصل إلى (أنتاركتيكا[46]) إذا ما نقص ثمن وجبة طعامٍ مخصَّصة لمجرم عتيدٍ. أنتِ تثيرين اشمئزازي. أجل، قلتُ إنَّك تثيرين اشمئزازي... إنَّه الغثيان... أشعر بالغثيان... سأتقيّأ». ودلَّ اصطدام السَّماعة المدوّي بجهاز الهاتف على أنَّ الشَّاعر قد قال ما لديه من كلام.

علَّق روبرت معطفه في الخزانة ودخل. كان نيڤيل يصبُّ لنفسه شراباً قويّاً من الويسكي، والشرر يتطاير من وجهه.

قال روبرت وهو يدخل: «سأشرب واحداً أيضاً». ثمَّ أضاف: «لم أستطع الامتناع عن الاستماع. يستحيل أن تكونَ تلك روز ماري، صحيح؟».

«ومَن غيرها؟ وهل ثمَّة أحدٌ آخر في بريطانيا قادرٌ على أن يفوق بسخفه الوصف هكذا؟».

«كيف هكذا؟».

«ألم تسمع هذه القصَّة؟ لقد تكفَّلت بنصرة المضطهدة بيتي كين». تجرَّع نيڤيل بعض الويسكي، وحدَّق إلى روبرت كما لو كان هو المسؤول.

---

46 القارّة القطبية الجنوبية. المترجمة.

«حسناً. لا أظنُّ أنَّ ركوبها موجة (آك إيما) سيكون له أيُّ تأثيرٍ بطريقةٍ أو بأخرى».

«(آك إيما)! ليست صحيفة (آك إيما)؛ بل هي صحيفة (واتشمان). ذلك المختلُّ عقليّاً الذي تناديه بأبي، قد كتب رسالةً بشأنها لعدد الجمعة. حسناً، يبدو عليك التقزُّز بوضوح. وكأنَّنا لم نقذف بما يكفي من دون تلك الكتلة من الشعارات العاطفيَّة المنحرفة الرخيصة!».

مستدعياً إلى ذاكرته قصائد نيفيل التي لم يسبق أن نشرتها صحيفة أخرى غير صحيفة (واتشمان)، وجد روبرت أنَّ في ذلك ما يدلُّ على الجحود بعض الشيء.

«ربَّما لن يطبعوها». قالها وهو لا يتأمَّل خيراً بقدر ما ينشد الراحة.

«إنَّك تعلم علم اليقين أنَّهم سيطبعون له ما يشاء ما إنْ يرسله إليهم. فأموال مَنْ تلك التي أنقذتهم من خسارتهم للمرَّة الثالثة؟ أموال المطران بالطبع».

«تقصد أموال زوجته». فقد تزوَّج المطران إحدى حفيدات صاحب معمل (كوان) لصلصة التوت البريِّ.

«حسناً. أموال زوجته. وها قد اتَّخذ المطران من صحيفة (واتشمان) منبراً له. ولا شيء يحول دون أن يطبعوا له ما يريد قوله حتَّى وإن كان في غاية السُّخف. أتذكُر تلك الفتاة التي كانت تطلق النار على سائقي سيَّارات الأجرة بدمٍ باردٍ في سبيل حصولها على ربحٍ يتراوح ما بين سبعةٍ إلى أحد عشر في المرَّة الواحدة؟ كانت الفتاة فرصته لنَيلِ الاستعطاف، وقد انتحب لأجلها بنفسه حتَّى كاد يهلك حقّاً. كتب عنها في صحيفة (واتشمان) رسالةً مطوَّلة تتفطَّر لها الأفئدة، مشيراً إلى الحرمان الَّذي عاشته، وكيف حصلت على منحةٍ دراسيَّةٍ

لكنَّها تخلَّت عنها بسبب فقر أسرتها المُدقع، الذي يحول دون أن يوفِّروا لها الكتب والثياب، فاضطرَّت إلى القيام بأعمالٍ شوارعيَّةٍ، ومن ثمَّ أحاط بها رفاق السُّوء -فوَصَل بذلك إلى إطلاق النار على سائقي سيَّارات الأجرة. على الرَّغم من أنَّه لم يأتِ على ذكر تلك المسألة الصغيرة فعليّاً. وقد تواطأ قرَّاء (واتشمان) على ذلك بالتأكيد، فتلك الموضوعات التي يحبُّونها؛ إذ المجرمون هم ملائكةٌ محبطون كما يراهم قرَّاء (واتشمان). ثمَّ كتب من بعد ذلك رئيس مجلس إدارة المدرسة -التي يفترض أنَّها قدَّمت المنحة لها- أنَّ ترتيب اسمها كان التاسع والخمسين بعد المئة من أصل مئتي متنافس على المنحة، وهي بعيدة جدّاً عن الحصول عليها، وأنَّ شخصاً كالمطران، مهتمّاً بالتعليم، حريٌّ به أن يعرف أنَّ نقص الأموال لا يحول دون الحصول على المنحة، ففي حالات العوز، تُقدَّم الكتب والكفالات الماليَّة تلقائيّاً. حسناً. قد تحسب أنَّ ذلك كان ليهزَّه، أليس كذلك؟ لكنَّه لم يحرِّك فيه ساكناً. فقد طبعوا رسالة رئيس مجلس الإدارة في الصفحة الخلفيَّة بحروفٍ صغيرةٍ. وفي العدد التالي مباشرةً، كان الفتى العجوز ينتحب لأجل قضيَّةٍ أخرى لا يعرف عنها شيئاً. وها هو ذا سينتحب يوم الجمعة لأجل بيتي كين، فليغثني أحدٌ».

«أتساءل -فيما لو ذهبت لرؤيته غداً...».

«غداً يذهب المقال إلى الطباعة».

«نعم. ليكن. لربَّما إن اتَّصلت هاتفيّاً...».

«إن كنت تحسب أنَّ ثمَّة أحداً أو شيئاً سيحمل نيافته على التراجع عن مقالٍ جاهزٍ للعرض على العامَّة، فهذه سذاجة منك».

رنَّ جرس الهاتف.

قال نيفيل: «أنا في الصين، في حال كانت هذه روز ماري».

لكنَّه كان كيڤين ماكديرموت.

«حسناً. أيُّها المتحرِّي»، قال كيڤين، «أهنِّئك. لكن في المرَّة القادمة، لا تُضِع وقت المساء برمَّته في محاولة الاتِّصال بالمدنيين في آليزبيري، ما دام في وسعك، في المقابل، الحصول على المعلومات نفسها من سكوتلاند يارد».

قال روبرت إنَّه كان مدنيّاً بما يكفي لكيلا يخطر في باله اللجوء إلى سكوتلاند يارد، لكنَّه يتعلَّم بسرعة.

صوَّر لكيڤين مجريات أحداث ليلة البارحة ليستفيدَ منه، وقال: «لم يعد بإمكاني التفرُّغ لأجل ذلك بعد الآن. فلا بدَّ من عمل شيءٍ من أجل تبرئتهما من هذا الأمر بأسرع ما يمكن».

«تريدني أن أعطيك اسم مُتَحرٍّ خاصٍّ، هل هذا ما تريده؟».

«أجل. أعتقد أنَّنا وصلنا إلى هنا -لكنَّني أتساءل...».

لَمَّا تردَّد، سأله كيڤين: «عمَّ تتساءل؟».

«حسناً. لقد فكَّرت في الذهاب إلى غرانت في سكوتلاند يارد لأخبره بصراحةٍ أنَّني اكتشفت كيف تمكَّنت الفتاة من معرفة أسرة شارب، ومعرفة المنزل، وأنَّها قابلت رجلاً في لاربورو، ولديَّ شاهدٌ على اللقاء».

«وماذا يمكنهم أن يفعلوا حينها؟».

«حينها، سيحقِّقون في شأن تحرُّكات الفتاة إبَّان ذلك الشهر عوضاً عن تحقيقهم معنا».

«أوَتظنُّ أنَّهم سيفعلون؟».

«بالطبع، ولِمَ لا؟».

«لأنَّ ذلك لا يستحقُّ أن يضيِّعوا وقتهم فيه. وكلُّ ما سيفعلونه إذا ما اكتشفوا أنَّها غير جديرة بالثقة، هو إسقاط القضيَّة في غياهب النسيان، والحمد لله. فهي لم تُقسم على شيءٍ ليتمكَّنوا من محاكمتها بالحنث باليمين».

«يمكنهم محاكمتها بتهمة التضليل».

«نعم. لكنَّ ذلك لا يستحقُّ أن يضيِّعوا وقتهم لأجله، ولعلَّنا واثقون بأنَّ كشف تحرُّكاتها إبَّان ذلك الشهر ليس بالأمر الهيِّن. وفوق ذاك التحقيق الذي لا طائل منه، ستكون عليهم مهمَّة إعداد القضيَّة وتمثيلها. وما دام بإمكانهم إسقاط القضيَّة بهدوءٍ على الفور في ذلك القسم المثقل بالأعباء والقضايا الخطرة المتزاحمة على أبوابه، فمن المستبعد جدّاً أن يخوضوا غمار تلك المشقَّة كلِّها».

«إنَّما، يفترض أن يكون القسم مكاناً لتطبيق العدالة، فهذا يترك أسرة شارب...».

«لا، بل القسم مكانٌ لتطبيق القانون. العدالة تبدأ في المحكمة، كما تعرف جيّداً. إلى جانب أنَّك لم تُحضر لهم دليلاً على أيِّ شيءٍ يا روب. أنت لا تعرف إن كانت الفتاة قد ذهبت إلى ميلفورد من قبل. وحقيقة أنَّها اختارت رجلاً في (ميدلاند) وشربت الشاي معه، ليس فيها ما ينقض قصَّة اختطاف أسرة شارب لها. في الحقيقة، إنَّ الذراع الوحيدة التي يمكنك أن تستندَ إليها هي ذراع آليك رامسدن في 5 حدائق الربيع، فولهام، الجنوب الغربيّ».

«ومن يكون هذا؟».

«مُتَحرِّيك الخاصّ. وهو بارعٌ جدّاً، أؤكِّد لك. لديه حشد من العاملين المحنَّكين جاهزين تحت الطلب. لذا، إن كان مشغولاً فسيوفِّر لك بديلاً بارعاً تماماً. قل له إنَّني رشحَّت لك اسمه، ولن يضنَّ عليك بالمساعدة. وفي كلِّ الأحوال، هو لن يضنَّ عليك بها. إنَّه من خيار الناس. تقاعد من

جهاز الشرطة بسبب إصابةٍ في أثناء تأديته الخدمة. سيجعلك فخوراً. يجب أن أذهبَ. إن كان هناك أيُّ شيء آخر تحتاج إليَّ لفعله، فما عليك إلَّا الاتِّصال بي متى شئت. أتمنَّى لو كان لديَّ وقت لآتي وأرى بنفسي منزل فرانشايز وساحرتيك. فقد كبرتا في نظري. مع السلامة».

وضع روبرت السمَّاعة، ثمَّ رفعها مجدَّداً. طلب الاستعلامات، وحصل على رقم هاتف آليك رامسدن. لم يجبه أحدٌ، فأرسل برقيَّة يقول فيها إنَّه روبرت بلير، في حاجةٍ إلى إنجاز بعض المهامِّ على وجه السرعة، وإنَّ كيفين ماكديرموت قال إنَّ رامسدن هو الرجل المنشود لإنجازها.

«روبرت»، قالت العمَّة لين وهي تلج الغرفة محتقنةً وغاضبةً، «أتعرف أنَّك تركتَ السمكة على طاولة الردهة، وقد أغرقت الماهوجني بما تسرَّب منها، وأنَّ كريستينا كانت في انتظارها؟».

«وفيمَ تكمن فداحة الجرم، فيما يخصُّ الماهوجني أم فيما يخصُّ انتظار كريستينا؟».

«إنَّني أكاد لا أفهم ما الذي أصابك حقّاً يا روبرت. لقد تغيَّرتَ مُذ تورَّطتَ في قضيَّة فرانشايز هذه. قبل أسبوعين ما كنت لتحلم بوضع قطعة من السمك على الماهوجني الصقيل ونسيان أمرها كليّاً. وإن حدث أن حصل هذا، كنت ستشعر بالأسف إزاء ذلك وتعتذر عنه».

«إنَّني أعتذر بشدَّة يا عمَّة لين، وإنَّني لنادمٌ حقّاً. لكنَّني، عادةً، لا أكون مُثقلاً بمسؤوليَّةٍ بمثل هذا القدر من الخطورة، كما هي الحال الآن، ويجب أن تسامحيني إذا ما أُصِبتُ بالإنهاك قليلاً».

«لا أحسبك منهكاً على الإطلاق. بل على العكس؛ إذ لم يسبق لي أن رأيتك مغتبطاً جدّاً بنفسك من قبل مطلقاً. أظنُّ أنَّك تتلذَّذ حتماً بهذه القضيَّة الدنيئة.

اليوم فقط كانت الآنسة ترولوف في مقهى (آن بولين) تشاطرني الأسى لتَوَرُّطِك في الأمر».

«أهي كذلك حقّاً؟ حسناً، وأنا أشاطر أخت الآنسة ترولوف الأسى».

«ولماذا تشاطرها الأسى؟».

«لأنَّ لها أختاً مثل الآنسة ترولوف. أنت تمرِّين بأوقاتٍ عصيبة، أليس كذلك عمَّة لين؟».

«لا تكـنِ سـاخراً يـا عزيـزي. فلا يمكـن لأحـدٍ في هـذه البلـدة أن يُسَرَّ بسـوء السـمعة الَّـذي لحـق بـك. لطالمـا كان هـذا المنـزل الصغـير هادئـاً ومحترمـاً».

قال روبرت بتلقائيَّة: «أنا لم أحبَّ ميلفورد كما أحببتها في الأسبوعين الماضيين؛ لذا سأوفِّر دموعي».

«بـين وقـتٍ وآخر مـن هـذا اليوم، وصـل ما لا يقـلُّ عن أربـع حافلات إلى لاربـورو، كلٌّ عـلى حـدة. لا لشيءٍ سـوى لتفحُّـص منزل فرانشـايز على الطريق».

«ومَن الذي سيقوم على ضيافتهم؟». سأل روبرت وهو على يقين أنَّ الحافلات المارَّة ليست موضع ترحيبٍ في ميلفورد.

«لا أحد. لقد كانوا غاضبين بكلِّ بساطة».

«وهذا يحملهم على حشر أنوفهم. لا شيء يشغل لاربورو بقدر ما يشغلها ملء بطونها».

«إنَّ زوجة القسِّ تصرُّ على أن تتصرَّف كمسيحيَّة إزاء ذلك، لكنَّني لا أظنُّه رأياً سديداً».

«مسيحيَّة؟».

«أجل. ألَّا 'نطلقَ الأحكام'، كما تعرف. هذا محض ضعفٍ وليس التزاماً بالمسيحيَّة. أنا لم أناقش القضيَّة طبعاً، ولا حتَّى معها، يا عزيزي روبرت. فأنا بئر أسرارٍ لا قرار لها. لكنَّها تدرك كيف أشعر دون شكٍّ، وأنا أدرك كيف تشعر هي. لذا، لا داعي للنقاش في ذلك».

الصوت الذي صدر عن نيفيل وكأنَّه شخير، كان صوت جلوسه على الكرسيِّ المريح.

«هل قلت شيئاً عزيزي نيفيل؟».

من الواضح أنَّ نبرة الرعاية تلك قد أرهبت نيفيل، فقال مستكيناً: «لا يا عمَّة لين».

لكنَّه لم يكن ليفلت بسهولة، فذلك الصوت لم يكن إلَّا شخيراً صريحاً. «أنا لا أعدُّ عليك الكؤوس يا عزيزي، لكن هل هذه هي كأسك الثالثة من الويسكي؟ سنقدِّم شراب (ترامينار) على العشاء، ولن تتذوَّقه إطلاقاً بعد أن شربت هذا المشروب القويَّ. لا يجدر بك أن تتورَّط في عاداتٍ سيِّئة ما دمتَ مُقبلاً على الزواج من ابنة المطران».

«لن أتزوَّجَ روز ماري».

حدَّقت الآنسة بينيت بذعرٍ: «ألن تفعل؟!».

«من الأفضل لي أن أتزوَّج مجلس المساعدة العامَّة».

«لكن يا نيفيل».

«الأفضل لي أن أتزوَّج جهاز الراديو». تذكَّر روبرت مقولة كيڤين عن إنجاب روز ماري لأسطوانة تسجيل ولا شيء سواها. «الأفضل لي أن أتزوَّج

تمساحاً». وبما أنَّ روز ماري كانت في غاية الجمال، فقد افترض روبرت وجود علاقة للتمساح من حيث الدموع. «الأفضل لي أن أتزوَّج صندوق صابون». تصوَّر روبرت القوس الرخاميَّ. «الأفضل لي أن أتزوَّج صحيفة (آك إيما)». وبدا أنَّ ذاك هو الختام.

«لكن، لماذا يا عزيزي نيڤيل؟».

«إنَّها مخلوقٌ سخيفٌ للغاية. تكاد تكون بسخافة (واتشمان)».

تصرَّف روبرت بشهامة؛ فلم يذكِّر أنَّ نيڤيل، وعلى مدى ستِّ سنوات، كان يعدُّ صحيفة (واتشمان) إنجيله.

«اهدأ يا عزيزي. أنتما متخاصمان. كلُّ المرتبطين يتخاصمون في أثناء الخطوبة. إنَّه لأمرٌ جيِّدٌ أن تنشأ المناوشات على أساسٍ متين قبل الزواج، فالثنائيَّات ممَّن لا تعترض المشاجرات سبيل خطوبتهم، تغزو الغلظة حيواتهم فجأةً بعد الزواج. لذا، لا تأخذ خلافاً صغيراً على محمل الجدِّ. يمكنك الاتِّصال بها قبل أن تعودَ إلى بيتك الليلة».

«هذا خلافٌ جوهريٌّ»، قال نيڤيل ببرود، «وليس ثمَّة أيُّ احتمالٍ لأتَّصل بها».

«لكن، يا عزيزي نيڤيل، ماذا...».

طغت الرنَّات الثلاث الناعمة المتقطِّعة للجرس على اعتراضها وأرغمتها على التوقُّف. تنحَّت مسرحيَّة العلاقات الفاشلة، لتفسحَ في المجال على الفور لمشاغل تستدعي الاهتمام الفوريَّ.

«إنَّه الجرس. أظنُّ أنَّه حريٌّ بك أن تأخذ شرابك معك يا عزيزي. تحبُّ كريستينا أن تقدِّم الحساء ما إن تضيف إليه البيضة، وهي ليست في مزاج جيِّدٍ

الليلة لأنَّها أخذت السمكة في وقتٍ متأخِّر جدّاً. ومع ذلك، فأنا لا أدري أيَّ فارق سيشكِّل ذاك لديها. إنَّه طبق سمكٍ مشويّ، ولا يحتاج ذلك إلى أيِّ وقت يُذكر؛ فذلك لا يشبه تنظيف الماهوجني من عصارة السمك؛ فقد فعلت ذلك بنفسي».

-14-

ازداد استياء العمَّة لين عندما كان على روبرت أن يتناول فطوره في الساعة 7:45 من صباح اليوم التالي، كي يتمكَّن من الذهاب باكراً إلى المكتب. وتلك إحدى النتائج التي تسبَّبتْ بها قضيَّة فرانشايز؛ فأن يتناول الفطور باكراً ليتمكَّن من اللحاق بقطارٍ ما، أو لحضور اجتماع بعيدٍ، أو لحضور جنازةِ أحد الموكِّلين هو شيء، وأن يتناول الفطور باكراً ليتمكَّن من الوصول إلى عمله في موعد وصول صبيِّ المكتب هو تصرُّف شديد الغرابة، ولا يليق به، وهو بلير.

ابتسم روبرت ماضياً في الشارع العامِّ المشمس الذي كان لا يزال مغلقاً وهادئاً. لطالما أحبَّ ساعات الصباح الباكر، ففي هذه السَّاعة تكون ميلفورد في أبهى حالاتها؛ ألوانها الورديَّة والبنيَّة والحليبيَّة ناعمة تحت ضوء الشمس كلوحة ملوَّنة. كان الربيع متآلفاً مع الصيف. يتألَّق دفء الشارع في الجوِّ المنعش. وقد اكتستْ أغصان أشجار الليمون المشذَّبة بالأوراق. ما يعني أنَّ الليالي ستكون أقصر على السيِّدتين الوحيدتين في منزل فرانشايز؛ تذكَّر روبرت ذلك مستشعراً تلك النعمة. لكن، ربَّما -حالفهما الحظُّ- إلى حين حلول الصيف هنا حقّاً، واكتملت دلائل براءتهما، وتحرَّر منزلهما من الحصار الذي يرزح تحته.

لا يزال باب المكتب مغلقاً، وقد استند إليه رجلٌ غامضٌ ونحيلٌ وطويلٌ، وكان جسده من عظامٍ فقط، كأنَّه بلا معدة مطلقاً.

«صباح الخير»، قال روبرت، «هل ترغب في رؤيتي؟».

«لا»، قال الرجل الغامض، «أنت مَن يرغب في رؤيتي».

«أنا؟».

«بحسب ما تقوله برقيَّتك على الأقلّ. أظنُّ أنَّك السيِّد بلير؟».

قال روبرت: «لكن، لا يمكن أن تكون هنا فعلاً!».

قال الرجل باقتضاب: «المكان ليس بعيداً».

«تفضَّل». قالها روبرت محاولاً مجاراة أسلوب السيِّد رامسدن في التعليق باقتضاب.

في المكتب، قال له وهو يفتح درج المكتب: «هل تناولت الفطور؟».

«أجل، تناولت البيض مع اللحم المقدَّد في (وايت هارت)».

«إنَّني في غاية الارتياح لمجيئك بنفسك».

«لقد أنهيتُ قضيَّةً توّاً. ولكيڤين ماكديرموت أفضالٌ كثيرة عليَّ».

أجل. على الرَّغم من خبثه الظاهريِّ وحياته المثقلة بالمشاغل، فقد وجد كيڤين الإرادة والوقت ليمدَّ يد العون إلى مَن يستحقُّها، مناقضاً تماماً مطران لاربورو المنحاز إلى غير مستحقِّيها.

«لربَّما كانت قراءتك لهذه الإفادة هي السبيل الأفضل»، قال وهو يناول رامسدن نسخة إفادة بيتي كين للشرطة، «ومن هناك سنكمل القصَّة».

أخذ رامسدن النسخة المطبوعة، وجلس على كرسيِّ الضيوف -أو بالأحرى انطوى على نفسه- وتحرَّر من حضور روبرت، تماماً مثلما فعل كيڤين في الغرفة في ساحة كنيسة القدِّيس بولُس. وبينما كان غارقاً في عمله، حسدهما روبرت على قدرتهما على التركيز.

قال بعد جهد: «نعم، سيِّد بلير». فأفاده روبرت ببقيَّة القصَّة: تعرُّف الفتاة إلى المنزل وقاطنيه، دخول روبرت نفسه في القضيَّة، قرار رجال الشرطة بعدم المضيِّ قدماً بناءً على الأدلَّة المتاحة، استياء ليزلي وين والإعلان الذي تمخَّض عنه في صحيفة (آك إيما)، لقاءاته الشخصيَّة مع أقارب الفتاة وما كشفوه له عنها، اكتشافه بأنَّها كانت تركب الحافلات، وأنَّ حافلةً من طابقين قد سُيِّرت على طريق ميلفورد في الأسابيع المذكورة، واكتشافه موضوع الرجل (س).

ومهمَّتك هي معرفة المزيد عن الرجل (س). نادل الصالة، آلبرت، يعرف شكله. وهذه قائمة بأسماء النزلاء هناك في الفترة المعنيَّة. سيحالفك الحظُّ كثيراً إن كان نزيلاً في فندق (ميدلاند). لكن، لا أحد يعرف. من بعد هذا، ستكون بمفردك. بالمناسبة، أخبر آلبرت أنَّني مَن أرسلك إليه، فأنا أعرفه منذ زمنٍ بعيد».

«جيِّد جدّاً. سأنطلق الآن إلى لاربورو. ستكون لديَّ صورة للفتاة بحلول الغد. لكن، قد تعيرني العدد الذي لديك من صحيفة (آك إيما) لأجل اليوم».

«بالتأكيد. كيف ستحصل على صورة مناسبة لها؟».

«لديَّ أساليبي».

خَلُص روبرت إلى أنَّ سكوتلاند يارد قد حصلت على واحدةٍ عندما أُبلغ عن اختفاء الفتاة، وأنَّ زملاءه القدامى في المقرِّ الرئيس لن يتردَّدوا في منحه نسخةً منها. لذلك ترك النقاش في الأمر.

«احتمال فحسب بأن يكون جابي التذاكر قد رآها في إحدى تلك الحافلات ذات الطابقين»، قال في أثناء مغادرة رامسدن، «تلك حافلاتٌ تابعةٌ لِـ (خدمات المركبات في لاربورو والمقاطعة)، والمرآب في شارع ڤيكتوريا.

وصل الموظَّفون عند التاسعة والنصف -وقد كان نيڤيل أوَّل الحاضرين؛ فوجئ روبرت بتغيير الروتين؛ فعادةً يكون نيڤيل آخر من يصل وآخر من يجلس إلى العمل. يجول في المكان. يتحرَّر من أوشحته في غرفته الصغيرة في الخلف. يجول في ‹غرفة المكتب› ليُلقي تحيَّة الصباح، ويجول في ‹غرفة الانتظار› ليلقي تحيَّة الصباح على الآنسة تاف، وأخيراً يجول في غرفة روبرت ويقف هناك يفتح الرزمة المربوطة من الدوريَّات المتخصِّصة، الَّتي وصلت إليه عبر البريد، ليتصفَّحها ويعلِّق على وضع القضايا المؤسف على الدوام في إنجلترا. وقد اعتاد روبرت أنَّ قراءة نيڤيل لبريده هي أمرٌ إلزاميٌّ. لكنَّ نيڤيل قد جاء في الوقت المحدَّد، فدخل غرفته وأغلق الباب من خلفه بإحكام، وجلس لمباشرة عمله من فوره، إن حسبنا أنَّ فتح الأدراج وإغلاقها علامةٌ على ذلك.

دخلتِ الآنسة تاف بياقتها البيضاء المتلألئة ودفتر ملاحظاتها، وبدأ يوم روبرت الطبيعيّ. كانت الآنسة تاف ترتدي ياقة ‹بيتر بان› على فستانها الدَّاكن لعشرين سنةً خلت، ولو أنَّها لا ترتديها الآن لبدتْ عاريةً، أو غير محتشمة تقريباً. ففي كلِّ صباح، ترتدي واحدةً نظيفةً. فالياقة التي ارتدتها أمس غُسلت في الليلة الفائتة، وصارت جاهزةً لارتدائها غداً. فالخرقُ الوحيد للروتين كان في أيَّام الأحد. فقد التقى روبرت الآنسة تاف مرَّةً، ذات يوم أحد، ولم يعرفها مطلقاً لأنَّها كانت ترتدي ياقةً ذات طبقات مكشكشة.

ظلَّ روبرت يعمل حتَّى العاشرة والنصف، ثمَّ أدرك حينها أنَّه تناول فطوره على غير العادة في ساعةٍ مبكرة، وهو الآن في حاجةٍ إلى أن يسدَّ رمقه بما هو أكثر من فنجان الشَّاي الذي يشربه في المكتب. سيخرج ويتناول قهوةً وشطيرةً في مطعم (روز آند كراون). ألذُّ قهوةٍ في ميلفورد تجدها في مقهى (آن بولين)، لكنَّه يعجُّ دوماً بالنساء المتسوِّقات: ‹كم هو جميلٌ أن أراك يا عزيزي! لقد افتقدناك كثيراً في حفل روني. هل سمعت...› وهو يرفض أن يعيشَ هذا الشعور ولو قدَّموا له قهوة البرازيل كلَّها. سيمضي إلى مطعم (روز

آند كراون)، وبعد ذلك سيتسوَّق قليلاً لأجل صاحبتَي منزل فرانشايز، ثمَّ سيذهب بعد الغداء ليمرِّر لهما الأنباء السيِّئة رويداً رويداً، بخصوص صحيفة (واتشمان). لم يتمكَّن من قول ذلك عبر الهاتف؛ إذ لا هاتف لديهما الآن. خرج عمَّال شركة لاربورو يحملون السلالم والمعجون والألواح الزجاجيَّة وقد استبدلوا زجاج النوافذ من دون إحداث أيِّ ضجَّةٍ أو فوضى. كانت شركةً خاصَّةً بالطبع. و باعتبار أنَّ مكتب البريد دائرة حكوميَّة، فقد أحالوا مسألة الهاتف لعرضها على القاضي بصورةٍ خاصَّة، وسيتحرَّكون في الوقت الذي يرونه مناسباً. لذا، فقد قرَّر روبرت أن يخصِّص جزءاً من وقت المساء ليخبر السيِّدتين شارب بالأنباء الَّتي لم يستطع تمريرها إليهما عبر الهاتف.

لم يزل الوقت مبكراً لطلب وجباتٍ خفيفة في منتصف الصباح، وخَلَت صالة (روز آند كراون) ذات المقاعد المزركشة والسنديان العتيق إلَّا من بِنْ كارلي، الذي كان جالساً إلى طاولةٍ تحاذي البوَّابة بالقرب من النافذة يقرأ صحيفة (آك إيما). لم يكن كارلي يروق لروبرت البتَّة -أكثر ممَّا يروق هو لكارلي، حسبما يظنُّ- غير أنَّ مهنتهما هي الرابط الذي يجمعهما، وهي إحدى أقوى الروابط بين الطبائع البشريَّة، ومكانٌ صغير مثل ميلفورد، هو ما يضعهما في مصافِّ الأصدقاء المقرَّبين. وهكذا، جلس روبرت بطبيعة الحال إلى طاولة كارلي، مستذكراً أنَّه يدين لكارلي بذلك التحذير المبطَّن الذي أسداه إليه بخصوص رأيه فيما يتعلَّق بالريف.

أنزل كارلي صحيفة (آك إيما) والتفت إليه بعينيه الدَّاكنتين المفعمتين بحيويَّةٍ مغايرةٍ جدّاً لسكون هذه المقاطعة الداخليَّة الإنجليزيَّة، قال: «يبدو أنَّها انتهت الآن؛ رسالةٌ واحدةٌ فقط لهذا اليوم، من باب الادِّخار».

«نعم. بالنسبة إلى صحيفة (آك إيما). لكنَّ صحيفة (واتشمان) تبدأ حملتها الخاصَّة يوم الجمعة».

«ماذا تريد صحيفة (واتشمان)؟ أن تنحدر إلى مستوى صحيفة (آك إيما)؟!».

قال روبرت: «ليست هذه المرَّة الأولى».

«لا. لا أظنُّ ذلك»، قال كارلي وهو يفكِّر في الأمر، «حينما تقلِّب الأمر في ذهنك، تجد أنَّهما وجهان لعُملةٍ واحدةٍ. حسناً. لا داعي لأن يعتريك القلق إزاء ذلك. فمجموع من تصل إليهم صحيفة (واتشمان) يقارب العشرين ألفاً، في أحسن الأحوال».

«ربَّما. لكن لكلِّ واحدٍ من هؤلاء العشرين ألفاً، ابن عمٍّ يعمل في الخدمة المدنيَّة الدَّائمة في هذه البلدة».

«وماذا في ذلك؟ هل سبق لأحدٍ في الخدمة المدنيَّة الدائمة، حسب علمك، أن حرَّك ساكناً لأيِّ سببٍ كان خارج إطار حدود عمله المعتاد؟».

«لا، لكنَّهم يزيحون المسؤوليَّة عن كواهلهم إلى أن تقعَ المسؤوليَّة عاجلاً أم آجلاً في... في...».

«أرضٍ خصبة». ساعده كارلي موظِّفاً التشبيه بتمعُّن.

«أجل. عاجلاً أم آجلاً سيأتي شخصٌ فضوليٌّ أو عاطفيٌّ أو أنانيٌّ، ليس لديه ما يكفي من المشاغل، ليفكِّر في ضرورة فعل شيء بخصوص هذا، ويبدأ في إثارة الضجَّة. والتأثير الذي تُحدثه تلك الضجَّة في الخدمة المدنيَّة الدَّائمة يأتي حسب طريقة صندوق الدُّنيا[47]؛ سلسلةٌ من الشخصيَّات يشدُّ بعضُها بعضاً، طوعاً أو كرهاً. فجيرالد يشدُّ طوني، وريجي يشدُّ جيرالد، وهكذا دواليك. إلى ما لا نهاية».

47 صندوق الدنيا: أو صندوق الفرجة، صندوق خشبي بديل للسينما في العصور القديمة، يتجمّع الناس (وغالباً الأطفال) من حوله لمشاهدة الصور المعروضة فيه. المترجمة.

صمت كارلي للحظةٍ ثمَّ قال: «إنّه لأمرٌ مؤسفٌ. لمَّا كانت صحيفة (آك إيها) مقبلة على الخسارة، يومان آخران وكان الأمر سيُنسى إلى الأبد. في الواقع، لقد تأخَّروا يومين عن وقتهم المعتاد، كما هي الحال دوماً. لم أعهد تبنِّيهم موضوعاً ما لما يزيد عن ثلاثة أعداد. فلا بدَّ أن يكون التفاعل مهولاً للتضحية بكلِّ تلك المساحة».

«نعم». وافقه روبرت مكتئباً.

«لقد كانت نعمةً لهم حتماً. فقد صار ضرب الفتيات المخطوفات موضوعاً نادراً جدّاً. وما يترتَّب على ذلك من تغيير في السِّعر إنَّما هو أمرٌ لا يُقدَّر بثمن. فحينما لا يكون لديك أكثر من ثلاثة أو أربعة أصناف، مثل صحيفة (آك إيها)، فسيَصعُب عليك أن تُرضي أذواق العملاء كما ينبغي. لا بدَّ أنَّ قضيَّة فرانشايز قد كانت لقمةً سائغةً أسهمت في زيادة انتشارهم، فقد بيعت آلاف النُّسخ في مقاطعة لاربورو وحدها».

«سيتناقص انتشارهم. فهذه مجرَّد موجة. لكن ما يهمُّني فعلاً هو ما خلَّفته تلك الموجة على الشاطئ».

«وتحديداً على شاطئٍ -دعني أقُل عنه: كريه الرائحة-»، وانتبه كارلي، «أتعرف تلك الشقراء البدينة التي تضع مساحيق تجميل بنفسجيَّةً وترتدي حمَّالة صدرٍ محشوّة، تلك التي تدير متجر الألبسة الرياضيَّة إلى جوار مقهى (آن بولين)؟ إنَّها من تلك الأشياء على شاطئك».

«كيف؟».

«يبدو أنَّها عاشت في البيت الداخليِّ نفسه الذي عاشت فيه أسرة شارب في لندن، ولديها قصَّةٌ ممتعة، تحكي كيف ضربت ماريان شارب كلباً حتَّى كاد ينفق في إثر نوبة غضب. وقد أحبَّ زبائن متجرها تلك القصَّة، وكذا زبائن مقهى (آن بولين)، فهي تذهب إلى هناك لتشربَ قهوة الصباح»، نظر بسخريةٍ

إلى وجه روبرت الذي احتقن غضباً، «لا حاجة لأخبرك أنَّها كانت تمتلك كلباً. لم تلائمه حياتها الرغيدة مطلقاً، فمات سريعاً بسبب التنكُّس الدهنيِّ الناتج عن التغذية العشوائيَّة؛ إذ ترمي له تلك الشقراء البدينة الفُتَات الذي يفيضُ عن طعامها كلَّما شعرت بالتُّخمة».

فكَّر روبرت في تلك اللحظات التي كاد فيها يعانق بِنْ كارلي وبدلاته المخطَّطة وكلّ تلك الأشياء.

«حسناً. ستمرُّ بسلام»، قال كارلي؛ فالانحناء للعاصفة كي تمرَّ هو فلسفته المتساهلة التي اعتاد الركون إليها منذ أمد بعيد.

بدا روبرت مندَهِشاً. احتشدت في نفسه دهشة أربعين جيل من أجداده الغاضبين. «لا أظنَّ أنَّ مرورها بسلام هو أمرٌ جيِّد»، قال، «فلن يأتي ذلك على موكِّلتيّ بالنفع أبداً».

«وماذا في وسعك أن تفعل؟».

«سأقاوم طبعاً».

«تقاوم ماذا؟ لن تحصل على حُكمٍ بالقذف والتشهير، إن كان هذا هو ما تفكِّر فيه».

«لا. لا أفكِّر في التشهير، وإنَّما اعتزم اكتشاف ما كانت الفتاة تفعله حقّاً في تلك الأسابيع».

بدا كارلي مستمتعاً. «بهذه البساطة»، قال معقِّباً على سهولة الكلام أمام صعوبة المهمَّة.

«لن يكون الأمر سهلاً، ولربَّما سيكلِّفهما كلَّ ما لديهما. لكن ليس ثمَّة بديل».

«بإمكانهما الرحيل من هنا. تبيعان المنزل وتسكنان في مكانٍ آخر. وبعد عامٍ واحدٍ من الآن، لن يتذكّر أحدٌ خارج مقاطعة ميلفورد أيَّ شيء عن هذه القضيَّة».

«لن تفعلا ذلك أبداً، ولا يجدر بي أن أشجّعهما على فعل ذلك، حتَّى وإن أقدمتا عليه. لا يمكنك التغافل عن علبة صفيح مربوطةٍ إلى ذيلك ومواصلة الحياة، كما لو أنَّها غير موجودة. علاوةً على ذلك، فالسماح للفتاة بأن تُفْلتَ بكذبتها هو أمرٌ مستحيل. إنَّها مسألة مبدأ».

«قد تدفع ثمناً باهظاً جدّاً في سبيل مبادئك اللعينة. لكنَّني، على كلِّ حال، أرجو لك التوفيق. هل تفكِّر في تعيين مُتحرٍّ خاصّ؟ في حال أردت ذلك فأنا أعرف واحداً بارعاً جدّاً...».

ذكر روبرت أنَّ لديه متحرِّياً، وقد باشر عمله فعلاً.

باحت تعابير وجه كارلي بتهانيه اللطيفة إزاء هذا الأداء السريع من جهة شركةٍ محافظةٍ مثل شركة بلير وهايوارد وبينيت.

قال وعيناه تنظران إلى الشارع خلف قضبان النافذة الحديديَّة بتركيزٍ ثابتٍ أطفأ المتعة فيهما: «يجب أن تنأى سكوتلاند يارد بسمعتها». واصل التحديق للحظةٍ أو اثنتين، ثمَّ قال بهدوء: «حسناً. عن كلِّ ما يثير السخط».

كانت العبارة تكنُّ الإعجاب، لا. السخط. فالتفت روبرت لينظر إلى ما يثير إعجابه.

في الجهة المقابلة من الشارع، أمام متجر البقالة، ركنت سيَّارة أسرة شارب، تلك السيَّارة القديمة المتضرّرة ذات العجلة الأماميَّة الغريبة، كانت واضحةً وضوح الشمس. وفي الخلف، جلست السيِّدة شارب في مكانها المعتاد،

وكعادتها، يحفُّها جوٌّ من التذمُّر الواهن إزاء وسيلة النقل هذه. ومن المفترض أنَّ ماريان كانت تتسوَّق في الدَّاخل. لعلَّها هنا منذ لحظاتٍ مضت، أو أنَّ بنْ كارلي قد انتبه إليها قبل ذلك. غير أنَّ اثنين من صبيان التوصيل كانا قد توقَّفا للفُرجة متَّكئَين على درَّاجتيهما بارتياحٍ مغرٍ لحضور هذه المسرحيَّة المجّانيَّة. وبينما كان روبرت مأخوذاً بالمشهد، أخذ الناس في التوافد إلى أبواب المتاجر المجاورة بعد أن انتشر النبأ وتناقلته الألسن.

قال روبرت بغضب: «يا لها من حماقةٍ تفوق التصوُّر!».

«لا حماقة في ذلك»، قال كارلي وعيناه ترقبان المشهد، «أتمنَّى لو كانتا موكِّلتيَّ أنا».

تحسَّس روبرت جيبه بحثاً عن النقود ليدفع ثمن قهوته، وغادر المكان. كان قد وصل إلى جانب السيَّارة عندما خرجت ماريان إلى الشارع من الجانب الآخر.

«سيِّدة شارب»، قال بصرامة، «إنَّ هذا لتصرُّفٌ سخيف للغاية. كلُّ ما تفعلانه هو يفاقم الأمور...».

«صباح الخير سيِّد بلير»، قالت بلهجةٍ أنيسةٍ ومهذَّبة، «هل شربت قهوة الصباح أو أنَّك ترغب في مرافقتنا إلى مقهى (آن بولين)؟».

«آنسة شارب»، قال مناشداً ماريان التي كانت تضع حاجاتها على المقعد، «عليك أن تعرفي أنَّ من السخف فعل ذلك».

قالت: «بصراحة، لا أعرف إن كان سخفاً أو لا، لكن يبدو لي أنَّه شيءٌ علينا أن نفعله. لعلَّنا تصرَّفنا بصبيانيَّة عندما نأينا بأنفسنا كثيراً، لكنَّنا اكتشفنا أنَّ أيّاً منَّا لم تستطع نسيان ذاك الازدراء في مقهى (آن بولين). تلك الإدانة من غير محاكمة».

«إنَّنا نعاني من اعتلالٍ روحيٍّ يا سيِّد بلير. والطريقة الوحيدة للشفاء هي: داوِها بالَّتي كانت هي الدَّاء. ولنفهم، لا بدّ من فنجان القهوة الممتازة لدى الآنسة ترولوف».

«لكن، لا ضرورة لذلك. لذا...».

قالت السيِّدة شارب على نحوٍ لاذع: «لا بدَّ أن تكون الطاولات الشاغرة كثيرةً في العاشرة والنصف صباحاً في مقهى (آن بولين)».

«لا تقلق سيِّد بلير»، قالت ماريان، «إنَّها مجرَّد لَفْتة. وما إنْ نشرب فنجان قهوتنا التذكاريَّ في مقهى (آن بولين)، فلن ندوس عتبات أبوابه بعد ذلك أبداً». قالت العبارة بأسلوب تهكُّميٍّ مميَّز.

«لكنَّ ذلك سيُقدَّم لميلفورد مجَّاناً...».

قاطعته السيِّدة شارب قبل أن ينطقَ الكلمة: «يجب أن تعتاد ميلفورد رؤيتنا»، قالت بطريقة جافَّة، «بما أنَّنا قرَّرنا أنَّ الحياة بين أربعة جدران هي شيءٌ لا يمكننا تحمُّله».

«لكن...».

«سيعتادون رؤية الوحوش قريباً، ونصبح أمراً مفروغاً منه. حينما ترى زرافةً لمرَّةٍ واحدةٍ في العام، فستبقى رؤيتها مدعاةً للفُرجة، لكن حينما تراها يوميّاً، فستصبح جزءاً من المشهد. وقد عزمنا أن نكون جزءاً من مشهد ميلفورد».

«حسناً. أنتما تنويان أن تصبحا جزءاً من المشهد. لكن، افعلا شيئاً واحداً لأجلي الآن».

كانت ستائر النوافذ في الطوابق الأولى تُزاح جانباً وتظهر الوجوه من خلفها فعلاً.

«تخلَّيا عن مشروع الذهاب إلى مقهى (آن بولين) -لهذا اليوم على الأقلّ- واشربا القهوة برفقتي في (روز آند كراون)».

«القهوة برفقتك في مقهى (روز آند كراون) ستكون مدعاةً للسرور سيِّد بلير، لكنَّها لن تفيدني في شيءٍ فيما يتعلَّق باعتلالي الروحيِّ، وهذا يعني بالتعبير الشعبيِّ أنَّها تقتلني».

«إنَّني أناشدك يا آنسة شارب. لقد قلتِ إنَّك أدركتِ أنَّك تصرَّفتِ بصبيانيَّة، وإنَّني -حسناً، وبما أنِّي وكيلكما فإنَّ واجبي يحتِّم عليَّ أن أطلب إليكما ألَّا تمضيا في مشروع (آن بولين) هذا».

عقَّبت السيِّدة شارب: «هذا ابتزاز».

«لا مجال للنقاش في كلِّ الأحوال»، قالت ماريان، مبتسمةً له بفتور: «يبدو أنَّنا ذاهبتان لشرب القهوة في (روز آند كراون)».

تنهَّدت: «كنت أتوق إلى تلك اللَّفْتَة، لا أكثر».

،حسناً، عن كلِّ ما يثير السخط!، انبعث الصوت من الأعلى. تردَّدت عبارة كارلي مراراً من دون أن تحمل أيَّ إعجابٍ، وكانت محمَّلةً بالسخط.

«لا يمكنكِ ترك السيَّارة هنا»، قال روبرت، «بعيداً عن قوانين السير، فإنَّ بقاءها هنا يقع تحت بند القانون A».

«لم ننوِ تركها هنا»، قالت ماريان، «كنَّا سنأخذها إلى المرآب ليصلح ستانلي شيئاً داخلها بأدواته التقنية هناك. لقد استهزأ بسيَّارتنا كثيراً. أي ستانلي».

«أستطيع أن أقول هذا. حسناً. يجب أن أرافقكِ؛ والأفضل أن تركبي قبل أن نضطرَّ إلى الهرب بسبب اجتذاب الحشود».

«مسكين سيِّد بلير»، قالت ماريان وهي تشغِّل المحرِّك، «من المؤسف ألَّا تعود جزءاً من المشهد بعد الآن، بعد كلِّ تلك السنوات من التآلف المريح».

قالت ذلك بلا خبث -في الواقع، لقد كان صوتها يبوح بتعاطفٍ صميميٍّ- لكنَّ العبارة التصقت برأسه، واستقرَّت في مكانٍ ناعم وصغير هناك، فيما كانوا متَّجهين بالسيَّارة إلى جادَّة سين، متجاوزين خمسة جياد ومُهراً، تمشي متثاقلةً بطبيعتها خارج الإسطبل. وصلوا أخيراً إلى عتمة المرآب.

خرج بيل لملاقاتهم وهو يمسح يديه بخرقةٍ ملوَّثة بالشَّحم: «عِمتِ صباحاً سيِّدة شارب. سررتُ برؤيتكِ وقد خرجتِ من المنزل. عمتِ صباحاً آنسة شارب. إنَّ ما فعلتِه بجبهة ستان كان عملاً متقناً. لقد التحمت الحواف بنعومة كما لو أنَّ الجرح قد خِيط. يجب أن تكوني ممرِّضة».

«لا يمكن لي ذلك. فليس لديَّ صبرٌ على صراخ الناس. لكن، لربَّما أمكنني العمل كجرَّاحة، إذ لا يمكنك أن تصرخ كثيراً على طاولة العمليَّات».

ظهر ستانلي من الخلف، متجاهلاً السيِّدتين اللتين بات يحسبهما مقرَّبتين، وتولَّى أمر السيَّارة: «متى تريدين هذه الخردة؟»، سألها.

«هل تكفي ساعة؟»، سألته ماريان.

«لن تكفيها سنة. لكنَّني سأفعل ما يمكنني فعله في ساعة». التفتَ بعينيه إلى روبرت: «هل لديك شيء بشأن سباق الألف جنيه؟».

«لقد نصحوني ببالي بوغي».

«هراء!»، قالت السيِّدة شارب، «دماء هذه الأحصنة لا تنفع عندما يتعلَّق الأمر بالمنازعة. انسيا أمرها».

حدَّق الرجال الثلاثة إليها بذهول.

قال روبرت وهو غير مصدِّقٍ ذلك: «هل أنتِ مهتمَّة بالسباق؟».

«لا، وإنَّما بالخيل. فأخي يربِّي سُلالاتٍ أصيلة». دعتها رؤية وجوههم إلى إطلاق ضحكة جافَّة، أشبه بقهقهة دجاجة. «هل كنت تظنُّني أذهب لأخذ قيلولة بعد الظهر مصطحبةً كتابي المقدَّس يا سيِّد بلير؟ أو لربَّما مصطحبةً كتاباً عن السحر الأسود؟ في الواقع، لا. فأنا أقرأ صفحة السباق من الصحيفة اليوميَّة. ويجب ألَّا يهدر ستانلي أمواله على بالي بوغي. إن كان ثمَّة شيءٌ في الخيول يستحقُّ التقبيح فهو هذا الحيوان».

سأل ستانلي باهتمامه الماليِّ المعتاد: «وبأيٍّ نستعيض؟».

«يقولون إنَّ حسَّ الحصان هو غريزته التي تمنعه من المراهنة على الإنسان. لكن، إن كان لا بدَّ أن تقوم بشيءٍ سخيف كالمراهنة، فالأفضل لك أن تضع أموالك في كومينسكي».

«كومينسكي؟»، قال ستانلي، «لكنَّه في الستينات».

قالت على نحوٍ جافّ: «إن أحببت، فيمكنك طبعاً أن تخسرَ مبلغاً أقلَّ من أموالك. هل نذهب سيِّد بلير؟».

«حسناً»، قال ستان، «ليكن كومينسكي. ولكِ عُشر حصَّتي».

مشوا عائدين إلى (روز آند كراون)، وما إن خرجوا إلى العيان من تلك الخصوصيَّة النسبيَّة إلى جادَّة سين، إلى الشارع العامّ، اعترى روبرت ذاك الشعور بالخطر الذي اعتاد أن يشعرَ به عند خروجه في أثناء حدوث غارةٍ جويَّةٍ سيِّئة. وبدا له أنَّ كلَّ ذلك الحذر، وكلَّ تلك الضغينة في لياليه القلقة، قد حضرا بكثافةٍ في شخصه المهزوز.

وهو الآن يقطع الشارع تحت ضوء الشمس الساطع في أوائل الصيف، ويشعر أنَّه عارٍ وأعزل. اعتراه الخجل عندما رأى استرخاء ماريان ولا

مبالاتها وهي تمشي متمايلةً إلى جانبه، وتمنَّى ألَّا يظهر ارتباكه جليّاً. وتحدَّث بكلِّ ما أوتي من عفويَّة، لكنَّه تذكَّر قدرة عقلها على قراءة ما يجول في خاطره دوماً وبسهولة، وشعر أنَّه لا يبلي بلاءً حسناً في ذلك مطلقاً.

كانت الصالة خاويةً باستثناء نادلٍ وحيدٍ يأخذ الشلن الذي تركه له بِنْ كارلي على الطاولة. وبينما اتَّخذوا أماكنهم حول طاولة من السنديان الأسود، متحلِّقين حول إناءٍ للزهور، قالت ماريان: «هل سمعت أنَّ نوافذنا قد أُعيدت إلى سابق عهدها؟».

«نعم، لقد أطلَّ عليَّ بي. سي. نيوسام ليخبرني بذلك وهو عائدٌ إلى المنزل ليلة البارحة. كان ذلك عملاً متقناً».

سألته السيِّدة شارب: «هل رشوتهم؟».

«لا. لقد ذكرتُ لهم فقط أنَّها تحطَّمت بفعل أعمال الشغب. ولو أنَّ نوافذكما تحطَّمت بفعل تفجيرٍ ما، فلا شكَّ في أنَّكما ستواصلان العيش بما تبقَّى. إذ يُنظر إلى الانفجار بأنَّه سوء حظٍّ، وتالياً، يمكن تحمُّله. أمَّا أعمال الشغب فهي واحدةٌ من تلك الأشياء التي يجب أن يوضع لها حدٌّ ما. ولهذا وُضعت لها نوافذكم الجديدة. أتمنَّى لو كان كلُّ شيء سهلاً مثل استبدال النوافذ».

لم ينتبه إلى التغيُّر الذي اعترى صوته، لكنَّ ماريان تمعَّنت في وجهه، وقالت: «هل ثمَّة تطوُّرات جديدة؟».

«أخشى ذلك. كنت سأزوركما مساءً لأخبركما بالأمر. يبدو أنَّه في الوقت الذي تخلَّت فيه صحيفة (آك إيما) عن الموضوع -إذ لم يكن هناك سوى رسالةٍ واحدةٍ في عدد اليوم، وهي غير ذات فاعليَّة-، في الوقت الذي سئمت فيه صحيفة (آك إيما) من قضيَّة بيتي كين، ستكمل صحيفة (واتشمان) ذاك المشوار».

«ممتاز!»، قالت ماريان، «إنَّه استعراضٌ ساحرٌ، صحيفة (واتشمان) تخطف الشعلة من أيدي صحيفة (آك إيما) الخاسرة».

قال بِنْ كارلي إنَّها (تنحدر إلى مستوى (آك إيما))، لكنَّ المعنى واحد.

سألت السيِّدة شارب: «هل لديك جواسيس في مكتب صحيفة (واتشمان) يا سيِّد بلير؟».

«لا، بل نيفيل هو مَن ترامى إليه الخبر. سينشرون رسالةً من حميِّه المستقبليِّ مطران لاربورو».

«هه!»، قالت السيِّدة شارب، «توبي بيرن».

«أتعرفينه؟»، سألها روبرت وهو يفكِّر في نبرتها اللاذعة التي يمكن أن تقشِّر الخشب المصقول فيما لو أُريقت عليه.

«كان مع ابن أخي في المدرسة. ابن أخي مربِّي الخيول. إنَّه توبي بيرن فعلاً. لا يتغيَّر».

«أفهم أنَّك لم تستلطفيه».

«لم أعرفه قطُّ. لقد قدم لقضاء العطلة مع ابن أخي في المنزل مرَّةً واحدةً ولم يعاود دعوته بعدها مطلقاً».

«أوه؟».

«لَّما اكتشف للمرَّة الأولى أنَّ فتيان الإسطبلات ينهضون عند بزوغ الفجر أصابه الذعر. وقال إنَّها عبوديَّة، ومضى يحرِّض الفتيان للدفاع عن حقوقهم. قال إنَّهم إذا اتَّحدوا، فلن يخرج حصان من الإسطبلات قبل التاسعة صباحاً. ولسنواتٍ بعدها، اعتاد الفتيان تقليده ذاك، لكنَّ أحداً لم يدعه للقدوم بعدها».

«أجل. إنَّه لا يتغيَّر»، وافقها روبرت، «منذ ذلك الحين وهو يتَّبع الأسلوب نفسه؛ في كلِّ شيء، بدءاً من الكافريين[48] إلى الحضانات. وكلَّما قلَّت معرفته بشيء ما استشرس لأجله. وبناءً على رأي نيفيل، فلا يمكن فعل شيءٍ بشأن الرسالة المقدَّمة، فالمطران قد كتبها وانتهى الأمر، ولا يمكن إهمال الأوراق التي يكتبها المطران أبداً. لكنَّني لم أستطع الجلوس مكتوف اليدين، فاتَّصلت به بعد العشاء، وأوضحتُ له بكلِّ ما أوتيت من لباقةٍ أنَّه يتبنَّى قضيَّةً ملتبسةً للغاية، وأنَّه في الوقت نفسه، يلحق الأذى باثنتين قد تكونان بريئتَين. لو أنَّني وفَّرت ذاك التعب على نفسي لكان أفضل لي، فقد أشار إلى أنَّ صحيفة (واتشمان) إنَّما وُجدت لأجل حريَّة التعبير عن الرأي، وخَلُصَ إلى أنَّني أحاول قمعَ هذه الحريَّة. أنهيت حديثي معه وأنا أسأله إن كان يوافق على الإعدام من غير محاكمة، لأنَّه بذلك إنَّما يبذل قصارى جهده في سبيل حصوله. قلت هذا بعد أن يئستُ منه وتخلَّيتُ عن لباقتي». أخذ كوب القهوة الذي صبَّته له السيِّدة شارب.

«وأسفاه كم تدهورت حاله بعد أن كان له منصبٌ رفيعٌ في الأبرشيَّة، وكان يبثُّ الذعر في نفس كلِّ آثمٍ في خمس مقاطعات، وفوق كلِّ هذا فقد كان عالماً».

«وكيف وصل توبي بيرن إلى تلك المغامرات. الحياة المدنيةَّ؟»، تساءلت السيِّدة شارب.

«لا أظنُّ أنَّ دور (كوان) لصلصة التوت لم يكن مهمّاً في تغيُّر حاله».

«صحيح. نسيتُ زوجته. أتريد سُكَّراً سيِّد بلير؟».

«بالمناسبة. هي ذي نسختا مفاتيح بوَّابة منزل فرانشايز. أظنُّني سأحتفظ بنسخةٍ منهما... وبرأيي، الأفضل أن تسلِّما النسخة الأخرى إلى مركز الشرطة،

48 مصطلح عنصريٌّ قديم يُقصد به الأفارقة السود، والمكافئ له هو مصطلح الزنوج. المترجمة.

ليتمكَّنوا من تفقُّد المحيط متى شاؤوا. ويتحتَّم عليَّ أيضاً أن أعلمكما بأنَّ مُتحرِّياً خاصّاً يعمل في خدمتكما الآن». وأخبرهما عن آليك رامسدن الذي وجده أمام باب مكتبه في الثامنة والنصف صباحاً.

«ألم يكتب أحدٌ أيَّ كلمة إلى سكوتلاند يارد بعد رؤية الصورة في صحيفة (آك إيما) وتعرَّفها؟»، سألت ماريان، «إنَّني أعلِّق آمالي على هذا».

«ليس بعد. لكن لا يزال ثمَّة أمل».

«لقد مرَّت خمسة أيَّام منذ أن طبعتها صحيفة (آك إيما). لو كان أحدٌ سيتعرَّفها لحصل ذلك الآن».

«أنت لم تمنحي المهمَلات فرصتها بَعد. فهكذا تسير الأمور دوماً. يَفْرِد أحدٌ ما قرطاس رقائق البطاطس ويقول: 'أين رأيت هذا الوجه يا عزيزي؟' أو أنَّ أحداً ما يستعمل رزمةً من الصحف لتبطين الأدراج في فندق. أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل. لا تفقدي الأمل، آنسة شارب. وبين الإله الكريم وآليك رامسدن، سننتصر في النهاية».

نظرت إليه بجديَّة، وقالت مثلما يلحظ المرء ظاهرةً ما: «أنت تؤمن بهذا حقّاً، أليس كذلك؟».

قال: «بلى».

«تؤمن بأنَّ الخير سينتصر في النهاية».

«أجل».

«لماذا؟».

«لا أدري. ربَّما لعدم القدرة على تصوُّر خلاف ذلك. فلا شيء يستحقُّ الإيجابيَّة أو الثناء أكثر من هذا».

«يجب أن أتحلَّى بإيمانٍ أقوى بإلهِ لم يمنح توبي بيرن رتبة الأسقفيَّة»، قالت السيِّدة شارب، «بالمناسبة، متى تظهر رسالة توبي بيرن؟».

«صباح الجمعة».

قالتِ السيِّدة شارب: «لا أطيق صبراً».

-15-

بحلول عصر يوم الجمعة، قلَّ يقين روبرت بانتصار الخير في النهاية.

لم تكن رسالة المطران هي ما زعزع إيمانه. وبالفعل، فإنَّ أحداث الجمعة كانت سبباً مهمّاً لتجري الرياح بما لا تشتهي سفن المطران. ولو قيل لروبرت صباح الأربعاء إنَّه سيندم أشدَّ الندم إن فعل شيئاً ليثني المطران عن عمله، لما صدَّق ذلك.

فقد جاءت رسالة نيافته كما هي متوَقَّعةٌ تماماً. قال إنَّ صحيفة (واتشمان) قد وقفت في وجه العنف دوماً، وهي لا تعتزم التغاضي عنه الآن طبعاً، لكن هناك أحداثٌ ظهر فيها العنف كدلالةٍ على عمق الاضطرابات الاجتماعيَّة والغضب وانعدام الأمن، في قضيَّة نولباد الأخيرة مثلاً. (وفي قضيَّة نولباد تتجلَّى ‹الاضطرابات والغضب وانعدام الأمن› في عجز لِصَّين عن العثور على سوار ‹الأوبال[49]› الذي قدِما من أجل سرقته، ومن باب الانتقام؛ قتلوا سبعةً من قاطني تلك العشَّة وهم نيامٌ في أسرَّتهم). ثمَّة أوقاتٌ شعر فيها البروليتاريُّون أنَّهم عاجزون عن تصحيح خطأ بيِّنٍ بلا شكّ، ولم يكن جنوح بعض الأرواح المتحمِّسة إلى الاحتجاج الشخصيِّ بالأمر العجيب. (فكَّر روبرت في أنَّ بيل وستانلي بمشقَّة سيتمكَّنان من كشف الستار الذي أُلقي على رعاع ليلة الاثنين بصفتهم ‹الأرواح المتحمِّسة›، ورأى بعض الاستهانة

---

49 حجر كريم تتغيّر ألوانه. المترجمة.

في الإشارة إلى أنَّ تحطيم نوافذ الطابق الأرضيِّ بأكملها في منزل فرانشايز مجرَّد «احتجاج شخصيٍّ») فالمُلام في الاضطرابات -لصحيفة (واتشمان) ولعٌ خاصٌّ بتلطيف التعابير: اضطرابات، حرمانٌ من الامتيازات، متأخّرون، منبوذات؛ في حين يتحدَّث بقيَّة العالم صراحةً عن العنف والفقر والتخلّف العقليِّ والعاهرات. وقد خطر في باله الآن أنَّ كلًّا من صحيفة (آك إيما) وصحيفة (واتشمان) تُجمع على أنَّ للبغايا قلوباً من ذهبٍ، لكنَّهنَّ سلكنَ الطريق الخطأ). فالمُلام في الاضطرابات هي تلك السلطات التي ساقت القضيَّة إلى إسقاطها ظلماً بسبب ضعفها وافتقارها إلى الكفاءة والحماس، لا أولئك المُضَلَّلين الذين عبَّروا عن غضبهم بكلِّ وضوح. تطبيق العدالة مشروطٌ بالإعلان عنها، والمحكمة العلنيَّة هي المكان الأمثل لذلك، فذلك جزءٌ من التراث الإنجليزيِّ، فتطبيق العدالة وحده غير كافٍ.

«أيّ خيرٍ ذاك الذي يتخيَّل أنَّ أحداً سيجنيه من تضييع رجال الشرطة لوقتهم في قضيَّةٍ خاسرةٍ مسبقاً؟» وجَّه روبرت سؤاله إلى نيڤيل الذي كان يقرأ الرسالة من خلف كتفه.

قال نيڤيل: «إنَّه يسدي إلينا معروفاً كبيراً. يبدو أنَّ ذلك لم يخطر له في بال. إن رفض القاضي القضيَّة، فلن يكون في وسعه تجنُّب التلميح إلى أنَّ صغيرته المسكينة، ذات الجسد المتلىء بالكدمات، كانت تروي الأكاذيب. أليس كذلك؟ هل وصلتَ إلى الكدمات؟».

«لا».

جاء ذِكر الكدمات في نهاية الرسالة. حيث قال نيافته إنَّ «الكدمات على الجسد الضعيف» لهذه الفتاة اليانعة والبريئة كانت صرخة اتِّهامٍ في وجه قانونٍ عجز عن حمايتها، وقد عجز الآن عن إنصافها. تطلَّب البحث في مجمل سير هذه القضيَّة تدقيقاً عالي المستوى.

قال روبرت: «لا بدَّ أنَّ هذا سيجعل سكوتلاند يارد في غاية السعادة هذا الصباح».

«هذا المساء». صحَّح له نيفيل.

«ولمَ هذا المساء؟».

«لا أحد في سكوتلاند يارد يقرأ منشوراتٍ زائفةً كمنشورات صحيفة (واتشمان). لن يروها قبل أن يرسلها أحدٌ ما إليهم هذا المساء».

لكن اتَّضح فيما بعد أنَّ غرانت قد رآها، وقرأها في القطار. سحبها من كشك الكتب مع ثلاثٍ أخريات، وليس ذلك لأنَّها ضمن خياراته، وإنَّما لأنَّ خياراته انحصرت فيما بينها وبين مجلَّاتٍ ملوَّنةٍ تتصدَّر أغلفتها حسناوات الشَّاطئ.

غادر روبرت المكتب قاصداً منزل فرانشايز، حاملاً معه نسخةً من صحيفة (واتشمان) ونسخة ذلك الصباح من صحيفة (آك إيما) التي ما عادت مهتمَّةً بقضيَّة فرانشايز على الإطلاق. فقد كفَّت عن التطرُّق إلى القضيَّة منذ أن نشرت تلك الرسالة الهزيلة يوم الأربعاء. كان يوماً جميلاً، فالعشب في فناء منزل فرانشايز أخضر بصورةٍ غير طبيعيَّة، وقد أحالت الشمس واجهة المنزل الأبيض إلى مظهرٍ من مظاهر الراحة، وقد غمر الضوء غرفة الاستقبال البائسة منعكساً إليها عن الجدار القرميديِّ الورديِّ، مانحاً إيَّاها دفئاً مُبهجاً. جلسوا هناك ثلاثتهم بطمأنينةٍ عارمة. لقد أنهت صحيفة (آك إيما) تعريتها لهما على الملأ، ولم تكن رسالة المطران في نهاية الأمر بذلك السوء، وفي لاربورو، كان آليك رامسدن منشغلاً بقضيَّتهما، ولا شكَّ أنَّه، عاجلاً أم آجلاً، سيكشف حقائقَ فيها خلاصهما. حلَّ الصيف بلياليه القصيرة الصافية. وكان ستانلي يثبت أنَّه 'عزيزٌ جدّاً'، وقد ذهبتا إلى ميلفورد البارحة في زيارةٍ قصيرةٍ لتنفيذ خطَّتهما بأن تصبحا جزءاً من المشهد، ولم يصادفهما أيُّ شيءٍ غير مريح، إنْ

هي إلَّا تحديقاتٌ ونظراتٌ غاضبةٌ وبضع تمتماتٍ مسموعة. في المجمل، سيطر عليهم في هذا اللقاء شعورٌ بأنَّ الأمور كلَّها كانت لتصير إلى الأسوأ.

«وكم من سبيلٍ سيفسح هذا لغيره؟». سألت السيِّدة شارب روبرت وهي تشير بسبَّابتها النحيلة إلى صفحة المراسلات في صحيفة (واتشمان).

«ليست سبلاً كثيرةً كما أظنُّ، فحسبما فهمت، حتَّى ضمن جماعة صحيفة (واتشمان)، في هذه الأيَّام، بات يُنظر إلى المطران نظرات شزرة قليلاً. إذ لم يعُد عليه دفاعه عن ماهوني بأيِّ خير».

سألت ماريان: «ومَن هو ماهوني؟».

«هل نسيتِ ماهوني؟ هو ذاك (الوطني) الإيرلنديّ الذي دسَّ قنبلةً في سلَّة درَّاجة امرأةٍ في شارعٍ إنجليزيٍّ مزدحم، وقد فجَّر أربعة أشخاصٍ فتحوَّلوا إلى أشلاء، بمن فيهم تلك المرأة التي تعرَّفوا إليها لاحقاً من خاتم زواجها. وقد عدَّ المطران أنَّ ماهوني مجرَّد مُضلَّلٍ وليس بقاتل، وأنَّه كان يحارب باسْم أقلِّيَّةٍ مضطهدةٍ -صدِّقي أو لا تصدِّقي، الإيرلنديُّون أقلِّيَّةٌ مضطهَدَةٌ- ولا يجدر بنا أن نصنعَ منه شهيداً. وقد كان ذلك ثقيلاً جدّاً حتَّى على معدة صحيفة (واتشمان). ومنذ ذلك الحين، لم تعد هيبة المطران كسابق عهدها، حسبما أسمع».

قالت ماريان: «أليس من المخيف كيف يمكن للمرء أن ينسى عندما يكون الأمر لا يخصُّه؟ وهل شنقوا ماهوني؟».

«يسرُّني أن أقول إنَّهم فعلوا -وقد آلمتْهُ المفاجأة كثيراً- ما أكثر أسلافه الذين استفادوا من تلك المناشدة التي تقضي بألَّا نجعل منهم شهداء، فما عادت عقولهم تحسب حساب القتل كتجارةٍ خطرة. وسرعان ما صار هيِّناً، كالأمور المصرفيَّة».

«بمناسبة الحديث عن الأمور المصرفيَّة»، قالت السيِّدة شارب، «أرى أن نوضِّح لك وضعنا الاقتصاديَّ. وبخصوص ذلك، عليك أن تتواصل مع محامي السيِّد كراولي القديم في شركة لندن، التي تدير شؤوننا. سأكتب إليهم موضِّحةً لهم اطِّلاعك على كلِّ التفاصيل، كي تعرف ما لدينا من وارداتٍ ومدفوعات. ويمكنك أن تنسِّقَ تسوياتٍ مناسبة لأجل تكاليف الدفاع عن سمعتنا الطيِّبة. ليست هذه الطريقة هي التي رغبنا في إنفاق مالنا فيها بالتأكيد».

قالت ماريان: «فلنكن شاكرتين لأنَّ لدينا ما ننفقه، فماذا يمكن أن يفعل المفلس في قضيَّةٍ كهذه؟».

بصراحةٍ تامَّة، لم يكن روبرت يعرف الجواب.

أخذ عنوان محامي السيِّد كراولي وعاد إلى المنزل لتناول الغداء مع العمَّة لين. وقد شعر بسعادةٍ لم يذق مثيلاً لها منذ أن رأى، أوَّل مرَّةٍ، غلاف صحيفة (آك إيما) على مكتب بيل يوم الجمعة الماضي. شعر كما يشعر المرء وهو في قلب عاصفةٍ رعديَّةٍ هوجاء، حين يكفُّ الدويُّ، فلا يعود فوق رأسه مباشرةً، والعاصفة لا تزال مستمرَّة، ولربَّما لا تزال مزعجةً للغاية، لكن يمكن للمرء أن يرى بصيص أملٍ خلفها، في حين أنَّه لم يجد قبل لحظاتٍ أيَّ شيءٍ سوى تلك ‹الآن› الموحشة.

حتَّى العمَّة لين، بدت قد نسيت أمر منزل فرانشايز لمدَّةٍ من الزمن، وكانت في أفضل حالات تشوّشها وتردُّدها -وقد انشغلت بشراء الهدايا لأجل عيد ميلاد توءَمَي ليتيس في (ساسكاتشوان). قدَّمت له غداءه المفضَّل، اللحم البارد والبطاطس المسلوقة، والفاكهة المشويَّة مع الكريمة الغنيَّة- وفي كلِّ لحظةٍ تمرُّ، يجد صعوبةً في تصديق أنَّه كان خائفاً من يوم الجمعة هذا، الذي كان سيشهد انطلاقة حملة صحيفة (واتشمان) ضدَّهم. وبدا له أنَّ مطران لاربورو

قد كان، كما اعتاد أن يسمِّيه زوج ليتيس، «تدفُّقاً مكسوراً»[50]. لم يستطع تصوّر الوقت، ولم يتمكّن من تخيُّل أنّه أهدر فكرةً واحدةً في سبيله.

بهذا المزاج، عاد إلى مكتبه. وبهذا المزاج، رفع السمّاعة ليردَّ على مكالمة هالام.

«سيِّد بلير»، قال هالام، «إنَّني في (روز آند كراون)، وأخشى أنَّني أحمل أخباراً سيِّئةً لك. والمفتِّش غرانت هنا».

«في (روز آند كراون)؟».

«أجل. ومعه مذكِّرة».

توقَّف عقل روبرت عن العمل. وسأل بغباء: «مذكِّرة تفتيش؟».

«بل مذكِّرة توقيف».

«لا!».

«أخشى أنَّ الأمر كذلك».

«لكن، لا يمكنه ذلك!».

«أتوقَّع أنَّ الأمر صادمٌ قليلاً لك. وأعترف بأنَّني شخصياً لم أتوقَّع ذلك».

«أتعني أنَّه توصَّل إلى شاهد... شاهد إثبات؟».

«إنَّهما شاهدان. القضيَّة منتهيةٌ تماماً».

«لا يمكنني أن أصدِّق ذلك».

---

50 في لعبة البوكر: الأوراق الخمس المتسلسلة من النوع نفسه هي أوراق رابحة، والتدفُّق المكسور هو تسلسل أربع أوراق فقط، في حين أنّ الورقة الخامسة ليست من النوع نفسه. وهو مصطلحٌ يستعمل للإشارة إلى كونه مخيباً للتوقّعات بعد المقدّمات الحماسيَّة. المترجمة.

«هل ستأتي، أو نذهب نحن إليك؟ أتوقَّع أنَّك راغبٌ في الخروج معنا».

«الخروج إلى أين؟ أوه. أجل. طبعاً سآتي. سآتي على الفور إلى (روز آند كراون). أين أنتما؟ في الصالة؟».

«لا. بل في غرفة غرانت. رقمها خمسة. نافذة الغرفة المطلَّة على الشارع مفتوحة المصراعين. تلك المطلَّة على الحانة».

«حسناً. أنا قادمٌ مباشرةً. أقول!».

«ماذا؟».

«المذكِّرة لكلتيهما؟».

«أجل. للاثنتين».

«حسناً. شكراً لك. سأكون معكما في غضون دقيقة».

جلس للحظةٍ يستردُّ أنفاسه، ويحاول أن يحدِّدَ وجهته. كان لدى نيفيل عملٌ خارج المكتب، غير أنَّ نيفيل لا يَصْلُح لتقديم الدعم المعنويِّ في أيِّ وقت. نهض، تناول قبَّعته، واتَّجه إلى باب «المكتب».

«من فضلك سيِّد هيسلتاين»، قالها بالصيغة المهذَّبة التي يستعملها دوماً بحضور الموظَّفين الشبَّان، فتبعه الرجل العجوز عبر الردهة، وخرجا إلى المدخل المُضاء بنور الشمس.

قال روبرت: «تيمي، إنَّنا في مأزق. قدِم المفتِّش غرانت من المقرِّ الرئيس، ومعه مذكِّرة توقيفٍ بحقِّ صاحبتَي منزل فرانشايز». حتَّى حين قال تلك الكلمات، ما كان مصدِّقاً أنَّ ذلك يحدث حقّاً.

وكذا السيِّد هيسلتاين، كان ذلك واضحاً عليه. معقود اللسان، كان محدِّقاً وعيناه الهرمتان الشاحبتان مذعورتان.

«ذلك صادم، أليس كذلك سيِّد تيمي؟». ما كان عليه أن ينتظر دعماً من الكاتب القانونيِّ الضعيف والمسنّ.

كان الدَّعم وشيكاً. فالسيِّد هيسلتاين، وإن كان مصدوماً وضعيفاً ومسنّاً، إلَّا أنَّه كاتبٌ قانونيٌّ. وبعد أن قضى ردحاً من الزمن بين القوانين، ها هو ذا عقله يبحث تلقائياً عن النصِّ القانونيِّ الذي يخدم الوضع.

«مذكِّرة؟»، قال، «لِمَ المذكِّرة؟».

قال روبرت وقد ضاق ذرعاً بعض الشيء: «لأنَّهم لا يستطيعون اعتقال أحدٍ من دونها». هل نسي تيمي العجوز عمله؟

«لا أقصد هذا. أقصد أنَّهما متَّهمتان بجنحة، لا بجناية. بالتأكيد يمكنهم جعل ذلك أمر استدعاءٍ، سيِّد روبرت؟ لا حاجة إلى اعتقالهما حتماً؟ ليس لأجل جنحة».

لم يفكِّر روبرت في ذلك. قال: «تكليفٌ بالحضور. أجل. ولِمَ لا؟ لا شيء يقف دون اعتقالهم لهما فيما لو أرادوا ذلك».

«لكن، لِمَ قد يريدون ذلك؟ فأمثال أسرة شارب لا يفرُّون هاربين. ولن تقوما بأيِّ عملٍ مشينٍ ريثما يجري استدعاؤهما للحضور. عن أيِّ جهةٍ صدرت المذكِّرة، هل قالوا لك؟».

«لا. لم يقولوا. شكراً جزيلاً تيمي، كنتَ مفيداً مثل شرابٍ قويٍّ. يجب أن أمضيَ الآن إلى (روز آند كراون) كي أستمع إلى الموَّال –فالمفتِّش غرانت مع هالام هناك– ما من طريقةٍ لتحذيرهما في منزل فرانشايز، إذ لا هاتف لديهما. سأضطرُّ إلى الذهاب إلى هناك مخفوراً بكلٍّ من غرانت وهالام. كنَّا قد أبصرنا توّاً بصيص النور في هذا الصباح، أو هكذا حسبناه. ستخبر نيفيل عندما يأتي،

أليس كذلك؟ واردعه عن أيِّ تصرُّفٍ أحمق أو متهوّر».

«أنت تعرف جيِّداً يا سيِّد روبرت، ما كانت لي القدرة قطُّ على ردع السيِّد نيفيل عند فعل أيِّ شيءٍ يريده. مع أنَّه قد بدا لي متَّزناً على نحوٍ مفاجئٍ في الأسبوع المنصرم، أعني مجازيّاً».

قال روبرت: «فلنَدْعُ له بدوام هذه الحال». ومضى إلى الشارع المشمس.

عَبَرَ الردهة، وصعد الدرجات العريضة القليلة من دون أن يلتقيَ أحداً في طريقه، ففي تلك السَّاعة من بعد الظهر، يكون (روز آند كراون) في حالة سكون. طرق على الباب رقم خمسة، وبهدوءٍ وتهذيبٍ كعادته دوماً، دعاه غرانت إلى الدخول. كان هالام متَّكئاً على طاولة الزينة، يكتسيه حزنٌ غريب.

قال غرانت: «أتفهَّم أنَّك لم تتوقَّع هذا سيِّد بلير».

«لا، لم أتوقَّعه، ولأكون صريحاً، فإنَّه صدمةٌ كبيرةٌ لي».

قال غرانت: «اجلس. لا أريد استعجالك».

«قال المفتِّش هالام إنَّ لديك دليلاً جديداً».

«أجل، وهو ما نعدُّه دليلاً قاطعاً».

«هل لي في معرفته؟».

«بالتأكيد. لدينا رجلٌ قد رأى بيتي كين عندما أقلَّتها السيَّارة من موقف الحافلة...».

«أقلَّتها سيَّارةٌ»، قال روبرت.

«أجل. كما تشاء. أقلَّتها سيَّارةٌ -لكنَّ مواصفاتها تنطبق على سيَّارة أسرة شارب».

«وعلى عشرة آلاف سيَّارةٍ أخرى في بريطانيا. و؟».

«والفتاة التي كانت تأتي من المزرعة إلى منزل فرانشايز مرَّةً في الأسبوع للمساعدة في أعمال التنظيف، ستقسم أنَّها سمعت صراخاً من العلّيَّة».

«كانت تأتي مرَّةً في الأسبوع؟ ألم تعد تأتي بعد ذلك؟».

«ليس بعد أن أصبحت قضيَّة كين حديث الناس».

«فهمت».

«هذه الأدلَّة غير ذات قيمةٍ في حدِّ ذاتها، لكنَّها قيِّمةٌ جدّاً كدليلٍ على قصَّة الفتاة. فعلى سبيل المثال، لقد فاتتها حافلة لاربورو- لندن بالفعل. يقول الشاهد إنَّه صادفها على بعد نصف ميلٍ في ذاك الطريق، وإنَّه لَمَّا رصد موقف الحافلة بعد لحظاتٍ من ذلك، كانت الفتاة تنتظر هناك، فالطريق طويلٌ ومستقيم؛ طريق لندن الرئيس عبر مينشيل...».

«أعرف. أعرفه».

«أجل. حسناً. لَمَّا كان على مسافة من الفتاة، رأى سيَّارةً تتوقَّف بالقرب منها، ورآها تركبها، ومضت بها السيَّارة بعيداً».

«لكنَّه لم يرَ سائق السيَّارة».

«لا. فالمسافة بعيدةٌ لرصد ذلك».

«وهذه الفتاة من المزرعة... هل جاءت تدلي بمعلوماتها عن الصراخ طواعيةً؟».

«لم تُدلِ بها إلينا. وإنَّما تحدَّثت عنه إلى صديقاتها، وتصرَّفنا بناءً على المعلومات، ووجدنا أنَّ لديها استعداداً لإعادة سرد القصَّة تحت القسم».

«هل تحدَّثت عنه قبل أن تنتشرَ الثرثرات بشأن اختطاف بيتي كين؟».

«أجل».

لم يكن ذلك متوقَّعاً. لقد نُغِّصت فرحة روبرت. فإن كان صحيحاً فعلاً -تذكُّر الفتاة أمر الصراخ قبل أن يكون هناك أيُّ إرهاصٍ حول تورُّط أسرة شارب- فالدليل سيكون دامغاً حينذاك. نهض روبرت، ومشى إلى النافذة جيئةً وذهاباً. وفكَّر حاسداً بِن كارلي. لن يكره بِن هذا الأمر كما كرهه هو، شاعراً أنَّه يفتقر إلى الكفاءة، ويوشك أن يخسر.

سيكون بِن في أفضل حالاته، عقله متلذِّذٌ بالمشكلة وبالأمل في التحايل على السُّلْطة القائمة. كان روبرت مدركاً في قرارة نفسه أنَّ احترامه المتأصِّل فيه تجاه السُّلْطة القائمة يشكِّل عائقاً له لا مزيَّة؛ كان في حاجةٍ إلى بعض معتقدات بِن الأصليَّة التي تقضي بأنَّ السُّلْطة قد خُلقت للتحايل عليها.

«حسناً. شكراً لأجل صراحتك المُطلقة»، قال أخيراً، «أنا لا أقلِّل من فظاعة الجرم الذي تتَّهمون به هؤلاء الناس، لكن هذه جنحة، وليست جناية. فما الدَّاعي إلى المذكِّرة؟ يمكن لأمر الاستدعاء أن يخدم أغراض القضيَّة تماماً؟».

«إنَّ أمر الاستدعاء يماثلها بالتأكيد»، قال غرانت بهدوء، «لكن، في الحالات التي تُضَخَّم فيها الجريمة -وقد نظر رؤسائي إلى القضيَّة الأخيرة بجدّيَّةٍ بالغة- تُسْتَصْدَر مذكِّرة توقيف».

لم ينفكَّ روبرت يتساءل كيف تمكَّنت صحيفة (آك إيما) بملاحظاتها المزعجة من التأثير في قرارات سكوتلاند يارد الرزينة. انتبه إلى نظرات غرانت، وعرف أنَّه قد قرأ فكره.

قال غرانت: «كانت الفتاة مفقودة لشهرٍ كامل -أو لمدَّةٍ أقلّ بيومٍ أو اثنين- وقد ضُربت ضرباً مبرحاً جدّاً، وعن سبق إصرار. لا يمكن الاستهانة بقضيَّةٍ كهذه».

«إنَّما، بمَ يعود عليكم الاعتقال؟»، قال روبرت مستحضراً رأي السيِّد هيسلتاين، «إنَّ رَفْض هاتين المرأتين للحضور لأجل الردّ على التهمة هو أمرٌ غير واردٍ إطلاقاً. ومن غير الوارد أيضاً أن تكونا قد ارتكبتا جريمةً مماثلةً في تلك الفترة. بالمناسبة، متى أردتم حضورهما؟».

«كنت أخطِّط لإحضارهما إلى محكمة الشرطة يوم الاثنين».

«إذاً، أقترح عليكم أن تخصُّوهما بأمر استدعاءٍ للمثول أمام المحكمة».

قال غرانت متجرِّداً من العواطف: «لقد انتهى رؤسائي إلى قرارهم بالمذكِّرة».

«لكن، يمكنك الإدلاء برأيك؛ فرؤساؤك لا يعرفون شيئاً عن الظروف المحلِّيَّة مثلاً. إن جرى إخلاء منزل فرانشايز من أهله فسيتحول إلى حطام في غضون أسبوع. هل فكَّر رؤساؤك في هذا؟ وإن اعتُقِلت هاتان المرأتان، فستبقيهما في الحجز إلى يوم الاثنين، وحينذاك سأطلب إطلاق سراحهما بكفالة. من المؤسف المخاطرة بتخريب منزل فرانشايز في سبيل حركة اعتقالٍ وحسب. وأنا أعرف أنَّ المفتِّش هالام ليس لديه وفرة في الرجال ليوكل إليهم أمر حمايته».

توقَّفا عند هذين الاحتمالين لوهلة. مدهشٌ هو احترام المُلكيَّات، المتأصِّل في الرّوح الإنجليزيَّة، فقد بدا التغيُّر الأوَّل على قسمات وجه غرانت عند الإشارة إلى احتماليَّة تحوُّل المنزل إلى حطام. حمل روبرت مودَّةً غير متوقَّعةٍ لأولئك الذين أمدُّوه بسابقةٍ تُرجِّحُ كِفَّة حجَّته حين كانوا مثالاً حيّاً للمخرِّبين. أمَّا بالنظر إلى هالام، وبغضِّ النظر عن قوَّاته الشرطيَّة المحدودة، ففي الأرجح أنَّه لن يستلطفَ احتمال حدوث أعمالٍ تخريبيَّة جديدةٍ في منطقته، واضطراره إلى تعقُّب مجرمين جدد.

بعد صمتٍ طويل، قال هالام متردِّداً: «ثمَّة شيءٌ من الصحَّة في ما يقوله السيِّد بلير. فالمشاعر مشحونةٌ جدّاً في الريف، ولا أشكُّ في أنَّهم سوف يمتنعون عن مسِّ المنزل بسوءٍ في حال كان خاوياً، ولا سيَّما إن تسرَّب نبأ الاعتقال».

على الرَّغم من هذا، احتاج غرانت إلى نصف ساعةٍ تقريباً كي يتمَّ إقناعه. لسببٍ ما، كان ثمَّة عنصرٌ شخصيٌّ في القضيَّة يخصُّ غرانت، ولم يتصوَّر روبرت ماهيَّته أو ما الدَّاعي إلى وجوده فيها.

«حسناً»، قال المفتِّش في نهاية المطاف، «لن تحتاجوا إليَّ لأجل تقديم أمر استدعاء». فكَّر روبرت بتلذُّذٍ وارتياحٍ كبير كم أنَّ هذا شبيهٌ بجرَّاحٍ شعر بالقرف عندما طُلب إليه فتحُ دُمَّل، «سأترك الأمر لهالام وأعود إلى المدينة. لكنَّني سأكون في المحكمة يوم الاثنين. فهمت أنَّ انعقاد محكمة الجنايات بات وشيكاً، لذا، إن نحن تجنَّبنا التأجيل، فستُحال الدعوى مباشرةً إلى المحكمة الجنائيَّة. هل يمكن أن يكون دفاعك جاهزاً بحلول الاثنين؟ أتظنُّ ذلك؟».

«طبقاً لما بين يدَي موكِّلتي من أدلَّةٍ دفاعيَّة، يمكننا أن نكون جاهزين بحلول وقت فترة الشاي أيُّها المفتِّش».

لفرط دهشته، ابتسم غرانت ابتسامةً لطيفةً جدّاً، وقد كانت ابتسامةً عريضةً أكثر ممَّا هي عادته. «سيِّد بلير»، قال، «لقد وقفت دون تنفيذي لأمر الاعتقال، ولا أكنُّ لك أيَّ ضغينةٍ إزاء ذلك. على العكس منه، فإنَّني أظنُّ أنَّ موكِّلتيك محظوظتان بمدَّعيهما العامّ أكثر ممَّا تستحقَّان. سأدعو أن تكونا أقلَّ حظّاً بمحاميهما. وإلَّا، قد أجد نفسي أشهد لصالحهما».

لن يُضطرَّ إذاً إلى الذهاب إلى منزل فرانشايز (مخفوراً بكلٍّ من غرانت وهالام) ولا مصحوباً بمذكِّرة توقيفٍ أيضاً. خرج مع هالام إلى سيَّارته

المعروفة، فأخرج له منها أمرَ استدعاء. لمَّا فكَّر في المخرج الذي حظيتا به، اعتراه الارتياح. ولمَّا فكَّر في المأزق الذي كادتا أن تقعا فيه، اعتراه القلق.

قال روبرت لهالام في أثناء سيرهما: «لقد بدا المفتِّش غرانت كما لو أنَّ له مصلحةً شخصيَّةً لتنفيذ المذكَّرة. هل تظنُّ أنَّ مدعاة ذلك هو غيظه من صحيفة (آك إيما)؟».

قال هالام: «لا، فالمفتِّش غرانت يكاد لا يبالي بتلك الأشياء كما يبالي بها الناس العاديُّون».

«لماذا إذاً؟».

«حسناً. برأيي الشخصيّ – وليبْقَ هذا الموضوع بيننا- أنَّه لم يستطع التغاضي عن استخفافهما به. أعني أسرة شارب. إنَّه معروفٌ في سكوتلاند يارد بنظرته السديدة في الحكم على الأشخاص، أنت تعرف، وليبْقَ هذا أيضاً بيننا، فهو لم يأبه كثيراً لأمر ابنة كين ولا لقصَّتها، وقد تناقص استلطافه لهم بعد أن التقى أصحاب منزل فرانشايز، على الرَّغم من كلِّ الدلائل. والآن، يظنُّ أنَّ الطاولة انقلبت عليه، وهو أمرٌ لا يستهين به. أتصوَّر أنَّه كان سيتلذَّذ كثيراً لو أنَّه أبرز تلك المذكَّرة عندهما في غرفة الاستقبال».

لمَّا توقَّفا عند بوَّابة منزل فرانشايز، وأخرج روبرت مفتاحه، قال هالام: «لعلَّك تفتح البوَّابة على مصراعيها لأقود السيَّارة إلى الدَّاخل، فلا داعي للإعلان عن وجودنا هنا حتَّى وإن كان ذلك لوقتٍ قصيرٍ فحسب». وبينما كان روبرت يفتح المصراعين الحديديّين الثقيلين، فكَّر في أنَّ الممثِّلات اللاتي يقلن في أثناء زياراتهنَّ: «إنَّ رجال الشرطة لديكم رائعون»، فإنَّما هنَّ يعرفن نصف الحقيقة فقط. عاد يركب السيَّارة التي قادها هالام على المسار المستقيم القصير، ثمَّ التفَّ مع الطريق الدائريِّ ليصل إلى الباب. لمَّا ترجَّل روبرت من السيَّارة، اقتربت ماريان من زاوية المنزل، مرتديةً قفَّازَي البستنة وتنُّورةً

قديمةً جدّاً. تطاير شعرها عن جبهتها بفعل الريح، فتغيَّر لونه الداكن إلى لونٍ دخانيٍّ خفيف. ومع تفتُّح الصيف، منحت الشمس لوناً أكثر سمرةً لبشرتها، فبدت أشبه بالغجريَّات أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لم يتسنَّ لها الوقت لتضبط تعابيرها أمام مجيء روبرت المفاجئ، فأشرق وجهها عند رؤيتها له إشراقةً تسارع لأجلها نبض قلبه.

قالت: «يا للروعة! ما زالت أمِّي تأخذ قيلولتها، لكنَّها ستنزل عمَّا قريب، ويمكننا أن نشربَ بعض الشاي. أنا...»، وقعت نظراتها على هالام، وغاب صوتها في حيرته، «مساء الخير أيُّها المفتِّش».

«مساء الخير آنسة شارب. أعتذر عن قطع استراحة والدتك، لكن لعلَّك تطلبين إليها النزول. فالأمر مهمٌّ».

تردَّدت للحظة، ثمَّ قادتهما إلى الدَّاخل. «أجل، بالطبع. هل هناك أيُّ -تطوّرٍ في الأمور؟ تفضَّل بالجلوس». قادتهما إلى غرفة الاستقبال، التي كان قد عرفها جيِّداً الآن -المرآة اللطيفة، والمدفأة الكريهة. والكرسيّ المزخرف (والتحف) الجميلة. والسجَّادة الورديَّة العتيقة التي شحب لونها فصار رماديّاً مغبرّاً- ووقفت هناك، تتفحَّص وجهيهما، وتستشعر الخطر الجديد المنبعث في الأجواء.

«ما الأمر؟». سألت روبرت.

لكنَّ هالام أجاب: «أظنُّ أنَّ الأمر سيكون أسهل لو أحضرتِ السيِّدة شارب وأخبرتكما بالأمر في الوقت نفسه».

«أجل. أجل. بالتأكيد»، وافقت. واستدارت لتمضي، لكن لم يكن ثمَّة داعٍ لذلك، إذ دخلت السيِّدة شارب الغرفة، تماماً مثلما فعلت في المرَّة السابقة عندما كان هالام وروبرت هناك معاً، وقد انتصبت شعيراتها البيض القصيرة من أثر النوم على الوسادة، وعيناها النورسيَّتان تشعَّان تساؤلاً.

قالت: «ثمَّة صنفان من الناس فقط ممَّن تصل سيَّاراتهم من دون أن تحدث ضجيجاً؛ الأثرياء من أصحاب الملايين ورجال الشرطة. وبما أنَّنا لا نعرف أحداً من الصنف الأوَّل -ونوسِّع معارفنا في الصنف الثاني- فقد استنتجت أنَّ بعض معارفنا قد وصلوا».

«أخشى أنَّني لست موضع ترحيبٍ اليوم أكثر من المعتاد. سيِّدة شارب، لقد أتيت لأقدِّم لكما أمر استدعاءٍ لك وللآنسة شارب».

«أمر استدعاء؟»، قالت ماريان وقد اعترتها الحيرة.

«أمر استدعاءٍ إلى محكمة الشرطة صباح الاثنين، للإجابة عن اتِّهامٍ بالخطف والاعتداء». كان واضحاً أنَّ هالام لم يكن سعيداً.

«لا أصدِّق هذا»، قالت ماريان ببطء، «لا أصدِّق هذا. أتعني أنَّكم تتَّهموننا بهذه الأشياء؟».

«أجل سيِّدة شارب».

«لكن كيف؟ لماذا الآن». التفتت إلى روبرت.

قال روبرت: «يعتقد رجال الشرطة أنَّ لديهم دليل الإثبات الَّذي ينقصهم».

«أيّ دليل؟». سألت السيِّدة شارب، في أوَّل ردِّ فعلٍ لها حيال ذلك.

«أظنُّ أنَّ الأفضل أن يسلِّمكما المفتِّش هالام أمْرَي الاستدعاء، ويمكننا مناقشة الوضع مطوَّلاً بعد مغادرته».

«تقصد أنَّ علينا القبول بذلك؟»، قالت ماريان، «المثول أمام محكمةٍ عامَّة -وأمِّي أيضاً- للإجابة عن- لتوجيه تهمةٍ كهذه إلينا؟».

«أخشى أن لا خيار أمامنا».

بدا نصفها خائفاً من قصوره، ونصفها الآخر مستاءً من تقاعسه عن نصرتها. وبينما كان هالام يسلّمها الوثيقة بيدها، بدا أنّه أدرك نصفها الآخر؛ واستاء منه بدوره.

«وأظنُّ أنَّ من واجبي إخبارك، في حال لم يفعل هو، أنّه لولا تدخُّل السيِّد بلير لكانت الوثيقة مذكِّرة توقيف، لا أمر استدعاءٍ فحسب. ولَنمتما الليلة في زنزانةٍ بدل أن تناما في سريريكما. لا تتعبي نفسك آنسة شارب: أعرف طريق الخروج».

كان روبرت يراقب رحيله، مستحضراً في ذاكرته معاملة السيِّدة شارب له بازدراء حين ظهر في هذه الغرفة أوّل مرَّة. وفكَّر في أنَّ اللُّعبة الآن قد انتهت بالتعادل.

سألته السيِّدة شارب: «هل هذا صحيح؟».

«كلَّ الصحَّة»، قال روبرت، وأخبرها عن وصول غرانت لاعتقالها، «لكن لست أنا من يستحقُّ الشكر على نجاتكما من الاعتقال، وإنَّما السيِّد هيسلتاين العجوز من المكتب». ووصف لهما كيف تصرَّف عقل الكاتب القانونيِّ الهرم بتلقائيَّةٍ أمام محفِّزٍ من النوع القانونيِّ.

«وما الدليل الجديد الذي يعتقدون أنّه معهم؟».

«لديهم دليلٌ سليم»، قال روبرت بجفاف، «لا يحتاج إلى التفكير فيه». وأخبرهما عن ركوب الفتاة على طريق لندن عبر مينشيل. «ويؤكِّد هذا أنَّ شكَّنا كان في محلِّه دوماً: أي أنَّ الفتاة كانت ذاهبةً في موعد، عندما غادرت شارع شيريل متظاهرةً بأنّها عائدةٌ إلى المنزل. غير أنَّ الدليل الثاني أخطر من الأوّل. سبق أن أخبرتِني عن امرأةٍ -فتاةٍ- من المزرعة تأتي مرَّةً في الأسبوع للتنظِّيف لكما».

«نعم. روز غلين».

«أفهم أنَّها لم تعد تأتي منذ أن انتشرت الأقاويل».

«منذ أن انتشرت الأقاويل...؟ تعني فيما يتعلَّق بقصَّة بيتي كين؟ آه، إنَّها مطرودةٌ من العمل قبل أن تحدث تلك القصَّة».

قال روبرت بحدَّة: «مطرودة؟».

«نعم. لِمَ أنت مستغرب إلى هذا الحدِّ؟ فطرد الخادمات ليس أمراً غريباً عن التوقُّع بحسب تجربتنا مع العمالة المنزليَّة».

«لا. لكن في هذه القضيَّة، فإنَّ ذلك يحتمل تأويلاتٍ كثيرة. ولم طردتِها؟».

«للسرقة». قالت السيِّدة العجوز.

وأضافت ماريان: «لم تُترَك حقيبةٌ أمامها من دون أن تنشُلَ منها شِلناً أو اثنين. لكنَّ حاجتنا إلى المساعدة أرغمتنا على التغاضي عن ذلك وإبعاد الحقائب وأيّ شيءٍ آخرَ قد تنشله، كالجوارب، مثلاً، عن متناولها. ثمَّ سرقت ساعتي التي كانت لديَّ منذ عشرين عاماً. خلعتها من يدي لأغسل بعض الأشياء -فأنت تعرف أنَّ الصابون يصل إلى ذراعَي المرء- ولمَّا بحثت عنها لم أجدها. سألتها عنها فقالت إنَّها لم ترَها طبعاً. ذاك كان كثيراً جدّاً، فتلك السَّاعة كانت جزءاً منِّي، مثل شعري وأظافري. لم يكن بالإمكان استعادتها، فنحن لا نملك دليلاً على أنَّها هي مَن أخذتها. لكنَّنا تحدَّثنا بشأنها بعد رحيلها، وفي الصباح التالي ذهبنا إلى المزرعة وقلنا إنَّنا لم نعد نحتاج إليها بعد الآن. كان ذلك يوم ثلاثاء -فهي تأتي أيَّام الاثنين دائماً-، ولمَّا صعدت أمِّي بعد ظهر ذاك اليوم لتأخذ قيلولتها، وصل المفتِّش غرانت ومعه بيتي كين في السيَّارة».

«فهمت، هل كان هناك أحدٌ آخر في المزرعة عندما قلتما للفتاة بأنَّها قد طُردت؟».

«لا أذكر. لا أظنُّ ذلك. هي ليست من المزرعة -أعني ليست من أسرة ستابلز. فهم أشخاصٌ رائعون. إنَّها واحدةٌ من بنات العمَّال. وحسبما أذكر فقد التقيناها خارج كوخهم. وذكرنا ذلك من جملة الحديث».

«وكيف تلقَّت الخبر؟».

«احمرَّ وجهها وغضبت قليلاً».

قالت السيِّدة شارب: «لقد أصبحت بلون الشمندر، وانتفضت مثل ديكٍ روميٍّ. لماذا تسأل عنها؟».

«لأنَّها ستشهد تحت القسَم بأنَّها سمعت صرخاتٍ من العلّيَّة عندما كانت تعمل هنا».

قالت السيِّدة شارب متفكِّرة: «ستفعل ذلك حقّاً!».

«والأسوأ من ذلك أنَّ ثمَّة دليلاً على أنَّها تكلَّمت عن الصراخ قبل أن تظهرَ الأقاويلَ بشأن مأزق بيتي كين».

حلَّ الصمت مطبقاً في إثر ذلك، وشعر روبرت مرَّةً أخرى كم كان المنزل هادئاً، كم كان ميتاً. حتَّى السَّاعة الفرنسيَّة على رفِّ الموقد كانت صامتة. تطايرت الستارة إلى الدَّاخل في هبَّة ريح، وعادت لتستقرَّ في مكانها بصمتٍ كما لو أنَّها تتحرَّك في فيلم.

قالت ماريان أخيراً: «هذا ما يُعرف بالمواجهة».

«أجل، بالتأكيد».

«مواجهةٌ لكَ أيضاً».

«أجل، مواجهةٌ لنا».

«لا أقصد من الناحية المهنيَّة».

«لا؟ كيف إذاً؟».

«أنت تواجه احتمال أنَّنا كاذبتان».

«حقّاً ماريان!»، قالها بنفاد صبرٍ وقد ناداها باسمها الأوّل من دون أن ينتبه إلى ذلك، «إن كنت أواجه شيئاً حقّاً، فإنَّما أواجه الاختيار بين كلامك وكلام أصدقاء روز غلين».

غير أنَّها لم تكن مصغيةً كما كان يظهر عليها. قالت بانفعال: «آهٍ، كم أتمنَّى لو أنَّ لنا دليلاً صغيراً، دليلاً واحداً فقط لصالحنا! إنَّها تنجو بفعلتها! تلك الفتاة تنجو بفعلتها من كلِّ النواحي، كلّ النواحي! ونحن نستمرُّ في قول 'إنَّ هذا غير صحيح' لكن ليس في أيدينا ما يثبت أنَّه غير صحيح. كلّه ضدّنا، كلّه غير قطعيّ، كلّه إنكارٌ ضعيف، تجتمع الأمور التي تدعم كذبتها، لكن لا شيء يحدث ليثبتَ أنَّنا نقول الحقيقة، لا شيء!».

«اجلسي يا ماريان»، قالت أمُّها، «فنوبة الغضب لن تغيِّر الأمور نحو الأحسن».

«لو أمكنني قتل تلك الفتاة. لو أمكنني قتلها -يا إلهي لو أمكنني أن أعذِّبها مرَّتين يوميّاً طيلة عامٍ كاملٍ وعند حلول رأس السنة الجديدة سأعاود تعذيبها. عندما أفكِّر في ما فعلت بنا...».

«لا تفكِّري...»، قاطعها روبرت، «بل فكِّري في اليوم الذي ستنكشف فيه كذبتها في محكمةٍ علنيَّة. إن كنت أعرف شيئاً عن الطبيعة البشريَّة، فأنا أعرف أنَّ هذا سيؤلم الآنسة كين بشدَّةٍ أكثر ممَّا يمكن أن يؤلمها ضرب أحدهم لها».

قالت ماريان متشكِّكةً: «أما زلت واثقاً بأنَّ هذا ممكن؟».

«أجل. لا أعرف كيف سنصل إلى هذا، لكنَّني أثق تماماً أنَّنا سنصل إليه».

«حتَّى من دون أن يكون في حوزتنا أيُّ دليل، ولا حتَّى دليلٍ واحد، في حين تتفتَّح الأدلَّة في دربها -هكذا ببساطة؟».

«نعم -حتَّى في تلك الحال».

«هل هذا تفاؤلٌ طبيعيٌّ سيِّد بلير؟»، سألت السيِّدة شارب، «أو أنَّه إيمانك الفطريّ بانتصار الخير، أو ماذا؟».

«لا أدري. أعتقد أنَّه لا يصحُّ إلَّا الصحيح».

قالت بنبرةٍ جافَّة: «لكنَّ دريفوس[51] لم يجد أنَّ الصحيح يصحُّ، ولا سلاتر، ولا أيّاً من أولئك الذين وُجِّهت إليهم الاتِّهامات».

«لكنَّ ذلك حصل في النهاية».

«حسناً. بصراحة، أنا لا أتطلَّع إلى حياةٍ في السجن في انتظار أن يصحَّ الصحيح».

«لا أعتقد أنَّ الأمور ستصل إلى هناك. أعني إلى السجن. سيكون عليك الحضور يوم الاثنين، وبما أنَّنا لا نملك دفاعاً كافياً فستجري إحالتك إلى المحاكمة من دون شكٍّ. لكنَّنا سنطالب بإطلاق سراحٍ مشروطٍ بالكفالة، وهذا يعني أنَّك ستبقين هنا إلى أن تُحال الدعوى إلى المحكمة الجنائيَّة في نورتون. وآمل أن يتمكَّن آليك رامسدن من اقتفاء أثر الفتاة قبل أن تصيرَ الأمور إلى ذلك. تذكَّري أنَّنا غير مضطرِّين إلى معرفة ما كانت تفعله طيلة الشهر. كلُّ ما علينا إظهاره هو أنَّها كانت تفعل شيئاً آخرَ في اليوم الذي قالت إنَّك أوصلتها بسيَّارتك. وما إن يؤخذ الجزء الأوَّل من حكايتها فستنهار تلك الحكاية برمَّتها. وإنِّي لأطمح أن يحدث هذا في العلن».

51 قضيّة دريفوس: صراعٌ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ حدث أواخر القرن 19 في الجمهوريّة الفرنسيّة الثالثة. واتهم النقيب ألفريد ديفروس بالخيانة. وقضيّة دريفوس رمزٌ للظلم في فرنسا. المترجمة.

«لتفضحها على الملأ كما فضحتنا صحيفة (آك إيما)؟ أتظنُّ أنَّها ستكترث لذلك؟»، قالت ماريان، «أن تكترث مثلما اكترثنا؟».

«بعد أن كانت بطلة نبأ مثيرٍ في صحيفة، ناهيك بالمكانة القديرة التي تتمتَّع بها الأسرة المُحبَّة والمتعاطفة، أتنكشف بعد ذلك أمام الناس ككاذبةٍ وغشَّاشةٍ ولعوب؟ أظنُّ أنَّها ستكترث. وهناك شيءٌ واحدٌ تكترث له تحديداً، وهو أنَّ إحدى نتائج هروبها أنَّها حظيت باهتمام ليزي وين بها من جديد؛ اهتمامه الذي خسرته عند خطوبته، وستبقى مستحقَّةً لهذا الاهتمام طالما أنَّها بطلةٌ مظلومة. وما إن ينكشف أمرها، فستخسره إلى الأبد».

قالت السيِّدة شارب: «لم يخطر لي أنَّ اللطف والتعاطف يجريان في عروقك الرقيقة سيِّد بلير».

«إن هي هربت كردِّ فعلٍ منها على خطبة ا[illegible] -وهذا مرجَّحٌ جدّاً بالنسبة إليها- فلا يعنيني إلَّا أن أشفقَ عليها. إنَّها في سنٍّ حرجة، ولا بدَّ أنَّ خطوبته كانت بمنزلة صدمةٍ لها. لكنَّني لا أظنُّ أنَّ لذلك شأناً كبيراً بالأمر. أظنُّ أنَّها ابنة أمِّها، وأنَّها تسير على خطاها نفسها، غير أنَّها بدأت في ذلك مبكِّرةً قليلاً. أنانيَّةٌ وشهوانيَّةٌ وجشعةٌ وسطحيَّةٌ مثل السلالة التي انحدرت منها. يجب أن أذهبَ الآن. قلت إنَّني سأكون في المنزل بعد السَّاعة الخامسة، في حال أراد رامسدن أن يتَّصلَ بي ليخبرني بالتقرير. وأريد أن أتَّصل بكيڤين ماكديرموت وأطلب معونته ومشورته وأشياء».

«أخشى أنَّنا -بل أنَّني- قد كنت فظَّةً في هذا»، قالت ماريان، «فقد فعلتَ وما زلتَ تفعل لنا الكثير. لكنَّها كانت صدمة كبيرة. حدثت على حين غفلةٍ منَّا ومن دون أن نتوقَّعها. لا بدَّ أن تسامحني إن...».

«لا شيء يستدعي المسامحة. أظنُّ أنَّكما تعاملتما مع الأمر على نحوٍ جيِّد.. هل لديكما أحدٌ آخر ليتولَّى مكان روز، تلك الكاذبة التي ستشهد

زوراً عمَّا قريب؟ إذ لا يمكنكما القيام بمهام هذا المكان الكبير الواسع بمفردكما».

«حسناً. لن يأتي أحدٌ من الجوار بالطبع، لكنَّ ستانلي -وماذا كنَّا سنفعل من دون ستانلي؟- ستانلي يعرف امرأةً في لاربورو قد تقتنع بالمجيء إلى هنا بالحافلة مرَّةً في الأسبوع. حينما تلحُّ عليَّ فكرة تلك الفتاة كثيراً أتذكَّر ستانلي».

«أجل»، قال روبرت مبتسماً، «إنَّه من خيار الناس».

«حتَّى إنَّه يعلِّمني كيف أطبخ. الآن أعرف كيف أقلب البيض في المقلاة من دون أن أوقعه. سألني «أتعرفين كيف تطهينه كما لو أنَّك تقودين أوركسترا؟»، ولمَّا سألته كيف أصبح بهذه البراعة، قال إنَّ الأمر يتعلَّق 'بالطهو في مساحة نصف مترٍ مربَّع'».

سألت السيِّدة شارب: «كيف ستعود إلى ميلفورد؟».

«ستقلُّني حافلة ما بعد الظهر، القادمة من لاربورو. لا توجد أخبارٌ عن إصلاح هاتفكما بَعدُ كما يفترض؟».

نظرت كلتا السيِّدتين إلى السؤال على أنَّه تعليقٌ وليس استفهاماً. تركته السيِّدة شارب في غرفة الاستقبال، لكنَّ ماريان سارت برفقته إلى البوَّابة. لمَّا قطعا دائرة العشب المحاطة بالمسار المتفرِّع، قال: «من الجيِّد ألَّا تكون أسرتك كبيرة، وإلَّا لشوَّهت آثار الأقدام العشب وصولاً إلى الباب».

قالت وهي تنظر إلى المسار الغائر في العشب: «إنَّه في هذه الحال، إذ يتطلَّب السير في هذا المنحنى غير الضروريِّ طاقاتٍ تفوق الطبيعة البشريَّة».

لغو، كان يفكِّر في أنَّه لغو. كلماتٌ فارغةٌ فحسب كي تستر عري الموقف. بدا شجاعاً ودقيقاً في حديثه عن الصحيح الذي لا بدَّ أن يصحَّ

في النهايـة، لكـن إلى أيِّ حـدٍّ بـدا ذلـك صادقـاً؟ فـما هـي احتـمالات عـودة رامسـدن بدليـلٍ في الوقـت المناسـب للمحكمـة يـوم الاثنـين؟ في الوقـت المناسـب للمحكمـة الجنائيَّة؟ احتـمالاتٌ ضئيلـةٌ، أليس كذلـك؟ وحريٌّ به أن يعتـاد الفكرة.

عند الخامسة والنصف، اتَّصل رامسدن ليعطيه التقرير الموعود. وقد كانت واحدة من الفاشلات غير المؤهَّلات، إذ أخفقت الفتاة التي كان يبحث عنها في تعرُّف الرّجل كنزيلٍ في فندق (ميدلاند)، وبذلك فإنَّه لم يحصل على أيِّ معلوماتٍ عنه. ولم يجد لها أيَّ أثرٍ هي الأخرى في أيِّ مكان. فقد أعطى رجاله نسخاً عن الصورة، وتولَّى معهم إجراء تحرِّياتٍ في المطارات ومحطَّة السكك الحديديَّة ووكالات السفر والفنادق الأكثر أرجحيَّةً. لم يزعم أحدٌ أنَّه رآها. لقد مشَّط لاربورو بنفسه. وقد تفاءل قليلاً عندما اكتشف أنَّ التعرُّف إليها من خلال الصورة التي أُعطيت له كان سهلاً، ففي الأماكن التي ذهبت إليها بيتي كين فعلاً عُرفت على الفور. في اثنتين من دور السينما الرئيسة مثلاً -بحسب معلومات الفتيات في شبَّاك التذاكر، فقد كانت الفتاة وحدها على الدوام- وفي حمَّام السيِّدات في محطَّة الحافلات. جرَّب كلَّ مرآب، إلَّا أنَّه لم يخرج منها بشيء.

قال روبرت: «نعم. لقد تتبَّعتها من موقف الحافلة على طريق لندن المارّ في مينشيل، حيث تذهب عادةً لتركب حافلتها العائدة إلى البيت». وأخبر رامسدن بالتطوّرات الجديدة. «لذا، فالأمور باتت ملحَّةً الآن حقّاً. ستُحضَران يوم الاثنين. لو أمكننا أن نثبت فقط ما الذي كانت تفعله في الأمسية الأولى، فإنَّ ذلك كفيلٌ بالإطاحة بقصَّتها كلِّها».

«ما نوع تلك السيَّارة؟». سأل رامسدن.

وصفها له روبرت، فأطلق رامسدن تنهيدةً مسموعةً عبر الهاتف.

وافقه روبرت: «نعم، توجد قرابة عشرة آلافٍ منها بين لندن وكارلايل. سأترك الأمر لك. أريد أن أتّصل بكيڤين ماكديرمونت لأخبره بمصائبنا».

لم يكن كيڤين في المكتب ولا في شقّة ساحة كنيسة القدّيس بولس، وفي نهاية المطاف تمكّن روبرت من العثور عليه في منزله بالقرب من ويبردج. بدا مرتاحاً ولطيفاً، وقد اهتمّ على الفور عندما سمع أنباء الأدلّة التي حصلت عليها عناصر الشرطة. استمع دون أن يُبدي أيّ ملاحظة، في حين كان روبرت يسرد له الحكاية.

«وكما ترى يا كيڤين»، أنهى روبرت حديثه، «إنّنا في مأزقٍ مروّع».

«هذا وصف تلميذٍ في المدرسة»، قال كيڤين، «لكنّه دقيقٌ جدّاً. نصيحتي لك أن ‹تعطيهم› محكمة الشرطة، وأن تصرَّ على المحاكمة الجنائيّة».

«ألا يمكنك المجيء في عطلة نهاية الأسبوع يا كيڤين لأتكلّم معك عن ذلك؟ كانت العمّة لين تقول أمس إنّ ستّ سنواتٍ مرّت منذ آخر ليلةٍ قضيتها عندنا. وبهذا فقط تأخّرت عن موعدك في كلّ حال. ألا يمكنك المجيء؟».

«لقد وعدت شون أن أصحبه إلى نيوبيري لاختيار مهرٍ يوم الأحد».

«لكن، ألا يمكنك تأجيل ذلك؟ أنا على يقينٍ من أنّ شون لن يمانع إن كان السبب وجيهاً».

«شون!»، قال أبوه الفخور به، «إنّه لا يكترث لأيّ سببٍ ما دام لا يصبُّ في مصلحته مباشرةً. فهذا الشبل من ذاك الأسد. إن أتيت، فهل ستعرّفني إلى ساحرتيك؟».

«بالطبع».

«وهل ستصنع لي كريستينا بعض فطائر الزُّبد؟».

«بكلِّ تأكيد».

«وهل سأحصل على الغرفة التي فيها اللَّوحة الصوفيَّة؟».

«كيڤين، هل ستأتي؟».

«حسناً. إنَّ ميلفورد بلدةٌ كئيبةٌ، إلَّا في الشتاء» -كانت تلك إشارة إلى الصيد، فعينُه التي تنظر إلى البلدة لا تراها إلَّا من على ظهر حصان- «وقد كنت أتوق إلى ركوب الخيل في أوقات الغروب يوم الأحد. لكنَّ خلطةً من السحَرَة وفطائر الزُّبد وغرفة النوم مع لوحةٍ من الصوف ليست عرضاً قليلاً».

ولَّما أوشك أن ينهيَ المكالمة، توقَّف كيڤين لوهلةٍ وقال: «أقول روب».

قال روبرت: «نعم؟»، وانتظر.

«هل فكَّرت في أن يكون رجال الشرطة على صواب؟».

«تقصد احتماليَّة أن تكون قصَّة الفتاة السخيفة صحيحة؟».

«أجل. هل تضع هذا في الحسبان -أعني مجرَّد احتمال؟».

«لو أنَّني كذلك، لما كنت...». بدا روبرت غاضباً، ثمَّ ضحك، وقال: «تعالَ لمقابلتهما».

«أنا آتٍ. آتٍ». أكَّد له كيڤين، وأغلق الخطَّ.

اتَّصل روبرت بالمرآب، ولَّما ردَّ عليه بيل سأله إن كان ستانلي لا يزال هناك.

قال بيل: «غريبٌ أنَّك لا تسمع صوته وقد وصل إليك».

«ما المشكلة؟».

«لقد كنَّا نخلِّص توّاً مُهْر مَاتْ إيليس من حفرة فحص السيَّارات. هل أردت ستان؟».

«ليس لأكلِّمه. هلَّا تكرَّمت وطلبت إليه أن ينقلَ رسالةً إلى السيِّدة شارب وهو في طريقه إليهما الليلة؟».

«أجل بالتأكيد. أقول سيِّد بلير، هل حقّاً ثمَّة مأزقٌ جديد بشأن قضيَّة فرانشايز -أو أنَّ عليَّ ألَّا أسأل؟».

فكَّر روبرت كيف يفعلون هذا في ميلفورد؟ كيف تنتشر المعلومات فيها كما تنشر الرّياح ذرَّات الغبار؟

قال: «نعم، أخشى أنَّ ثمَّة مأزقاً. أتوقَّع أنَّهما ستخبران ستانلي بالأمر عندما يذهب الليلة إلى هناك. لا تدعه، ينسَ أمر الرسالة، اتفقنا؟».

«لن أدعه. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام».

كتب إلى منزل فرانشايز ليخبرهما أنَّ كيڤين ماكديرموت آتٍ ليلة السبت، وإن كان بإمكانه المجيء بصحبته ليلتقيهما بعد الظهر من يوم الأحد، قبل أن يقفل عائداً إلى المدينة؟

-16-

في المساء التالي، وبينما كان نيڤيل وروبرت ينتظران الضيف ريثما يغسل يديه وينزل إلى العشاء، سأل نيڤيل: «هل يجب أن يظهر كيڤين ماكديرموت بمظهر السمسار كلّما أتى إلى البلدة؟».

يرى روبرت أنَّ مظهر كيڤين في الملابس الريفيَّة قد بدا كمتدرِّب قفزٍ حقيرٍ في المباريات المصغَّرة. لكنَّه أمسك نفسه عن البوح بذلك لنيڤيل، وقد شعر أنَّ نيڤيل في وضعٍ لا يخوّله انتقاد ذوق أحدٍ ما، مستحضراً ثيابه التي أتحف الريف بها في السنوات القليلة الماضية، وقد حضر نيڤيل العشاء مرتدياً بدلةً لا تشوبها شائبة، رماديَّة قاتمة وبسيطة، حسب الطراز التقليديِّ، وبدا أنَّه يفكِّر في أنَّ التزامه الجديد إنَّما يتيح له نسيان التجربة التي عاشها في ماضيه القريب.

«أفترض أنَّ كريستينا غارقة كالعادة في رغوة الأحاسيس».

«في رغوة بياض البيض حسب تقديري».

نظرت كريستينا إلى كيڤين بأنَّه 'الشيطان بعينه'، وقد كانت تعشقه. وليست نظراته هي ما يوحي بخصاله الشيطانيَّة -مع أنَّ مظهر كيڤين يشبه الشيطان فعلاً-، وإنَّما 'دفاعه عن الفاسدين في سبيل الحصول على ربحٍ دنيويٍّ' هو ما يوحي بتلك الخصال. كانت تعشقه لأنَّه حسن المظهر، ولأنَّه مذنبٌ يمكن إعادته إلى جادَّة الصواب، ولأنَّه يُثني على مخبوزاتها.

«آمل في أن تكون (سوفليه) وليست حشوة (مرينغ). أتظنُّ أنَّ بالإمكان استدراج ماكديرموت إلى النزول لأجل الدِّفاع عنهما في محكمة جنايات نورتون؟».

«لا أظنُّه متفرِّغاً لهذا، حتَّى وإن كان مهتمّاً. لكنَّني آمل أن يأتي أحد أعوانه».

«وقد سلَّحه ماكديرموت».

«هذه هي الفكرة».

«إنَّني لا أفهم حقّاً لماذا يجب أن تُنهك ماريان نفسها في تحضير الغداء لماكديرموت. ألا يدرك أنَّها ستضطرُّ إلى تحضير وترتيب وتنظيف كلِّ شيء، ناهيك عن هدر يومٍ كامل فقط لأجل نقل الأغراض من ذاك المطبخ العتيق وإليه».

«لقد كانت ماريان هي صاحبة فكرة مجيئه لتناول الغداء معهما. أظنُّها ترى أنَّ كلَّ شيء يهون في سبيل الخلاص من المأزق الإضافيِّ».

«لطالما كنتَ مفتوناً بكيڤين، وإنَّك، ببساطة، لا تعرف كيفيَّة الشروع في تقدير امرأةٍ مثل ماريان. إنَّه لمن... من المعيب أن تهدر امرأة مثلها طاقتها في سبيل الأعمال المنزليَّة الشاقَّة. عليها أن تشقَّ طريقها في الأدغال، أو في التدرُّج على المنحدرات، أو في السيطرة على شعبٍ بربريٍّ، أو في إحصاء الكواكب، وعشرة آلاف حمقاء شقراء يلفّهنَّ فرو (المنك) وليس لديهنَّ ما يشغلنَ أنفسهنَّ به سوى الجلوس لتغيير لون طلاء أظافرهنَّ المتوحِّشة، في حين تنقل ماريان الفحم. فحم! ماريان! بانتهاء قضيَّتهما لن يبقى لديهما فلس واحد لتعطياه للخادمة، هذا في حال تمكَّنتا من تشغيل واحدةٍ».

«دعنا نأمل أنَّهما بانتهاء قضيَّتهما لن يُحكم عليهما بالأشغال الشاقَّة».

«لا يمكن أن تصلَ الأمور إلى هناك يا روبرت، لا يمكن تصوُّر ذلك».

«نعم، لا يمكن تصوُّره. أفترض دائماً أنَّ دخول أيِّ أحد تعرفه إلى السجن هو أمرٌ لا يُصدَّق».

«يكفيهما من الأسى أنَّهما ستدخلان قفص الاتِّهام. ماريان. التي لم يسبق لها اجتراح أذيَّةٍ أو مكرٍ أو حقارةٍ في حياتها. فقط لأنَّها - أتدري؟ لقد قضيتُ وقتاً طيِّباً تلك الليلة. عثرت على كتابٍ عن التعذيب، وبقيت مستيقظاً إلى الساعة الثانية وأنا أختار الأسلوب المناسب الذي سأتَّبعه مع كين».

«يجب أن تختاره مع ماريان. فهذا طموحها أيضاً».

«وأنت، ماذا ستختار؟»، سكنت نبرتَه لمحةُ ازدراءٍ طفيف، يُفهم من خلالها أنَّ روبرت الضعيف لا يحمل مشاعرَ جادَّة بشأن الموضوع، «أم أنَّك لم تفكِّر في ذلك؟».

«لست في حاجةٍ إلى التفكير فيه»، قال روبرت ببطء، «سأعرِّيها على الملأ».

«ماذا؟».

«ليس بتلك الطريقة. سأجرِّدها من كلِّ خرقة من الزِّيف في محكمةٍ علنيَّةٍ، ليروها جميعاً على حقيقتها».

نظر إليه نيڤيل بفضولٍ للحظة. ثمَّ قال بهدوء: «آمين. لم أدرِ أنَّك تشعر هكذا حيال الأمر روبرت». كان سيضيف شيئاً لو لا أنَّ الباب قد فُتح ودخل عبره ماكديرموت، وبدأت الأمسية.

بينما كانوا جميعاً يتناولون عشاء العمَّة لين اللائق، تمنَّى روبرت ألَّا يكون قد أخطأ في اصطحاب كيڤين يوم الأحد لتناول الغداء في منزل فرانشايز. تملَّكه قلقٌ شديد من إمكان إنجاح أمر أسرة شارب مع كيڤين،

إذ لا ينكر أحدٌ أنَّ كيڤين شخص مزاجيٌّ، وأنَّ أسرة شارب ليست موضع قبول لدى كلِّ الناس. هل يُعقل أن يأتي الغداء في منزل فرانشايز بالمنفعة على القضيَّة؟ غداءٌ طهته ماريان؟ لأجل الذوَّاقة كيڤين؟ أبهجتْه مبادرتها بادئ الأمر، حينما قرأ الدعوة التي سلَّمه إيَّاها ستانلي هذا الصباح، غير أنَّ الشكَّ بدأ يتنامى داخله. يخلف الإتقان نظيره في سلسلة وئيدة فوق طاولة العمَّة لين اللامعة من خشب الماهوجني، ويرفرف وجه كريستينا الرَّحب تحت ضوء الشمع متلهِّفاً للعطاء، فيما تفاقم الشكُّ فيه إلى أن ملك عليه نفسه تماماً. فلربَّما ملأت «الأشكال التي تصنعها ولا ترتفع» صدره بعاطفةٍ دافئةٍ وآمنة، لكن يكاد يمكن أن يكون لها التأثير نفسه في كيڤين.

وفكَّر روبرت في أنَّ كيڤين قد بدا سعيداً هنا في الأقلِّ، وهو يصغي إلى الحُبِّ الصريح الذي يبديه ماكديرموت للعمَّة لين، وإلى الكلمات التي ينثرها لكريستينا بين حينٍ وآخر كي يبقيها سعيدة ومخلصة. يا إله السموات! يا للأيرلنديين! كان نيڤيل في قمَّة لباقته، كلُّه انتباهٌ وإصغاء، وبين الفينة والأخرى يخاطبه بلفظة «سيِّدي» تخرج خافتةً بما يكفي ليشعرَ كيڤين بفوقيَّته، لكن ليس بما يكفي ليشعرَ بتقدُّم سنِّه. في الواقع، إنَّه النمط الإنجليزيُّ الأمثل للإطراء. كانت العمَّة لين مثل فتاة متورِّدة الخدَّين ومتوهِّجة، تمتصُّ المغازلات كالإسفنجة، ثمَّ تخضعها لعمليَّةٍ كيميائيَّةٍ تسكبها مجدَّداً وكأنَّها سحر. مُصغياً إلى حديثها، كان روبرت مستمتعاً باكتشافه التغيير الجذريَّ الذي طرأ على تفكيرها بخصوص أسرة شارب. فبمجرَّد تعرُّضهما لخطر السّجن، ارتقتا من كونهما «أولئك الناس» إلى «مخلوقاتٍ بائسة»، ولا شأن لحضور كيڤين بهذا الأمر، وإنَّما هو مزيج من اللطف الأصيل والتفكير المشوَّش.

اعتقد روبرت، وهو ينظر حول المائدة، أنَّه لمن دواعي الغرابة أن تنعقد هذه السهرة الأسريَّة -المبهجة والدَّافئة والمطمئنة للغاية- بسبب الحاجة

الملحَّة التي تنشدها السيِّدتان القابعتان في ذلك المنزل الصامت المحفوف بالحقول إلى ما لانهاية.

ذهب إلى النوم ولا يزال محاطاً بهالة السهرة الدافئة، لكنَّ قلقاً قارساً وألماً سكنا في قلبه. هل هم نيامٌ هناك في منزل فرانشايز؟ وهل حصلوا على كفايتهم من النوم في الآونة الأخيرة؟ ظلَّ مستيقظاً لوقتٍ طويل بينما هو مستلقٍ، ثمَّ استيقظ في وقتٍ مبكّرٍ، منصتاً إلى صمت الصباح في يوم الأحد... آملاً في أن يكون يوماً جميلاً -بدا منزل فرانشايز في أسوأ حالاته تحت المطر، وقد استحال الأبيض المتَّسخ رماديّاً تقريباً-، وآملاً في أن 'يرتفع' الصنف الذي صنعته ماريان للغداء، أيّاً كان نوعه. وقبل أن تحينَ الساعة الثامنة، جاءت سيَّارةٌ من الريف، وتوقَّفت عند أسفل النافذة، وأطلق أحدهم صفيراً خفيفاً، في سبيل النداء. كان نداء شركةٍ ما. شركة بي. في الأرجح أنَّه ستانلي. نهض وأطلَّ برأسه من النافذة.

كان ستانلي قابعاً في سيَّارته بلا قبَّعة -لم يسبق له أن رأى ستانلي يعتمر شيئاً على رأسه مطلقاً- ينظر في اتجاهه بتسامح.

قال ستانلي: «أيُّها الخمولون في يوم الأحد».

«هل أيقظتني لتهزأ بي؟».

«لا. أحمل رسالة من الآنسة شارب. تطلب إليك أن تُحضر معك إفادة بيتي كين. وإيَّاك أن تنسى، لأنَّ ذلك في غاية الأهميَّة. أرى أنَّه مهمٌّ حقّاً فهي لم تهدأ في مكانها كما لو أنَّها قد أخرجت مليوناً من باطن الأرض».

قال روبرت غير مصدِّق: «تبدو سعيدة!».

«كما العروس. حقيقةً، لم أرَ في حياتي امرأةً تبدو في مثل تلك الحال منذ أن تزوَّجت ابنة عمِّي بيولا حبيبها بول. كان وجه بيولا مثل البسكويت،

وصدِّقني، لقد بدت في ذلك اليوم كأنَّها ڤينوس وكليوباترا وهيلين من أسطورة طروادة، اجتمعنَ فيها معاً».

«وهل تعرف ما السبب وراء سعادة الآنسة شارب؟».

«لا. رميتُ أمامها بعض تكهُّناتي، لكن يبدو أنَّها تريد أن تخبِّئ ذلك إلى حينه. على كلٍّ، لا تنسَ نسخة الإفادة، وإلَّا فلن تأتي العواقب سليمة. أو ما شابه. فكلمة السرِّ في الإفادة».

تقدَّم ستانلي في طريقه قاصداً جادَّة سين، وأخذ روبرت منشفته وذهب إلى الحمَّام متحيِّراً للغاية. وفي أثناء انتظاره ريثما يجهز الفطور، بحث عن الإفادة بين الأوراق في حقيبته وقرأها إلى نهايتها مرَّةً أخرى، باهتمام آخر. ما الذي تذكَّرته ماريان أو اكتشفته فأسعدها إلى هذه الدرجة؟ من الواضح أنَّ بيتي كين قد أخطأت في مكانٍ ما. كانت ماريان متحمِّسة، وقد أرادته أن يُحضر إفادة كين عندما يأتي. وهذا يعني أنَّ في الإفادة دليلاً في مكانٍ ما يُثبت أنَّ بيتي كين كانت تكذب.

وصل إلى نهاية الإفادة من دون أن يجدَ أيَّ جملةٍ لافتة، فعاود البحث فيها مجدَّداً. ماذا يمكن أن تكون؟ هل قالت إنَّها كانت تمطر -ربَّما- ولم تكن تمطر؟ غير أنَّ ذلك ليس جوهريّاً، ولا حتَّى مهمّاً لأجل مصداقيَّة قصَّتها. إذاً، حافلة ميلفورد؟ تلك التي قالت إنَّها مرَّت بهنَّ حين كانت في سيَّارة أسرة شارب، فهل كان التوقيت مغايراً؟ غير أنَّهم قد تفقَّدوا المواقيت منذ زمنٍ طويل، وكانت مطابِقةً إلى حدٍّ قريب.

‹اللافتة المضيئة› على الحافلة؟ هل كان الوقت مبكراً جدّاً على إضاءتها؟ لكنَّ تلك مجرَّد عثرةٍ في الذاكرة، وليست عاملاً يمكن أن ينقضَ إفادتها.

تمنَّى من كلِّ قلبه ألَّا تكون ماريان قد وقعت تحت وطأة تلهُّفها الشديد للحصول على ‹دليل صغير، دليل واحد فقط› لصالحهما، وأنَّها لم تضخِّم بعض التناقضات التافهة بهدف إثبات الكذب. فاليأس بعد الأمل أسوأ بكثيرٍ من انعدام الأمل كلّيّاً.

كادَ هذا القلق الحقيقيُّ يُذيب من عقله ذلك القلق الاجتماعيَّ بشأن الغداء، وكفَّ عن المبالغة في الاهتمام باستمتاع كيڤين بوجبته في فرانشايز أو عدم استمتاعه بها. ولمَّا سألته العمَّة لين سرّاً، بينما هي تتجهَّز للذهاب إلى الكنيسة: «ماذا تظنُّ أنَّهما ستقدِّمان لكما على الغداء يا عزيزي؟ أكاد أجزم أنَّهما تعيشان على عبوات الرقائق المحمَّصة، تلك ‹المخلوقات البائسة›».

قال باقتضاب: «إنَّهما ذوَّاقتا نبيذٍ بارعتان، ومن شأن هذا أن يُسرَّ كيڤين».

في طريقهما إلى فرانشايز، سأله كيڤين: «ماذا حصل للشابِّ نيڤيل؟».

قال روبرت: «لم يُدعَ إلى الغداء».

«لم أقصد ذلك. بل ماذا حصل للبدلات الصارخة والفروقيَّة وكفاح صحيفة (واتشمان)؟».

«لقد تصادم مع صحيفة (واتشمان) على خلفيَّة هذه القضيَّة».

«آه!».

«هذه المرَّة الأولى التي يكون فيها موقفه من القضيَّة التي تتفاصح فيها صحيفة (واتشمان)، موقفاً مبنياً على معرفةٍ شخصيَّةٍ حقيقيَّةٍ، وقد كان في ذلك شيءٌ من الصدمة له. كما أعتقد».

«هل سيصمد إصلاحه الدينيُّ؟».

«حسناً. أتدري. لن أستغربَ ذلك أبداً. فبعيداً عن كونه قد بلغ سنّاً يتخلَّى فيها الناسِ العاديُّون عن تصرُّفاتهم الصبيانيَّة، وأنَّه قد غدا جاهزاً للتغيير، فإنَّني أظنُّه غارقاً في المراجعة والتساؤل فيما لو أنَّ أشخاص (واتشمان) الأثيرين يستحقُّون المناصرة مثلما تستحقّها بيتي كين، وكوتوڤيتش، مثلاً».

قال كيڤين صراحةً: «هه! الوطنيّ!».

«أجل. في الأسبوع الماضي فقط، كان قادراً على التحدُّث عن واجبنا تجاه كوتوڤيتش، واجبنا في حمايته وتقديره -وأظنُّ في النهاية سيكون من واجبنا منحه جواز سفر بريطانيّاً، أشكُّ في أن يكون اليوم على هذا النحو من السذاجة، فقد نضج في الأيّام القليلة الماضية بطريقة عجيبة. حتَّى إنَّني لم أعرف أنَّ لديه بدلةً كتلك، التي كان يرتديها ليلة البارحة. لا بدَّ أنَّها تلك التي ارتداها لحضور حفل التكريم المدرسيِّ. ولا شكَّ في أنَّه، منذ ذلك الحين، لم يرتدِ شيئاً بذاك الوقار».

«أتمنَّى أن يصمد على تلك الحال من أجلك أنت. فالصبيُّ يتمتَّع بذكاء، وما إنْ يُقلع عن الحركات البهلوانيَّة تلك، فسيكون مكسباً للشركة».

«العمَّة لين حزينة جدّاً لأنَّه انفصل عن روز ماري بسبب قضيَّة فرانشايز، وهي متخوِّفة ألَّا يتزوَّج ابنة مطرانٍ بعد ذلك».

«مرحى! هذا يزيد من قوَّته. لقد بدأتُ أُعجب بالصبيِّ. غَذِّ نار الفرقة يا روبرت -على أن يبدو ذلك عفويّاً- وستراه متزوِّجاً حسناءَ إنجليزيَّة غبيَّة، تنجب له خمسة أطفالٍ يشكِّلون للحيِّ فِرَقاً للتنس في أمسيات السبت الحافلة بتبريكات الولادة. فهذا الغباء أظرف بكثير من الوقوف على المنصَّات والإسهاب في الحديث عن أمورٍ لا تعرف حتَّى شيئاً واحداً عنها. هل هذا هو المكان؟».

«أجل، هذا هو منزل فرانشايز».

«منزلٌ غامضٌ تماماً».

«لمَّا بُني لم يكن منزلاً غامضاً. فالبوَّابة، كما ترى، مشغولة بزخارف حلزونيَّة -بل مشغولة بإبداع أيضاً- بحيث يُرى المكان كلُّه من الشارع، والعمليَّة البسيطة التي حوَّلت المنزل من مجرَّد منزلٍ عاديٍّ إلى منزل محفوفٍ بالأسرار، هي عمليَّة تدعيم تلك البوَّابة بصفائح من حديد».

«في كلِّ الأحوال، هو منزلٌ مثاليٌّ لخدمة هدف بيتي كين. يا له من حظٍّ ذاك الذي حالفها عندما تذكَّرتْه».

كان على روبرت أن يشعرَ بالذنب بعد ذلك؛ لأنَّ ثقته بماريان لم تكن أكبر، سواء فيما يتعلَّق بمسألة إفادة بيتي كين، أم فيما يتعلَّق بالغداء. كان عليه أن يتذكَّر مدى تفتُّح ذهنها وبراعتها في التحليل، وكان عليه أن يتذكَّر مَلَكَة أسرة شارب في تقبُّل الناس كيفما كانوا، وكم لذلك من أثرٍ مريح على هؤلاء الناس. لم تبذل أسرة شارب أيَّ جهدٍ للارتقاء بمستوى الضيافة إلى مستوى العمَّة لين، ولا لتقديم غداءٍ رسميٍّ في غرفة الطعام. فقد جهَّزتا طاولةً لأربعة أشخاصٍ قرب النافذة في غرفة الاستقبال، حيث يصلها ضوء الشمس. الطاولة من خشب الكرز، في غاية الجاذبيَّة لولا أنَّها في حاجةٍ إلى تلميعٍ، يا للأسف، في حين كانت كؤوس النبيذ تلمع كما الماس. يا لماريان التي تصبُّ اهتمامها على الشيء الجوهريِّ، وتتجاهل المظاهر التافهة!

قالت السيِّدة شارب: «غرفة الطعام مكان يثير الكآبة على نحوٍ لا يُصدَّق، تعالَ وانظر إليها سيِّد ماكديرموت».

كان هذا أنموذجيّاً أيضاً. فعوضاً عن الجلوس لاحتساء شراب (شيري)، والخوض في حوارٍ خفيف، «تعالَ وانظر إلى غرفة الطعام

الرهيبة عندنا»، ليجد الزائر نفسه وقد أصبح واحداً من أفراد الأسرة من دون أن يدري.

«أخبريني»، قال روبرت لماريان عندما تُركا بمفردهما، «ما قصَّة هذه الــ...».

«لا. لن أتحدَّث عن ذلك إلَّا بعد الغداء. ستكون تلك القصَّة شرابك المُسَكَّر. لقد وُفِّقتُ توفيقاً مدهشاً جدّاً حينما فكَّرت في هذا الأمر ليلة البارحة، في موعد مجيء السيِّد ماكديرموت إلى الغداء اليوم. ذاك سيغيِّر كلَّ شيءٍ تماماً. لا أظنُّه سيُوقِف القضيَّة، لكنَّه سيغيِّر حتماً كلَّ شيء بالنسبة إلينا. إنَّه (الشيء الصغير) الذي كنت أدعو كي يكون دليلاً في صالحنا. هل أخبرت السيِّد ماكديرموت؟».

«بشأن رسالتك. لا لم أقل شيئاً. حسبت أنَّ الأفضل... ألَّا أفعل».

«روبرت!»، قالت وهي تنظر نحوه باستخفافٍ ساخر، «أنت لم تثق بي. خفتَ أن أكون أثرثر بلا طائل».

«خفت أن تكوني قد بنيتِ دليلاً على أساسٍ هشٍّ أكثر ممَّا يمكنه التحمُّل ... أنا...».

«لا تخف»، قالت تطمئنه، «سيتحمَّل. هل يمكنك المجيء إلى المطبخ لتساعدَ في حمل صينيَّة الحساء لي».

تدبَّرا أمر الخدمة من دون إحداث ضجيج أو جلبة. حمل روبرت صينيَّة عليها أربعة أطباق مسطَّحة ملأى بالحساء، وتبعته ماريان تحمل وعاءً كبيراً بغطاءٍ فضيٍّ، وبدا هذا هو كلُّ شيء. ولمَّا تناولوا حساءهم، وضعت ماريان الطبق الكبير أمام والدتها وزجاجة النبيذ أمام كيڤين. كان الطبق الرئيس يخنة الدَّجاج والخضار تحيط به من كلِّ جانب، وكان النبيذ من نوع (مونتراش).

«نبيذ مونتراش»، قال كيڤين، «أنتِ امرأةٌ رائعة».

قالت ماريان: «أخبرنا روبرت أنّك من محبّي شراب ‹كلاريت›، لكنّ هذا من أفضل الأنواع المعتّقة المتبقّية في قبو السيّد كراولي. لذا، فقد انحصر الخيار في هذا الشراب، وشراب ‹بيرغندي› ثقيلٌ جدّاً ورائع في الأمسيات الشتويّة، لكنّه لن يكون لذيذاً مع إحدى دجاجات مزرعة ستابلز في يومٍ صيفيٍّ».

قال كيڤين شيئاً عن مدى ندرة النساء اللاتي يبدينَ اهتماماً بأيٍّ شيء لا يزبد، بل ولا يفور.

«لأكون صريحة»، قالت السيِّدة شارب، «لو كان بالإمكان بيع هذه المتفرِّقات فلربَّما بعناها، لكنّنا كنّا في غاية السعادة لأنّها لم تكن مرغوبة بسبب تعدُّد أنواعها وتفرُّقها. لقد رُبِّيت لأكون ذوّاقة نبيذ. كان لدى زوجي قبو جيّد، مع أنّ مستوى ذوقه لم يرتقِ إلى مستوى ذوقي، لكن لأخي في ليزويز قبو أفضل منه، وذوق رفيع يتلاءم معه».

«في ليزويز؟»، قال كيڤين وهو ينظر إليها كما لو كان يبحث عن شبهٍ ما، «لستِ أخت تشارلي ميريديث، أليس كذلك؟».

«بلى، أخته. هل تعرف تشارلز؟ لكن، لا يمكن أن تعرفه، فأنت في ريعان الشباب».

«أوّل مُهرٍ حصلت عليه كان من تربية تشارلي ميريديث»، قال كيڤين، «ظلَّ عندي سبع سنوات ولم يخطئ بخطوةٍ واحدةٍ».

ومن ثمَّ كفَّ الاثنان عن إبداء المزيد من الاهتمام بالحديث عن الآخر، ولم يتطرّقا إلى الحديث عن الطعام طبعاً.

انتبه روبرت إلى نظرة الاستمتاع والارتياح التي ترمقه بها ماريان، وقال: «لقد ظلمتِ نفسك كثيراً عندما قلتِ إنَّك لا تجيدين الطهو».

«لو كنتَ امرأةً لتبيَّن لك أنَّني لم أطهُ شيئاً. فقد أفرغت الحساء من علبته المعدنيَّة، سخَّنته، وأضفت إليه شراب 'شيري' وبعض المنكِّهات. وفي الوعاء وضعت الدَّجاجة وفق الحال التي أتت بها من مزرعة ستابلز، وصببت بعض الماء فوقها، وأضفت إليها كلَّ ما خطر لي في بال، وأودعتها الموقد مصحوبة بالدُّعاء. والجبن القشديُّ جاء من المزرعة أيضاً».

«وماذا عن لفائف الجبن القشديِّ الرَّائعة؟».

«صاحبة منزل ستانلي هي مَن صنعتها».

ضحكوا بهدوءٍ فيما بينهم.

غداً، ستدخل قفص الاتِّهام. غداً ستكون مشاعاً للفرجة من أجل إسعاد ميلفورد. لكنَّها اليوم، لا تزال تملك زمام حياتها. يمكنها أن تشاركه المتعة. يمكنها أن تكون راضيةً عن هذه الساعة. أو أنَّ هذا ما أوحت به التماعة عينيها.

أخذا أطباق الجبن من أمام الاثنين الآخرين، اللذَيْن لم يتوقَّفا عن حديثهما، ولا حتَّى للتعقيب على ذلك التصرُّف. حملا الأطباق المتَّسخة إلى المطبخ وحضَّرا القهوة هناك. كان مكاناً فسيحاً ومظلماً بأرضيَّة مبلَّطة بالحجر، وحوض عتيق الطراز انقبض له فؤاده ما إن رآه.

قالت ماريان وهي تراقب تفحُّصه للمكان: «لا نشغِّل الموقد إلَّا يوم الاثنين حين تنتهي أمور التنظيف، وإلَّا فإنَّنا نستعمل موقد الغاز الصغير».

شعر بالخجل إذ فكَّر في الماء الساخن الذي تدفَّق على الفور إلى حمَّامه الملمَّع ما إن فتح الصنبور صباح اليوم. فبعد سنواته الطوال في حياته الرغيدة، كان من الصعب عليه تخيُّل حياةٍ يستحمُّ فيها المرء بماءٍ يُسَخَّن لأجله على موقد غاز.

«صديقك ساحر، أليس كذلك؟»، قالت وهي تصبُّ القهوة في إبريقها، «شيطانيٌّ بعض الشيء -يخشاه المرء بشدَّة إن كان محامي خصمه- لكنَّه ساحر».

قال روبرت بحزن: «هكذا هم الأيرلنديُّون، إنَّهم مجبولون على ذلك بطبيعتهم كما يُجبَل المرء على التنفُّس. أمَّا نحن- الساكسونيين المساكين- فنتهادى على طريقنا القاسي ونتساءل كيف يُفلحون في ذلك».

استدارت لتعطيه الصينيَّة كي يحملها، فصارت تواجهه بوجهها، وأيديهما كادت تتلامس.

«يتمتَّع الساكسونيُّون بأكثر خصلتين أقدِّرهما في هذا العالم. خصلتان تفسِّران لماذا أُورِثُوا الأرض. اللطف والجدارة -أو التسامح والمسؤوليَّة إن كنت تفضِّل هذه التسميات- خصلتان لم يتمتَّع بهما القلطيُّون قطُّ؛ ولهذا لم يرث الأيرلنديُّون شيئاً سوى الخصومات. آه. اللَّعنة. نسيتُ القشدة. انتظر لحظة. إنَّها في المِغْسَلِ[52] لتبرد». عادت تحمل القشدة، وقالت مستهزئةً بالريفيين: «سمعت أنَّ هناك أشياء تُسمَّى ‹الثلَّاجات› الآن في بيوت بعض الأقارب. لكنَّنا لا نحتاج إلى أيٍّ منها».

ولمَّا حمل الصينيَّة إلى ضوء الشمس الذي يغمر غرفة الاستقبال، تخيَّل البرد القارس في زوايا المطبخ شتاءً بلا موقد يهدر كما في أيَّام ازدهار المنزل عندما كان

---

52 غرفة باردة جداً يستعملها الريفيون القدامى في بريطانيا لشؤون غسل الثياب وما إلى ذلك. المترجمة.

الطهو واقعاً على عاتق ستَّةٍ من الخدم، وكنتَ تطلب حمولة عربةٍ من الفحم. رغب إلى أخذ ماريان بعيداً عن المكان. لم يدرِ إلى أين يمكنه أن يأخذها -فبيته ممتلئ بحضور العمَّة لين. يجب أن يكون مكاناً لا شيء فيه يحتاج إلى التلميع، ولا شيء يحتاج إلى الحمل، مكاناً يُقضى فيه كلُّ شيء بضغطة زرٍّ. لا يمكنه أن يتصوَّر ماريان تقضي شيخوختها في تنظيف بعض قطع أثاث الماهوجني.

وبينما كانوا يشربون القهوة، وصل بالمحادثة بلباقةٍ إلى احتماليَّة بيعهم لمنزل فرانشايز بين وقتٍ وآخر وشراء كوخٍ في مكانٍ ما.

«لن يشتريَ أحدٌ هذا المكان»، قالت ماريان، «إنَّه فيلٌ أبيض:[53] ليس كبيراً بما يكفي ليكون مدرسة، وبعيد جدّاً ليكون شققاً سكنيَّة، وكبير جدّاً ليناسب أسرةً في هذه الأيَّام. قد يصلح ليكون مستشفى مجانين». وأضافت، ممعنة في التفكير، وعيناها على الجدار الورديِّ المرتفع خارج النافذة، وقد رأى روبرت كيڤين وهو يسترق نظرةً إليها، ويبتعد عنها مجدَّداً: «إنَّه هادئ على الأقلِّ. لا حفيف أشجار، ولا لبلاب معرَّش على النوافذ لينقرَ على زجاجها، ولا طيور تزعق وتزعق إلى أن ترغب في الصراخ. إنَّه مكان في غاية الهدوء لذوي الأعصاب المتعبة. لعلَّ أحداً يفكِّر فيه لهذا السبب».

إذاً، فقد أحبَّت الصمت، السكون الذي بدا موحشاً في نظره. لربَّما كان هذا ما تاقت إليه في حياة الصخب والتدافع والمطالب التي عاشتها في لندن، حياتها في الأزقَّة المتآكلة والضيِّقة. لقد غدا المنزل القبيح والكبير والهادئ ملاذاً آمناً.

والآن، ما عاد ملاذاً قطُّ.

---

53 تعبير متداول في بريطانيا يشير إلى التكلفة المالية الكبيرة لشيءٍ ما لن يعود بالفائدة على صاحبه (أي لا يباع، ولا يُستفاد منه). المترجمة.

يوماً ما... أسألك أن تحقّق ذلك يا إلهي... يوماً ما سيجرِّد بيتي كين من الثقة والحبِّ إلى الأبد.

«والآن»، قالت ماريان، «أنتما مدعوّان إلى تفحُّص ‹العليَّة القاتلة›».

«أجل»، قال كيڤين، «إنَّني حتماً راغبٌ بشدَّة في رؤية الأشياء التي زعمت الفتاة أنَّها تميِّزها. لقد بدت لي إفادتها كلُّها أنَّها مبنيَّة على تكهُّنات منطقيَّة. كالسجَّادة الأكثر صلابةً على درجات سلَّم الطابق الثاني أو الكومودينو الخشبيّ -شيءٌ ما غالباً ما تجدينه في بيتٍ ريفيٍّ على وجه التحديد- أو الصندوق المسطَّح».

«أجل. وقد كان ذلك مرعباً بعض الشيء حينئذٍ، الطريقة التي أصابَت فيها بخصوص الأشياء التي لدينا -ولم يكن لديَّ الوقت لأستجمع ذكائي- وبعد ذلك فقط، تبيَّن لي أنَّ ما تعرَّفته في إفادتها كان تافهاً فعلاً. وأنَّها قد ارتكبت خطأً واحداً فادحاً، غير أنَّ أحداً لم يلقِ له بالاً إلى حين ليلة البارحة. هل أتيتَ بالإفادة روبرت؟».

«أجل». أخرجها من جيبه.

وصعدوا السلالم العارية وصولاً إلى الطابق الأخير، هي وروبرت وماكديرموت، ثمَّ قادتهما إلى العليَّة. «صعدتُ إلى هنا ليلة البارحة في جولة السبت المعتادة التي أطوف بها البيت مع الممسحة. فهذا هو الحلُّ الذي بيدنا للتعاطي مع مشكلة التدبير المنزليّ، في حال كان يهمُّكما أن تعرفا. لمرَّةٍ واحدة أسبوعيّاً، أمرِّر ممسحةً جيِّدةً وكبيرةً ومنقوعةً في مستحضراتٍ للتلميع على كلِّ طابق. يحتاج ذلك إلى خمس دقائق من الزمن لكلِّ غرفة، وهذا يُبقي الغبار بعيداً».

كان كيڤين يتجوَّل في الغرفة ويتفحَّص الإطلالة من النافذة. قال: «إذاً، هذه هي الإطلالة التي وصفتها».

قالت ماريان: «أجل، تلك هي الإطلالة التي وصفتها. وإن كنتُ أتذكَّر الكلمات الواردة في إفادتها، على نحوٍ صحيح مثلما تذكَّرتها البارحة، فقد قالت شيئاً لا يمكنها- روبرت، هل يمكنك أن تقرأ المقطع الذي تصف فيه الإطلالة من النافذة؟».

نظر روبرت إلى المقطع المقصود، وبدأ يقرأ. كان كيڤين ينحني إلى الأمام قليلاً يحدِّق خارج النافذة الصغيرة المستديرة، في حين تقف ماريان خلفه مبتسمةً بهدوء كما العرَّافة.

«(من نافذة العليَّة)»، قرأ روبرت، «(كان في مقدوري رؤية جدارٍ عالٍ من الطوب، تتوسَّطه بوَّابةٌ حديديَّة. كان هناك طريقٌ خلف الجدار، فقد كان في وسعي رؤية أعمدة التلغراف. لا، لم أستطع رؤية المركبات على الطريق، باستثناء الجزء العلويِّ الذي يظهر من البضائع المحمَّلة على الشاحنات في بعض الأحيان؛ فقد كان الجدار مرتفعاً جدّاً. لا يمكنك أن ترى شيئاً من خلال البوَّابة؛ فهي مسدودةٌ من الداخل بصفائح من الحديد. يبدأ مسار العربات مستقيماً عند البوَّابة، ثمَّ ينقسم من الداخل إلى مسارين في هيئة دائرة، ويصل المساران إلى الباب. لا. لم تكن حديقة...)».

«ماذا!»، صاح كيڤين فجأةً وهو يستقيم في وقفته.

«ماذا ماذا؟»، سأل روبرت مذهولاً.

«اقرأ المقطع الأخير مرَّةً ثانيةً. ذاك المقطع عن مسار العربات».

«(يبدأ مسار العربات مستقيماً عند البوَّابة، ثمَّ ينقسم من الداخل إلى مسارين في هيئة دائرة، ويصل المساران إلى...)».

أوقفه انفجار كيڤين ضاحكاً. لقد كان تلذُّذاً فظّاً بانتصارٍ أحاديٍّ.

«أترى؟»، قالت ماريان ردّاً على صمته المفاجئ.

«أجل»، قال كيفين بهدوء، وعيناه الشاحبتان الصافيتان مبتهجتان بالإطلالة، «كان هذا شيئاً لم تضعه في حسبانها».

تقدَّم روبرت عندما تنحَّت ماريان لتفسحَ له في أخذ مكانها، وبهذا رأى ما كانا يتحدَّثان عنه. تحجب حافَّة السطح ذات الدرابزين الصغير منظر الفناء قبل أن يتفرَّع مسار العربات كليّاً. لا يمكن لشخصٍ قد سُجن في تلك الغرفة أن يعرف بشأن نصفَي الدَّائرة المنتهيين عند الباب.

«أترى؟»، قالت ماريان، «لقد قرأ المفتِّش الوصف عندما كنَّا جميعاً في غرفة الاستقبال. وقد عرفنا كلُّنا أنَّ الوصف كان دقيقاً. أقصد أنَّه صورةٌ دقيقةٌ للفناء كما هو، وهكذا فقد تعاملنا مع الأمر على أنَّه مُنتَهٍ من دون شعورٍ بذلك. حتَّى المفتش. أذكر نظرته إلى الإطلالة من النافذة، لكن من الواضح أنَّها كانت حركة تلقائيَّة فحسب. ولم يخطر في بال أيٍّ منَّا أنَّها لم تكن مطابقةً للوصف. في الواقع، كانت مطابقة للوصف باستثناء تفصيل واحدٍ صغيرٍ».

نظر روبرت إليها، وقرأ:

«‹توقَّفت السيَّارة أخيراً، وترجَّلت الشابَّة ذات الشعر الأسود، وفتحت بوَّابةً مزدوجةً ضخمةً للسيَّارات. ثمَّ عادت تقود السيَّارة في اتجاه المنزل. لا. كان الظلام دامساً لأرى أيَّ نوعٍ من المنازل هو، باستثناء أنَّ له دَرجاتٍ تُفضي إلى المنزل. لا. لا أذكر كم عدد الدرجات، أظنُّها أربع أو خمس. أجل بالتأكيد. مستوى طابقيّ منخفض›، ثمَّ واصلت حديثها عن أخذها إلى المطبخ لشرب القهوة».

«إذاً»، قال كيفين، «وماذا عن حسابها لوقت فرارها؟ في أيِّ وقتٍ من الليل حصل ذلك؟».

«في وقتٍ ما بعد العشاء إن لم تخنّي الذاكرة»، قال روبرت وهو يتنقّل ما بين الصفحات، «كان بعد حلول الظلام في أيِّ حالٍ من الأحوال. ها هو ذا». وقرأ:

«(لمَّا وصلت إلى الطابق الأوَّل، ذاك الذي فوق الردهة، استطعت أن أسمعهما تتحدَّثان في المطبخ. لم يكن ثمَّة ضوء في الردهة. نزلت هبوطاً إلى الطابق الأخير وأنا أتوقَّع في كلِّ لحظةٍ أنَّ إحداهما ستخرج وتمسك بي. ومن ثمَّ اندفعت نحو الباب. لم يكن مقفلاً. هربت خارجةً وهبطت الدَّرجات قاصدةً البوَّابة، ومن ثمَّ الطريق. ركضتُ على طول الطريق – أجل، كان صعباً مثل طريقٍ سريعٍ– إلى أن فقدت قدرتي على الركض أكثر من ذلك، واستلقيت على العشب إلى أن شعرت أنَّني قادرةٌ على المواصلة)».

«كان صعباً مثل طريقٍ سريع»، اقتبس كيڤين، «في هذا استدلال على أنَّ الظلام كان حالكاً لترى طريق المكان الذي كانت تسير فيه».

حلَّ صمتٌ قصيرٌ.

قالت ماريان: «تعتقد أمِّي أنَّ هذا كافٍ لتكذيبها». وانتقلت بنظراتها من روبرت إلى كيڤين، وبالعكس مرَّةً أخرى، من دون أن تستمدَّ أملاً كبيراً. «لكنَّكما لا تعتقدان ذلك، أتعتقدان؟»، ذاك لم يكن سؤالاً.

«لا»، قال كيڤين، «ليس بهذا فقط. قد تتملَّص من ذلك بمعونة مستشارٍ قانونيٍّ ذكيٍّ. قد تقول إنَّها استدلَّت على وجود الدائرة من ميلان السيَّارة عند وصولها. وقد يكون الامتداد العاديُّ لمسار العربات هو ما تستدلُّ به بطبيعة الحال طبعاً. ومن البداهة ألَّا يفكِّر أحد بغرابة وجود دوَّار للقيادة، بل إنَّه يضيف مظهراً جميلاً، وهذا كلُّ ما في الأمر – ولعلَّها تذكَّرته لهذا السبب. أرى أن تحتفظا بهذا النبأ السارِّ لصالحكما في محكمة الجنايات».

«أجل. خمَّنتُ أنَّك ستقول هذا»، قالت ماريان، «إنَّني حقّاً لم أشعر بخيبة الأمل. بل كنت سعيدةً به. ليس ظنّاً منِّي بأنَّ ذلك سيخلِّصنا من التهمة، وإنَّما لأنَّه يخلِّصنا من الشكِّ الذي لا بدَّ أنَّه -لا بدَّ أنَّه-» تلعثمت على نحوٍ غير متوقَّع متفاديةً عينَي روبرت.

«لا بدَّ أنَّه عكَّر صفو عقولنا البلوريَّة». أنهى كيڤين الجملة بخفَّة، وألقى إلى روبرت نظرةً مغتبطةً بالتشفِّي. «وكيف فكَّرتِ في هذا حين أتيتِ للكنس ليلة البارحة؟».

«لا أدري. وقفت أنظر عبر النافذة إلى الإطلالة التي وصفتها وأنا آمل في أن نحصل على دليلٍ صغيرٍ، متناهٍ في الصِّغر، مجهريّ، دليل واحد فقط لصالحنا. ومن ثمَّ، ومن دون تفكير، سمعت صوت المفتِّش غرانت في رأسي، يقرأ ذلك المقطع في غرفة الاستقبال. وأنت تعرف أنَّه سرد لنا معظم القصَّة بأسلوبه هو، ما عدا المقاطع التي قادته إلى منزل فرانشايز، فقد قرأها كما قالتها الفتاة، بالحرف الواحد. لقد سمعت صوته -الجميل- وهو يقول المقطع الذي يتناول مسار العربات الدائريَّ. ومن حيث كنت واقفةً عندئذٍ لم يكن ثمَّة مسار عربات دائريّ. لعلَّها كانت إجابة دعاء لم يُبَح به».

قال روبرت: «أما زلتَ تظنُّ أنَّ الأفضل لنا أن 'نعطيهم' يوم غدٍ، وأن ندَّخرَ ما لدينا كلَّه لمحكمة الجنايات؟».

«أجل. إنَّ ذلك في الواقع لن يُحدث فارقاً للآنسة شارب ولا لوالدتها. فالظهور في مكانٍ واحد مثل الظهور في غيره -ما عدا أنَّ المرء في محكمة جنايات نورتون يكون أقلَّ انزعاجاً من محكمة الشرطة في مدينته الأمّ- وتقليل مدَّة حضورهما غداً هو أفضل لموقفهما. لا دليل لديك تقدِّمُه إلى المحكمة غداً؛ لذا، يجب أن تكون القضيَّة رسميَّة ومختصرة جدّاً؛ عرضٌ لأدلَّتهم، إعلانٌ عن احتفاظك بدفاعك، طلبُ إطلاق سراحٍ مشروط بالكفالة، وهذا كلُّ شيء».

هذا ملائم لروبرت بما يكفي. لم يُرِدْ أن يطيلَ عليهما العذاب غداً، فأيٌّ حكم يصدر خارج حدود ميلفورد هو محلُّ ثقة أكبر بالنسبة إليه، في أيٍّ حال، والأهمُّ من ذلك كلِّه أنَّه لا يريد أن يحصلَ على نصف حُكم، على تبرئةٍ فحسب، ليس الآن بعد أن صارت ثمَّة دعوى. فهذا لن يؤدي غرضه المتعلِّق ببيتي كين. فقد أراد أن تُسرَد قصَّة الشهر بأكملها في محكمةٍ علنيَّة، وبحضور بيتي كين. وإلى أن يحين موعد محكمة الجنايات العلنيَّة في نورتون، فإنَّه يرجو الله أن تكون القصَّة جاهزةً لديه لتُروى.

«بمَن يمكننا الاستعانة للدفاع عنهما؟»، وجَّه السؤال إلى كيڤين في طريق عودتهما لشرب الشاي في المنزل.

مدَّ كيڤين يده إلى جيبه، وسلَّم روبرت بأنَّ ما كان يبحث عنه هو قائمة بالعناوين. إلَّا أنَّه أخرج دفتر مواعيد كما كان واضحاً.

سأله: «متى موعد المحاكمة في نورتون، هل تعرف؟».

أخبره روبرت وحبس أنفاسه.

«من المحتمل أن أكون قادراً على المجيء بنفسي. دعني أرَ. دعني أرَ».

تركه روبرت يرى ما يريد في صمتٍ تامٍّ. فقد شعر أنَّ كلمةً واحدةً قد تخرِّب السحر.

قال كيڤين: «أجل، لا أرى سبباً يمنعني -باستثناء ما قد يطرأ على حين غرَّة. لقد أحببتُ ساحرتيك. سيسرُّني كثيراً أن أدافعَ عنهما أمام تلك الفعلة الشنيعة جدّاً. كم هو غريبٌ أن تكون هي أخت تشارلي ميرديث الكبرى. ذاك الرجل العجوز هو واحد من خيرة الناس. تقريباً، ليس هناك أحدٌ صادقٌ غيرَه من بين مربِّي الخيول الذين عرفهم التاريخ. لم أكفَّ عن الشعور

بالامتنان له لأجل ذلك المُهر. فأوَّل حصانٍ للفتى مهمٌّ جدّاً. هو ما يلوِّن حياته كلَّها بعد ذلك، ليس من ناحية تعامله مع الخيول فحسب، بل من كلِّ النواحي على حدٍّ سواء. هناك شيء ما في الثقة والصداقة التي تجمع ما بين الفتى والحصان الجيد---».

أنصت روبرت باسترخاءٍ واستمتاعٍ. لقد أدرك المفارقة اللطيفة التي لا تشوبها أيُّ مرارة، وهي إقلاع كيڤين عن التفكير في أنَّ أسرة شارب مذنبة حتَّى قبل وقتٍ طويلٍ من أن يُعرض أمامه ذلك الدليل بشأن الإطلالة. إذ لم يكن وارداً أنَّ أخت تشارلي ميرديث الكبرى يمكنها أن تختطفَ أحداً.

-17-

قال بِنْ كارلي وعيناه ترصدان المقاعد الممتلئة عن بكرة أبيها، في قاعة المحكمة الصغيرة: «إنَّها لأعجوبةٌ أبديَّة بالنسبة إليَّ، كم هم كثرٌ السادة الذين ليست لديهم مشاغل كثيرة ليقضوها في صباح الاثنين. مع هذا، يجب أن أقول إنَّ وقتاً طويلاً قد مضى على آخر تجمهرٍ حصل بهذه الكثرة. هل رأيت بائعة الملابس الرياضيَّة؟ في الصفِّ ما قبل الأخير. بقبَّعة صفراء لا تليق بمساحيقها البنفسجيَّة، ولا بشعرها. إنْ أبقت تلك الصغيرة ابنة أسرة جودفري تعمل عندها، فلن تجد نقوداً لديها في هذه الليلة. لقد طَردتُ هذه الفتاة عندما كانت في الخامسة عشرة. فقد كانت تسرق النقود منذ نعومة أظفارها، وما زالت تسرقها إلى الآن. لا يمكن ترك أنثى مع صندوق نقودٍ أبداً، صدِّقني. وتلك صاحبة مقهى (آن بولين)، إنَّها المرَّة الأولى التي أراها في المحكمة، إلَّا أنَّني لا أدري كيف تمكَّنَتْ من تجنُّب ذلك وقتاً طويلاً. ولم يعرف أحدٌ مطلقاً ماذا تفعل بالمال. لعلَّ أحداً ما يبتزُّها، أتساءل مَن يكون. ولا أستبعد أن يكون آرثر واليس الذي يعمل في (وايت هارت). إذ عليه أن يسدِّد ثلاث غَرامات مختلفة أسبوعياً، وراتبُ الموظَّف غير كافٍ لذلك».

ترك روبرت لكارلي مواصلة ثرثرته، من دون أن يصغيَ إليه. كان في غاية القلق لأنَّ الحاضرين في المحكمة ليسوا من أولئك المتسكِّعين؛ الذين اعتادوا المجيء في صباح الاثنين لتضييع الوقت؛ إلى أن تحين ساعة افتتاح المتاجر. لقد انتشر الخبر في الأرجاء بفضل قنوات ميلفورد الخفيَّة، فجاؤوا لرؤية

أسرة شارب، وقد وُجِّه الاتِّهام إليها. تلوَّنت الكآبة المألوفة للمحكمة بثياب النساء، وطغى صفير دردشاتهنَّ على صمتها الناعس المعتاد.

رأى وجهاً واحداً كان من المفترض أن يبدو عدائيّاً، إلَّا أنَّه كان ودوداً على نحوٍ غريب، وجه السيِّدة وين التي رآها في المرَّة الأخيرة واقفةً في حديقة منزلها الصغيرة والجميلة في جادَّة ميدوسايد في آليزبيري. لم يستطع أن يعدَّ السيِّدة وين عدوَّةً؛ فقد أحبَّها وقدَّرها، وأسف لحالها سلفاً. كان في ودِّه لو ذهب إليها ليلقيَ عليها التحيَّة، إلَّا أنَّ لعبة الداما كانت قد بدأت على الرقعة الآن، وهما فيها ضمن قطع مختلفة الألوان؟

لم يحضر غرانت حتَّى الآن، لكن هالام كان هناك، يتحدَّث إلى الرقيب الذي ذهب إلى منزل غرانت في الليلة التي حطَّم فيها الغوغائيُّون النوافذ.

سأله كارلي في فاصل تخلّل تعقيبه المسترسل: «كيف تسير أمور محقِّقك الخاصّ؟».

قال روبرت: «المحقِّق على خير ما يرام، إلَّا أنَّ المشكلة هائلةٌ، حتَّى إنَّ البحث عن إبرة في كومة قشٍّ، كما يقول المثَل، يغدو أمراً تافهاً إذا ما قورن بها».

سخر بِنْ: «فتاةٌ واحدةٌ تُعجِز العالم، أتوق إلى رؤية هذه الساقطة بشحمها ولحمها. بعد كلِّ ما تلقَّته من رسائل المعجبين وعروض الزواج، وتشبيهها بالقدِّيسة برناديت؛ فإنَّني أتصوَّر أنَّها ستنظر إلى محكمة شرطةٍ في الريف بأنَّها مسرحٌ ضيِّقٌ جدّاً عليها. هل تلقَّت عروضاً لاعتلاء المسرح؟».

«ما كنتُ لأعرف».

«أظنُّ أنَّ ماما ستمنعهم في كلِّ الأحوال. إنَّها هناك في حُلَّةٍ بنيَّة، وتبدو لي امرأةً عاقلةً للغاية، لا يمكنني أن أتصوَّر إنجابها لابنة كهذه أبداً... آه،

لكنَّها متبنَّاة، أليس كذلك؟ إنَّ قلة معرفة الناس بالأشخاص الذين يعيشون معهم أمرٌ يدعوني إلى الاستغراب دوماً، كانت هناك امرأة في (هام غرين) لها ابنةٌ حسب علمها أنَّها لم تغِبْ قَطُّ عن ناظريها، لكنَّ الابنة خرجتْ ذات يومٍ تبحثُ عن حيوانها الأليف، ولم تَعُد، فذهبت الأمُّ الغاضبة إلى الشرطة وهي تولول. اكتشف رجال الشرطة أنَّ الابنة الّتي لم يسبق لها -ظاهرياً- أن ابتعدت عن أمِّها ليلةً واحدةً، هي امرأةٌ متزوِّجةٌ ولها طفلٍ، وقد ذهبت لتعيشَ مع زوجها. وفي حال لم تُصدِّق بِنْ كارلي، اطَّلع على سجلَّات الشرطة. حسناً، إن لم تشعر بالرضا عن مُتحرِّيكَ الخاصّ أعلمني بذلك، وسأعطيك عنوان مُتحرٍّ بارعٍ جدّاً. ها قد بدأنا».

فُصلت ثلاث دعاوى، وكان واضحاً أنَّ الجناة المخضرمين معتادون على الإجراءات إلى درجة أنَّهم توقَّعوا البقيَّة، وكان روبرت شبه متوقّع أنَّ أحداً ما سيقول: «ألا يمكن الانتظار!».

ثمَّ رأى غرانت يدخل بهدوء، واتَّخذ له مجلساً في موقع المراقب خلف مقعد الصحافة، فأدرك أنَّ الوقت قد حان.

دخلتا معاً حين نُودي على اسميهما، واتَّخذتا مجلسيهما في المقصورة الضيِّقة البشعة، كما لو كانتا تتَّخذان مجلسيهما في الكنيسة. فكَّر في أنَّ الأمر كان شبيهاً بذلك إلى حدٍّ ما: هدوء العيون وتيقُّظها، وفكرة انتظار بدء العرض. لكنَّه أدرك فجأة الشعور الذي قد يعتريه فيما لو كانت العمَّة لين مكان السيِّدة شارب، وللمرَّة الأولى كان واعياً كليّاً لما تعانيه ماريان لأجل والدتها. حتَّى وإن عدَّتهما محكمة الجنايات بريئتين من التهمة، فما الذي سيعوِّضهما عمَّا كابدتاه؟ ما العقوبة التي تستحقُّها بيتي كين على جريمتها؟

بالنظرِ إلى شخصٍ عتيق التفكير يؤمن بالقصاص، مثل روبرت، قد لا يتَّفق تماماً مع النبيِّ موسى -فليس تعويض العين بالعين هو الأنسب دائماً-

وإنّما يتّفق تماماً مع غيلبيرت:[54] «يجب أن تتناسب العقوبة مع الجريمة»[55]. فهو لا يؤمن قطعاً أنَّ بضع محادثاتٍ هادئةٍ مع القسِّ، مُرفقة بوعدٍ بالإصلاح، كافيةٌ لتحوّل مجرماً إلى مواطنٍ يستحقُّ الاحترام. تذكَّر ما قاله كيڤين ذات ليلة،-بعد نقاشٍ طويلٍ حول الإصلاح الجنائيِّ؛ «يتمتَّع مجرمك الحقيقيُّ بخصلتين مطّردتين، وهاتان الخصلتان هما ما يجعلان منه مجرماً؛ غرورٌ رهيبٌ وأنانيةٌ هائلةٌ. وكلاهما جوهريٌّ ومتجذِّرٌ كالدَّم في العروق، تماماً كما لو كنت تتحدَّث عن إصلاح ‹لون عينَي أحدهم›».

اعترض أحدهم: «لكن، ثمَّة وحوشٌ تتصف بالغرور والأنانية و ليسوا بمجرمين».

«ذلك فقط لأنَّ ظلمهم مُنْصَبٌّ على زوجاتهم عوضاً عن مصرفهم»، أوضح كيڤين، «لقد كُتِبَت مئات المجلَّدات في مسعىً لتعريف المجرم، إلَّا أنَّ تعريفَه في النهاية أمرٌ سهلٌ للغاية. فالمجرم هو شخصٌ يتَّخذ من إشباع رغباته الشخصيَّة الآنِيَّة بُوصلةً تقود أفعاله. لا يمكنك علاجه من غروره، لكن يمكنك أن يكون التسامح معه أمراً لا يعود عليه بالنفع، أو يكاد يعود عليه بالنفع».

إذ يتذكَّر روبرت أنَّ فكرة كيڤين عن إصلاح السجون تكمن في النفي إلى مستعمرةٍ جزئيَّة. إلى مجتمع في جزيرةٍ يعمل فيها الجميع بجدٍّ. فهذا إصلاحٌ لا يعود بالمنفعة على السجناء. قال كيڤين إنَّ حياة السجَّانين ستغدو أجمل، وستتيح للمواطنين الصالحين في هذه الجزيرة المكتظَّة بيوتاً وحدائقَ أكثر. وبما أنَّ المجرمين يكرهون العمل الجادَّ المثمر أكثر ممَّا يكرهون أيَّ شيء آخر في

---

54 ويليام إشونك غيلبيرت 1836- 1911. كاتب مسرحي ومؤلف أوبرالي وشاعر ورسام إنجليزي. المترجمة.

55 مقطع من أوبرا (ميكادو) لويليام إشونك غيلبيرت. المترجمة

هذا الكون، فإنَّ كيفين يرى في ذلك رادعاً أفضل من البرنامج التأديبيِّ المتَّبع حالياً، الذي لم يكن أكثر من مجرَّد مدرسةٍ عموميَّةٍ من الدرجة الثالثة.

وهو إذ ينظر إلى الشخصيَّتين القابعتين في قفص الاتِّهام، فقد فكَّر روبرت في أنَّ المذنبين فقط هم من كانوا يوضعون في المِشهرة[56](الفاضحة) في ‹الأيَّام البائدة›. في هذه الأيَّام، قبل أن يُحاكم المرء، يحمل عبء المشهرة، في حين يذهب المذنب إلى ملجأ آمنٍ له. ثمَّة خطأ في مكانٍ ما.

كانت السيِّدة شارب تعتمر قبَّعة الساتان المسطَّحة التي حضرت بها إلى مكتبه صباح اقتحام صحيفة (آك إيما) عليهما شؤونهما، وقد بدت يومها أكاديميَّة ومحترمة. غير أنَّها غريبة. ماريان، كانت تعتمر قبَّعةً أيضاً، وفكَّر في أنَّ ذلك لم يكن في سبيل احترام المحكمة بقدر ما كان في سبيل الاحتجاب بعض الشيء عن تحديقات العامَّة. كانت قبَّعتها ريفيَّة من اللبَّاد، ذات حافَّةٍ قصيرة، وقد أسهم طابعها التقليديّ، إلى حدٍّ ما، في تقييد طبيعتها العاديَّة المتمثِّلة في التصرُّف على سجيَّتها. بشعرها الأسود المحتجب، وعينيها البرَّاقتين المظلمتين، لم تكن سُمْرتها أكثر من سمرة امرأةٍ عاديَّةٍ خارج المنزل. ومع أنَّ روبرت قد افتقد الشعر الأسود والبريق، فقد فكَّر في أنَّ كلَّ ذلك قد كان يصبُّ في مصلحتها، إذ عليها أن تبدو ‹عاديَّة› ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. سيكبح ذلك من جماح أندادها المعادين المطالبين بموتها.

ثمَّ، رأى بيتي كين.

فالجلبة التي حدثت في مقعد الصحافة دلت له عن حضورها إلى المحكمة. عادةً ما يشغل مقعد الصحافة اثنان ضجران من المتمرِّنين على صياغة التقارير:

---

56 المشهرة : pillory:جهاز مصنوع من إطار خشبي أو معدني، بثقوب تحتوي الرأس واليدين، يُشَيَّد على أحد الأعمدة ويستعمل للعقاب بغرض الإذلال العلني. المترجمة.

أحدهما يعمل لدى صحافة ميلفورد أدڤيرتايزر (صحيفةٌ تصدر يوم الجمعة من كلِّ أسبوع)، والآخر يجمع بين صحيفتَي نورتون كورير (تصدر يومَي الثلاثاء والجمعة من كلِّ أسبوع) ولاربورو تايمز، وأيِّ صحيفة أخرى قد تأخذ المادَّة منه. غير أنَّ مقعد الصحافة اليوم كان مشغولاً بأكمله، ولم تكن وجوه شاغليه شابَّةً ولا ضجرة، بل كانت وجوه رجالٍ دُعوا إلى وليمةٍ، وقد تجهَّزوا لها فعلاً.

وقد احتلَّت بيتي كين ثُلثي الهدف الذي أتوا لأجله.

لم يرَها روبرت منذ أن كانت واقفةً في غرفة الاستقبال في منزل فرانشايز، بمعطفها المدرسيِّ الكحليِّ، وها قد فوجئ مرَّةً ثانيةً بصباها وبراءتها الصافية. في الأسابيع التي تلت رؤيته الأولى لها، كانت قد استحالت وحشاً في عقله. لم يفكِّر فيها إلَّا كمخلوقٍ فاسدٍ وقد زجَّت بإنسانين إلى قفص الاتِّهام. وهو الآن، إذ يرى بيتي كين متجسِّدةً فعلياً أمامه، فقد وقع في حيرةٍ من أمره. كان على يقين من أنَّ هذه الفتاة والوحش الذي في عقله هما واحد، لكنَّه استصعب إدراك ذلك. وإن كان هذا هو ردُّ فعلِهِ هو إزاء حضورها، هو الذي شعر أنَّه قد عرف بيتي كين معرفةً جيِّدة، فأيّ تأثير ستلقيه مزيَّة مظهرها الطفوليِّ على الرجال الطيبين والمخلصين إذا ما آن الأوان؟

كانت ترتدي ثياب «الخروج»، لا زيَّ المدرسة. زيٌّ أزرق غائمٌ يذكِّر الناظر إليه بأزهار أذن الفأر، بدخان الخشب المحترق، وبأزهار الجرس الزرقاء، وبرحابة الصيف، وقد كان ذلك محسوباً أيضاً للتشويش على حكم القضاة الوقورين. صباها، بساطتها، حُسن تهذيبها، وقبَّعتها التي بقيت بعيدةً عن وجهها؛ فكشفت عن الحاجب الساحر والعينين المتباعدتين.

ومن دون أيِّ تفكير في المسألة، برَّأ روبرت ساحة السيِّدة وين من أيِّ نيَّة مبيَّتة لتجهيز ثيابٍ للفتاة تليق بالمناسبة. لكنَّه أدرك بمرارةٍ أنَّها لو سهرت الليالي لتبتدع الزيَّ، ما كان ليفي لها بالغرض أفضل من هذا.

لَّمـا نُودي اسـمها، ومشـت إلى منصَّة الشـهود، اسـترق نظـرةً إلى الوجوه التـي تمكَّنـت مـن رؤيتهـا بوضـوح. مسـتثنياً مـن ذلـك بِـنْ كارلي -الـذي كان ينظـر إليهـا بالاهتمام الـذي يبديـه المـرء أمـام معروضـات المتحـف-، ثمَّـة تعبـير واحـدٌ فقـط هو مـا كان يعلـو وجـوه الرجـال: شيءٌ من الشـفقة العارمـة. وانتبـه إلى النسـاء اللـواتي لم يستسـلمنَ بسـهولةٍ هكـذا؛ فاللـواتي تطغـى عليهنَّ مشـاعر الأمومة، كنَّ يأسـفنَ على شبابها وضعفهـا بوضوح، إلَّا أنَّ الشـابَّات منهـنَّ كـنَّ نهماتٍ فحسـب؛ و مدفوعـاتٍ بالفضـول لا العاطفة.

«لا... يمكنني... أن أصدِّق... هذا!»، قال بِن بصوتٍ مسموع حين كانت تحلف اليمين، «أقصد أنَّ هذه الطفلة كانت طليقةً لشهرٍ من الزمان؟ لا أصدِّق أنَّها قبَّلت شيئاً في حياتها إلَّا الكتاب».

«سآتي بشهودٍ لإثبات ذلك»، تمتم روبرت غاضباً، فحتَّى كارلي، الخبير بالبشر والساخر، قد خضع لها.

«يمكنك إحضار عشرة شهود، لكنَّك مع هذا لن تحظى بهيئة محلَّفين تصدِّق ذلك، فهيئة المحلَّفين هي المهمَّة يا صديقي».

«أجل. أيّ هيئة محلَّفين تلك التي ستصدِّق أنَّها سترتكب أيَّ فعلٍ مشين».

لَّما رآها تروي قصَّتها، ذكَّر نفسه بوصف آلبرت لها: إنَّها فتاة حسنة التهذيب، لا يمكن أن ينظر إليها المرء بأنَّها امرأة أبداً، وأنَّها بمهارتها الوقحة قد أوقعت بالرجل الذي اختارته.

لها صوتٌ جميلٌ جدّاً، فتيٌّ وخافتٌ وصافٍ، من دون تشديدٍ أو تكلُّف. وقد سردت حكايتها كشاهدةٍ أنموذجيَّة، من دون أن تُضيف أيَّ زياداتٍ عليها، ملتزمةً بما قالته. بعناء تمكَّن الصحافيُّون من إبقاء أعينهم على ملحوظاتهم المختزلة. كان تعاطف هيئة المحكمة جليّاً (الحمد لله أنَّ محكمة

الجنايات أكثر صرامةً). كان أفراد قوّات الشرطة يتعرَّقون بهدوء في سبيل المشاركة الوجدانيَّة.

المحكمة كلُّها بلا نَفَس ولا حراك.

لم يسبق لممثلة أن حظيت باستقبالٍ أفضل من هذا.

كانت هادئةً تماماً، بالنسبة إلى أيِّ أحدٍ قد يراها، وكانت غير عابئةٍ بما تُحْدِثه من تأثيرٍ كما يبدو. لم تبذل أيَّ جهدٍ لتوضِّح أيَّ أمر، ولم تستعمل أيَّ معلومةٍ بطريقةٍ استعراضيَّة. ووجد روبرت نفسه يتساءل إذا ما كانت الاستهانة مدروسةً، وإذا ما كانت مدركةً لتأثيرها بوضوحٍ تامٍّ.

«وهل أصلحت البياضات حقيقةً؟».

«لقد كنت متصلِّبة كثيراً من جرَّاء الضرب تلك الليلة. لكنَّني أصلحت بعضاً منها فيما بعد».

كما لو كانت تقول: «كنت منهمكةً في لعبة الجسر». فقد أضفى ذلك صبغةً رائعةً من الحقيقة على ما كانت تقوله.

ولم ينطوِ سردها الدفاعيُّ على أيِّ تلميحٍ بالغلبة. قالت هذا وذاك عن مكان سجنها، ولمَّا ثبت أنَّ هذا وذاك صحيحٌ، لم تُبْدِ أيَّ ابتهاجٍ مُعلنٍ إزاء تلك الحقيقة. ولمَّا سُئِلتْ إن كانت تعرف المرأتين في قفص الاتِّهام، وإن كانتا هما فعلاً المرأتين اللتين احتجزتاها وضربتاها، نظرت إليهما بجديَّةٍ للحظة صمت، ثمَّ قالت إنَّها تعرفهما، وإنَّهما فعلتا ذلك.

«هل تريد الاستجواب سيِّد بلير؟».

«لا سيِّدي. ليس لديَّ أسئلة».

أثار ذلك موجةً خفيفةً من الدَّهشة والخيبة في قلب المحكمة؛ إذ كان الجمع يتوق إلى مشاهدة المسرحيَّة. أقرَّ المبتدئون ذلك بغير تعقيب. فإحالة القضيَّة إلى محكمةٍ أخرى كان أمراً مفروغاً منه.

أدلى هالام بإفادته فعلاً، وتلا شهود الإثبات الفتاة في الشهادة.

ثَبُت أنَّ الرجل الذي رآها تُؤخذ بالسيَّارة يعمل في تصنيف الرسائل في مكتب البريد، ويدعى بايبر. كان يعمل على شاحنةٍ بريديَّةٍ صغيرةٍ تُسَيِّرها شركة (لندن، ميدلاند وسكوتيش للسكك الحديديَّة) ما بين لاربورو ولندن. وقد نزل في محطَّة مينشيل في رحلة العودة لأنَّها قريبةٌ من منزله. كان يمشي على طريق لندن الطويل والمستقيم المارّ عبر مينشيل، عندما لحظ أنَّ صبيَّةً كانت تنتظر في موقف حافلات لندن. كانت المسافة التي تفصله عنها لا تزال طويلةً، لكنَّه انتبه إليها لأنَّ حافلة لندن قد تجاوزته منذ نصف دقيقة تقريباً؛ فعرف أنَّها قد فوَّتت الحافلة حين رآها تنتظر هناك، حتَّى قبل أن يصبح موقف الحافلة في مرمى بصره. ولمَّا كان في طريقه إليها، وما زالت تفصل بينهما مسافةٌ قليلة، جاوزته سيَّارةٌ مبتعدة عنه بسرعة لا بأس بها. لم يُلقِ إليها نظرةً حتَّى، فقد كان اهتمامه مُنصبّاً على الفتاة، وفيما لو كان عليه التوقُّف قربها وإخبارها أنَّ حافلة لندن قد فاتتها عندما يصل إليها. ثمَّ رأى السيَّارة وقد أبطأت من سرعتها بالقرب من الفتاة، ورآها تنحني لتحادث مَن في السيَّارة، ثمَّ رآها تصعد فيها وتسير بها بعيداً.

إلى ذلك الحين، كان قريباً بما يكفي ليَصِفَ السيَّارة، لكن ليس بما يكفي ليقرأ الرقم. بل ولم يخطر في باله أمر قراءة الرقم، في أيِّ حال. لقد كان سعيداً فحسب؛ لأنَّ الفتاة حظيت بمن يوصلها بهذه السرعة.

لم يحلف يميناً بأنَّ الفتاة المعنيَّة هي الفتاة نفسها التي رآها تدلي بشهادتها، لكنَّه كان متأكِّداً من ذلك في ذهنه. كانت مرتديةً معطفاً باهتاً وقبَّعةً -يظنُّها رماديَّة اللون- وتنتعل نعالاً أسودَ.

«نِعال؟».

«حسناً. حذاءٌ بلا حزامٍ يمتدُّ على مشط القدم».

«حذاءٌ رسميٌّ».

«حسناً. حذاء رسميٌّ». (لكنَّه أسماه نِعالاً، واتَّضح من نبرة صوته أنَّه قاصدٌ تسميته بالنِّعال، وسيبقى هكذا).

«هل تريد توجيه الأسئلة سيِّد بلير؟».

«لا. شكراً لك سيِّدي».

ثمَّ جاءت روز غلين.

أوَّل انطباعٍ لروبرت كان عن سوقيَّة الاصطفاف المثاليِّ لأسنانها. فقد ذكَّرته بطقم أسنانٍ من صنع طبيب أسنانٍ تنقصه النباهة. لا يمكن قطعاً لتلك الأسنان المثاليَّة المبهرجة أن تكون أسنان روز غلين الطبيعيَّة التي استبدلتها بأسنانها اللبنيَّة، يستحيل أن تكون كذلك.

وبدا أنَّ هيئة المحكمة لم تُعجَب بأسنانها أيضاً، فتوقَّفت روز غلين عن التبسُّم بعد حين. غير أنَّ حكايتها قد كانت مُهلكةً كفاية. كانت قد اعتادت الذهاب إلى منزل فرانشايز للقيام بأعمال التنظيف يوم الاثنين من كلِّ أسبوع. وذات اثنين من أبريل، كانت هناك كالعادة، ولمَّا همَّت بالمغادرة مساءً، سمعت صراخاً آتياً من مكان ما من الطابق العلويِّ. حسبتْ أنَّ شيئاً ما قد ألمَّ بالسيِّدة أو بالآنسة شارب، فوطئت عتبة السلَّم لتستطلع الأمر. بدا الصراخ بعيداً، كما لو كان آتياً من العليَّة. كانت ستصعد إلى الأعلى لولا أنَّ السيِّدة شارب خرجت من غرفة الاستقبال وسألتها عمَّا كانت تفعله. قالت إنَّ أحدهم يصرخ في الطابق العلويِّ، فقالت السيِّدة شارب إنَّه كلام فارغ، وإنَّها تتخيَّل الأشياء، وما إن حان موعد عودتها إلى المنزل. توقَّف الصراخ آنذاك، وبينما

كانت السيِّدة شارب تتكلَّم، وإذ بالآنسة شارب قد نزلت إلى الأسفل. ثمَّ دخلت الآنسة شارب مع السيّدة شارب غرفةَ الاستقبال وهي تقول شيئاً عن «يجب أن تكوني أكثر حذراً». كانت خائفةً ولم تَدْرِ لماذا، وهرعت إلى المطبخ لتأخذ نقودها عن الرفِّ حيث اعتادتا أن تتركاها لها هناك على الدوام، وفَرَّت من المنزل. كان تاريخ ذلك في الخامس عشر من أبريل. وقد تذكَّرت التاريخ لأنَّها قرَّرت أنَّها في المرَّة القادمة التي ستعود فيها إليهما، أي يوم الاثنين المقبل، ستعطي أسرة شارب إخطاراً بترك العمل لديهما في غضون أسبوعٍ، وهذا ما حصل في الحقيقة منذ تاريخ التاسع والعشرين من أبريل.

ارتفعت معنويَّات روبرت قليلاً بما تركته من انطباع سيِّئ لدى الجميع. ابتهاجها الصريح بطريقتها الاستعراضيَّة، بهرجتها المفرطة كما لو كانت ليلة الميلاد، خبثها الواضح، وثيابها الفظيعة، كانت لسوء الحظِّ نقيضاً للشاهد الذي سبقها إلى المنصَّة بتحفُّظه وحسِّه السليم، وذوقه السليم. وبناءً على التعابير التي اعتلت وجوه الحضور، فقد خلصوا إلى كونها ساقطة ولا يمكن أن يأتمنها أحد على ستَّة بنسات.

لكنَّ هذا لن يقلِّل من وطأة الدليل الذي أدلت به توّاً تحت القَسَم.

بعد تركها تغادر، تساءل روبرت ما لو وجد طريقة لضبطها متلبِّسة بتلك السَّاعة، إن جاز التعبير. فهي فتاة ريفيَّة لا قِبلَ لها بشؤون الرهونات. فعلى الأرجح أنَّها لم تسرق تلك السَّاعة لتبيعها، لقد أخذتها لتحتفظ بها لنفسها. إن كان الأمر على تلك الشاكلة، فلربَّما ثمَّة طريقة ما لإدانتها بالسرقة، وتالياً، للطعن في دليلها ضمن ذلك الحدِّ؟

تبعتها صديقتها غلاديس ريز على المنصَّة. وقد كانت غلاديس ضئيلةً وشاحبةً ونحيفةً بقدر ما كانت صديقتها ممتلئةً. كانت خائفةً وتشعر بالقلق، وحلفت اليمين بعد تردُّد. كانت لهجتها في غاية البذاءة حتَّى إنَّ المحكمة

استصعبت متابعتها، واضطرَّ الادِّعاء في مرَّاتٍ عدَّة إلى ترجمة ألفاظها الإنجليزيَّة السوقيَّة لتصير أقرب إلى الكلام العاميّ.

لكنَّ فحوى شهادتها كان واضحاً. في مساء الاثنين، الخامس عشر من أبريل، ذهبت تتمشَّى مع صديقتها روز غلين. لا. ليس إلى مكان بعينه، مجرَّد تمشية بعد العشاء فحسب، إلى هاي وود ذهاباً وإياباً. وأخبرتها روز غلين أنَّها كانت خائفة من منزل فرانشايز لأنَّها سمعت صراخ أحدهم من إحدى الغرف العلويَّة، مع أنَّ أحداً لا يفترض به أن يكون هناك. وقد عرفت، أي غلاديس، أنَّه كان يوم الاثنين، الخامس عشر من أبريل، حين أخبرتها روز بذلك، لأنَّ روز قالت إنَّها ستذهب الأسبوع المقبل لتعطيهما إخطاراً بترك العمل. وقد أعطتهما الإخطار، ولم تعمل لدى أسرة شارب منذ التاسع والعشرين، الواقع يوم الاثنين من أبريل.

قال كارلي، حينما غادرت منصَّة الشهادة: «أتساءل عن الزلَّة التي أمسكتها بها روز».

«وما الذي يجعلك تظنُّ أنَّها تمسك عليها أيَّ شيء؟».

«لا يورِّط الناس أنفسهم في شهادة زورٍ بدافع الصداقة، حتَّى الريفيون الأغبياء، أمثال غلاديس ريز، لا يفعلون ذلك. تلك الفأرة المسكينة التافهة والضعيفة كانت متصلِّبةً من الخوف. لم تكن لتأتي طواعية. لا، ثمَّة مفتاحٌ ما وراء هذا الأوليوغراف[57]، إن ضاقت بك السبل فلربَّما كان البحث عنه أمراً يستحقُّ العناء».

«وهل تعرفين رقم ساعتك؟»، سأل ماريان وهو يقود السيَّارة ماضياً بهما ليُعيدهما إلى منزل فرانشايز، «تلك التي سرقتها روز غلين».

---

57 الأوليوغراف: لوحة زيتية كاذبة، صورة مطبوعة بالألوان. المترجمة.

قالت ماريان: «حتَّى إنَّني لم أعرف أنَّ للساعات أرقاماً».

«الأصليَّة منها تحمل أرقاماً».

«كانت ساعتي أصليَّةً. لكنَّني لا أعرف شيئاً عن رقمها. مع أنَّها كانت مميَّزة للغاية. كان وجهها مطليّاً بالمنيا الأزرق الباهت، وأرقامها من الذَّهب».

«أرقام رومانيَّة؟».

«أجل. لماذا تسأل؟ حتَّى وإن استرجعتُها، فلن أتحمَّل أن أضعها حول معصمي بعد تلك الفتاة».

«لم أفكِّر في استرجاعها بقدر ما فكَّرتُ في تجريمها بسرقتها».

«سيكون ذلك جميلاً».

«بالمناسبة، لقد شبَّهها بِنْ كارلي بـ أوليوغراف».

«ما أظرفه! هذا ما تشبهه فعلاً. هل هذا هو الرجل النحيل الذي أردت أن تحيلنا إليه في اليوم الأوَّل؟».

«إنَّه هو».

«إنَّني سعيدةٌ للغاية لأنَّني رفضت أن أُحال إليه».

قال روبرت بوقارٍ مفاجئ: «آمل أن تبقي سعيدة إلى أن تنتهيَ هذه القضيَّة».

قالت السيِّدة شارب، من المقعد الخلفيِّ في السيَّارة: «لم نشكرك بعد على ضمانتك لنا في إطلاق سراحنا المشروط».

قالت ماريان: «لو أنَّنا بدأنا بشكره على كلِّ ما ندين له به من الآن، فلن ننتهيَ من ذلك أبداً».

فكَّر في ما يمكنه فعله لأجلهما، باستثناء تجنيده لكيڤين ماكديرموت في صفِّهما -الذي حدث بمصادفة الصداقة فقط. ففي غضون أسبوعين من الآن، أو أكثر من ذلك بقليل، ستَمْثُلان للمحاكمة في نورتون، وهما بلا دفاع من أيِّ نوع.

-18-

الثلاثاء كان يوماً مشهوداً للصُّحف.

الآنَ، وبعد أن أصبحت قضيَّة فرانشايز دعوى قضائيَّة، ما عاد في وُسع صحيفتَي (آك إيما) و(واتشمان) أن تشنَّا حملةً عنيفةً عليها بعد الآن، -مع أنَّ صحيفة (آك إيما) لم تقصِّر في تذكير قرَّائها السُّعداء بأنَّها بتاريخ كذا وكذا قالت كذا وكذا، بعبارةٍ واضحةٍ بريئةٍ وعاديَّةٍ في ظاهرها، إلَّا أنَّها تُضمر التعليق المحظور في باطنها ببساطة. وليس لدى روبرت أدنى شكٍّ في أنَّ صحيفة (واتشمان) ستفعل الشيء عينَه يومَ الجمعة، فتنسب الفضل إلى نفسها، وتكون بالفطنة نفسها.

أمَّا بقيَّة الصحافة، التي لم تُبدِ اهتماماً حتَّى الآن بقضيَّةٍ لم تكن الشرطة بصدد إثارتها، فقد استيقظت فرِحَةً بإعلانها عن قضيَّةٍ كانت سبقاً جديداً. حتَّى الصحف اليوميَّة الأكثر موضوعيَّة، قدَّمت تقاريرها عن مثول أسرة شارب أمام المحكمة، تحت عناوين من مثل: قضيَّةٌ استثنائيَّة، و: تهمةٌ نادرة. في حين حملت الصحف الأقلُّ تحفُّظاً أوصافاً مفصَّلةً عن الشخصيَّات الرئيسة في القضيَّة، بما في ذلك قبَّعة السيِّدة شارب، وثياب بيتي كين الزرقاء، وصوراً لمنزل فرانشايز، وللشارع الرئيس في ميلفورد، وصديقة بيتي كين في المدرسة، وأيّ شيءٍ آخر يمتُّ إلى القضيَّة بصلةٍ تقريباً.

أصاب الحزن قلب روبرت. فقد استغلَّت صحيفتا (آك إيما) و(واتشمان) قضيَّة فرانشايز لتصنعا منها سبقاً صحافياً، كلٌّ بحسب الطريقة التي تناسبها. كشيءٍ يُستفاد من قيمته الآنيَّة فقط، ثمَّ يُنسى في الغد. إلَّا أنَّها الآن غدت شأناً قومياً تتناقله كلُّ أنواع الصحف من (كورن وول) إلى (كيثينيس) في إشارةٍ إلى تحوُّلها إلى قضيَّة رأي عامّ.

نـال منـه الشـعور باليـأس للمـرَّة الأولى. كانت الأحـداث تطـارده، ولم يجـد مـلاذاً يحميه. كان الأمـر يتعاظم إلى أن بلـغ ذروةً هائلـةً في نورتون، ولم يكـن لديه شيءٌ ليسـهم بـه في تلك الـذروة، لا شيء على الإطلاق. شـعر كما لـو أنَّـه رجلٌ رأى كومةً مكدَّسـةً مـن الصناديـق آخذةً في الميـلان تجاهه، فلا هـو قادرٌ عـلى التراجـع، ولا هو قادرٌ عـلى منع الانهيـار بإسـنادها إلى دعامةٍ ما.

ازداد تكتُّم رامسدن عبر الهاتف، وقلَّ حماسه. كان رامسدن مُتعِباً. حتَّى الآن، لم يصل آليك رامسدن، ولو من بعيد، إلى الدرجة التي يكون فيها ‹متحيّراً› كما يقال في قصص الفتيان البوليسيَّة. وبذلك، فقد كان رامسدن مُتْعِباً ومتكَتِّماً ونكداً.

بارقة الأمل الوحيدة التي صادفها في الأيَّام التي تلت المحكمة كانت حين طرق ستانلي على بابه صباح الخميس وأطلَّ برأسه منه، ثمَّ دخل حين ظهر له أنَّ روبرت كان بمفرده. كان يفتح الباب بيدٍ ويبحث بيده الأخرى في جيب سرواله.

«صباحك»، قال، «أظنُّ أنَّ عليك تحمُّل مسؤوليَّة هذه. فتلكما المرأتان في منزل فرانشايز لا تشعران بالمسؤوليَّة نهائيّاً. فهما تُبقيان الأوراق النقديَّة في أباريق الشاي والكتب وكلِّ ما هناك. إن كنت تبحث عن رقم هاتفٍ فمن المرجَّح أنَّك لن تجد سوى ورقةٍ من فئة 10 شلنات تدلُّ على عنوان الجزَّار».

أخرج رزمة نقودٍ من جيبه وعدَّ اثنتي عشرة ورقةً من فئة عشرة الجنيهات، بطريقةٍ جدّيَّةٍ، ووضعها على المكتب أمام روبرت.

«مئةٌ وعشرون»، قال، «جميل، أليس كذلك؟».

«لكن، ما هذا؟». سأله روبرت متحيِّراً.

«كومنسكي».

«كومنسكي؟».

«لا تقل لي إنَّك لم تراهن على شيء! بعد أن نصحتنا السيِّدة العجوز بنفسها! أتعني أنَّك نسيت أمر ذلك!».

«ستان، أنا لم أتذكَّر في الآونة الأخيرة وجود شيءٍ يُدعى سباق الألف جنيه. إذاً، فقد راهنْتَ عليه؟».

«وبالستِّينات. هذا هو العُشر الذي أخبرتُها أنَّها ستحصل عليه لقاء نصيحتها».

«لكن... عُشْر؟ أنت تنتهي بلا شكٍّ يا ستان».

«عشرون جنيهاً. ضعف سقفي المعتاد. وقد حصل بيل على نصيبٍ جيِّدٍ أيضاً. سيشتري لزوجته معطفاً من الفرو».

«إذاً. فقد فاز كومنسكي».

«فاز بفارق أربعة أمتارٍ، بسيطرةٍ محكمة، وقد كان ذلك مذهلاً!».

«حسناً»، قال روبرت وهو يجمع الأوراق النقديَّة ويربطها، «إن ساءت الأحوال أكثر من ذلك، وانتهى بهما الأمر إلى الإفلاس، فيمكن للسيِّدة العجوز أن تعمل بالتجارة النزيهة دوماً بصفتها مستشارة رهانات».

للحظةٍ من الزَّمن، رمق ستانلي وجهه بصمت، ثمَّة شيءٌ لا ينمُّ عن السرور في نبرته كما هو واضح. قال له: «الأمور سيِّئةٌ للغاية؟».

«وخيمة»، قالها روبرت مستعيناً بواحدةٍ من كلمات ستانلي التي يستعملها للوصف.

«ذهبت زوجة بيل إلى المحكمة»، قال ستان بعد وهلة، «قالت إنَّها لن تصدِّق الفتاة حتَّى وإن قالت لها إنَّ في الشلن اثني عشرَ بنساً».

قال روبرت وقد فوجئ: «لماذا؟».

«قالت إنَّها بارعةٌ للغاية، إلى الدرجة التي يصعب فيها تصديقها. قالت إنَّ فتاةً في عمر الخامسة عشرة لا يمكن أن تكون بهذه البراعة أبداً».

«هي في السادسة عشرة الآن».

«حسناً. السادسة عشرة. قالت إنَّها كانت يوماً ما في الخامسة عشرة من عمرها، وكلُّ صديقاتها الفتيات كذلك، وإنَّ تلكما العينين المُشْرَعَتين على الدَّهشة لا يمكن لهما أن تخدعاها ولو للحظة».

«لكنَّني أخشى كثيراً أنَّها ستخدع هيئة المحلَّفين».

«لن يحصل إن كانت هيئة محلَّفيك كلُّها من النساء. أظنُّ أنَّه ما من سبيلٍ لاحتيالها عليهنَّ؟».

«لا تنقصها تدابير هيرودس[58]. بالمناسبة، ألا تريد أن تعطيَ السيِّدة شارب هذه النقود بنفسك؟».

---

58 هيرودس: (72 ق.م- 2 م) أحد ملوك اليهود، حافظ على حكمه بكلّ الوسائل. يُقال إنّه ذبح اثنين من أبنائه ولم يثق بأحدٍ من أسرته. وعُرف بمذبحة أطفال بيت لحمِ خوفاً من ولادة من ينزع المُلك منه. المترجمة.

«ليس أنا من سيعطيها بل أنت، إن أحببت الذهاب إليهما في وقتٍ ما من اليوم. لكن أرى أن تستردَّها ثانيةً وتودِعها في المصرف لأجلها، وإلَّا فستُخرجانها من إحدى الزهريَّات بعد سنواتٍ، وتتساءلان متى وضعتاها هناك».

ابتسم له روبرت وهو يدسُّها في جيبه، منصتاً إلى وقع خطوات ستانلي الراحلة. غرابة الناس شأنٌ لا ينتهي. لقد حسب أنَّ ابتهاج ستانلي في أثناء عدِّه لتلك الأوراق النقديَّة أمام السيِّدة العجوز هو أمرٌ مفروغٌ منه، لكنَّه أصيب بالحَرَج عوضاً عن ذلك. وتلك الحكاية عن النقود في أباريق الشاي هي مجرَّد حكايةٍ مُختلَقَة.

في فترة ما بعد الظهيرة، أخذ روبرت النقود إلى منزل فرانشايز، وللمرَّة الأولى، رأى دموعاً في عينَي ماريان. سرد لهما الحكاية كما سردها ستانلي -والأباريق وكلّ ذلك- وأنهى كلامه بقوله: «وهكذا جعلني مندوباً عنه». تلك هي اللَّحظة التي امتلأت فيها عينا ماريان بالدموع.

«لماذا يرفض إعطاءها لنا بنفسه؟»، سألته وهي تشير إلى النقود، «ليس من عادته أن يكون بهذا... هذا...».

«أظنُّه يفكِّر في حاجتكما إليها الآن، ما يجعل المسألة حسَّاسةً بدلاً من كونها مسألة عاديَّة. إذ لمَّا أسديتِ له النصيحة، كنتما السيِّدتين شارب الثريّتين اللتين تعيشان في منزل فرانشايز، وكان سيدفع المبلغ بنفسه مع الشكر. لكنَّكما الآن امرأتان، دفعت كلٌّ منهما مئتي جنيهٍ لإطلاق سراحها المشروط، إضافةً إلى مبلغٍ للضمان عن كلِّ واحدة، ناهيكما عن المصاريف القادمة للاستشارة القانونيَّة، وبهذا أظنُّ أنَّ ستانلي يرى أنَّكما لستما من الأشخاص الذين يمكن للمرء أن يعطيهم النقود ببساطة».

«حسناً»، قالت السيِّدة شارب، «ليست كلُّ نصائحي سديدة. ضمن هامش أربعة أمتارٍ في الجانب الأيمن. لكنَّني لا أنكر سعادتي الكبيرة برؤية هذه النسبة. كان ذلك لطفاً كبيراً من الفتى».

سألت ماريان مرتابة: «هل سنقبل بالاحتفاظ بنسبةٍ عاليةٍ مثل عشرةٍ في المئة؟».

«هكذا جرى الاتِّفاق»، قالت السيِّدة شارب برصانة، «لولاي أنا لخسر قيمة الرهان التي كان سيدفعها لأجل بالي بوغي في هذه اللَّحظة. بالمناسبة، علامَ حصل بالي بوغي؟».

«إنَّني سعيدةٌ بمجيئك»، قالت ماريان متجاهلةً سؤال أمِّها الاستفهاميّ، «فقد حدث شيءٌ غير متوقَّع. عادت إليَّ ساعتي».

«تقصدين أنَّك وجدتِها؟».

«لا. لا. بل هي أرسلتها إليَّ عبر البريد لتعيدَها. انظر!».

أخرجت له صندوقاً كرتونيّاً صغيراً، شديد الاتِّساخ، يحوي ساعتها ذات الوجه المطليّ بالمينا، الساعة المحاطة بغلاف، غلاف ورقيّ مربّع ورديّ اللون، ذي نقوشٍ دائريَّةٍ كُتب فيها (سن ڤالي-ترانسڤال)[59]. ومن الواضح أنَّ هذا الغلاف قد بدأ حياته يعانق برتقالةً ما.

وقد طُبع على قصاصةٍ من ورق: لا أريد شيئاً منها. وعلى غرار الأُمِّيين، نُقِّطَ حرف الـ I الكبير كما يُنقَّط الحرف الصغير.

«برأيك، ما الذي جعلها تتعفَّف عنها؟»، تساءلت ماريان.

---

59 مدن في جنوب أفريقيا كانت ضمن المستعمرات البريطانية، واشتهرت بتصدير البرتقال. المترجمة.

«لم أفكِّر للحظةٍ في أنَّها قد تعفَّفت عنها»، قال روبرت، «لا يمكنني تصوُّر أنَّها قد تستغني عن أيِّ شيءٍ وقع تحت يدها».

«لكنَّها استغنت وأعادتها».

«لا. ثمَّة شخصٌ ما قد أعادها. شخصٌ يشعر بالخوف. شخصٌ لديه ضميرٌ حيٌّ، أيضاً. لو أرادت روز غلين التخلُّص منها لرمتها في بركةٍ ما من دون تفكير. لكنَّ (س) تريد التخلُّص منها وتعويضك في الوقت نفسه. وتعاني (س) من أمرين: ضميرٌ نادمٌ وروحٌ خائفة. والآن، من ذا الذي قد يؤنِّبه ضميره لأجلك في هذا الحين؟ غلاديس ريز؟».

«أجل بالتأكيد. أنت محقٌّ بشأن روز. كان عليَّ أن أفكِّر في ذلك. ما كانت لتعيدها قطُّ. كانت ستتحكَّم بها عمَّا قريب. أتظنُّ أنَّها قد أعطتها لغلاديس ريز؟».

«قد يفسِّر هذا الكثير. قد يفسِّر كيف استطاعت روز أن تحضرها إلى المحكمة لتؤيِّد قصَّتها عن ‹الصراخ›. أعني إن كانت هي من تلقَّى البضاعة المسروقة. وإنَّكِ إذا ما فكَّرتِ في الأمر، فستجدين أنَّ فرصة روز في أن تضع ساعة في يدها، كثيراً ما رآها أهالي ستابلز في معصمك بلا شكٍّ، هي فرصةٌ ضعيفةٌ للغاية. ففي الأرجح أنَّها قد ‹مَنَّت› بها على صديقتها. ‹أحضرتُ شيئاً صغيراً!› من أين هي الفتاة ريز؟».

«لا أدري من أين هي، من مكانٍ ما في الجانب الآخر من الريف حسبما أظنُّ. لكنَّها تأتي للعمل في تلك المزرعة المنعزلة بعد مزرعة ستابلز».

«منذ وقتٍ طويل؟».

«لا أدري. لا أظنُّ ذلك».

«إذاً، كان بإمكانها وضع ساعةٍ جديدةٍ في يدها من دون أن تُسأل عنها. أجل. أظنُّ أنَّ غلاديس هي من أعادت لكِ السَّاعة. إن كان ثمَّة شاهدٌ مرغمٌ على الشهادة يوم الاثنين، فلا بدَّ أنَّها غلاديس. وإن كانت غلاديس متزعزعة إلى درجة أن تعيدَ إليك ما تملكين، فهذا يعني أنَّ بزوغ فجر الأمل قد بات وشيكاً».

قالت السيِّدة شارب: «لكنَّها شهدت زوراً. حتَّى الحمقى من أمثال غلاديس ريز لديهم معرفةٌ طفيفةٌ بأنَّ هذا لن يمرَّ مرور الكرام في محكمةٍ بريطانيَّة».

«إن أشار عليها أحدٌ ما، فيمكنها طلب الاسترحام بسبب تعرُّضها للتهديد بالابتزاز في حال رفضت أن تشهدَ».

رمقته السيِّدة شارب بعينيها، وسألته: «أليس ثمَّة شيءٌ ما في القانون الإنجليزيِّ بخصوص الطعن في شاهد؟».

«بل يوجد الكثير. لكنَّني لا أعتزم التقدُّم بأيِّ طعن».

«وماذا تعتزم أن تفعل؟».

«يجب أن أفكِّر مليّاً. فالوضع حسَّاس».

«سيِّد بلير، لطالما كانت تعقيدات القانون خارج اهتماماتي، وفي الأرجح أنَّها ستبقى هكذا دوماً. لكنَّك لن تُبعَد عن المهنة بسبب النيل من هيبة المحكمة أو ما شابه. أليس كذلك؟ لا يسعني تصوُّر الحال التي سنكون عليها في الوضع الرّاهن لولا دعمك».

قال روبرت إنَّه لا يريد أن يبتعدَ عن المهنة لأيِّ سببٍ كان، وإنَّه محام نظيف يتمتَّع بسمعةٍ طيّبة ومبادئ أخلاقيَّةٍ رفيعة، وليس هناك ما يدعوها لتخاف عليه أو على نفسها.

قال: «إن أزحنا دعامة غلاديس ريز من تحت قصَّة روز فستنهار قصَّتهم برمَّتها، فهذا هو دليلهم الأقوى: سماعُ روز الصراخ قبل أن تُوجَّه أيُّ تهمةٍ إليكما. أظنُّكما لن تتمكَّنا من رؤية وجه غرانت عندما كانت روز تدلي بشهادتها؟ لا بدَّ أنَّ التفكير المأسور بالوساوس يعوق عمل إدارة التحقيقات الجنائيَّة. من المحزن أن تعتمدَ قضيَّتك كلُّها على شخصٍ تأنف أن تمسَّه بمجداف قارب. والآن، عليَّ العودة. هل يمكنني أخذ الصندوق الكرتونيِّ الصغير والرسالة المطبوعة على قصاصة الورق؟».

«كان ذكاءً منك أن تدرك أنَّ روز لم تُعِدْها»، قالت ماريان وهي تضع قصاصة الورق في الصندوق وتعطيه إيَّاه، «كان عليك أن تعمل محقِّقاً».

«إمَّا محقِّقاً وإمَّا عرَّافاً. يمكن استنتاج كلِّ شيءٍ من بقعة البيض التي على الصدريَّة. أورڤوار».

قاد روبرت سيَّارته عائداً إلى ميلفورد وعقله ممتلئٌ بهذه الاحتماليَّة الجديدة. ليس ذلك هو الحلَّ لمأزقهما، لكنَّه قد يكون حبل النَّجاة.

في المكتب، وجد السيِّد رامسدن في انتظاره. طويلٌ ونحيلٌ وأشيبُ ونكد.

«أتيت لرؤيتك سيِّد بلير. لأنَّ ما أريد قوله لا يمكن قوله بوضوحٍ عبر الهاتف».

«حسناً؟».

«سيِّد بلير، إنَّنا نهدر أموالك. هل تعرف تعداد السكَّان البِيض في العالم؟».

«لا. لا أعرف».

«ولا أنا أعرف أيضاً. لكنَّك تطلب إليَّ أن أُخرج لك هذه الفتاة من بين سكَّان العالم البيض. خمسة آلاف رجلٍ يعملون لعامٍ كاملٍ سيعجزون عن

إخراجها لك من بينهم. قد يجدها أحد الرجال غداً. إنَّه أمرٌ مرهونٌ بالمصادفة البحتة».

«لكنَّ الأمر كذلك دوماً».

«لا. في الأيَّام الأولى كانت الاحتمالات متساوية. غطَّينا الأماكن الواضحة، والموانئ والمطارات وأماكن السفر، والأماكن المخصَّصة ‹لشهر العسل›. ولم أهدر لك وقتاً أو مالاً في أيِّ سفريَّات. إذ لديَّ صلاتٌ في كلِّ المدن الكبيرة، وكثيرٍ من المدن الصغيرة، وقد أرسلت أطلب إليهم: ‹ابحثوا لي عن فلانةٍ إن كانت قد نزلت في واحدٍ من فنادقكم›. وكان الجواب عندي في غضون ساعاتٍ قليلة. إجاباتٌ من كلِّ أرجاء بريطانيا. حسناً. انتهينا من هذا. ولم يتبقَّ أمامنا سوى مسألةٍ صغيرةٍ تدعى: بقيَّة العالم. ولا يروقني هدر أموالك سيِّد بلير، لأنَّ هذا هو ما سيكلِّفه الأمر».

«هل أفهم من هذا أنَّك تستسلم؟».

«لم أقل هذا تماماً».

«تريد أن أصرفك لأنَّك أخفقت؟».

بدا تشنُّج السيِّد رامسدن واضحاً إزاء كلمة ‹أخفقت›.

«إنَّه هدر لأموالٍ كثيرةٍ لأجل احتمالٍ ضعيف. وهو ليس عرضاً تجاريّاً يا سيِّد بلير، ولا حتَّى مقامرةً رابحة».

«حسناً. لديَّ شيءٌ حاسمٌ لبحثك، كافٍ لإرضائك حسبما أظنُّ»، أخرج الصندوق الكرتونيَّ الصغير من جيبه، «ثمَّة فتاةٌ بين شهود يوم الاثنين تُدعى غلاديس ريز. كان دورها أن تدعم شهادة صديقتها روز غرين لتفيد بأنَّها أخبرتها عن صراخٍ في منزل فرانشايز قبل وقتٍ طويل من اهتمام الشرطة

بالمكان. حسناً. لقد أيّدت شهادتها على نحوٍ جيِّد، لكن ليس بسلاسةٍ كما يقال، فقد كانت متوتِّرةً ومرغمة، وقد بدا واضحاً أنَّها كانت كارهةً لذلك -على عكس صديقتها التي كانت تستمتع بأبهى لحظات حياتها. اقترح أحد زملائي المحامين أنَّ روز أحضرتها للشهادة بالإكراه، لكنَّ ذلك بدا مستبعداً حينئذ. إلَّا أنَّ الساعة التي سرقتها روز من الآنسة شارب أعيدت إليها في هذا الصندوق مرفقةً برسالةٍ مطبوعةٍ وصلتها عبر البريد هذا الصباح. والآن، لم تكن روز لتكبِّد نفسها عناء إعادة الساعة؛ فليس لديها ضميرٌ على الإطلاق. ولم تكن لتكتب رسالة؛ فليست لديها رغبةٌ في إعادة أيِّ شيء. لا مفرَّ من الاستنتاج بأنَّ غلاديس قد تسلَّمت الساعة- ففي كلِّ الأحول، لن تتمكَّن روز من وضعها في يدها من دون أن ينكشف أمرها- وبهذا تمكَّنت روز من إجبارها على دعم أكاذيبها».

توقَّف هنيهةً مُفسحاً في المجال لرامسدن كي يعقِّب على الأمر. أومأ السيِّد رامسدن برأسه. لكنَّها كانت إيماءة شخصٍ مهتمٍّ.

«لا يمكننا الآن الوصول إلى غلاديس بأيِّ حجَّةٍ كانت، وإلَّا سنُتَّهم بترويع الشهود. أعني أنَّ حثَّها على التراجع عن قصَّتها هو أمرٌ غير واردٍ قبل محكمة الجنايات. كلُّ ما في يدنا هو أن نجرَّها إلى الانهيار في محكمة الجنايات. يمكن لكيڤين ماكدريموت فعل ذلك، في الأرجح، من خلال قوَّة الشخصيَّة والأسئلة المتلاحقة، لكنَّني أشكُّ في ذلك. وفي كلِّ الأحوال، قد توقفه المحكمة قبل أن يحصل على شيء. فهُم يجنِّدون أنفسهم لمتابعته من كلِّ الجهات ما إن يبدأ باستجواب الشاهد».

«حقّاً؟».

«ما أريده أن أكون قادراً على تقديم هذه القصاصة المطبوعة كدليلٍ أمام المحكمة. أن أكون قادراً على إثبات أنَّها كتابة غلاديس. فدليل وجود السَّاعة

المسروقة عندها هي، يمكِّننا من التلميح إلى أنَّ روز قد مارست عليها الضغط لتشهدَ على شيءٍ غير صحيح. وحينها، سيؤكِّد لها ماكديرموت أنَّها قد لا تُعاقَب إن هي شهدت زوراً تحت وطأة الابتزاز، فتنهار وتعترف».

«إذاً، فأنت تريد عيِّنةً أخرى من خطِّ غلاديس ريز».

«أجل، فكَّرت في ذلك توّاً وأنا في طريق عودتي. لديَّ تصوُّرٌ أنَّ وظيفتها الحاليَّة هي وظيفتها الأولى، ما يعني أنَّها لم تترك المدرسة منذ وقتٍ طويل. لربَّما وفَّرتْ لنا مدرستها عيِّنةً أو لعلَّها تكون المكان الذي سننطلق منه. إنَّ حصولنا على عيِّنةٍ من دون اللجوء إلى أساليب استفزازيَّة هو أمرٌ يصبُّ في مصلحتنا كثيراً. أتظنُّ أنَّ في استطاعتك فعل شيءٍ حيال ذلك؟».

«أجل. سأحضر لك عيِّنة»، قالها رامسدن وكأنَّه يقول: كلِّفني بمهمَّةٍ منطقيَّةٍ وستُنَفَّذ، «هل ذهبت الفتاة ريز إلى المدرسة هنا؟».

«لا. فهمت أنَّها تنتمي إلى الطرف الآخر من الريف».

«حسناً. سأبحث في هذا. أين تعمل الآن؟».

«في مكانٍ منعزلٍ يدعى مزرعة (برات)، بعد الحقول التي تلي مزرعة (ستابلز)، الواقعة خلف منزل فرانشايز».

«وماذا عن البحث المتعلِّق بالفتاة كين...».

«ألم يعد هناك ما يمكن أن تفعله ضمن لاربورو نفسها؟ أعرف أنَّني لا أستطيع أن أملي عليك عملك، لكنَّها كانت في لاربورو».

«أجل، وقد تعقَّبنا الأماكن التي كانت فيها. كانت أماكن عامَّة. لكن، كلُّ ما نعرفه عن الرجل (س) أنَّه لربَّما كان يعيش في لاربورو. لعلَّها ذهبت إليه في مسكنه. ففي النهاية، شهرٌ -أو ما يقرب الشهر- هو مدَّةٌ غريبةٌ لذلك

النوع من الاختفاء، سيِّد بلير. فذلك النوع من الأشياء يستمرُّ عادةً من عطلة نهاية الأسبوع إلى عشرة أيّامٍ لا أكثر. لربَّما ذهبت معه إلى المنزل فحسب».

«أتظنُّ أنَّ هذا قد حصل؟».

«لا»، قال رامسدن ببطء، «إن كنت تريد رأيي صراحةً يا سيّد بلير، فهو أنّنا قد أضعناها عند أحد المخارج».

«المخارج؟».

«لقد خرجت من البلدة، لكن في هيئةٍ مختلفة، بحيث إنَّ صورتها الفوتوغرافيَّة التي لا يذوب فيها الزُّبد في فمها، لم تكن تشبهها على الإطلاق».

«لماذا في هيئةٍ مختلفة؟».

«حسناً. لا أظنُّ أنَّ لديها جواز سفرٍ مزيّفاً، وهكذا يفترض أن تسافر على أنّها زوجته».

«أجل، طبعاً. أمرٌ مفروغٌ منه».

«وهي لا تستطيع فعل ذلك بالمظهر الذي كانت تبدو عليه. لكنَّها بتصفيف شعرها ورفعه ووضع بعض مساحيق التجميل، ستبدو مختلفةً تماماً. ليست لديك فكرةٌ عن التغيير الذي يطرأ على المرأة عندما تصفِّف شعرها في تسريحةٍ مرتفعة. لَمَّا رأيت زوجتي أوّل مرَّة في تسريحةٍ من ذلك النّوع لم أعرفها. لقد ظهرت مختلفةً للغاية، إلى درجة أنّني شعرت بخجلٍ شديدٍ منها، وفي حال أحببت أن تعرف، فنحن متزوّجان منذ عشرين عاماً».

قال روبرت بحزن: «أنت تظنُّ أنَّ هذا ما حدث إذاً. أتوقَّع أن تكون محقّاً».

«وهذا ما يدعوني إلى رفض هدر المزيد من أموالك، سيِّد بلير. لا طائل من البحث وراء الفتاة التي في الصورة، لأنَّ الفتاة التي نبحث عنها لا تشبهها في

شيء. لَّما كانت تشبه الصورة، تعرَّفها الناس من النظرة الأولى. في دور السينما وغيرها. تعقَّبناها بسهولة. في الفترة التي كانت فيها في لاربورو وبمفردها. لكن، ما تلا ذلك هو مجرَّد عدم. فصورتها لم تُنبئ عنها لأيِّ شخصٍ كان قد رآها بعد أن خرجت من لاربورو».

جلس روبرت يخربش على أوراق النشَّاف الجديدة والجميلة الخاصَّة بالآنسة تاف. يرسم نمطاً من نقوشٍ متداخلة، أنيقةٍ ومزخرفة. «أنت تدرك ما معنى هذا، أليس كذلك؟ نحن غارقون».

«لكن لديك هذا». احتجَّ رامسدن وهو يشير إلى قصاصة الورق المطبوعة التي أُرفقَت بالساعة.

«هذا يدمِّر قضيَّة الشرطة فقط. إلَّا أنَّه لا يدحض قصَّة بيتي كين. كي تتخلَّص أسرة شارب من هذا، لا بدَّ من إثبات بطلان قصَّة الفتاة. وسبيلنا الوحيد إلى ذلك هو باكتشاف المكان الذي قضت فيه تلك الأسابيع».

«أجل. أفهم».

«أظنُّك قد تفقَّدت أصحاب المُلكيَّات الخاصَّة».

«تقصد الطائرات الخاصَّة؟ أجل. الشيء نفسه حصل هناك. ليست لدينا صورةٌ للرجل، لذا قد يكون أيَّ واحدٍ بين مئات مالكي الطائرات الخاصَّة التي قد يسافر على متنها إلى الخارج برفقة أنثى في الوقت المحدَّد».

«أجل. إنَّنا غارقون حتَّى أنوفنا. لا عجب أنَّ بِن كارلي كان مستمتعاً».

«أنت متعَبٌ سيِّد بلير. لقد مررت بوقتٍ عصيب».

قال روبرت ساخراً: «أجل. فلم تجرِ العادة أن يُثقَلَ كاهل محامٍ ريفيٍّ بشيءٍ كهذا».

نظر إليه رامسدن وقد بدا على محيَّاه الرامسدنيّ ما يقال عنه ابتسامة، وقال: «بالنسبة إلى محامٍ ريفيٍّ، يبدو لي، سيِّد بلير، أنَّ عملك ليس سيِّئاً إطلاقاً».

قال روبرت، وقد ابتسم أخيراً: «شكراً». عمليّاً، أن يقول آليك رامسدن شيئاً كهذا هو أمرٌ غير عاديٍّ.

«لا يجدر بي أن أدعَ ذلك يحبطك. لديك تأمينٌ ضدَّ أسوأ الظروف -أو سيكون لديك، عندما أحصل على دليل الطباعة».

ترك روبرت القلم الذي كان يخربش به. «لا يهمُّني التأمين»، قال هابّاً فجأة، «ما يهمُّني هو العدالة. في هذه اللَّحظة، ليس لديَّ سوى طموحٍ واحدٍ في الحياة. وهو دحض قصَّة بيتي كين في جلسة محاكمةٍ علنيَّة، وأن يُذاعَ كلُّ ما فعلته في تلك الأسابيع على الملأ، بحضورها، وبدعم شهودٍ نزيهين كما ينبغي. ما هي احتمالات تمكّننا من ذلك برأيك؟ وما الذي... أخبرني ما الذي لم نجرِّبه بعد ويمكن أن ينفعنا؟».

«لا أدري»، قال السيِّد رامسدن بجدّيَّة، «الصلاة. ربَّما».

-19-

كان هذا هو ردّ فعل العمَّة لين أيضاً، وقد كان غريباً بما يكفي.

تصالحت العمَّة لين تدريجيّاً مع ارتباط روبرت بقضيَّة فرانشايز؛ إذ تحوَّلت من قضيَّةٍ مُخجلةٍ على المستوى الريفيِّ، إلى قضيَّةٍ هامة على المستوى القوميِّ. ففي النهاية، لم يكن من المُشين الارتباط بقضيَّةٍ تتحدَّث عنها صحيفة (التايمز). لم تقرأ العمَّة لين صحيفة (التايمز) طبعاً، لكنَّ أصدقاءها فعلوا؛ القسّ، والعقيد العجوز ويتاكر، والفتاة في متجر (بووتس)، والسيّدة وارين العجوز القادمة من ويموث (سوان إيج). حتَّى وإن كان الدّفاع عن تهمة ضرب فتاةٍ لا حول لها ولا قوَّة، فقد كان التَّفكير في أنَّ على روبرت أن يكون محامي دفاعٍ في محاكمةٍ مشهورةٍ لهو أمرٌ يبعث على سرورٍ غريب. ومن دون شكٍّ، لم يخطر في بالها نهائيّاً، ولا حتَّى كاحتمالٍ بعيد، أنَّ روبرت لن يكسب القضيَّة، فقد عدَّت أنَّ ذلك أمرٌ مفروغ منه، بهدوءٍ مطلق. ففي المقام الأوَّل، روبرت نفسه شخصٌ ذكيٌّ جدّاً، وفي المقام الثاني، لا يمكن للخسارة أن تجدَ سبيلاً يصل بها إلى شركة بلير وهايوارد وبينيت. حتَّى إنَّها أسفت في قرارة نفسها لمّا فكّرت في أنَّ انتصاره سيحدث في نورتون، لا في ميلفورد حيث يكون الكلُّ حاضراً لرؤيته.

كانت أولى بوادر الشكِّ مفاجئةً لها، ولم تكن صادمةً لها؛ إذ إنَّها لا تزال عاجزةً عن تصوُّر احتمال الخسارة. لكنَّها خاطرٌ جديدٌ لديها بالتأكيد.

«لكن يا روبرت»، قالت وهي تؤرجح قدمها أسفل الطاولة بحثاً عن مسند القدم، «إيَّاك أن تفكِّر للحظةٍ في أنَّك ستخسر القضيَّة، هل تفكِّر في ذلك؟».

«بل على العكس»، قال روبرت، «أنا لم أفكِّر للحظةٍ في أنَّنا سنكسبها».

«روبرت!».

«في المحكمة، أمام هيئة المحلَّفين، جرت العادة أن تُعرض القضيَّة على هيئة المحلَّفين. حتَّى الآن، لا قضيَّة بين أيدينا لنعرضها. ولا أظنُّ أنَّ هذا الأمر سيُعجب هيئة المحلَّفين إطلاقاً».

«تبدو منكَّداً تماماً يا عزيزي. أظنُّ أنَّك قد سمحت لهذا الشيء أن يؤثِّر في أعصابك. لِمَ لا تأخذ إجازةً بعد ظهر الغد، وتنظِّم مباراة غولف رباعيَّة؟ ففي الآونة الأخيرة، لم تلعب الغولف على الإطلاق، ولا يمكن أن يكون لهذا تأثيرٌ صحيٌّ على كبدك. أعني عدم ممارسة الغولف».

قال روبرت باستغراب: «لا أصدّق أنَّني قد كنت يوماً مهتماً بمصير قطعة (كوتا بيرشا) في ملعب غولف. لا بدَّ أن يكون ذلك في حياةٍ أخرى».

«هذا ما أقوله يا عزيزي. إنَّك تفقد حسَّك بالتوازن. فلا داعي لأن تسمح لهذه القضيَّة بقضِّ مضجعك. ففي النهاية، كيڤين معك».

«أشكُّ في حقيقة ذلك».

«ماذا تقصد عزيزي؟».

«لا أصدِّق أنَّ كيڤين سيتفرَّغ ويسافر إلى نورتون ليدافع عن قضيَّةٍ محكومٍ عليها بالخسارة سلفاً. لديه لحظاته الواهمة، لكنَّها لا تطغى على حسِّه السليم كليّاً».

«لكنَّ كيڤين قطع وعداً بالمجيء».

«لَمَّا قطع ذلك الوعد، كان الوقت متاحاً للحصول على دفاعٍ ملموس. والآن، يمكننا عدُّ الأيَّام التي تفصلنا عن محكمة الجنايات، وليس لدينا دليلٌ بعد -ولا حتَّى احتمال بالعثور على دليل».

نظرت إليه الآنسة بينيت من فوق ملعقة حسائها، وقالت: «كما تعرف يا عزيزي فإنَّني لا أظنُّك تتحلَّى بالإيمان الكافي».

أمسك روبرت نفسه عن البوح بأنَّه لا يتحلَّى بشيءٍ منه على الإطلاق. ليس عندما يتعلَّق الأمر بالتدخُّل الإلهيِّ في قضيَّة فرانشايز، في أيِّ حال.

«تسلَّح بالإيمان يا عزيزي»، قالت بسعادةٍ، «وسيسير كلُّ شيءٍ على ما يرام. سترى ذلك». من الواضح أنَّ الصّمت الثقيل الذي أعقب ذلك أقلقها قليلاً، لذلك أضافت: «لو كنتُ أعلم، يا عزيزي، أنَّك متشكِّكٌ في القضيَّة أو غير سعيدٍ بها لأكثرتُ من صلواتي لأجلها منذ زمنٍ طويل. أخشى أنَّني سلَّمت بأنَّكما، أنت وكيڤين، ستتدبَّران أمرها فيما بينكما».

‹أمرها› أي العدالة البريطانيَّة. «لكنَّني الآن، وبعد أن علمت أنَّك قلقٌ بشأنها، فإنَّني سأؤدِّي حتماً التضرُّعات الخاصَّة».

كانت نبرة الارتياح العاديَّة، التي نطقت بها تلك الكلمات، كفيلةً باستعادة روبرت لمزاجه الجيِّد.

فقال بصوته ذي الطبيعة الرائقة: «لا. شكراً لك حبيبتي».

وضعت الملعقة في طبقها الفارغ وأسندت ظهرها؛ وقد تبدَّت على وجهها الورديِّ المستدير ابتسامةٌ صغيرةٌ تنمُّ عن المازحة. «تلك اللَّهجة أعرفها»، قالت، «تعني أنَّك تسايرني. لكن، أنت تعرف أنَّك لست في حاجةٍ إلى ذلك،

فأنا محقَّةٌ في هذا، وأنت المخطئ. فالآية التي تشير إلى قدرة الإيمان على تحريك الجبال، واضحةٌ تماماً[60]. تكمن الصعوبة في أنَّ تحريك جبلٍ يتطلَّب إيماناً هائلاً، وعمليّاً، يستحيل أن نمتلئ بإيمانٍ عميق إلى هذا الحدِّ، وبهذا، فلن تتحرَّك الجبال أبداً. لكن، في حالاتٍ أخفّ وطأةً -كالحالة الراهنة- من الممكن أن يكون لديك الإيمان الكافي لهذا الحدث. لذا، بدلاً من أن تُسْلِم نفسك لليأس بكلِّ طواعيّة، فلتجرِّب، يا عزيزي، أن تثق بالنتيجة قليلاً. حتَّى ذلك الحين، سأذهب إلى كنيسة القدِّيس ماثيو، وأمضي الوقت في الدُّعاء لك بالحصول على دليلٍ صباح الغد. فذلك سيجعلك أكثر سعادةً».

أوَّل مَن خطر في ذهن روبرت حين دخل آليك رامسدن عليه الغرفة في الصباح التالي ومعه الدليل، هو أنَّ شيئاً لن يحول دون أن تنسبَ العمَّة لين الفضل إلى نفسها، ولن يجدَ بُدّاً من الإتيان على ذكر ذلك أمامها، فأوَّل ما ستَسأل عنه في أثناء مائدة الغداء، بنبرتها الواثقة، سيكون: «حسناً يا عزيزي، هل وصلك الدليل الذي صلَّيتُ لتحصل عليه؟».

كان رامسدن مغتبطاً بنفسه، ومستمتعاً في آنٍ معاً. مصطلحاتٌ تخصُّ رامسدن وحده، يصعب أن تجد، في أيِّ حالٍ، ترجمةً مقبولةً لها بين صفوف العامَّة.

«يجدر بي الاعتراف صراحةً، يا سيِّد بلير، أنَّك لمَّا أرسلتني إلى تلك المدرسة، لم أعلِّق آمالاً عريضةً على ذلك. لقد ذهبت لأنَّها بدت لي مكاناً جيّداً للانطلاق منه، مثل أماكن كثيرةٍ غيره، وأنَّني قد أتمكَّن من العثور على طريقةٍ لأتعرَّف إليها عبر الموظَّفين، أو بالأحرى ليتعرَّف إليها واحدٌ من صبياني. حتَّى إنَّني رتَّبت الكيفيَّة التي سنحصل بها على رسالةٍ مطبوعةٍ منها دون

---

60 إنجيل متّى (17:20): لو كان لكم إيمانٌ مثل حبّة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم. المترجمة.

إحداث جلبة، ما إنْ تخرج مع واحدٍ من الصبية. غير أنَّك عجيبٌ يا سيِّد بلير. فقد خطرت لك الفكرة الصحيحة في نهاية الأمر».

«تقصد أنَّنا حصلنا على ما نريد!».

«لقد رأيت معلِّمة صفِّها، وقد كنت صريحاً تماماً معها بخصوص ما كنَّا نريده، ولِمَ. ضمن حدود الصراحة التي يتطلَّبها ذلك. قلت إنَّ غلاديس مشتبهٌ بها كشاهدة زور -تلك قضيَّةٌ عقوبتها الأشغال الشاقَّة- لكنَّنا نعتقد أنَّها تعرَّضت للابتزاز لإكراهها على الشهادة، وكي نثبت تعرُّضها للابتزاز فسنكون في حاجة إلى عيِّنةٍ من أيِّ رسائل مطبوعةٍ سبق لها أن كتبتها. حسناً، حين أرسلتَني إلى هناك، فقد سلَّمتُ بأنَّها لم تطبع حرفاً واحداً منذ خروجها من روضة الأطفال. لكنَّ معلِّمة صفِّها -الآنسة بغالي- طلبت أن أمنحها دقيقةً للتفكير. وقالت: «بالتأكيد، لقد كانت بارعةً في الرَّسم، وإن لم يكن لديَّ شيء، فلا بدَّ أنَّ معلِّمة الرَّسم الزائرة لديها شيء، فإنَّنا نحبُّ الحفاظ على إنجازات طلَّابنا من أعمالهم المبدعة». أعتقد أنَّ ذلك، في سبيل السلوان عن كلِّ ما تحمَّلوه من الأشياء الرديئة، أولئك المساكين. حسناً، لم أضطرَّ إلى رؤية معلِّمة الرَّسم لأنَّ الآنسة بغالي بحثت بين بعض الأشياء وخرجت بهذه».

وضع ورقةً أمام روبرت على المكتب. بدت أنَّها خريطةٌ لكندا مرسومةٌ باليد، تُظهر التقسيمات الرئيسة والمدن والأنهار. لم تكن دقيقةً، لكنَّها كانت في غاية الإتقان. وقد طُبع في الأسفل: دومينون كندا[61]. وفي الزاوية اليُمنى كان التوقيع باسم غلاديس ريز.

«يبدو أنَّهم يقيمون معرضاً للأعمال في كلِّ عطلةٍ صيفيَّةٍ، وعادةً ما يُبقون المعروضات إلى أن يحين المعرض التالي في العام الذي يليه. أظنُّ أنَّ التخلُّص منها في اليوم التالي هو أمرٌ في غاية الإجحاف. أو لربَّما يحتفظون بها لعرضها

61 الدولة المستقلة من دول الكومنولث البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر. المترجمة.

على الزوَّار من رجالات السلطة والمفتّشين. على أيِّ حال، كانت الدروج ملأى بالأشياء. وهذه»، أشار إلى الخريطة، «كانت نتاج مسابقةٍ بعنوان: ‹ارسم خريطةً من الذاكرة في غضون عشرين دقيقة› -والجائزة كانت عرض الأعمال الفائزة بالمراكز الثلاثة الأُوَل. وقد حصلت هذه على ‹المركز الثالث مناصفةً›».

قال روبرت وعيناه تتملَّيان إنجاز غلاديس ريز: «أكاد لا أصدِّق».

«لقد أصابت الآنسة بغالي فيما يخصُّ براعة أناملها. من المضحك أنَّها لم تتعلَّم. يمكنك أن ترى حيث صححوا لها حروف الـ I الكبيرة المنقَّطة».

«يمكنك ذلك فعلاً». كان روبرت يحدِّق إلى الخريطة بإعجاب.

«إنَّها، أي الفتاة، لا تتمتَّع بالذكاء، إنَّما لها عينٌ دقيقة»، قال وهو يتأمَّل تصوُّر غلاديس لكندا، «لقد تذكَّرت أشكال الأشياء، لكنَّها لم تتذكَّر أسماءها. وقد ابتدعت تهجئةً خاصَّةً بها وحدها. أعتقد أنَّها حصلت على ‹الثالث مناصفةً› ثواباً على العمل المتقن».

«العمل الأنيق هو عملنا في أيِّ حال»، قال رامسدون وهو يضع قصاصة الورق التي كانت مرفقة بالساعة، «لنكن من الشاكرين لأنَّها لم تختر ألاسكا».

«نعم»، قال روبرت، «معجزة» (خاطبَه عقله: معجزة العمَّة لين). «مَن هو الأبرع في هذا المجال؟».

أخبره رامسدون مَن يكون.

«سآخذها معي إلى البلدة الآن، الليلة، سأجهِّز التقرير قبل الصباح، وسآخذه معي إلى السيِّد ماكديرموت في وقت الفطور، إن كان هذا مناسباً لك».

«مناسب؟»، قال روبرت، «إنَّه ممتاز».

«أظنُّ أنَّ رفع البصمات عنها سيكون أمراً جيّداً أيضاً -والصندوق الكرتونيّ الصغير أيضاً- ثمَّة قضاةٌ لا يروقهم خبراء الخطوط، لكن بوجود الاثنين معاً، حتّى القاضي سيقتنع حتماً».

قال روبرت وهو يعيد إليه الأشياء: «حسناً، على الأقلّ لن يُحكم على موكّلتيَّ بالأشغال الشاقّة».

عقّب رامسدن بنبرةٍ جافّة: «لا شيء يضاهي النظر إلى الجانب المشرق». فضحك روبرت.

«أَوَتظنُّ أن أكون جاحداً لمثل هذا الإعفاء. لن أكون. إنَّه همٌّ ثقيلٌ ارتاح منه عقلي. إلّا أنَّ الهمَّ الحقيقيَّ ما زال هناك. فإثبات أنَّ روز غلين لصّة وكاذبة ومبتزة -وأضف إلى الهامش أنَّها محرِّضة على شهادة الزور- لا يمسُّ قصَّة بيتي كين في شيء. وقصَّة بيتي كين هي الشيء الذي نسعى إلى دحضه».

قال رامسدون، لكن بشيءٍ من الفتور: «ما زال ثمَّة وقت».

«كلُّ ما تبقّى له وقتٌ هو المعجزات».

«حسناً؟ ولِمَ لا؟ إنَّها تحصل، ولِمَ لا تحصل لنا؟ متى أهاتفك غداً؟».

لكنَّ كيڤين هو مَن هاتفه في الغد تملؤه التهاني والتهليلات.

«إنَّك أعجوبة يا روب. سأفريهم فرياً».

نعم، ستكون مناورةً صغيرةً وممتعةً لكيڤين في لعبة القطِّ والفأر، وستخرج أسرة شارب ‹حرَّةً› من المحكمة. حرَّتين في العودة إلى منزلهما المسكون، ووجودهما الذي تطارده الأشباح، ساحرتين نصف مجنونتين، هدَّدتا فتاةً ذات يومٍ وضربتاها.

«لا تبدو مبتهجاً كثيراً يا روبرت، فهل أصابتك القضيَّة بالإحباط؟».

أخبره روبرت بما كان يفكِّر فيه؛ أنَّ خلاص أسرة شارب من السجن لا يعني خلاصهما من السجن الذي صنعته لهما بيتي كين.

«ربَّما لا، ربَّما لا»، قال كيڤين، «سأبذل قصارى جهدي مع كين من خلال ذلك الخطأ الفادح بشأن المسارين المنقسمين إن لم يكن مايلز آليسون هو وكيل الادِّعاء، فلربَّما تمكَّنتُ من تحطيمها به، لكنَّ مايلز سريعٌ كفايةً لينقذ الوضع. ابتهجْ يا روب، في أضعف الأحوال ستتزعزع مصداقيّتها على نحوٍ خطير».

إلَّا أنَّ تزعزعَ مصداقيَّة بيتي كين لم يكن كافياً. فهو يعرف قلَّة تأثير ذلك في الرأي العامّ. ففي الآونة الأخيرة، كانت له تجربة مع النساء في العموم، وقد هاله قصورهنَّ العامّ في تحليلِ أبسط البيانات. حتَّى وإن أتت الصحف على ذكر ذلك الجزء الصغير المتعلِّق بالإطلالة من النافذة –وقد يطغى انشغالهم في الحديث عن قضيَّةٍ مثيرةٍ أكثر، مثل شهادة الزور التي أدلت بها روز غلين، على إيراد خبرٍ كهذا –لكن حتَّى وإن أوردوه، فلن يكون له أيُّ تأثيرٍ في القارئ العاديِّ. (حاولوا إلصاق التُّهمة بها لكن سرعان ما عادوا إلى أماكنهم الحقيقيَّة). هذا ما سيصل إليهم.

قد ينجح كيڤين في زعزعة مصداقيَّة بيتي كين أمام المحكمة والمراسلين والمسؤولين والحاضرين من ذوي التفكير الناقد، لكنَّه، بناءً على الدليل الراهن، لن يتمكَّن من فعل أيِّ شيءٍ لإضعاف مشاعر التأييد القويَّة التي أثارتها قضيَّة بيتي كين في أنحاء البلاد. ستبقى أسرة شارب في موقف المدان.

وبيتي كين (ستُفلِت من العقاب).

بالنظر إلى روبرت، تلك الفكرة كانت أسوأ من فكرة حياة أسرة شارب مع الأشباح. وعندها ستَمضي بيتي كين لتكون محور اهتمام أسرةٍ مُحبَّة، محفوفة

بالأمن والحبِّ والتقدير. حالما فكَّر روبرت، ذو الطباع اللينة، في ذلك، تعاظم إحساسه بالرَّغبة في القتل.

كان عليه الاعتراف للعمَّة لين بأنَّ الدليل قد ظهر في الوقت الذي دعت فيه تماماً في صلاتها، لكنَّه أحجم عن إخبارها أنَّ الدليل المذكور كان مفيداً في نقض قضيَّة الشرطة. يمكنها أن تدعوَ ذلك كسباً للقضيَّة، لكنَّ ‹كسب› القضيَّة في نظر روبرت هو شيءٌ مختلفٌ كثيراً عن ذلك.

وقد بدا الأمر كذلك، أيضاً، في نظر نيڤيل. وللمرَّة الأولى منذ أن احتلَّ بينيت الشابُّ الغرفة الخلفيَّة التي كانت غرفته هو ذات يوم، شعر روبرت أنَّه حليفه؛ لقد شعر بالروح الجماعيَّة. لم يكن نيڤيل أيضاً يحتمل فكرة ‹أنتفلت بيتي كين من العقاب›. وفوجئ روبرت مرَّةً ثانيةً بالغضب المدمِّر الذي يمكن أن تمتلئ به عقول الدُّعاة إلى السلام عندما تتصاعد نقمتهم. كان لنيڤيل أسلوبٌ خاصٌّ في نطق اسم بيتي كين: كما لو كانت المقاطع اللفظيَّة سُمّاً قد امتلأ به فمه بطريق الخطأ فراح يبصقه. وقد كانت كلمة ‹سامَّة› هي اللقب المفضَّل الذي أطلقه عليها أيضاً. ‹تلك المخلوقة السامَّة›. وقد وجد روبرت أنَّه لقبٌ مريحٌ للغاية.

لكنَّ طمأنينةً خفيفةً غشيت الموقف. تقبَّلت أسرة شارب احتمال خلاصها من حكم بالسجن بالوقار نفسه الذي اتَّسم به قبولها بكلِّ شيء، بدءاً من أوَّل اتِّهام وجَّهته بيتي كين إليهما، وصولاً إلى أمر الاستدعاء والمثول في قفص الاتِّهام. لكنَّهما أدركتا أيضاً أنَّ ذلك سيكون خلاصاً وليس تبرئة. ستتقوَّض قضيَّة الشرطة، وستحصلان على الحكم. لكنَّهما ستحصلان عليه لأنَّ القانون الإنجليزيَّ لا يرضى بالحلول الوسط. ففي المحكمة الاسكتلنديَّة لا يمكن إثبات الحكم. وهذا ما ستؤول إليه الأمور أخيراً في محكمة الجنايات، وذلك فقط لعدم كفاية أدلَّة الشرطة لأجل إثبات القضيَّة، ولا يعني ذلك أنَّ القضيَّة باطلة بالضرورة.

قبل أربعة أيّامٍ فقط من محكمة الجنايات، اعترف للعمّة لين أنَّ الدليل كافٍ لدرء التُّهمة. لم يصمد أمام القلق الذي اجتاح ذلك الوجه الورديّ المستدير. كان يودُّ أن يداهنها فقط، وأن يترك المسألة عند ذلك الحدّ، لكنَّه بدلاً من ذلك، وجد نفسه يلقي كلَّ ما في جعبته أمامها، مثلما كان يبوح لها بمشكلاته أيّام كان صبيّاً، عندما كانت العمَّة لين آنذاك ملاكاً عالماً بكلِّ شيء، وقادراً على كلِّ شيء، وليست العمَّة لين الطيبة والساذجة فحسب. أنصتت بصمتٍ مذهل إلى هذا التدفُّق غير المتوقَّع من الكلمات -مختلفٌ تماماً عن العبارات المعتادة التي يتبادلانها في أثناء تناول الطعام- وقد التمعت عيناها الزرقاوان بالقلق واللهفة.

وأنهى كلامه: «ألا ترينَ يا عمَّة لين، ليس هذا انتصاراً. إنَّه هزيمة. إنَّها عدالةٌ صوريَّة. ما نناضل لأجله هو العدالة، لا الحكم. ليس لدينا أمل في تحقيقها. ولا حتَّى رائحة أمل!».

«لكن، لِمَ لم تخبرني بكلِّ هذا يا عزيزي؟ هل ظننت أنَّني لن أفهمَ أو لن أوافقك أو أيّ شيءٍ من ذاك القبيل؟».

«حسناً. لم تكوني تشعرين كما أشعر بشأن...».

«كوني لست معجبةً كثيراً بمظهر أولئك الناس في منزل فرانشايز -ويجب أن أعترف يا عزيزي أنَّهما، إلى الآن، ليستا من نوعيَّة الأشخاص الذين أستهويهم عادةً- وكوني لا أستهويهما كثيراً فلا يعني ذلك أنَّني غير مكترثةٍ لتطبيق العدالة، بالتأكيد لا؟».

«لا، بالتأكيد لا، لكنَّكِ قلت صراحةً إنَّك تجدينَ قصَّة بيتي كين تدعو إلى التصديق، وبهذا...»

قالت العمَّة لين بهدوء: «كان هذا قبل محكمة الشرطة».

«المحكمة؟ لكنَّك لم تحضري إلى المحكمة!».

«لا يا عزيزي. لكنَّ العقيد ويتاكر حضر، ولم تعجبه الفتاة إطلاقاً».

«حقّاً لم تعجبه؟».

«لا. لقد كان واضحاً تماماً بهذا الشأن. فقال إنَّ عريفاً بحريّاً كان لديه في ما تسمُّونه فوجاً أو كتيبةً أو ما شابه، وقد كان مثل بيتي كين تماماً. قال إنَّه جريحٌ بريءٌ، وقد أجّج العديد من الصراعات في الكتيبة كلِّها، وتسبَّب في مشكلات تفوق دستةً من القضايا المعقَّدة. يا له من تعبير جميل: قضايا معقّدة! أليس كذلك؟ وقد قال العقيد ويتاكر إنَّ أمره قد انتهى في غرين هاوس[62]».

«تقصدين غلاس هاوس».[63]

«حسناً. شيءٌ من هذا القبيل. وبخصوص الفتاة غلين، من مزرعة ستابلز، فقد قال إنَّ نظرةً واحدةً إليها تجعلك تبدأ تلقائيّاً في عدِّ الأكاذيب الموجودة في كلِّ جُملة. فلم تعجبه الفتاة غلين أيضاً. وهكذا يا عزيزي، فأنت ترى، لا شيء يدعوك لتظنَّ أنَّني لن أتعاطفَ مع قلقك. إنَّني مهتمَّةٌ بالعدالة الخالصة، مثلك تماماً. أؤكِّد لك، وسأضاعف صلواتي مرَّةً ثانيةً لتحقُّق النجاح. كنتُ ذاهبةً إلى حفلِ غليسون في الحديقة ما بعد ظهر اليوم، لكن يجدر بي الذهاب إلى كنيسة القدِّيس ماثيو، وقضاء ساعةٍ هادئةٍ من الزمن هناك، عوضاً عن الذهاب إلى الحفل. في أيِّ حال، أظنُّ أنَّها ستمطر. إنَّها تمطر دائماً عندما يقيم آل غليسون حفلاً في حديقتهم، أولئك المساكين».

«حسناً عمَّة لين. لا أنكر أنَّنا في حاجةٍ إلى صلواتك، فلا شيء سيُنقذنا سوى معجزة».

---

62 Greenhouse: الدفيئة الزراعية، خيام تُصنع من موادّ شفّافة نافذة لأشعة الشمس (تُسمّى أيضاً البيوت البلاستيكية أو البيوت الزجاجية) المترجمة.

63 Glasshouse: البيت الزجاجيّ كما ذكر في الهامش أعلاه، لكنّ المقصود به هنا هو سجن ‹غلاس هاوس› العسكريّ في بريطانيا. المترجمة.

«حسناً. سأصلّي لتحصل المعجزة».

«تلك المؤجّلة إلى أن تحين الدقيقة الأخيرة التي سيلتفُّ بها الحبل حول عنق البطل؟ هذا لا يحدث إلّا في القصص البوليسيّة، وفي الدقائق الأخيرة من مسلسلات التشويق».

«أبداً. هذا يحدث كلَّ يوم في أيِّ مكانٍ من العالم. لو كانت ثمّة طريقةٌ ما لاكتشاف ذلك، وعدِّ المرّاتَ التي يحدث فيها ذلك فستُفاجَأُ حتماً. فالعناية الإلهيّة تتدخّل عندما لا تُفلح الأساليب الأخرى، وأنت تعرف ذلك. أنت لا تتحلّى بالإيمان الكافي يا عزيزي، كما سبق لي أن أخبرتك بذلك».

قال روبرت: «لا أصدِّق أنَّ ملاكاً من عند الربِّ سيحضر إلى مكتبي ليسردَ لي ما كانت تفعله بيتي كين إبّان ذلك الشهر، إن كان هذا ما تقصدينه».

«تكمن مشكلتك يا عزيزي في تفكيرك في ملاك الربِّ بأنّه مخلوقٌ بأجنحة، في حين أنّه قد يكون رجلاً بائساً يعتمر قبّعةً مدوّرة. على أيِّ حال، سأصلّي بعد ظهر اليوم، وأتبتّل كثيراً، والليلة أيضاً بالتأكيد، لعلَّ العون يُساق إليك في الغد».

-20-

لم يكن ملاك الربِّ رجلاً بائساً كما اتَّضح، وقد كانت قبَّعته، يا للأسف، من النوع الأوروبيِّ المصنوع من الجوخ، بحافَّةٍ ملتفَّةٍ إلى الأعلى من كلِّ الجهات. وصل إلى شركة بلير وهايوارد وبينيت قرابة الحادية عشرة والنصف من الصباح التالي.

«سيِّد بلير»، قال السيِّد هيلستاين العجوز وهو يطلُّ برأسه من غرفة روبرت، «ثمَّة سيِّدٌ في المكتب يُدعى لانغ جاء لرؤيتك، إنَّه...».

كان روبرت مشغولاً، مستبعداً مجيء ملائكةٍ من عند الربِّ، وقد كان معتاداً حضور الغرباء إلى مكتبه ورغبتهم في رؤيته، فقال: «ماذا يريد؟ أنا مشغول».

«لم يقل. قال فقط إنَّه يرغب في رؤيتك في حال لم تكن مشغولاً جدّاً».

«حسناً. إنَّني مشغولٌ إلى درجةٍ مخزية. اِفْهم لي بلباقةٍ ماذا يريد. هل بإمكانك ذلك؟ إن لم يكن أمراً في غاية الأهميَّة؛ فليتولَّ نيفيل ذلك».

«أجل. سأفهم منه. لكنَّ إنجليزيَّته ثقيلةٌ جدّاً. ويبدو أنَّه غير مُهيّأ كثيراً...».

«الإنجليزيَّة؟ أتعني أنه ألثغ؟».

«لا. بل أعني أنَّ نُطقَه للإنجليزيَّة ليس سليماً تماماً. هو...».

«أتعني أنَّ الرجل أجنبيٌّ؟».

«أجل. إنَّه آتٍ من كوبنهاغن».

«كوبنهاغن! لمَ لم تخبرني بذلك من قبل؟».

«لم تعطِني فرصةً سيِّد روبرت».

«أدخِله تيمي، أدخله. يا إلهي الرحيم! هل تتحقَّق الحكايات الخياليَّة؟».

كان السيِّد لانغ أشبه ما يكون بأعمدة نوتردام[64] النورمانيَّة. يشبهها في استدارتها وطولها وصلابتها ومتانتها تماماً. وفي قمَّة هذا العمود العظيم، المستدير، الصلب والمستقيم، يتألَّق وجهه بقسماته الحكيمة الودود.

قال: «سيِّد بلير؟ اسمي لانغ، وأعتذر عن إزعاجك»، لم ينطق الذال على النحو الصحيح، «لكنَّه كان مهمّاً. أعني أنَّه مهمٌّ لك أنت. في الأقلِّ أظنٌّ أنَّه كذلك».

«تفضَّل بالجلوس سيِّد لانغ».

«شكراً لك، شكراً لك. الجوُّ دافئٌ، أليس كذلك؟ لعلَّ سبب ذلك أنَّ اليوم هو يوم الصيف عندكم؟»، ابتسم لروبرت، «إنَّه مصطلحٌ إنجليزيٌّ. نكتة: الصيف يومٌ واحدٌ. إنَّني مهتمٌّ كثيراً بالمصطلحات الإنجليزيَّة. واهتمامي بالمصطلحات الإنجليزيَّة هو ما ساقني إليك».

هوى قلب روبرت عميقاً في جوفه إزاء انهيار معنويَّاته التي كان قد سارع إلى رفعها. حكاياتٌ خياليَّة، حقّاً. لا. فالحكايات الخياليَّة تبقى حكاياتٍ خياليَّة.

---

64 كنيسة نوتردام الشهيرة في فرنسا. المترجمة.

قال مشجِّعاً: «أجل».

«أديرِ فندقاً في كوبنهاغن، سيِّد بلير. يُسمَّى فندق الحذاء الأحمر. وليس ذلك لأنَّ أحداً ما ينتعل حذاءً أحمرَ هناك، وإنَّما تيمُّناً بحكاية أندرسن[65] التي ربَّما...».

قال روبرت: «أجل. أجل. لقد صارت واحدةً من حكاياتنا أيضاً».

«هكذا إذاً! أجل، أندرسن رجل عظيم. إنسان في غاية البساطة، يا سيِّد بلير، أضيِّع لك الوقت. ماذا كنتُ أقول؟».

«بشأن المصطلحات الإنجليزيَّة».

«أجل. تعلُّم الإنجليزيَّة هو زوجي».[66]

«هواية»، قال روبرت لا إرادياً.

«هوايتي. شكراً لك. أدير الفندق لأجل لقمة العيش -ولأنَّ والدي ووالده كانا يديران فندقاً قبلي- لكن في سبيل الزو... الهواية؟ أجل، شكراً لك، فإنَّني أتعلَّم المصطلحات الإنجليزيَّة على سبيل الهواية. وهكذا، كلَّ يومٍ تُحضَر إليَّ الصحف التي يتركونها خلفهم».

«مَن هم؟».

«الزوَّار الإنجليز».

«أوه. نعم».

---

65 هانز كريستيان آندرسن: 1805- 1875 كاتب دنماركي، اشتُهر بكتابة قصص الأطفال مثل (بائعة الكبريت) و(عقلة الإصبع) و(فرخ البط القبيح) و(الحذاء الأحمر). المترجمة.

66 توضيح لغوي: قال الرجل كلمة: hubby وهي تعني زوج، أمّا كلمة hobby فهي التي تعني هواية. المترجمة.

«في المساء. بعد أن يبتعدوا. يجمع لي الخدم الصُّحف الإنجليزيَّة ويتركونها على مكتبي. وأنا مشغولٌ كثيراً، ولا وقت لديَّ لتصفُّحها، فتتراكم في كومة. وحينما أحظى بوقت فراغٍ أختار واحدةً وأتفحَّصها. هل تفهم لغتي يا سيِّد بلير؟».

«على نحو تامّ. على نحو تامّ سيّد لانغ». بصيصٌ من الأمل بزغ من جديد. صحف؟

«وظلَّ الأمر على تلك الحال. بضع دقائق من الراحة، القليل من القراءة في الصحف الإنجليزيَّة، مصطلحٌ جديدٌ -أو اثنان- وكلُّ هذا يسير من دون إثارة. كيف تقولونها؟».

«هادئ».

«إذاً. هادئ. وذات يوم، أخذت هذه الصحيفة من الكومة، كما آخذ أيَّ صحيفةٍ أخرى، ونسيت أمر المصطلحات كليّاً». وأخرج من جيبه الواسع نسخةً مطويَّةً من صحيفة (آك إيها)، وفردها أمام روبرت على المكتب. كان عدد الجمعة، يوم العاشر من مايو، وقد احتلَّت صورة بيتي كين ثُلثي الصفحة. «نظرتُ إلى هذه الصورة. ثمَّ نظرت في الداخل وقرأتُ القصَّة، وقلت لنفسي إنَّ هذا هو أغرب شيءٍ على الإطلاق. إنَّه أغرب شيءٍ فعلاً. فالصحيفة تقول إنَّ هذه الصورة لبيتي كان. كان؟».

«كين».

«إذاً. بيتي كين. لكنَّها كانت صورة السيِّدة شادويك أيضاً، التي نزلت في فندقي معَ زوجها».

«ماذا!».

بدا السيِّد لانغ مسروراً. «أنت مهتمٌّ؟ تمنَّيت كثيراً أنَّك ستَهتمُّ. تمنَّيت ذلك كثيراً».

«تابع، أخبرني».

«مكثا عندي لأسبوعين. وقد كان ذلك غريباً جدّاً، سيِّد بلير، لأنَّ الوقت الذي قضته الفتاة المسكينة تتعرَّض للضرب والتجويع في عليَّة إنجليزيَّة، كانت فيه السيِّدة شادويك تأكل في فندقي مثل ذئبةٍ فَتيّةٍ وتدلِّل نفسها كثيراً -حتَّى أنا، الدانماركيّ، فوجئت بمقدار القشدة الَّتي استطاعت الفتاة أن تأكلها- يا سيِّد بلير».

«أجل؟».

«حسناً. قلتُ لنفسي: في النهاية هي مجرَّد صورة. ومع أنَّها بدت في تلك الهيئة حين تركت شعرها ينسدل إلى الأسفل في الحفل...».

«ينسدل إلى الأسفل؟».

«أجل. فقد كانت ترفع شعرها إلى الأعلى عندما تصفِّفه، كما ترى. لكن أقمنا حفلاً بزيّ... بزيّ».

«أجل. بالملابس الرسميَّة الفاخرة».

«إذاً. ملابس رسميَّة فاخرة. ولأجل ثوبها الفاخر، أرخت شعرها إلى الأسفل. مثل هذا الذي هناك». ونقر على الصورة. «لذا، فقد قلت لنفسي: إنَّها مجرَّد صورةٍ في النهاية. وكم من صورةٍ يراها المرءُ ليست للشخص الحقيقيِّ! وماذا يمكن أن تكون علاقة الفتاة التي تتحدَّث عنها الصحيفة بالسيِّدة شادويك التي كانت هنا مع زوجها في ذلك الوقت! وهكذا، أقنعت نفسي بالمنطق. لكنَّني لم أرمِ الصحيفة. لا. أحتفظُ بها. وأنظر فيها بين حينٍ وآخر. وكلَّما نظرتُ فيها فكَّرت: لكنَّ هذه السيِّدة شادويك. وهكذا بقيت

متحيِّراً، وكنت أفكِّر فيها عند خلودي إلى النوم عوضاً عن تفكيري في شؤون التسويق في الغد. ورحت أسعى بحثاً عن تفسيرٍ لنفسي. ربَّما كانتا توءمين؟ لكن لا. فالفتاة بيتي هي طفلةٌ وحيدةٌ. قريبتان. مصادفة. ثنائيَّان. فكَّرت في كلِّ ذلك. ترضيني الإجابات ليلاً فآوي إلى النوم؛ لكن في الصباح، أنظر في الصورة وتنهار كلُّ المسوِّغات من جديد؛ أفكِّر: لكنَّها السيِّدة شادويك من دون أيِّ شكٍّ. أرأيت معضلتي؟».

«بكلِّ وضوح».

«وهكذا، لَمَّا أتيت إلى لندن في زيارة عمل، حملت الصحيفة مع اسم العربيِّ...».

«العربيّ؟ أوه، نعم، فهمت، لم أقصد مقاطعتك».

«وضعتها في حقيبتي، وذات ليلة، أخرجتها من الحقيبة وأريتها لصديقي الذي أمكث عنده. فأنا أمكث مع واحد من أبناء بلدي في (بايزواتر) في لندن. وقد كان صديقي متحمِّساً للغاية وهو يقول: لكنَّها قضيَّة الشرطة الآن، وهاتان السيِّدتان قد قالتا إنَّهما لم ترياها من قبلُ قَطُّ. وقد قُبض عليهما بسبب ما يُفترض أنَّهما قد فعلتاه بهذه الفتاة، إنَّهما توشكان أن تُحاكما لأجل ذلك. ونادى زوجته: ريتا! ريتا! أين صحيفة الأسبوع التي صدرت الثلاثاء الماضي؟ يبدو أنَّ بيت صديقي فيه صحيفة من الثلاثاء الماضي دوماً. وقد جاءت زوجته بالصحيفة وأراني عدد المحاكمة. لا. بل الـــ... الـــ...».

«الظهور في المحكمة».

«أجل. حضور السيِّدتين إلى المحكمة. وقرأت أنَّ المحاكمة ستُجرى في مكانٍ ما من البلد بعد ما يزيد على الأسبوعين تقريباً. وبحلول هذا الوقت، فلم يبقَ سوى أيَّامٍ قليلة فقط. لذا، فقد قال لي صديقي: «إلى أيِّ درجةٍ أنت متأكِّد يا إينار من أنَّ تلك الفتاة والسيِّدة شادويك هما واحدة؟» فقلت:

إنَّني متأكِّد حقّاً. فقال: هو ذا اسم محامي السيِّدتين مذكورٌ في الصحيفة. لا يوجد عنوان، لكنَّ ميلفورد هذه مكانٌ صغيرٌ جدّاً ويَسْهُل العثور عليه فيها. سنشرب القهوة في وقتٍ مبكرٍ من الغد -ذاك هو الفطور- وستذهب إلى ميلفورد هذه، وتخبر السيِّد بلير هذا بالَّذي تفكِّر فيه. لهذا؛ أنا هنا. وأنت مهتمٌّ بما أقوله؟».

أسند روبرت ظهره، وأخرج منديله، ومسح به جبهته: «هل تؤمن بالمعجزات سيِّد لانغ؟».

«بالطبع. فأنا مسيحيٌّ. ومع أنَّني لست طاعناً في السنِّ، لكنَّني رأيت اثنتين منها حقّاً».

«حسناً. لقد صرت توّاً جزءاً من المعجزة الثالثة».

«إذاً؟»، ابتسم السيِّد لانغ مبتهجاً، «هذا يجعلني في غاية الاطمئنان».

«لقد أنقذت مؤونتنا من اللَّحم المقدَّد».

«اللَّحم المقدَّد؟».

«مصطلحٌ إنجليزيٌّ. أنت لم تنقذ مؤونتنا من اللَّحم فحسب، لقد أنقذت حياتنا».

«إذاً، فأنت تفكِّر كما أفكِّر أنا؛ إنَّهما شخصٌ واحدٌ، أي الفتاة وضيفتي في فندق الحذاء الأحمر؟».

«لا شكَّ عندي في ذلك. أخبرني، هل لديك تاريخ إقامتها عندك؟».

«نعم. في الواقع. ها هي ذي. وصلت هي وزوجها بالطائرة يوم الجمعة بتاريخ 29 مارس، ثمَّ غادرا -بالطائرة أيضاً حسبما أظنُّ، لست متأكِّداً من ذلك- يوم الاثنين 15 أبريل».

«شكراً لك. وزوجها كيف يبدو شكله؟».

«شابٌّ. أسمر. حسَن المظهر. وهو قليلاً -ما الكلمة الآن؟ مُشعٌّ للغاية. صارخ؟».

«مُبهرَج».

«هذه هي. مُبهرَج. مُبهرَجٌ قليلاً، كما أظنُّ. لحظتُ أنَّه لم يَحْظَ بقبول الرجال الإنجليز الذين حضروا وغادروا».

«هل كان يقضي عطلته فحسب؟».

«لا. كان في زيارة عملٍ إلى كوبنهاغن».

«أيّ نوع من الأعمال؟».

«يا للأسف، هذا ما لا أعرفه».

«ألا يمكنك أن تخمِّن ما الذي كان مهتمّاً به كثيراً في كوبنهاغن؟».

«ذلك يعتمد على كونه مهتمّاً بالبيع أو بالشراء يا سيِّد بلير».

«ما عنوانه في إنجلترا؟».

«لندن».

«واضحٌ بشكلٍ جميل. هل تسمح لي بدقيقةٍ ريثما أُجري مكالمة؟ هل تُدخِّن؟». فتح علبة السجائر ودفعها باتِّجاه السيِّد لانغ.

«ميلفورد 195. ستشرِّفني على الغداء سيِّد لانغ، أتوافق؟ عمَّة لين؟ يجب أن أذهب إلى لندن بعد الغداء مباشرةً... أجل، سأبقى لهذه الليلة. هلَّا كنتِ ملاكاً ووضَّبتِ لي حقيبةً صغيرةً؟... شكراً لك يا حبيبتي. وهل يمكنني أن أستضيف شخصاً على ما لدينا من طعام اليوم؟ جيِّد... حسناً، سأسأله». وضع يده يغطِّي فوهة السمَّاعة، وقال: «عمَّتي، التي هي في الواقع من أبناء عمومتي، تريد أن تعرف إذا ما كنت تأكل المعجَّنات؟».

«سيِّد بلير»، قال السيِّد لانغ بابتسامة عريضة وإيماءةٍ رحبةٍ تليق بحجمه، «أتسأل دانماركياً عن ذلك؟».

«إنَّه يحبُّها»، قال روبرت عبر الهاتف، «وسأسألكِ هل لديكِ شيءٌ مهمٌّ تفعلينه بعد ظهيرة اليوم عمَّة لين؟... لأنَّني أظنُّ أنَّ عليك الذهاب إلى كنيسة القدِّيس ماثيو لتحمدي الله... لقد وصل ملاكك من عند الربِّ».

حتَّى السيِّد لانغ، تمكَّن من سماع تهلُّل العمَّة لين: «روبرت! لا. ليس بالمعنى الحقيقيِّ!».

«بشحمه ولحمه... لا، ليس بائساً أبداً... طويلٌ جدّاً، وجميلٌ، وفي المجمَل يليق به هذا الدور... ستعدِّين له غداءً لذيذاً، أليس كذلك؟... أجل، هو ذا مَن سيأتي إلى الغداء. ملاك من عند الربِّ».

أغلق سمَّاعة الهاتف ونظر باتِّجاه السيِّد لانغ الذي كان مستمتعاً.

«والآن، سيِّد لانغ. فلنذهب إلى (روز آند كراون) ونحظى ببعض الجعة الرخيصة».

-21-

لَمَّا ذهب روبرت، بعد ثلاثة أيّام، إلى منزل فرانشايز كي يوصل أسرة شارب إلى نورتون لأجل محكمة الجنايات غداً، وجد المكان محفوفاً بأجواءٍ احتفاليَّة تقريباً. حوضان بسيطان من المنثور الأصفر وُضِعَا أعلى درجات السلَّم، فتلألأت الردهة المعتمة بالزهور مثل كنيسة مزيَّنةٍ لأجل حفل زفاف.

«إنَّه نيفيل»، قالت ماريان وهي تلوِّح بيدها مفسِّرةً هذا التألُّق المحتشد، «قال إنَّه يجب أن يكون المنزل على أهبة الاحتفال».

قال روبرت: «ليتني فكَّرت في ذلك».

«يذهلني أنَّك ما زلت قادراً على التفكير أصلاً بعد الأيّام القليلة الماضية. لولاك لما كنّا في هذا الابتهاج اليوم!».

«تعنين لولا بيل».

«بيل؟».

«آلكساندر بيل. فهو من اخترع الهاتف. لولا ذاك الاختراع لبقينا نتحسَّس طريقنا في الظلام. سأحتاج إلى شهورٍ كي أنظر إلى الهاتف دون أن أتذمَّر».

«هل أخذت دوراً في المناوبة أنت أيضاً؟».

«لا. بل كلُّ واحدٍ منّا أخذ مناوبةً كاملة. كيفين وكاتبُه القانونيُّ في مكتبه، وأنا في شقَّته الصغيرة في ساحة كنيسة القدِّيس بولس، وآليك رامسدن وثلاثةٌ

من رجاله في مكتبه، وفي أيِّ مكانٍ يمكنهم فيه إيجاد هاتفٍ لاستعماله من دون أن يقاطعهم أحد».

«ستَّةٌ منكم مناوبون».

«بل سبعةٌ على ستَّة هواتف، وقد احتجنا إليها كلِّها!».

«أيُّها المسكين روبرت!».

«كان الأمر ممتعاً في البداية، فقد كانت تكتنفنا بهجة المطاردة، بهجة اليقين بأنَّنا كنَّا نسير في الطريق الصحيح. عمليّاً، كان النجاح مضموناً. لكن، بعد تأكُّدنا من أنَّ أيَّ أحدٍ من أسرة شادويك، الموجودة أرقامهم في دليل هاتف لندن، لا يمتُّون بصلةٍ إلى شادويك الذي سافر إلى كوبنهاغن في التاسع والعشرين من مارس، وأنَّ كلَّ ما عرفته شركة الطيران عنه هو حجزه لمقعدين من لاربورو في السابع والعشرين من مارس، فقدنا أيَّ إحساسٍ بالمتعة التي بدأنا عملَنا بها. لا ريبَ في أنَّ المعلومات المتعلِّقة بالحجز من لاربورو قد أمدَّتنا بالحماس، إلَّا أنَّ ما تلا ذلك كان عناءً خالصاً. بحثْنا عمَّا نبيعه إلى الدنمارك، وعمَّا تشتريه هي منَّا، وتقاسمناه فيما بيننا».

«البضائع؟».

«لا. بل الباعة والمشترين. كان مكتب السياحة الدنماركيّ هبةً إلهيَّة، فقد قدَّموا لنا المعلومات بكلِّ سلاسة. تولَّينا، أنا وكيڤين وكاتبه القانونيُّ، أمورَ الصادرات، وتولَّى رامسدن ورجاله أمور الواردات. وبدءاً من هناك، غدا العمل شاقّاً؛ التعامل مع المديرين وسؤالهم: 'هل يعمل معكم رجلٌ يدعى برنارد شادويك؟'، وقد كان عدد الشركات التي لا تعمل مع برنارد شادويك هذا عدداً خياليّاً. لكنَّني صرتُ أعرف عن صادراتنا الآن أكثر من ذي قبل».

«لا أشكُّ في ذلك».

«لقد سئمتُ الهاتف، إلى درجة أنّني لم أعد أردُّ عليه إذا ما رنَّ لديَّ. كدتُ أنسى أنَّ الهواتف تُستعمل للمكالمات الصادرة والواردة. كان الهاتف مجرَّد جهازٍ للاستفسار يمكنني من خلاله الاتّصال بمكاتب في كلِّ أنحاء البلاد. حدَّقتُ إليه طويلاً قبل أن أستوعب أنَّ قضيَّةً مشتركة كانت تجمعنا في النهاية، وأنَّ ثمَّة من يحاول الاتِّصال بي ليخبرني أنَّ تغييراً قد حصل».

«وقد كان رامسدن».

«أجل. كان آليك رامسدن. قال: 'لقد وجدناه. إنَّه يشتري الخزف والأشياء لصالح برايان وهاڤارد وشركاه'».

«إنَّني سعيدة لأنَّ رامسدن هو مَن عثر عليه. سيجد عزاءً له في ذلك بعد إخفاقه في تتبُّع الفتاة».

«أجل. إنَّه يشعر بتحسُّن بشأن ذلك الآن. وبعدها، بدأت حملة مقابلة الأشخاص الذين نحتاج إليهم، واستصدار مذكِّرات استدعاءٍ، وما إلى ذلك. لكنَّ النتيجة الحلوة كلَّها ستكون بانتظارنا في محكمة نورتون غداً. لا يطيق كيڤين انتظاراً، فلعابه يسيل ترقُّباً».

دخلت السيِّدة شارب وقالت، وهي تلقي بحقيبة ثيابٍ لليلةٍ واحدة على المنضدة الجداريَّة المصنوعة من خشب الماهوجني، في مشهدٍ كان ليصيبَ العمَّة لين بالإغماء: «لو كان في مقدوري أن أرثي لحال تلك الفتاة، فسيكون ذلك على مواجهتها لشخصٍ عدوانيٍّ مثل كيڤين ماكديرموت وهي قابعة في منصَّة الشهود». انتبه روبرت إلى الحقيبة التي كانت في أصلها أنيقةً وثمينة -لعلَّها من البقايا الميمونة لأوائل حياتها الزوجيَّة- وقد غدت الآن تالفةً، يا للأسف. وقرَّر أنَّه حينما سيتزوَّج ماريان، فستكون هديَّته لوالدة العروس حقيبةَ ثياب، صغيرة وفاتحة وأنيقة وثمينة.

قالت ماريان: «لن يكون في مقدوري بتاتاً أن أشعر تجاه تلك الفتاة حتَّى بحزنٍ عابر. كنت لأسحقها عن وجه الأرض كما أسحق عثَّة في الخزانة -ما عدا أنَّني أشعر بالحزن دوماً تجاه العثَّة».

سألت السيِّدة شارب: «وماذا كانت تنوي الفتاة أن تفعل؟ هل كانت تنوي العودة إلى أهلها أصلاً؟».

قال روبرت: «لا أظنُّ ذلك. أظنُّها كانت محتقنةً بالغضب والاستياء لأنَّها ما عادت محور الاهتمام في البيت 39 في جادَّة ميدوسايد. كما قال كيڤين منذ زمنٍ بعيد: يبدأ المجرم في الأنانية؛ الغرور المفرط. قد ينفطر فؤاد فتاةٍ عاديَّة، بل ومراهقة حسَّاسة، إذا ما كفَّ أخوها بالتبنِّي عن اعتبارها أهمَّ شيءٍ في حياته، لكنَّها ستُعَبِّر عن ذلك بتنهُّدات، أو بعبوس، أو بصعوبةٍ في المراس، أو بقرارٍ في التخلِّي عن العالم واللجوء إلى الرهبنة، أو عشرات الأساليب الأخرى التي تلجأ إليها في أثناء تأقلمها. لكن، بوجود أنانيةٍ مثل أنانية بيتي كين، فلا مجال للتأقلم؛ فهي تنتظر من العالم أن يتأقلم معها. وبالمناسبة، المجرم يفعل ذلك على الدوام. لا يوجد مجرمٌ لم يرَ أنَّه قد تعرَّض للظُّلم».

«وحشٌ ساحر». قالتها السيِّدة شارب.

«أجل. حتَّى مطران لاربورو سيجد بعض الصعوبة في التفكير في حالةِ غفران لها، فمطيَّته المعتادة (البيئة) لن تسعفه هذه المرَّة. لدى بيتي كين كلّ شيءٍ يوصى به لعلاج الإجرام: الحبّ، والحريَّة في تطوير الموهبة، والتعليم والأمن. سيكون ذلك لغزاً صِرفاً حين يفكّر فيه نيافته، فهو لا يؤمن بالوراثة. إنَّه يؤمن أنَّ المجرمين مصنوعون، وتالياً، يمكن ألَّا يُصنعوا. (والدماء الفاسدة)، بحسب تقدير المطران، محض خرافةٍ باليةٍ».

قالت السيِّدة شارب، وقد أفلتت منها شخرة: «توبي بيرن، كان عليك أن تسمع فتيان تشارلز في الإسطبل وهم يتحدَّثون عنه».

«سمعت نيڤيل»، قال روبرت، «أشكُّ في أن يتمكَّن أحدٌ من التفوُّق على نيڤيل في تصوُّره للأمر».

سألت ماريان: «إذاً، فقد فُسخت الخطوبة نهائيّاً؟».

«بكلِّ تأكيد. وللعمَّة لين آمالٌ مُعلَّقةٌ على كبرى بنات ويتاكر. هي ابنة أخت السيِّدة مونتيليڤين، وحفيدة كار كريسبس».

ضحكت ماريان معه: «هل هي لطيفة، ابنة ويتاكر؟».

«أجل. شقراء وجميلة. حسنة التهذيب، مولعةٌ بالموسيقا، لكنَّها لا تغنِّي».

«أرغب في أن يحظى نيڤيل بزوجةٍ لطيفةٍ. كلُّ ما يحتاج إليه هو بعض الاهتمام بمن يخصُّه، حيث يركِّز طاقاته وعواطفه لأجله».

«إنَّه يركِّزهما على قضيَّة فرانشايز حاليّاً».

«لا أعرف. إنَّه غالٍ علينا. حسناً. أظنُّ أنَّ الوقت قد حان لنرحل. لو أنَّ أحداً قد أخبرني قبل أسبوعٍ من الآن أنَّني سأغادر منزل فرانشايز إلى نورتون بغية الانتصار لَمَا صدَّقته. المسكين ستانلي سينام وحيداً في سريره من الآن فصاعداً، بدلاً من حراسة مشعوذتين في منزلٍ منعزل».

سأل روبرت: «ألن ينام هنا الليلة؟».

«لا. ولمَ عليه أن يفعل؟».

«لا أدري. لست مرتاحاً لفكرة ترك المنزل فارغاً تماماً».

«سيمرُّ الشرطيُّ بنا في أثناء مناوبته كالعادة. وفي أيِّ حال، لم يحاول أيُّ أحدٍ فعل شيءٍ منذ الليلة التي حطَّموا فيها نوافذنا. إنَّها ليلةٌ واحدةٌ فقط، وغداً نعود إلى المنزل».

«أعرف. لكنَّني لم أرتح لذلك كثيراً. ألا يستطيع ستانلي المكوث لليلةٍ أخرى فقط؟ إلى حين انتهاء القضيَّة».

قالت السيِّدة شارب: «إنْ هم أرادوا تحطيم نوافذنا مجدَّداً، فلا أحسب أنَّ وجود ستانلي هنا سيردعهم».

قال روبرت منهياً النقاش: «لا. لا أحسب ذلك. في كلِّ الأحوال، سأذكِّر هالام أنَّ المنزل فارغ الليلة».

أغلقت ماريان الباب من خلفهم، ومشوا إلى البوَّابة حيث كانت سيَّارة روبرت في انتظارهم. وعند البوَّابة، توقَّفت ماريان لوهلةٍ تلقي نظرةً إلى المنزل من خلفهم، وقالت: «إنَّه مكانٌ بشعٌ وعتيق، لكن له مزيَّة واحدة؛ لا يتغيَّر مظهره على مدار العام. لا يتغيَّر أبداً، ما عدا العشب الذي يبدو محترقاً وذابلاً في منتصف الصيف. ثمَّة موسمٌ هو ‹الأفضل› في معظم البيوت حيث تورق أشجار ‹الورديَّة› أو الفواصل العشبيَّة أو متسلِّقات الخُميسة أو زهر اللوز. لكنَّ منزل فرانشايز يبقى على حاله دائماً. بلا رتوشات. ما الذي يضحككِ يا أمَّاه؟».

«كنت أفكِّر كم يبدو مُزيِّناً هذا الشيء البائس بأحواض المنثور تلك».

وقفوا هناك لدقيقة، ضاحكين من العبث المتجلِّي في الزينة التي لا تنسجم مع المنزل الأبيض القذر المنيع، وضاحكين عليه. أغلقوا البوَّابة من دونه.

لكنَّ روبرت لم ينسَ. وقبل أن يتناول عشاءه مع كيڤين في فندق ‹فيذرز› في نورتون، اتَّصل بمركز الشرطة في ميلفورد، وذكَّرهم أنَّ منزل أسرة شارب سيبقى خالياً لتلك الليلة.

قال الرقيب: «حسناً سيِّد بلير. سأبلِّغ الرجل المناوب أن يفتح البوَّابة ويتفقَّده. أجل. ما زال لدينا مفتاح. سيكون الأمر على ما يرام».

لم يجد روبرت طائلاً من ذلك، لكنَّه لم يعرف بعدُ ما الحِماية التي يمكن توفيرها في أيِّ حال. فقد قالت السيِّدة شارب، إنْ فكَّر أيُّ أحدٍ في تحطيم النوافذ فسوف تُحطَّم النوافذ حتماً. فقرَّر أنَّه قد أصبح مسكوناً بالهواجس هكذا، لذا فقد انضمَّ إلى كيڤين وأصدقائه المحامين بارتياح.

تحدَّث المحامون كثيراً، وقد تأخَّر الوقت قبل أن يأوي روبرت إلى فراشه في إحدى الغرف المكسوَّة بالخشب الدَّاكن، تلك التي كانت السبب في شهرة فندق ‹فيذرز›. فلم يكن فندق ‹فيذرز› -أحد الوجهات التي يقصدها الزوَّار الأمريكيُّون ‹حتماً› في بريطانيا- مشهوراً فحسب، بل كان مواكباً للتطوُّرات أيضاً؛ فالأنابيب تمرُّ خلف الجدران المغطَّاة بخشب السنديان، والأسلاك عبر أعمدة السقف، وخطّ الهاتف يزحف تحت ألواح البلّوط التي تفرش الأرضيَّة الخشبيَّة. لقد كان فندق ‹فيذرز› يؤمِّن الراحة لعامَّة المسافرين، منذ عام 1480، ولا يُرى أيُّ سببٍ ليتوقَّف عن ذلك.

غرق روبرت في النوم ما إنْ وضع رأسه على الوسادة، وقد واصل الهاتف رنينه في أذنيه لبضع دقائق قبل أن يدرك ذلك.

«حسناً؟»، قال وهو لا يزال نصف نائم. وفجأةً، استيقظ كلُّ ما فيه.

كان ستانلي. هل يمكنه العودة إلى ميلفورد؟ فالنَّار تلتهم منزل فرانشايز.

«على نحوٍ خطِرٍ؟».

«ولقد تلقَّى حصَّةً جيِّدةً منها، لكنَّهم يعتقدون أنَّهم سيُطفِئونها».

«سآتي بأسرع ما يمكنني».

قطع عشرين ميلاً وكأنَّه يخرج من غرفةٍ إلى أخرى، وهو فِعْلٌ كان يعدُّه روبرت بلير، قبل شهرٍ من الآن، فعلاً يستحقُّ التوبيخ، ولم يكن ليصدِّق أنَّه قد يفعل ذلك بنفسه. لمَّا قطع منزله في نهاية شارع ميلفورد العام، ومضى إلى الرّيف خلفه، رأى التوهُّج يعلو في الأفق، كأنَّه إشراق قمرٍ مكتمل، لولا أنَّ القمر كان معلَّقاً في السماء. قمرٌ فضّيٌّ صغيرٌ في سماء الصيف الشاحبة. تحت الهبوب المقزِّز، ارتعش وهجُ اشتعالِ منزل فرانشايز، فاعتصرت ذكرى الرُّعب قلب روبرت.

في الأقلِّ، لم يكن هناك أحدٌ في المبنى. تساءل فيما لو أُتيحَ وقتٌ لأحدٍ كي ينقذَ ما هو نفيسٌ من المنزل. وهل سيكون هناك أيُّ أحدٍ يمكنه أن يميز البَخْسَ من الثمين؟

كانت البوَّابة مشرعةً، والفناء -المضاء باللَّهب- مزدحماً برجال خدمة الإطفاء وآلاتهم. وقد كان الكرسيُّ المزخرف من غرفة الاستقبال غيرَ ملائم للعشب، وهو أوَّل ما رآه. وتصاعدت موجةٌ من الاضطراب داخله. في أيٍّ حال، لقد أنقذه أحدهم.

شدَّه ستانلي من كمِّه، وهو الَّذي كاد لا يتعرَّفه، وقال له: «ها أنت ذا. فكَّرت في أنَّ عليك أن تعرف بطريقةٍ ما». انحدرت حبَّات العرق على وجهه الذي اسْوَدَّ، فخلَّفت وراءها مساراتٍ نظيفةً جعلت وجهه الفتيَّ يبدو مُلطَّخاً وهَرِماً. «ليس هناك ماءٌ كافٍ. وثمَّة كثير من الأمتعة التي يجب إخراجها. كلّ أغراض غرفة الاستقبال التي تستعملانها يومياً. فكَّرتُ في أنَّ

هذا ما سترغبان فيه لو أُتيح لهما الاختيار. وقد قذفنا بعض الأشياء من الطابق العلويّ. لكنَّ الأشياء الثقيلة كلّها ظلّت في الأعلى».

تكوَّمت المراتب ومفارش الأسرَّة على العشب، بعيداً عن أحذية رجال الإطفاء. وُضِعَت قطع الأثاث على العشب كما لو أنّها مصفوفة، وقد بدا عليها الذهول واليأس.

قال ستانلي: «لنأخذ الأثاث بعيداً، فمكانه غير آمنٍ. فإمّا أن تسقط عليه بعض القطع المشتعلة وإمّا أن يستعين به أحد أولئك الأوغاد ليقفَ عليه». كان الأوغاد هم رجال الإطفاء الذين يبذلون قصارى جهدهم وطاقاتهم.

وهكذا، وجد روبرت نفسه ينقل الأثاث بمللٍ في مشهدٍ غريب، ويميِّز بتعاسةِ القطعَ التي سبق له أن عرفها في مكانها الأصليّ؛ الكرسيُّ الذي حسبت السيِّدة شارب أنَّ المفتِّش غرانت كان ثقيلاً جدّاً عليه؛ الطاولة المصنوعة من خشب الكرز، التي استضافا حولها كيفين لتناول الغداء؛ المنضدة الجداريَّة التي ألقت عليها السيِّدة شارب حقيبتها قبل ساعاتٍ قليلةٍ فقط. تتصاعد ألسنة اللهب وقرقعتها، صرخات رجال الإطفاء، والمزيج الغريب بين ضوء القمر ومصابيح الخوذات، وارتعاش اللَّهب، والاصطفاف الأرعن والفوضويُّ لقطع الأثاث، كلُّها ذكَّرته بشعور المرء حين إفاقته من التخدير.

ثمَّ، حصل أمران معاً. انهار الطابق الأوَّل مستحيلاً إلى حطام. ولمَّا أضاء انبجاسُ النيرانِ الجديدةِ الوجوهَ من حوله، رأى شابَّين تنبض ملامحهما بالشماتة. وانتبه، في اللَّحظة نفسها، إلى أنَّ ستانلي كان قد رآهما أيضاً. رأى قبضة ستانلي تصل إلى أسفل ذقن البعيد منهما؛ مُصْدِرةً قرقعةً مسموعةً على الرَّغم من ضوضاء الإضرام، وطُمس الوجه الشامت في غياهب العشب.

لم يضرب روبرت أحداً منذ انقطاعه عن الملاكمة حين غادر المدرسة، ولا نيَّة لديه في ضرب أحدٍ الآن. لقد بدت ذراعه اليُسرى تقوم بما هو ضروريٌّ وفقاً لما ترتأيه هي. وغاب الوجه الثاني ذو النظرة الشزرة في المجهول.

«مُتقن!»، علَّق ستانلي وهو يمصُّ أصابعه المتألِّمة، ثمَّ قال: «انظر!».

تهاوى السقف مثل وجه طفلٍ يشرع في البكاء؛ مثل نكرانٍ منصهر. مالت النافذة الصغيرة المستديرة الشهيرة، سيِّئة السُّمعة باتِّجاه الأمام قليلاً، ثمَّ غاصت ببطءٍ إلى الدَّاخل. انبعث لسانٌ من اللَّهب إلى الأعلى ثمَّ عاود الاختفاء. ثمَّ انهار السقف بأكمله في الفوضى المستعرة في الحضيض، متهاوياً مسافة طابقين إلى الأسفل لينضمَّ إلى الحطام القرمزيِّ المتبقِّي من الدَّاخل. اضطربت النار في انتصارٍ مطلقٍ في ليلة صيف.

ولمَّا خبتْ أخيراً، انتبه روبرت بذهولٍ مُلتبَسٍ إلى الفجر الذي بزغ؛ فجرٌ رماديٌّ وهادئ، حافلٌ بالبُشرى. هبط السكون أيضاً؛ إذ تلاشى الأجيج والصرخات وحلَّت محلَّها هسهسة الماء الخافتة على الهيكل المتفحِّم. وحدها الجدران الأربعة انتصبت ضبابيَّةً ومسخَّمةً وسط العشب المسحوق. الجدران الأربعة، ودرجات السلَّم بدرابزينها المعوجِّ. وعلى جانبَي المدخل، صمد ما تبقَّى من حوضَي نيفيل الصغيرين الغريبين؛ الأزهار، الغارقة في المياه والسواد، متدلِّيةٌ على الحوافّ، ما عاد بالإمكان تعرُّفها. وبين الحوضين، الفوهة المربَّعة، وقد فتحت فاهها على العدم القاتم.

قال ستانلي الواقف إلى جانبه: «حسناً. يبدو أنَّ هذا هو كلُّ شيء».

سأل بيل الذي وصل متأخِّراً كثيراً ليرى أيَّ شيءٍ آخرَ باقٍ غير الحطام: «كيف بدأ ذلك؟».

قال روبرت: «لا أحد يعرف. لقد كان مشتعلاً تماماً عندما وصل بي سي نيوسام إلى مناوبته. بالمناسبة، ماذا حصل لهذين الشّابَّين؟».

«الاثنان اللّذان أدّبناهما؟»، قال ستانلي، «ذهبا إلى المنزل».

«من المؤسف أنّ تعابير الوجه ليست دليلاً».

قال ستانلي: «أجل، لن يصلوا إلى مَن فعل هذا، تماماً كما لم يصلوا إلى مَن حطَّم النوافذ. وما زلت أدين لشخصٍ ما لقاء هذا الجرح في الرأس».

«كدت تكسر رقبة هذا المخلوق الليلة. يجب أن يكون في هذا نوعٌ من التعويض لك».

«كيف ستخبرهما؟»، قال ستانلي. واضحٌ أنّه يشير بذلك إلى أسرة شارب.

قال روبرت: «الله أعلم، هل أخبرهما أوّلاً وأترك ذلك يعكِّر صفوَ انتصارهما في المحكمة، أو أتركهما تستمتعان بنصرهما، وأواجههما بعد ذلك بالانهيار المروِّع؟».

«بل دعهما فرحتان بنصرهما»، قال ستانلي، «أيّاً كان ما سيحصل بعد ذلك فلن يسلبَ منهما ذلك. لا تفسد الفرحة».

«ربّما أنت على حقٍّ، ستان. ليتني عرفت. يجدر بي أن أحجزَ لهما غرفاً في فندق (روز آند كراون)».

قال ستانلي: «لن يعجبهما ذلك».

«ربّما لن يعجبهما»، قال روبرت بشيءٍ من نفاد الصبر، «لكن، لا خيار أمامهما. أيّاً كان ما ستقرّرانه، فلا بدَّ أنّهما ستمكثان هنا لليلةٍ أو ليلتين لترتّبا أمورهما كما أتوقّع. وفندق (روز آند كراون) هو أفضل الموجود».

قال ستانلي: «حسناً. كنت أفكّر. وأنا متأكّدٌ من أنَّ صاحبة سَكَني ستسرُّ باستضافتهما. لطالما كانت في صفِّهما. ولديها غرفةٌ إضافيَّة، ويمكنهما أن تحصلا على غرفة الجلوس في الجهة الأماميَّة؛ فهي لا تستعملها، والمكان هادئٌ جدّاً هناك، في الصفِّ الأخير من دُور المجلس المواجهة للمروج. إنَّني متيقِّنٌ من أنَّهما تفضِّلان ذلك على فندقٍ تكونان فيه عرضةً للتحديقات».

«وإنَّهما حقّاً لكذلك، يا ستان. ما كان عليَّ التفكير في ذلك أصلاً. أتظنُّ أنَّ صاحبة سكنك سترضى بذلك؟».

«لا أظنُّ. بل إنَّني متأكِّدٌ من ذلك. ففي الوقت الراهن هما محور اهتمامها في الحياة. وكأنَّ الأسرة الملكيَّة هي مَن ستأتي للإقامة».

«حسناً. تأكَّد لي من ذلك، هل يمكنك؟ وهاتفني إلى نورتون، إلى فندق ‹فيذرز› في نورتون».

-22-

بدا لروبرت أنَّ نصف ميلفورد قد تمكَّنت من المجيء إلى المحكمة في نورتون. وقد تجمهر عددٌ كبيرٌ بالتأكيد من مواطني نورتون حول الأبواب الخارجيَّة، كانوا صاخبين ومحبطين وغاضبين، لأنَّ قضيَّةً تخصُّ المصلحة العامَّة تقرَّر عقدها في محكمة الجنايات «عندهم»، إلَّا أنَّ تدفُّق الأجانب من ميلفورد قد جرَّدهم من حقِّهم في حضورها. والأجانب المراوغون والمخادعون قد أغروا شبَّان نورتون بالرشوة أيضاً كي يحتفظوا لهم بأماكنَ على قائمة الانتظار. وتلك فكرةٌ لم تخطر في بال الكبار من أهل نورتون.

كان الجوُّ دافئاً جدّاً، ولغط الحاضرين في المحكمة مزعجاً في أثناء الإجراءات التمهيديَّة. وفي أثناء سرد مايلز آليسون لبيان الجريمة، كان آليسون نقيض كيڤين ماكديرموت؛ وجهه لطيفٌ وجميل، كمظهرٍ وليس كشخص، صوته خافتٌ ومبحوحٌ ومجرَّدٌ من العواطف، وأسلوبه واقعيٌّ. وبما أنَّ القضيَّة الَّتي كان يسردها هي قضيَّةٌ مُستهلَكَةٌ لفرط ما قرؤوها وناقشوها فيما بينهم، فقد صرفوا انتباههم عنه، وراحوا يسلُّون أنفسهم بالتعرُّف إلى من حضر في المحكمة من أصدقائهم.

جلس روبرت وهو يقلِّب الورقة الكرتونيَّة المستطيلة في جيبه مرَّاتٍ ومرَّات، تلك التي دسَّتها كريستينا في يده قبل مغادرته أمس. كانت الورقة الكرتونيَّة ناصعةَ البياض، والكلمات مكتوبة فيها بحروفٍ ذهبيَّة: «لا يقع

عصفورٌ منهما على الأرض»[67]. وفي أعلى الزاوية اليُمنى صورة طائر أبي الحنَّاء، ذي صدرٍ أحمرَ كبير. وتساءل روبرت، وهو يقلِّب النصَّ المكتوبَ مرَّاتٍ عدَّة بين أصابعه، كيف يمكنك أن تخبر أحداً ما بأنَّه لم يعد يملك بيتاً بعد الآن؟

أعادتـه الحركـة المفاجئـة لمئـات الأجسـاد، والصمـت الـذي تبـع ذلك، إلى قاعـة المحكمـة، وأدرك أنَّ بيتـي كانـت تحلـف اليمـين لتـدلي بشـهادتها. قـال بِـن كارلي عنـد ظهورها في مناسـبةٍ مشـابهة: «لم تقبَّل في حياتها شـيئاً إلَّا الكتـاب». هـذا مـا بـدت عليـه اليـوم. فالـزيُّ الأزرق يذكِّـر المـرء بالصِّبا، والـبراءة بزهـر الڤيرونيـكا، وبدخـان نـيران المخيَّـم، وبأعشـاب الجـرس. ولا تـزال حافَّـة قبَّعتهـا مائلـةً إلى الخلـف لتُظهِـر جبهتهـا الطفوليَّـة المغطَّـاة بغـرَّةٍ سـاحرة. وروبـرت، الـذي بـات يعـرف الآن كلَّ شيءٍ عـن حياتها في الأسـابيع التي كانـت مفقودةً فيهـا، وجد نفسـه مبهوراً برؤيتهـا من جديد؛ فالمعقوليَّـة هـي أولى ثـروات المجـرم. لكن حتَّـى الآن، فتلـك المعقوليَّة التي كان عليـه أن يتعامـل معهـا، كانـت مـن النـوع الرخيـص. يسـهل تعرُّف الغايـة المنشـودة منهـا، تماماً كسـهولة تأديـة الهواة للمهـام. وخطر عـلى باله أنَّـه يـرى للمـرَّة الأولى ذاك الـشيء في تأديتـه لعمله.

ومرَّةً أخرى، أدلت بشهادتها بطريقةٍ أنموذجيَّة؛ فصوتها الصافي الفتيُّ مسموعٌ لكلِّ الحاضرين في المحكمة. ومرَّةً أخرى، تركَت المستمعين إليها بلا نفَسٍ ولا حراك. الفارق الوحيد، هذه المرَّة، يكمن في أنَّ هيئة المحكمة لم تكن متعاطفةً معها. وبناءً على تعابير وجه سيادة القاضي ساي، فقد كانت هيئة المحكمة بعيدةً كلَّ البُعد عن التعاطف. وتساءل روبرت؛ إلى أيِّ حدٍّ كانت نظرة القاضي النافذة وليدة نفوره الفطريِّ من الموضوع، وإلى أيِّ مدىً

---

67 إنجيل متّى :10 :29 أما يُباع عصفوران بفلسٍ واحد؟ ومع ذلك، لا يقع واحدٌ منهما إلى الأرض دون علم أبيكم. المترجمة.

كان سيجلس كيڤين في النهاية على أهبة الدفاع عن المرأتين القابعتين في قفص الاتِّهام لو لم يكن لديهم دليلُ دفاعٍ هائل وقويّ.

استطاع سردُ الفتاة لعذاباتها بنفسها أن يفعل ما لم يفعله ممثِّلُها في سرده: فأثار في الحاضرين ردَّ فعلٍ عاطفيّاً. ففي أكثر من مرَّةٍ كانوا يطلقون تنهيدةً موحَّدةً، تمتمة سخطٍ غير معلَنةٍ بما يكفي لتُصَنَّفَ احتجاجاً، وتستدعي بذلك استنكارَ المحكمة، لكنَّها مسموعةٌ بما يكفي لتظهر كيف يكمن تعاطفهم. وهكذا، فقد نهض كيڤين للاستجواب في ذلك الجوِّ المشحون.

بدأ كيڤين بتشدُّقه اللطيف: «قلتِ إنَّ الظلام كان طاغياً حين وصولك إلى منزل فرانشايز. هل كان الظلام حالكاً حقّاً؟».

نبرته المتملِّقة في هذا السؤال، جعلتها تظنُّ أنَّه لا يريد منها أن يكون الجوُّ معتماً كثيراً، وهي تصرَّفت بناءً على نيَّته التي بيَّتها.

«أجل، كان ظلاماً حالكاً».

«أهو ظلامٌ شديدٌ يحول دونَ رؤية المنزل من الخارجَ؟».

«أجل، ظلامٌ شديدُ الحُلكة».

بدا أنَّه سينصرف عن هذا ويجرِّب سبيلاً آخرَ.

«إذاً، فلربَّما لم يكن الظلام حالكاً تماماً في الليلة التي هربتِ فيها؟».

«بلى. بل كانت أشدَّ ظلمةً إن أمكنني القول».

«إذاً، فلم تُتَح لك رؤية المنزل من الخارج في أيِّ مناسبة؟».

«مطلقاً».

«مطلقاً. حسناً. بعد أن انتهينا من هذه النقطة، فلننظر في ما قلتِ إنَّكِ قد رأيتِه عبر النافذة في سجنك في العلّيّة. قلتِ في إفادتك التي أدليتِ بها لرجال الشرطة عندما كنتِ تصفين هذا المكان المجهول، حيث كنت مسجونةً، إنَّ مسار العربات من البوّابة إلى الباب ‹يبدأ مستقيماً قليلاً ثمَّ ينقسم إلى مسارين في هيئة دائرة، ويصل المساران إلى الباب›».

«نعم».

«كيف عرفتِ أنَّه هكذا؟».

«كيف عرفتُ؟ كان في مقدوري رؤيته».

«من أين؟».

«من النافذة في العلّيّة. فهي تطلُّ على الفناء الأماميِّ للمنزل».

«لكنَّ الجزء المستقيم فقط من مسار العربات هو المتاح للرؤية من نافذة العلّيّة: فحافَّة السطح تحجب البقيَّة. كيف عرفتِ أنَّ مسار العربات ينقسم إلى مسارين في هيئة دائرةٍ ويصل المساران إلى الباب».

«لقد رأيته».

«كيف؟».

«من تلك النافذة».

«أتريدين منّا أن نفهمَ أنَّ منظورك يختلف عن منظور المخلوقات العاديَّة؟ كمنظور مسدَّس الأيرلنديِّ الذي يطلق على الزوايا المستديرة؟ أم أنَّك رأيتِ ذلك كلّه عبر المرايا؟».

«إنَّها الطريقة التي وصفتُها».

«حتماً هي الطريقة التي وصفتِها، إلّا أنَّ ما وصفتِه هو منظر الفناء كما يمكن لأحدٍ أن يراه، لِنَقُل، من فوق الجدار، وليس كما يمكن لأحدٍ أن يراه من نافذة العلّيّة، الَّتي تؤكِّدينَ أنَّها الإطلالة الوحيدة التي كانت متاحةً أمامك».

قال القاضي: «أفهم من هذا أنَّ لديكَ شاهداً على حدِّ الرؤية من النافذة؟».

«شاهدان سيِّدي القاضي».

قال القاضي بلهجةٍ جافَّة: «شاهدٌ واحدٌ يتمتَّع ببصرٍ سليم سيكون كافياً».

«إذاً، فلا يمكنكِ أن تفسِّري كيف وصفتِ في حديثك إلى رجال الشرطة، يومذاك في آليزبيري، تفصيلاً خاصّاً لا يمكن أن تكوني قد علمتِ به في حال كانت قصَّتكِ صحيحة. هل سبق لكِ أن سافرتِ خارج البلاد آنسة كين؟».

«خارج البلاد؟»، قالت وقد فوجئت بتغيير الموضوع. «لا».

«مطلقاً؟».

«لا. مطلقاً».

«لم تذهبي مؤخَّراً إلى الدنمارك مثلاً؟ إلى كوبنهاغن مثلاً؟».

«لا». لم يطرأ أيُّ تغيير على تعابيرها، لكنَّ روبرت لمس لمحةً من الريبة في صوتها.

«هل تعرفين رجلاً يُدعى برنارد شادويك؟».

تنبَّهتْ على نحوٍ مفاجئ، ما ذكَّر روبرت بالتغيير الحادِّ الذي يحدث لحيوانٍ مسترخٍ فيجعله متيقِّظاً. ليس ثمَّة تغييرٌ في الوضع، ليس ثمَّة تغييرٌ جسديٌّ ملموس، بل على العكس، لم يزدها ذلك إلّا ثباتاً، وتنبُّهاً.

«لا». كانت النبرة حياديَّة، لا مباليةً.

«أليس صديقاً لك؟».

«لا».

«لم تمكثي معه في فندقٍ في كوبنهاغن مثلاً؟».

«لا».

«هل بقيتِ مع أحدٍ في كوبنهاغن؟».

«لا، لم أسافر خارج البلاد على الإطلاق».

«إذاً، فإن كنت أشير إلى أنّك قضيتِ أيّام الاختفاء تلك في فندقٍ في كوبنهاغن، لا في علّيّة منزل فرانشايز، فلا بدّ أنّني مخطئ».

«مخطئٌ تماماً».

«شكراً لك».

وكما توقّع كيڤين، نهض مايلز آليسون، لينقذ الوضع.

قال: «آنسة كين، لقد وصلت إلى منزل فرانشايز بالسيّارة».

«أجل».

«وقلتِ في إفادتك إنّ السيّارة وصلت إلى باب المنزل. والآن، في حال كان الظلام حالكاً كما تقولين، فلا بدّ أنّ للسيّارة مصابيح جانبيّةً إن لم تكن أماميّة، تلك التي لا تنير مسار العربات فحسب، بل ومعظم الفناء أيضاً».

«أجل»، قاطعته قبل أن يتمّمها لها، «أجل بالطبع، لا بدّ أنّني رأيت الدائرة حينها. كنت أعرف أنّني رأيتها. كنت أعرف ذلك». نظرت إلى كيڤين للحظةٍ، فتذكّر روبرت وجهها في اليوم الأوّل في منزل فرانشايز عندما رأت أنّها أصابت في تخمينها بشأن الحقائب في الخزانة، وفكّر روبرت في أنّها لو عرفت ما ينتظرها من كيڤين لما تجرأت على التفكير في نصرٍ عابرٍ.

تلتها على منصَّة الشهود مَن سمَّاها كارلي بـ«أوليوغراف»، وقت ابتاعت فستاناً جديداً وقبَّعةً جديدةً لأجل ظهورها في نورتون -فستانٌ أحمر فاقع، وقبَّعةٌ حمراء داكنةٌ بشريطٍ لامعٍ ووردةٍ زهريَّة اللَّون- فبدت بذلك فاتنةً ومقزِّزةً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وقد أثار انتباه روبرت مجدَّداً كيف أنَّ فرط تلذُّذها في أداء دورها قد أفقد كلامها تأثيره في الحضور. حتَّى في هذا الحضور الأكثر حساسيَّةً. فهي لم ترق لهم، وعلى الرَّغم من موقفهم المنحاز، إلَّا أنَّ حدسهم الإنجليزيَّ بوجود حقدٍ لديها، ساقهم إلى الإعراض عنها. ولمَّا استجوبها كيڤين، أشار إلى حقيقة أنَّها طُردت من العمل، ولم تترك العمل «بإخطارٍ منها» قطُّ، فبدا على كلِّ وجهٍ من وجوه الحضور تعبيرٌ معناه «هكذا إذاً!». وبعيداً عن الطعن في مصداقيَّتها، لم يكن لدى كيڤين الكثير ليفعله معها، فتركها تمضي. لقد كان في انتظار ألعوبتها المسكينة. ولمَّا وصلت الألعوبة، بدا حالها أقلَّ سعادةً ممَّا كانت عليه في محكمة الشرطة في ميلفورد. فقد اهتزَّت بوضوحٍ أمام هذه المجموعة الكبرى من عباءات القضاة وباروكاتهم.

كان زيُّ رجال الشرطة بشعاً كفايةً، لكنَّه مقارنةً بهذا الجوِّ المهيب والشعائريِّ، فقد بدوا دافئين دفء الوطن. وإن كانت ذات خبرةٍ قليلةٍ في ميلفورد، فإنَّها غارقةٌ هنا لا محالة. رأى روبرت كيڤين يتفحَّصها بعينيه، يحلِّل، يفهم ويقرِّر النهج الذي سيتَّبعه معها. كانت متصلِّبةً من الخوف من مايلز آليسون، على الرَّغم من حِلْمِه المطمئن. من الواضح أنَّها كانت تنظر إلى أيِّ شيءٍ بعباءةٍ وباروكةٍ بأنَّه عدوٌّ ومانح عقوباتٍ محتمل. فأصبح كيڤين بذلك نصيرها وحاميها.

فكَّر روبرت، وهو مُصغٍ إلى العبارات الأولى الموجَّهة إليها، في أنَّ الملاطفة التي غشيت صوت كيڤين قد كانت فعلاً فاضحاً لا يقبل الجدل؛ فقد طمأنتها المقاطع اللفظيَّة الوادعة المتمهِّلة. أنصتت للحظةٍ ثمَّ بدأت تسترخي. لقد رأى روبرت اليدين المتشبِّثتين بإحكامٍ شديد بدرابزين المنصَّة، ترتخيان

وتتباعدان ببطء في وضعيَّةٍ مطمئنة. كان يسألها عن مدرستها، فانقشع الخوف من عينيها، وكانت تجيب بهدوءٍ تامّ. هنا تحديداً شعرت أنّه صديق.

«والآن يا غلاديس، سأقول إنَّك لم ترغبي في المجيء إلى هنا اليوم والإدلاء بشهادةٍ ضدَّ ساكنتَي منزل فرانشايز، هاتين».

«لا لم أرغب. إنَّني حقّاً لم أرغب في ذلك».

«لكنَّك أتيتِ». لم يقلها بصيغة اتِّهامٍ، وإنَّما بصيغة الإقرار.

قالت، بوجهٍ خجل: «أجل».

«لماذا؟ لأنَّ واجبك يحتِّم عليك ذلك؟».

«لا. لا».

«لأنَّ أحداً أجبركْ على المجيء؟».

رأى روبرت ردَّ فعل القاضي الفوريّ على ذلك، أمَّا كيڤين فنظر إليه من زاوية عينه. «شخصٌ يمسك عليك زلّةً؟»، أنهى كيڤين بسلاسة، وانتظر سيادته، «أحدٌ ما قال لك: ‹قولي ما أقوله لك، وإلَّا فسأفضح أمرك›؟».

بدت متفائلةً ومتحيِّرةً في آنٍ معاً، وقالت تلوذ بمهرب الجهلاء: «لا أدري».

«لأنَّ مَن يرغمك على قول الأكاذيب من خلال تهديدك بما يمكن أن يفعله بك حال رفضتِ، فسوف يُعاقب على ذلك».

من الواضح أنَّ تلك قد كانت فكرةً جديدةً عليها.

«إنَّ هذه المحكمة، وكلّ هؤلاء الناس الذين ترينَهم هنا، جاؤوا اليوم لمعرفة الحقيقة عن شيءٍ ما. وسيتعامل سيادته بحزمٍ شديدٍ مع أيِّ أحدٍ لجأ

إلى التهديدات لإرغامك على المجيء إلى هنا وقول شيءٍ آخرَ غير الحقيقة. وعلاوةً على ذلك، فالعقاب شديدٌ جدّاً لأولئك الذين يقسمون على قول الحقيقة ثمَّ يقولون شيئاً غير صحيح، لكن إن تصادف أنَّ شخصاً يخوّفهم بالتهديد والوعيد ليقولوا الأكاذيب، فحينها سينال الشخص الذي هدَّدهم أشدَّ العقاب. هل تفهمين ذلك؟».

قالت بصوتٍ هامس: «نعم».

«وسأقترح عليكِ الآن ما حصل فعلاً، وأنتِ من سيقول لي إن كنت على حقٍّ»، انتظر الحصول على موافقتها، لكنَّها لم تقل شيئاً، فواصلَ: «هناك أحدٌ ما -ربَّما صديقةٌ لك- وقد أخذت شيئاً من منزل فرانشايز -ولنقل إنَّها قد أخذت ساعةً. ولعلَّها لم ترغب بالساعة لنفسها، فسلَّمتها لكِ. ولعلَّك لم ترغبي في أخذها، ولم تعجبك فكرة رفضها لأنَّ صديقتك في الأرجح إنسانٌ مستبدٌّ.

لذلك أخذتِها. وسأقترح الآن أنَّ تلك الصديقة قد عرضت عليك مؤخَّراً أن تؤيِّدي قصَّتها التي سترويها للمحكمة، وأنَّك قلتِ ‹لا› بسبب كرهك للكذب. فقالت لك حينها: ‹إن لم تؤيِّديني فسأقول إنَّك أخذتِ الساعة من منزل فرانشايز حين جئت لرؤيتي في أحد الأيَّام›، أو أيّ تهديدٍ آخرَ من هذا القبيل».

توقَّف لوهلةٍ، لكنَّها بدت متحيِّرةً بكلِّ بساطة.

«والآن. أقترح أنَّك بسبب تلك التهديدات، ذهبتِ فعلاً إلى محكمة الشرطة وقد أيَّدتِ فعلاً قصَّة صديقتك الكاذبة. لكنَّك لمَّا عدتِ إلى المنزل، شعرتِ بالأسف والخجل. كنتِ في غاية الأسف والخجل، إلى درجة أنَّكِ ما عدتِ تطيقين فكرة الاحتفاظ بتلك الساعة بعدها،

فغلَّفتِ الساعة وأرسلتِها بالبريد إلى منزل فرانشايز، لتعيديها إليهم مع رسالةٍ تقول: «لا أريد شيئاً منها»»، توقَّف لوهلة، «أقترح أنَّ هذا هو ما حصل فعلاً يا غلاديس».

لكنَّ الوقت قد حان لتُصاب بالذعر، قالت: «لا. لا. لم أملك تلك الساعة مطلقاً».

تجاهل الاعتراف، وقال بسلاسة: «هل أنا مُخطئٌ بشأن ذلك تماماً؟».

«أجل. لستُ أنا مَن أرسل الساعة».

التقط ورقةً وقال محافظاً على لطفه: «لمَّا كنتِ في المدرسة، التي تحدَّثنا عنها، كنتِ بارعةً في الرَّسم، بارعة إلى درجة أنَّ أعمالك قد عُلِّقت لتُعرض في معرض المدرسة».

«أجل».

«لديَّ هنا خريطةٌ لكندا -خريطةٌ متقنةٌ للغاية- وقد كانت إحدى معروضاتك، وقد فزت بجائزةٍ لأجلها. وقَّعتِ عليها هنا في الزاوية اليمنى، ولا شكَّ لديَّ في أنَّك قد كنتِ تفخرين بالتوقيع على عملٍ مُتقنٍ كهذا. أتوقَّع أنَّكِ ستتذكَّرينه».

مُررِّت إلى القاضي من بَعدِها، حين أضاف كيڤين: «سيِّداتي وسادتي في هيئة المُحلَّفين: هذه خريطة كندا التي صنعتها غلاديس ريز في عامها الأخير في المدرسة. حينما يُنهي سيادته تفحُّصها فإنَّه سيمرِّرها إليكم من دون شكٍّ». ثمَّ قال لغلاديس: «هل صنعتِ تلك الخريطة بنفسك؟».

«نعم».

«وكتبتِ اسمكِ في الزاوية؟».

«نعم».

«وطبعت دومنيون كندا في الأسفل؟».

«نعم».

«لقد طبعت هذه الحروف في الأسفل، وهي تقول: دومينيون كندا. جيّد. والآن، لديَّ هنا قصاصة ورقٍ كتب عليها أحدهم: لا أريد شيئاً منها. كانت قصاصة الورق هذه مرفقةً بالساعة التي أُرسلت لتعاد إلى منزل فرانشايز. الساعة التي فُقِدَت عندما كانت روز غلين تعمل هناك. وإنَّني أُلمِّح إلى أنَّ طريقة طباعة 'لا أريد شيئاً منها' هي نفسها طريقة طباعة 'دومينيون كندا'. أي أنَّها كُتبت باليد نفسِها. وتلك اليد هي يدك».

«لا»، قالت وهي تأخذ قصاصة الورق التي أُعطيت لها. وضعتها في عجلةٍ على الحافة كما لو كانت ستلدغها: «لم يسبق. لم يسبق لي أن أعدت أيَّ ساعة».

«لم تطبعي هذه الحروف التي تقول: لا أريد شيئاً منها؟».

«لا».

«لكنَّك طبعت هذه الحروف التي تقول: دومينيون كندا؟».

«نعم».

«حسناً، في وقتٍ لاحقٍ من هذه القضيَّة سأحضر دليلاً على أنَّ هاتين الطباعتين قد طُبعتا باليد نفسها. وفي هذه الأثناء، يمكن لهيئة المُحلَّفين أن تتفحَّصهما براحتها وتصل إلى استنتاجها النهائيِّ. شكراً».

قال مايلز آليسون: «كان صديقي المثقَّف يلمِّح لكِ إلى أنَّ حضوركِ إلى هنا كان تحت الضغوط. هل ثمَّة شيءٌ من الصحَّة في ذاك التلميح؟».

«لا».

«أنتِ لم تأتِ إلى هناك لأنّك خائفة ممّا قد يحصل لكِ فيما لو امتنعتِ عن ذلك؟».

تطلَّب منها التفكير في ذلك بعض الوقت، وقد بدا واضحاً أنّها تحلِّل ذلك في ذهنها، ثمَّ غامرت أخيراً: «لا».

«هل ما قلتِه على منصَّة الشهود في محكمة الشرطة، وما قلتِه اليوم هو الحقيقة؟».

«نعم».

«ولم يُمْلِه عليكِ أحدٌ لأجل أن تقوليه؟».

«لا».

إنّما، ما تركَتْه من انطباع لدى هيئة المُحلَّفين هو فقط أنّها: شاهدةٌ مُكرَهةٌ تكرِّر قصَّةً من اختراع أحدٍ آخر.

وبهذا انتهت الشهادة بالنسبة إلى الادِّعاء. وانطلق كيفين مباشرةً إلى مشكلة غلاديس ريز، وفق طريقة ربّات البيوت، «فقد أزال الأدران عن الأقدام»[68] قبل أن يبدأ العمل الحقيقيَّ في ذلك اليوم.

وقدَّم خبيرٌ في الخطوط دليلاً على أنَّ العيِّنتين المطبوعتين اللَّتين قُدِّمَتا إلى المحكمة قد طُبعتا باليد نفسها، وأنّه لم يساوره أدنى شكٍّ في ذلك؛ بل ومن النادر أن تُناط به مهمَّة سهلة كهذه: إذ لم تكن الحروفُ مكرَّرةً بين العيِّنتين فحسب، بل كُرِّرت أيضاً المقاطع، مثل ON و ANو DO. كما هو واضح،

68 مصطلحٌ إنجليزيّ يعني أنه قد بات جاهزاً للعمل. المترجمة.

فقد حسَمتْ هيئة المُحلَّفين أمرها فعلاً بهذا الخصوص- فلا يمكن أن يرى أحد العيِّنتين ويُشكِّك في أنَّهما مكتوبتان باليد نفسها- وتلميح آليسون إلى أنَّ الخبراء قد يُخطئون جاء آليّاً وفاتراً، وقد أحبطه كيفين حين قدَّم شاهد البصمات الذي أفاد بأنَّ البصمات الموجودة على العيِّنتين هي نفسها. وقد جاء تلميح آليسون إلى أنَّ البصمات قد لا تكون لغلاديس ريز، كمحاولةٍ أخيرةٍ له. لم يكن لديه أدنى رغبة في أن تُخضعَها المحكمة للفحص.

الآن، وبعد أن أثبت حقيقة إدلاء غلاديس ريز لشهادتها أوَّل مرَّة بشأن حيازتها لساعةٍ مسروقةٍ من منزل فرانشايز، وأنَّها قد أعادتها على الفور بعد الشهادة، مرفقةً برسالةٍ يفوح منها عذاب الضمير، فقد كان كيفين متفرِّغاً ليتعامل مع قصَّة بيتي كين. لقد كُذِّبت قصَّة روز غلين كفايةً أمام الشرطة، وقد اجتمعتا تخطِّطان معاً. بإمكانه الآن أن يترك روز لرجال الشرطة، وهو مطمئنٌّ.

لَمَّا نُوديَ برنارد ويليام شادويك، اشرأبَّت الأعناق، وانتشرت الغمغمات المستفهمة. لم يعرف قرَّاء الصحف هذا الاسم قبل الآن. ما شأنه بالقضيَّة؟ ما الذي جاء ليقوله هنا؟

جاء إلى هنا ليقول إنَّه وكيل مشتريات يعمل لصالح شركةٍ في لندن للبيع بالجملة؛ إذ يشتري لها البورسلين والأواني الخزفيَّة الفاخرة ومختلف الأنواع من السلع الفاخرة، وإنَّه متزوِّج ويعيش مع زوجته في منزلٍ في إيلينغ.

قال كيفين: «أنت تسافر لصالح شركتك».

«نعم».

«هل زرتَ لاربورو في شهر مارس من هذا العام؟».

«نعم».

«ولَمَّا كنتَ في لاربورو، هل التقيتَ بيتي كين؟».

«نعم».

«كيف التقيتَها؟».

«اختارتني».

غزا احتجاجٌ فوريٌّ وموحَّد قلب المحكمة. فمهما كان التكذيب الذي عانت منه روز غلين وحليفتها، فإنَّ بيتي كين لا تزال مُقدَّسة. بيتي كين الشبيهة ببرناديت؛ لا يجوز الحديث عنها باستخفاف.

زجرهم القاضي بسبب الجَلَبة، على الرَّغم من كونها تلقائيَّة، وزجر الشاهد أيضاً. وقد خَلُص إلى أنَّه لم يكن واضحاً تماماً بخصوص ما ينطوي عليه «الاختيار»، وسيكون ممتنّاً للشاهد، إن هو التزم باللُّغة الإنجليزيَّة الفُصحى في ردوده.

قال كيڤين: «هلَّا أخبرتَ المحكمة كيف التقيتَها؟».

«ذات يوم، ذهبتُ إلى (ميدلاند) لأحتسي الشاي، وبدأتْ -أي هي- بالحديث معي. كانت، تشرب الشاي هناك».

«وحدها؟».

«وحدها تماماً».

«لم تتكلَّم معَها أنتَ أوَّلاً؟».

«بل، لم ألحظ وجودها».

«فكيف إذاً لفتَت انتباهك إلى وجودها؟».

«ابتسمتْ، فبادلتُها الابتسام، وتابعتُ انشغالي بأوراقي. كنتُ مشغولاً. ثمَّ تحدَّثتْ إليَّ، وسألتني ما هي تلك الأوراق، وما إلى ذلك».

«وهكذا تطوَّر التعارف».

«قالت إنَّها ذاهبة لحضور الأفلام -إلى دار السينما- وفيما لو أمكنني الذهاب أيضاً؟ حسناً، كنتُ قد أنهيتُ عمل اليوم، وقد كانت طفلةً لطيفةً، فقلتُ نعم يمكنني إن هي أحبَّتْ ذلك. وكانت نتيجة الأمر أنَّها قابلتني في اليوم التالي، وذهبت معي إلى الريف في سيَّارتي».

«تقصد في رحلات عملك».

«أجل، كانت تأتي للنزهة في السيَّارة، وكنَّا نتناول وجبة طعامٍ في مكانٍ ما، ونشرب الشاي قبل أن تعود إلى بيت عمَّتها».

«هل حدَّثتْكَ عن أهلها؟».

«نعم. قالت لي كم هي تعسة في البيت؛ حيث لا أحد يهتمُّ بأمرها. كانت لديها سلسلةٌ طويلةٌ من الشكاوى عن بيتها، لكنَّني لم أعطِ الأمرَ اهتماماً بالغاً، فقد بدت لي صغيرةً جميلةً أنيقةً ناعمة الملمس».

«ماذا؟»، سأل القاضي.

«أقصد أنَّها تحظى بالرعاية بالنسبة إلى فتاةٍ شابَّةٍ يا سيِّدي».

قال كيڤين: «أجل. وكم استمرَّت هذه القصيدة الملحميَّة في لاربورو؟».

«تبيَّن أنَّنا سنغادر لاربورو في الوقت نفسه. كانت عائدةً إلى أهلها لأنَّ عطلتها قد انتهت -فقد سبق لها أن مدَّدتها لتتمكَّن من التجوُّل برفقتي- وكان عليَّ أنا أن أسافرَ جوّاً إلى كوبنهاغن في رحلة عمل. ثمَّ قالت لي إنَّها لا تنوي العودة إلى المنزل، وطلبت إليَّ أن أصحبها معي. لم أقل شيئاً. لم أعتقد أنَّها طفلة بريئة إلى الدرجة التي بدت عليها في صالة (ميدلاند)- فقد تعمَّقتْ معرفتي بها إلى حينه- لكنَّني كنتُ لا أزال أفكِّر في أنَّها عديمة الخبرة. ففي النهاية، كانت في السادسة عشرة فقط».

«أخبرَتْك أنَّها في السادسة عشرة».

«احتفلتْ بعيد ميلادها السادس عشر في لاربورو»، قال شادويك وقد تبدَّتْ لمحة السخرية في اعوجاجِ فمه تحت الشاربين الصغيرين الداكنين، «لقد كلَّفني ذلك أحمر شفاهٍ ذهبيّاً».

نظر روبرت إلى السيِّدة وين مباشرةً، فرآها تُغطِّي وجهها بيدها، وقد جلس ليزلي إلى جانبها جامداً وغير مصدِّقٍ.

«لم يكن لديك أدنى فكرة عن أنَّها كانت لا تزال في الخامسة عشرة؟».

«لا، ليس قبل ذلك اليوم».

«إذاً، لَمَّا اقترحتْ عليك أن تذهبَ معك، كنتَ تظنُّها طفلةً عديمة الخبرة في سنِّ السادسة عشرة».

«نعم».

«ولماذا غيَّرتَ رأيك فيها؟».

«هي - أقنعتني أنَّها لم تكن».

«لم تكن ماذا؟».

«عديمة الخبرة».

«وهكذا، لم يعد لديك مانعٌ من مرافقتها لك في رحلتك إلى الخارج؟».

«عانيت من تأنيب الضمير كثيراً، لكنَّني بحلول ذلك الوقت عرفت -كم ستكون مسلِّية، ولم أكن لأتركها خلفي حتَّى لو كنتُ راغباً في ذلك».

«لذلك، اصطحبتَها معك في سفرك إلى الخارج؟».

«نعم».

«على أنَّها زوجتك».

«نعم، على أنَّها زوجتي».

«ألم يؤنِّبكَ ضميرك بشأن القلق الذي قد تعاني منه أسرتها؟».

«لا. فقد قالت إنَّ لديها أسبوعين آخرين من العطلة، وسيُسلِّمُ أهلُها بأنَّها لا تزال مع عمَّتها في لاربورو. فقد أخبرت عمَّتها أنَّها عائدةٌ إلى المنزل، لكنَّها أخبرت أهلها أنَّها باقيةٌ عند عمَّتها. وبما أنَّهم لا يتراسلون مطلقاً، فمن غير المرجَّح أن يعرف أهلها بعدم وجودها في لاربورو».

«هل تذكُر التاريخ الذي غادرتما فيه لاربورو؟».

«أجل. أخذتها من موقف الحافلات في مينشيل، بعد ظهر يوم الثامن والعشرين من مارس. فقد كانت تستقلُّ الحافلة إلى المنزل عادةً من هناك».

ترك كيڤين فاصلاً بعد تلك المعلومة ليحظى مدلولها بأحقيّته كاملةً. وبينما هو مُصغٍ إلى الهدوء اللحظيِّ، فكَّر روبرت في أنَّ الصمت لن يكون حتمياً أكثر من هذا فيما لو كانت قاعة المحكمة خالية.

«إذاً، فقد أخذتها معك إلى كوبنهاغن. أين مكثتما؟».

«في فندق الحذاء الأحمر».

«وكم لبثتما هناك؟».

«لأسبوعين».

كانت ثمَّة غمغماتٌ خفيفةٌ في سبيل التعليق أو الذهول.

«ومن ثَمَّ؟».

«عدنا معاً إلى إنجلترا في الخامس عشر من أبريل. أخبرتني أنَّ عليها العودة إلى المنزل في يوم السادس عشر من أبريل، لكن في طريق العودة أخبرتني أنَّ عودتها كانت من المفترض منذ الحادي عشر من أبريل، وبهذا فهي مفقودةٌ لأربعة أيَّامٍ حتَّى ذلك الحين».

«إذاً، فقد خدعتك عمداً؟».

«نعم».

«هل قالت لِمَ خدعتك؟».

«نعم، كي تصبح عودتها إلى هناك مستحيلة. قالت إنَّها ستكتب إلى أهلها وتخبرهم أنَّها حصلت على وظيفة، وأنَّها سعيدةٌ جدّاً ولا داعي لأن يبحثوا عنها أو يقلقوا بشأنها».

— «لم يكن لديها شعورٌ بالذنب إزاء المعاناة التي يمكن أن تكون قد تسبَّبت بها لأهلها المتفانين لأجلها؟».

«لا. قالت إنَّ منزلها كان يُشعِرها بالضجر إلى حدِّ الصراخ».

على الرغم منه، اتَّجهت عينا روبرت إلى السيِّدة وين، وعادتا على الفور. لقد كانت مصلوبة.

«ما ردُّ فعلك نحو الوضع الجديد حينَها؟».

«كنتُ غاضباً في البداية، فقد أوقعتني في مأزق».

«هل كنتَ قلقاً بشأن الفتاة؟».

«لا، ليس على وجه التحديد».

«لماذا؟».

«أعني: أياً كان مَن سيعاني في أيِّ موقفٍ فهو من ابتداعها، فلن تكون بيتي كين هي مَن يعاني».

ذِكْرُ اسمها فجأةً قد ذكَّر الحضور أنَّ الفتاة التي كانوا يسمعون عنها توّاً كانت الـ (بيتي كين). بيتي كين التي (تخصُّهم). الشبيهة ببيرناديت. ثمَّة حركةٌ صغيرة عسيرة هناك: أخذ النفس.

«إذاً؟».

«بعد كثيرٍ من عَلْك الجرائد...»

«ممَّ؟»، قال سيادته.

«الكثير من النقاشات سيّدي».

«أكمل»، قال سيادته، «لكن فلتلزم نفسك بالإنجليزيَّة الفُصحى أو الأساسيَّة».

«بعد حديثٍ مطوَّل قرَّرت أنَّ أفضل شيء أفعله هو أخذها. إلى كوخي النهريِّ بالقرب من (بورن إيد). نأتي إليه في العطل الأسبوعيَّة صيفاً أو في العطلة الصيفيَّة، لكن من النادر لنا أن نأتيه بقيَّة أيَّام العام».

«لمَّا قلتَ (لنا) قصدتَ أنتَ وزوجتك؟».

«نعم. وافقَتْ بسهولة. فأخذْتُها إلى هناك».

«هل بقيت معها في تلك الليلة؟».

«نعم».

«وفي الليالي التالية؟».

«قضيتُ الليلة التالية في المنزل».

«في إيلينغ؟».

«نعم».

«وبعدها؟».

«لأسبوعٍ تالٍ قضيتُ معظم الليالي في الكوخ».

«ألم تُفاجأ زوجتك لأنَّك لم تنم في المنزل؟».

«ليس إلى حدٍّ يفوق احتمالها».

«وكيف انتهى الأمر في (بورن إيد)؟».

«ذهبتُ إلى هناك في إحدى الليالي واكتشفتُ أنَّها قد رحلتْ».

«وما الذي فكَّرتَ في أنَّه قد حصل لها؟».

«حسناً. في آخر يومٍ أو يومين لها هناك، كان شعورها بالملل يتفاقم – وجدتْ أنَّ الأعمال المنزليَّة مسلِّيةٌ في الأيَّام الثلاثة الأولى تقريباً، لكن ليس لأكثر من ذلك. ولم يكن ثمَّة عملٌ كثيرٌ لإنجازه هناك– لذا، حين اكتشفتُ أنَّها قد رحلتْ، فهمتُ من ذلك أنَّها قد سئمتني، وأنَّها قد وجدت لها أحداً أو شيئاً مثيراً أكثر منِّي».

«وهل عرفتَ لاحقاً أين ذهبتْ، ولماذا؟».

«نعم».

«هل سمعت أنَّ بيتي كين ستدلي بشهادتها اليوم؟».

«سمعت».

«شهادةٌ تفيد بأنَّها قد احتُجزتْ قسراً في بيتٍ بالقرب من ميلفورد».

«نعم».

«هل هذه هي الفتاة التي ذهبت معك إلى كوبنهاغن، ومكثت معك هناك لأسبوعين، وعاشت معك لاحقاً في كوخٍ بالقرب من (بورن إيند)؟».

«نعم. تلك هي الفتاة».

«لا شكَّ لديك في ذلك؟».

«لا».

«شكراً».

لَمَّا جلس كيفين، ومكث برنارد شادويك في انتظار مايلز آليسون، انبعثتْ تنهيدةٌ عميقةٌ من الحضور. تساءل روبرت فيما لو كان وجه بيتي كين قادراً على إظهار أيِّ عاطفةٍ عدا الخوف والانتصار. فقد رآهُ مرَّتين ينبض بالنصر، ومرَّةً -لَمَّا مضت السيِّدة شارب العجوز باتِّجاهها في غرفة الاستقبال في اليوم الأوَّل- رآه يُبدي خوفاً. لكن، من بين كلِّ العواطف، فإنَّ ما أبداه الآن كان وكأنَّها تستمع إلى أسعار أسهم الدهون. وقرَّر أنَّ تأثير ذلك الهدوء العميق البادي عليه إنَّما جاء نتيجة تكوينه الخَلْقيِّ. نتيجة العينين المتباعدتين، والحاجب الوادع، والفم الضئيل الصغير بهيئته الطفوليَّة العبوس نفسها دوماً. ذاك التكوين الخلقيّ/ الفيزيولوجيّ، هو ما كان يحجب بيتي كين الحقيقيَّة طوال تلك السنوات، حتَّى عن المقرَّبين إليها. لقد كان تمويهاً مثاليّاً. ستاراً تُخفي حقيقتها خلفه. قناع الشّكلِ الطفوليِّ والهدوء، مثلما رآها أوَّل مرَّةٍ بمعطفها المدرسيِّ في غرفة الاستقبال، في منزل فرانشايز، لولا أنَّ صاحبة الوجه لا بدَّ تغلي بمشاعرَ لا توصف خلف القناع.

قال مايلز آليسون: «سيِّد شادويك، ألا ترى أنَّ هذه قصَّةٌ متأخِّرةٌ كثيراً؟».

«متأخِّرة؟».

«نعـم. لقـد كانت هـذه القضيَّة موضوعـاً للتقارير الصحفيَّـة وأحاديث العامَّـة للأسـابيع الثلاثـة الماضيـة، أو مـا يقاربهـا. لا بـدَّ أنَّـك عرفـتَ أنَّ امرأتـين كانتـا ستُتَّهمان باطـلاً -في حـال كانـت قصَّتـك صحيحـة. إن كانـت بيتـي كـين معـك إبَّـان تلك الأسـابيع، كـما تقـول أنـت، ولم تكن في منـزل هاتـين المرأتـين، كما تقـول هي، فلـماذا لم تذهـب إلى الشرطـة مباشرةً لتخبرهـم بذلـك؟».

«لأنَّني لم أعلم شيئاً عن ذلك».

«عمَّ؟».

«عن محاكمة هاتين المرأتين، وعن القصَّة التي روتها بيتي كين».

«وكيف ذلك؟».

«لأنَّني سافرتُ إلى الخارج مجدَّداً لأجل أعمال شركتي. لم أعلم بشيءٍ عن هذه القضيَّة إلَّا منذ يومين».

«فهمـتْ. سـمعتَ الفتاة تدلي بالشـهادة، وسـمعتَ شـهادة الطبيب عن الحالـة التـي وصلـتْ بهـا بيتي كـين إلى منزلهـا. هل لديـكَ ما يفسِّر ذلك في قصَّتك؟».

«لا».

«ألستَ أنتَ من ضرب الفتاة؟».

«لا».

«قلتَ إنَّك ذهبتَ إلى هناك في إحدي الليالي، واكتشفتَ أنَّها قد رحلت».

«نعم».

«حزمت أمتعتها ورحلت؟».

«أجل. هكذا بدا الأمر حينها».

«هذا يعني أنَّ كلَّ متعلِّقاتها وحقيبة السَّفر التي كانت تحويها قد اختفت معها».

«نعم».

«ومع ذلك، فقد عادت إلى المنزل من دون أيِّ متعلِّقاتٍ شخصيَّةٍ من أيِّ نوع. وكانت مرتديةً ثوباً ومنتعلةً حذاءً فقط».

«لم أعرف بذلك إلَّا بعد مدة».

«تريدنا أن نفهم أنَّك عندما ذهبتَ إلى الكوخ وجدتَه مرتَّباً وفارغاً. لا شيء يدلُّ على مغادرةٍ سريعة».

«أجل هذا ما وجدتُه».

لَمَّا استُدعِيَتْ ماري فرانسيس شادويك للإدلاء بشهادتها، طغى على المحكمة ما يمكن أن يُسمَّى بالاهتياج، حتَّى قبل مثولها. كان جليّاً أنَّها هي ‹الزوجة›. وقد كان هذا تطوّراً سريعاً لم يتوقَّعه حتَّى أكثر الناس تفاؤلاً في صفوف المنتظرين خارج المحكمة.

كانت فرانسيس شادويك امراةً طويلةً، حسنة المظهر، شقراء طبيعيَّة، لها جسد ‹عارضة الأزياء› وثيابها، غير أنَّها غدت ممتلئةً أكثر الآن. وإن كان المرء سيحكُم عليها من إشراقة وجهها، فسيقول إنَّها غير آبهةٍ كثيراً.

قالت إنَّها بالفعل متزوّجة الشاهد السابق، وتعيش معه في إيلينغ. ليس لديها أطفال. وهي لا تزال تعملُ في تجارة الثياب بين الحين والآخر، وليس ذلك بسبب حاجتها إلى العمل، وإنَّما لأنَّها تحبُّ ذلك، ومن أجل مصروف جيبها. نعم. إنَّها تتذكَّر ذهاب زوجها إلى لاربورو ورحلته التالية إلى كوبنهاغن. عاد من كوبنهاغن متأخِّراً يوماً واحداً عمَّا وعدها، وقضى تلك

الليلة معها. وفي الأسبوع التالي، بدأ يساورها الشكُّ في أنَّ زوجها قد وجد له متعةً في مكان آخر. وتأكَّد شكُّها حين أخبرتها صديقةٌ لها أنَّ زوجها يستضيف إحداهنَّ في الكوخ النهريِّ.

سأل كيڤين: «هل تكلَّمتِ مع زوجك عن ذلك؟».

«لا. فذلك لن يُجدي نفعاً. إنَّه يجذبهنَّ إليه كما الذباب».

«إذاً، ماذا فعلتِ؟ وماذا خطَّطتِ أن تفعلي؟».

«ما أفعله مع الذباب دوماً».

«وما هو ذاك؟».

«أضربهنَّ».

«إذاً، فقد توجَّهتِ إلى الكوخ بنيَّة ضرب أيِّ ذبابةٍ تكون هناك».

«هذا هو».

«وماذا وجدتِ في الكوخ؟».

«ذهبتُ في المساء آملةً أن أمسكَ باربي متلبِّساً هناك أيضاً--».

«باربي هو زوجك؟».

«أيّاً كان. أقصد نعم». أضافتها بسرعةٍ حين لمحت عين القاضي.

«حسناً؟».

«لم يكن الباب مقفلاً فدخلتُ غرفةَ الجلوس مباشرةً. ووصل صوتُ امرأةٍ من غرفة النوم: ‹أهذا أنت يا باربي؟ لقد كنتُ أشعر بالوحدة كثيراً من دونك›. دخلتُ هناك، ووجدتها مستلقيةً على السرير وقد ارتدت قميص نومٍ مبتَذَلاً من ذاك النوع الذي اعتدتَ رؤيته في أفلام الإغراء قبل عشر سنوات. بدت في مظهرٍ فوضويٍّ، وقد كنتُ مذهولةً قليلاً من باربي. كانت تأكل

الشوكولاتة من صندوقٍ كبيرٍ تضعه إلى جانبها على السرير، وقد التهمت تسع عشرة قطعةً من أصل ثلاثين».

«أرجو أن تقتصرَ قصَّتُك على ذكر الأساسيَّات، سيِّدة شادويك».

«نعم. أعتذر. تبادلنا كما المعتاد...».

«المعتاد؟».

«نعم. تلك الأشياء (ما الذي تفعلينه هنا؟) الزوجة المخدوعة والعشيقة. تعرف ذلك. لكنَّها أزعجتني لسببٍ أو لآخر. لا أدري لماذا. لم يسبق لي أن اكترثتُ كثيراً في مناسباتٍ أخرى. أعني أنَّ الأمور تنقضي دوماً في مشاجرةٍ مُعتبَرةٍ من دون أيِّ مشاعر مؤذيةٍ حقّاً لدى أيٍّ من الطرفين. لكن، ثمَّة شيءٌ في هذه المومس الحقيرة ما قلب معدتي. لذا...»

«من فضلك، سيِّدة شادويك».

«حسناً أعتذر. لكنَّك قلت لي أن أرويَ ذلك وفق طريقتي. حسناً. وصلتُ إلى نُقطةٍ لم أعد أتحمَّل فيها هذه الفاجـ... أعني أنَّها قد أوصلتني إلى مرحلةٍ من الانزعاج تفوق احتمالي. سحَبتُها عن السرير، وصفعتها على جانب رأسها. كانت مذهولةً جدّاً إلى درجةٍ مُضحِكة. بدا أنَّ أحداً لم يسبق له أن ضربها في حياتها. قالت: (أنتِ تضربينَني!)، هكذا تماماً. فقلتُ: (سيضربك الكثير من الناس من الآن فصاعداً يا عزيزتي)، وألحقتُها بصفعةٍ أخرى. حسناً. وما تلا ذلك كان عراكاً فحسب. وقد كانت الأفضليَّة لي بصراحة، لأنَّني أكبر أوَّلاً، ولأنَّني أشتعل غضباً. مزَّقتُ ذلك الثوب المبتَذَل عليها. وقد كانت معركةً حامية الوطيس إلى أن تعثَّرت بفردةِ خُفٍّ لها كانت ملقاةً على الأرض، وانبطحت هناك. انتظرتُها لتنهضَ لكنَّها لم تفعل. فحسبتُ أنَّها قد فقدت وعيها. ذهبتُ إلى الحمَّام لأحضر خرقةً مبلَّلةً بماءٍ بارد، ومسحتُ وجهها.

ثمَّ ذهبتُ إلى المطبخ لأحضِّر بعض القهوة. وكانت ناري قد بردت إلى ذلك الحين. أعددتُ القهوة وتركتها لتترسَّب. لكنَّني لَمَّا عُدتُ إلى غرفة النوم، تبيَّن لي أنَّ الإغماء كان مجرَّد تمثيل. الحقيرة... الفتاة لاذت بالفرار. كان لديها الوقت لترتدي الثياب. فسلَّمت بأنَّها ارتدت الثياب على عجلٍ ومضت».

«وهل ذهبتِ أنتِ أيضاً؟».

«انتظرتُ لساعةٍ ظنّاً منِّي أنَّ بارني قد يأتي. زوجي. كانت أغراض الفتاة كلُّها متناثرة، لذا فقد جمعتُها في حقيبة ثيابها ووضعتها في الخزانة أسفل السلَّم المفضي إلى العلِّيَّة. وفتحتُ النوافذ كلَّها. لا بدَّ أنَّها كانت تتعطَّر بالمغرفة. ولَمَّا لم يأتِ بارني، عدتُ أدراجي. كنتُ سأخسره، لأنَّه قد ذهب إلى هناك تلك الليلة. لكنَّني أخبرته بعد أيَّامٍ عدَّة بما فَعَلْت».

«وماذا كان ردُّ فعله؟».

«قال إنَّه لمن المؤسف أنَّ والدتها لم تفعل الشيء نفسه معها قبل عشر سنوات».

«لم يكن قلقاً لِما حصل لها؟».

«لا. بل أنا من كنتُ قلقةً إلى أن أخبرني بأنَّ بيتها كان على مقربةٍ من آليزبيري، وفي وسعها أن تحصل على توصيلةٍ إلى تلك المسافة».

«إذاً، فقد سلَّم بأنَّها قد عادت إلى المنزل».

«نعم. وقلتُ، أليس حريّاً به أن يتأكَّد؟ فقد كانت طفلةً في النهاية».

«وبماذا أجاب عن ذلك؟».

«قال: بصراحة يا فتاتي، تلك ‹الطفلة› تعرف كيف تحمي نفسها أكثر من الحرباء».

«وهكذا، صَرفتِ المسألة عن ذهنك».

«نعم».

«لكن، لا بدَّ أنَّها استُحضِرَتْ إلى ذهنكِ ثانيةً عندما قرأتِ قصَّة قضيَّة فرانشايز؟».

«لا. لم يحصل».

«لِمَ لا؟».

«لسببٍ واحد، وهو أنَّني لم أكن على علمٍ باسم الفتاة، فقد كان باري يدعوها ليز. ولم أجد رابطاً بين تلميذةٍ في عمر الخامسة عشرة، حدثَ أن اختُطِفتْ وضُرِبَتْ في مكانٍ ما من المقاطعة الداخليَّة الإنجليزيَّة بعاهرة باري. أعني بالفتاة التي كانت تأكل الشوكولاتة على سريري».

«لو أنَّكِ عرفتِ أنَّ الفتاتين كانتا واحدةً، فهل كنتِ ستُبلغين رجال الشرطة بما تعرفينَه عنها؟».

«بالتأكيد».

«أما كنتِ ستتردَّدين وأنتِ مدركةٌ كونك أنتِ من قام بفعلِ ضربها؟».

«لا. ولو سنحتْ لي الفرصة غداً، فسأُكرِّرها ثانيةً».

«سأترك لصديقي المثقَّف سؤالاً، وأسألك: هل تنوين الطلاق من زوجك؟».

«لا. بالتأكيد لا».

«ألن تكون شهادتك وشهادته مادَّةً دسمةً لتغامز العامَّة؟».

«لا. لن أحتاج إلى التغامز كي أطلِّق باري، غير أن لا نيَّة لديَّ لتطليقه، فهو مُسَلٍّ ومُعيلٌ جيِّد، وما الذي تريده في الزوج أكثر من ذلك؟».

سمع روبرت تمتمة كيڤين: «ما كنت لأدري». ثمَّ طلب بصوته العاديِّ أن تصرِّح بأنَّ الفتاة الَّتي كانت تتحدَّث عنها هي الفتاة التي كانت تدلي بشهادتها، الفتاة التي تجلس الآن في قاعة المحكمة، ثمَّ شكرها وجلس.

لكنَّ مايلز آليسون لم يبادر إلى استجوابها. فانتقل كيڤين إلى استدعاء شاهده التالي، لولا أنَّ رئيس المحلَّفين قد سبقه.

قال رئيس المحلَّفين إنَّهم أرادوا إعلام سيادته بأنَّهم قد اكتفوا بما لديهم من الأدلَّة المطلوبة.

سأله القاضي: «مَن هو الشاهد الذي كنتَ ستستدعيه سيِّد ماكدير موت؟».

«إنَّه مالك الفندق في كوبنهاغن سيِّدي. ليتحدَّث عن إقامتها هناك في الفترة المعنيَّة».

استدار القاضي مستفهماً من رئيس المحلَّفين.

«لا يا سيِّدي، من بعد إذن سيادتك، فلا نجد ضرورةً في الاستماع إلى الشاهد».

«إن كنتم راضين بما سمعتموه للتوصُّل إلى حكمٍ صحيح -وإنَّني شخصيّاً لا أرى أنَّ أيَّ شهاداتٍ إضافيَّة من شأنها أن توضِّح الموضوع أكثر- إذاً فليكن. هل تريدون الاستماع إلى محامي الدفاع؟».

«لا يا سيِّدي. شكراً لك. لقد توصَّلنا إلى الحكم فعلاً».

«في هذه الحال، أيُّ تلخيصٍ من جهتي سيكون فائضاً على نحوٍ ملحوظ. هل تريدون عقد اجتماعٍ مغلقٍ للتداول؟».

«لا يا سيِّدي. نحن متَّفقون بالإجماع».

-23-

قال روبرت: «يحسن بنا أن ننتظر إلى أن تتفرَّق الحشود، ثمَّ سيفسحون لنا طريقاً للخروج من الخلف».

كان يتساءل فيمَ تبدو ماريان مغتمَّةً جدّاً وكئيبة جدّاً، كما لو كانت تعاني من صدمةٍ ما تقريباً. هل كان الضغط سيّئاً إلى هذا الحدِّ؟

وقالت كما لو أنَّها انتبهت إلى حيرته: «تلك المرأة. تلك المرأة المسكينة. لا يمكنني أن أفكِّر في أيِّ شيء آخر».

قال روبرت بغباء: «مَن؟».

«أُمُّ الفتاة. هل يُمكنك تصوُّر ما هو مرعبٌ أكثر؟ أن يفتقدَ المرء السقف الذي يؤويه لهوَ أمرٌ سيِّئٌ... أجل عزيزي روبرت، ليس عليك أن تخبرنا...»، قدَّمتْ له الطبعةَ الأخيرة من صحيفة (لاربورو تايمز)، وقد كُتِب في فقرةِ آخرِ الأخبار: منزل فرانشايز، المعروف بقضيَّة الاختطاف في ميلفورد، يلتهمه حريقٌ ليلة البارحة. «كان هذا سيبدو لي مأساةً هائلةً أمس. لكن، بالمقارنة مع العذاب النفسيِّ لتلك المرأة، فقد بدا ذلك حادثةً عرضيَّة. ما الذي سيكون مُهَشِّماً أكثر من اكتشافك أنَّ الشخص الذي عشتَ معه، وأحببته كلَّ تلك السنين، لم يختفِ الآن فحسب؛ بل إنَّه لم يكن موجوداً من قبلُ قطُّ؟ أنَّ الشخص

الذي أحببته كثيراً، لم يكن لا يُحِبُّك فحسب، بل ولا يحفل بك، ولم يسبق له أن فعل البتَّة؟ ماذا يمكن أن يبقى لأحدٍ كهذا؟ لن تتمكَّن بعد الآن من أن تدوسَ على العشب من دون أن تتساءل ما لو كان مُستنقعاً».

قال كيفين: «أجل. لم أتحمَّل النظر إليها. فما كانت تعاني منه قد كان شائناً».

«لديها ابنٌ رائع»، قالت السيِّدة شارب، «آمل أن يكون سلواناً لها».

«لكن، ألا ترين»، قالت ماريان، «ابنها ليس لديها. ليس لديها شيء الآن. كانت تحسب أنَّ لديها بيتي. كانت تحبُّها وتثق بها تماماً كما كانت تحبُّ ابنها وتثق به. والآن، انهارت أركانُ حياتها الأساسيَّة. إن كانت المظاهر خدَّاعة جداً، فكيف لها أن تَحْكُم على أحدٍ بعد الآن؟ لا. ليس لديها أيُّ شيءٍ سوى الخراب. إنَّ أعماقي تنزفُ لأجلها».

قال كيفين، وهو يدسُّ ذراعه في ذراعها: «كان لديك ما يكفي من المشكلات في الآونة الأخيرة، من دون أن تثقلي كاهلك بمشكلات الآخرين. تعالي، أظنُّهم سيفسحون لنا في المجال للذهاب الآن. ألا تريدين رؤية رجال الشرطة بأسلوبهم المهذَّب العابر وهم يجمعون شهود الزور؟».

«لا، لا يسعني التفكير في شيءٍ سوى تلك المرأة المصلوبة».

إذاً، فهي تفكِّر فيها أيضاً بالطريقة عينها.

تجاهلها كيفين: «ورؤية الصحافيين يتزاحمون على الهاتف بتدافعٍ مبتذل في اللَّحظة التي أُغلِقَ فيها البابُ خلف ثوب سيادته الأحمر؟ ستجري تبرئتك

على أعلى مستوى في كلِّ صحيفة في بريطانيا، أعدك بذلك. ستكون أعظم تبرئةٍ علنيَّةٍ منذ تبرئة دريفوس. انتظريني ريثما أخرج من بين هؤلاء. لن أستغرق لحظة».

قالت السيِّدة شارب: «أظنُّ أنَّ الأجدر بنا أن نذهب إلى فندقٍ لليلةٍ أو اثنتين؟ هل تبقَّى لدينا أيُّ متعلِّقات؟».

«أجل. يسرُّني أن أقول إنَّها لم تكن قليلة»، أخبرها روبرت، ووصف لها ما استطاعوا إنقاذه، «لكن ثمَّة بديل للفندق». وأخبرهما باقتراح ستانلي.

وهكذا، عادت كلٌّ من ماريان ووالدتها إلى المنزل الصغير على الحدود الخارجيَّة للبلدة (الجديدة). وفي الغرفة الأماميَّة، في بيت الآنسة سيم، جلسوا للاحتفال. مجموعةٌ صغيرةٌ وهادئةٌ: ماريان، والدتها، روبرت وستانلي. كان على كيڤين العودة إلى المدينة. وعلى الطاولة طاقة كبيرة من زهور الحديقة وصلت مع إحدى أجمل رسائل العمَّة لين. رسائل العمَّة لين المختصرة، رسائل دافئةٌ ورقيقةٌ تحمل فيها المعنى الحقيقيَّ المختصرَ لسؤالها: (هل كان يومك حافلاً يا عزيزي؟)، لكن لها الأثرُ المُلَطِّف للحياة نفسه. جاء ستانلي حاملاً معه نسخةً من صحيفة لاربورو المسائيَّة، حيث يتصدَّر الصفحةَ الأولى فيها أوَّلُ تقريرٍ عن المحاكمة. وقد طُبِعَ التقرير تحت عنوان يقول: (حنانيا خاسر[69]).

سأل روبرت ماريان: «هل تذهبين معي غداً بعد الظهر للعب الغولف؟ فقد كنتِ حبيسةً لمدَّة طويلة جدّاً. يمكننا أن نذهب باكراً قبل أن ينتهيَ المتسابقان من غدائهما، ونتَّخذ الملعب لنا وحدنا».

---

69 عن قصة حنانيا وسفيرة المذكورة في سفر أعمال الرسل الإصحاح الخامس، وقد عاقبهما الله على غشّهما وكذبهما وخداعهما. المترجمة.

قالت: «نعم أودُّ ذلك. أظنُّ أنَّ الحياة غداً ستبدأ من جديد، وستكون مزيجاً من الخير والشرِّ كما المعتاد. لكنَّ الحياة الليلة هي مكانٌ تحدث فيه الأمور المروِّعة للمرء».

لَمَّا اتَّصل بها في الغد، بدت أمورها مع الحياة على خير ما يرام. قالت: «لا يمكنك تخيُّل أيّ نعمة هي هذه. أعني الحياة في هذا المنزل. ما عليك سوى أن تدير الصنبور لتخرج منه المياه الساخنة».

«وهي تثقيفيَّةٌ جدّاً أيضاً»، قالت السيِّدة شارب.

«تثقيفيَّة؟».

«يمكنك أن تسمعَ كلَّ كلمةٍ تُقال عند الجيران».

«على رِسْلك يا أمَّاه! ليس كلُّ كلمة!».

صحَّحت السيِّدة شارب: «إذاً، هي كلمةٌ من كلِّ ثلاث كلمات».

وهكذا، انطلقا إلى ملعب الغولف بمعنويَّاتٍ عاليةٍ، وقرَّر روبرت أنَّه سيطلبها للزواج عندما يذهبان إلى مقهى النادي لشرب الشاي بعد ذلك. أو سيكون هناك أناس كثيرون يقاطعونهما بكلماتهم اللطيفة حول نتائج المحاكمة؟ ربَّما في طريق عودتهما إلى المنزل مجدَّداً؟

قرَّر أنَّ أفضل وضع سيكون في ترك ملكيَّة المنزل القديم للعمَّة لين -كان المكان ينبض بها تماماً؛ إذ يستحيل التفكير في أنَّها ستترك المكان إلَّا حين موتها- وأنْ يجدَ له ولماريان بيتاً صغيراً في مكان آخر من ميلفورد. لن يكون ذلك سهلاً في هذه الأيَّام، لكن إن ساءت الظروف، فيمكنهما اتِّخاذ شقَّةٍ صغيرةٍ في الطابق العلويِّ من مبنى شركة بلير وهايوراد وبينيت. قد يعني ذلك التخلُّص من سجلَّاتٍ يصل عمرها إلى مئتي عام أو نحو ذلك، غير أنَّ حالة السجلَّات كانت آخذةً في المضيِّ قُدماً إلى مستوى الآثار. ولا بدَّ من نقلها في جميع الأحوال.

أجل سيسألها في طريق العودة إلى المنزل.

حافظ على صموده هذا إلى أن اكتشف أنَّ التفكير في ما سيأتي يُفسد عليه مباراته. لذا، توقَّف فجأةً عن تصويب مضربه إلى الكرة في مرج المستوى التاسع، وقال: «أريدك أن تتزوَّجيني ماريان».

«أحقّاً تريد يا روبرت؟». التقطت مضربها من حقيبتها، وألقت الحقيبة على طرف المرج.

«ستقبلين، أليس كذلك؟».

«لا يا عزيزي روبرت. لن أقبل».

«لكن، لماذا يا ماريان؟ أعني لمَ لا؟».

«كما يقول الأطفال -هكذا».

«لمَ هكذا؟».

«لأسباب عدَّة، كلٌّ منها يكفي بحدٍّ ذاته. أحدها، إن لم يتزوَّج الرجل قبل بلوغه الأربعين، فهذا يعني أنَّ الزواج لم يكن أحد الأمور التي يريدها من الحياة. إنَّه شيء قد فاته فحسب، كما تفوته الإنفلونزا والروماتيزم ومتطلَّبات ضريبة الدَّخل. وأنا لا أريد أن أكون واحدةً من الأمور التي فاتتك».

«لكنَّ هذا...».

«ثمَّ إنَّني لا أظنُّ أنَّ عليَّ أن أكون في النهاية من أصول شركة بلير وهايوارد وبينيت، حتَّى لو...».

«أنا لا أطلب إليكِ الزواج من شركة بلير وهايوارد وبينيت».

«حتَّى إثبات أنَّني لم أضرب بيتي كين لن يحرِّرني من صفة أنَّني (المرأة في قضيَّة كين)، وهو وصفٌ غير مريحٍ لزوجة الشريك الأكبر. لن يسعدك ذلك يا روبرت، صدِّقني».

«بحقِّ السماء، كفاكِ يا ماريان...».

«ثمَّ، إنَّ لديك العمَّة لين، ولديَّ والدتي. لا يمكننا أن نركنهما جانباً مثل قطع العلكة. أنا لا أُحبُّ أمِّي فحسب، بل إنَّها تروقني، وأنا أقدِّرها وأستمتع بالعيش معها. وأنت، من ناحية أخرى، معتاد على دلالَ العمَّة لين... آهٍ، أنت هكذا فعلاً! وستخسر، إلى حدٍّ أبعد ممَّا يمكنك تصوّره، كلَّ مظاهر الراحة والدلال، التي لن أعرف كيف سأمنحك إيَّاها»، أضافت وهي تلقي إليه بابتسامة، «ولن أمنحها لك حتَّى وإن عرفتُ كيفيَّة ذلك».

«ماريان، إنَّني لا أريد أن أتزوَّجك رغبةً في أن تدلِّليني، بل لأنَّك تملكين عقلاً راجحاً و...».

«عقلٌ راجحٌ تذهب معه مرَّةً في الأسبوع لتناول طعام العشاء لهوَ أمرٌ في غاية اللُّطف. لكن، بعد عُمرٍ عشتَه مع العمَّة لين ستجد أنَّه مقايضةٌ هزيلةٌ جدّاً مقابل معجّناتٍ لذيذة في جوٍّ هادئ».

قال روبرت: «ثمَّة شيء واحد لم تذكريه».

«ما هو؟».

«هل يهمُّكِ أمري أصلاً؟».

«أجل. يهمُّني أمرُك كثيراً. أكثر من أيِّ أحدٍ آخر في حياتي. أظنُّ أنَّ هذا جزءٌ من أسباب رفضي أن أتزوَّجك. والسبب الآخر يتعلَّق بي شخصيّاً».

«بكِ؟».

«أنتَ ترى، إنَّني امرأة لا تصلح للزواج. لا أريد أن أتحمَّل تعقيدات أحدٍ، ولا مطالب أحد، ولا نزلات برد أحد. أنا وأمِّي نلائم بعضنا تماماً، لأنَّنا لا نطالب بعضنا بأيِّ شيء. لو أصيبت إحدانا بنزلة برد، فإنَّها تعتصم في غرفتها من دون ضجَّةٍ، وتعالج نفسها المقزِّزَة إلى أن تصبح صالحةً للتعامل مع المجتمع البشريِّ ثانيةً. لكن، لا يوجد زوجٌ يفعل هذا. سينتظر التعاطف -حتَّى وإن أصيب بالبرد بسبب خلعه ثيابه لشعوره بالحرِّ بدلاً من الانتظار على نحو معقولٍ إلى حين أن يبردَ عَرَقَه- التعاطف والاهتمام والغذاء. لا يا روبرت. يوجد مئة ألف امرأةٍ تتوق إلى الاعتناء برجل مصابٍ بنزلة برد. لماذا اخترتني أنا؟».

«لأنَّك المرأة الوحيدة بين مئة ألف، وأنا أحبُّك».

بدت نادمةً قليلاً: «بدوتُ وقحةً، أليس كذلك؟ لكن ما أقوله يبدو منطقيّاً».

«لكن، يا ماريان، إنَّها حياةٌ منعزلة...».

«الحياة الحافلة، بحسب خبرتي، هي حافلةٌ بمطالب الآخرين فقط».

«... ثمَّ، إنَّ والدتك لن تبقى معك إلى الأبد».

«بحسب معرفتي بأمِّي، ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّها ستعيش من بعدي بهدوءٍ مثاليٍّ. الأجدى بك أن تُدْخِل الكرة: إنَّني أرى بنات العقيد الأربع يَلُحْنَ في الأفق».

دفع بكرته إلى الحفرة بطريقةٍ آليَّةٍ، وسألها: «لكن، ماذا ستفعلين؟».

«إن لم أتزوَّجك؟».

صرَّ على أسنانه. كانت على حقٍّ: لن تكون الحياة مريحةً مع عادة عقلها في السخرية.

«ماذا تفكِّران أن تفعلا، أنتِ ووالدتكِ، الآن بعد خسارتكما لمنزل فرانشايز؟».

كانت تؤخِّر إجابتها، كما لو كان من الصعب قولها. تعبث بحقيبتها وتوليه ظهرها.

قالت: «إنَّنا ذاهبتان إلى كندا».

«راحلتان!».

ما زالت توليه ظهرها: «أجل».

تملَّكه الذعر: «لكن ماريان، لا يمكنك. ولماذا إلى كندا؟».

«لديَّ ابن خالة يعمل أستاذاً في ماكجيل. ابن الأخت الوحيدة لأمِّي. منذ فترةٍ كتبَ إلى أمِّي يطلب إليها أن نسافرَ لنعتني بمنزلٍ له، لكن في ذلك الوقت كنَّا قد ورثنا منزل فرانشايز، وكنَّا سعيدتَيْن كثيراً في إنجلترا. لذا، فقد رفضنا. لكنَّ العرض مازال قائماً. وإنَّ كلًّا منَّا ستسعد بالذهاب الآن».

«لا تحزن كثيراً هكذا. أنت لا تدري أيَّ مهربٍ هذا الذي حظيت به يا عزيزي».

أنهيا الجولة في صمتٍ عمليٍّ.

لكن، في طريق العودة إلى جادَّة سين، بعد أن أوصل روبرت ماريان إلى منزل السيِّدة سيم، علت وجهه ابتسامةٌ ساخرةٌ وهو يفكِّر في كلِّ ما اكتسبه

من تجارب جديدةٍ جرَّتها عليه معرفته بأسرة شارب، مضيفاً إليها الآن تجربته كخاطبٍ مرفوض. التجربة الأخيرة، والأكثر إدهاشاً.

وبعد ثلاثة أيّام، كانتا قد باعتا ما بقي سليماً من أثاثهما إلى تاجرٍ محلّيٍّ، وإلى ستانلي، باعتاه السيّارة التي يزدريها، وغادرتا ميلفورد بالقطار، بالقطار الغريب، الشبيه باللُّعب، الذي يذهب من ميلفورد إلى تقاطع نورتون. وقد رافقهما روبرت إلى التقاطع ليراهما تصعدان في القطار السريع.

«لطالما شغُفْتُ بالسَّفر مُتخفِّفة»، قالت وهي تشير إلى أمتعتها الهزيلة، «لكنَّني لم أتخيَّل قَطُّ أن يصلَ ذلك إلى حدِّ السفر إلى كندا بحقيبة ثياب لليلةٍ واحدة».

غير أنَّ روبرت قد عجز عن التفكير في محادثةٍ صغيرة: كان قد امتلأ ببؤس وأسى لم يشعر بمثلهما منذ أن غشيت روحه الصغيرة ويلات العودة إلى المدرسة. تفتَّحت الأزهار على طول خطِّ السكَّة، وتلألأت الحقول بزهور الحوذان، إلّا أنَّ العالم كان شاحباً ورماديّاً وممطراً في نظر روبرت.

رأى القطار المتَّجه إلى لندن يحملهما على متنه بعيداً. وعاد إلى المنزل متسائلاً كيف سيتحمّل الحياة في ميلفورد من دون أن يكون لديه أملٌ في رؤية وجه ماريان الأسمر النحيل لمرَّةٍ واحدةٍ في اليوم، في الأقلّ.

لكنَّه، في مجمل الأمر، تحمَّلها كثيراً. ومرَّةً ثانيةً، ذهب ليلعبَ الغولف بعد الظهيرة. وعلى الرَّغم من أنَّه سينظر إلى الكرة مستقبلاً بأنَّها ‹قطعة كوتا بيرتشا› على الدَّوام، إلّا أنَّ فِكْرَه لم يتدهور على نحوٍ خطِر. أسَرَ فؤادَ السيِّد هيلستاين باهتمامه بالعمل. اقترح على نيفيل أن يتولّيا معاً فرز وفهرسة

السجلّات في العليّة، ولربّما تمكّنا من عمل كتاب لها. وبعد ثلاثة أسابيع، كانت أبواب الحياة الليّنة في ميلفورد قد ضيّقت الخناق عليه، عندما وصلته من لندن رسالة وداعٍ من ماريان.

(كتبت ماريان):

العزيز جدّاً عليّ، روبرت:

هذه رسالة وداع سريعة، لأخبرك فقط أنّنا، كلتينا، نفكّر فيك. سنغادر إلى مونتريال على متن الطائرة التي ستُقلع بعد غدٍ. والآن، بعد أن دنتِ اللّحظة منّا فقد اكتشفنا أنّ ما سنتذكّره هو الأشياء الحسنة واللطيفة، وما تبقّى فإنّه يتلاشى إلى العدم تقريباً. ولعلّ هذا هو محض حنينٍ سابق لأوانه. لا أعرف. ما أعرفه فقط هو أنّ تذكُّركَ سيجلب السعادة دوماً. أنت وستانلي وبيل -وإنجلترا. حبُّنا وامتناننا الموصولان لكم.

ماريان شارب.

وضع الرسالة على مكتبه المصنوع من الماهوجني والنحاس، وتركها هناك تحت لطخة ضوء الشمس في فترة ما بعد الظهيرة.

غداً، في مثل هذا الوقت، لن تكون ماريان في إنجلترا بعد الآن.

كانت فكرةً كئيبةً، لكن ليس ثمّة ما يمكن فعله سوى التعامل معها بعقلانيّة. ماذا كان في وسعه حقّاً أن يفعل لأجل ذلك؟

ثمّ حدثت ثلاثة أمور دفعةً واحدة.

جاء السيِّد هيلستاين يقول إنَّ السيِّدة لوماكس تريد تغيير وصيَّتها مرَّةً أخرى، وحبَّذا لو ذهب إلى المزرعة على الفور.

اتَّصلت العمَّة لين، وطلبت إليه إحضار السمك في طريق عودته إلى المنزل.

وأحضرت له الآنسة تاف الشاي.

نظر مليّاً إلى قطعتَي بسكويت النخالة على الطبق. ثمَّ دفع الصينيَّة بحسمٍ لطيف، ومدَّ يده باتِّجاه الهاتف.

-24-

ينهمر مطر الصيف على مهبط المطار بمثابرة مملَّة. وبين الحين والآخر، كانت الريح ترفعه ثمَّ تصفع به مبنى المحطَّة الأخيرة جملةً واحدة. كان المسار المظلَّل المنتهي إلى طائرة مونتريال مكشوفاً من جانبيه، والركَّاب يحنون رؤوسهم أمام الطقس، كما لو كانوا يتغلغلون فيه ببطء. وكان في وسع روبرت، وهو يتحرَّك في آخر الطابور، أن يرى السيِّدة شارب بقبَّعتها المسطَّحة من الساتان الأسود والخصلات القصيرة لشعرها الأشيب، متطايرة.

في الوقت الذي صعد فيه إلى متن الطائرة، كانتا قد جلستا، وقد انهمكت السيِّدة شارب فعلاً في التفتيش في حقيبتها. ولمَّا كان يمشي في الممرِّ، بين المقاعد، نظرت ماريان إلى الأعلى فرأته. أشرق وجهها ترحاباً ودهشةً.

«روبرت»، قالت، «هل جئت لترانا قبل أن نسافر؟».

«لا»، قال روبرت، «إنَّني مسافر على متن هذه الطائرة».

قالت وهي تحدِّق: «مسافر! حقّاً؟».

«إنَّها وسيلة نقلٍ عامَّة كما تعلمين».

«أعلم، لكن... أنت ذاهب إلى كندا؟».

«نعم».

«لأجل ماذا؟».

«لأرى أختي في ساسكاتشوان»، قال روبرت بوقار، «ذريعة أفضل من ذريعة ابن الخالة في ماكجيل».

بدأت تضحك بوداعةٍ وإفراط.

قالت: «روبرت، يا عزيزي، لا يمكن أن تتصوَّر كم تكون مقزِّزاً عندما تبدو معتدّاً بنفسك».

قضية فرانشايز
THE FRANCHISE AFFAIR

"قضية فرانشايز"، التي كتبتها "جوزفين تي"، رواية بوليسية مقنعة تنسج بشكل معقد موضوعات الحقيقة والأخلاق والإدراك الاجتماعي. تبدأ القصة عندما تزعم "ماريان شارب"، وهي امرأة شابة، أنها تعرضت للاختطاف وسوء المعاملة من قبل السيدة "شارب" وابنتها، اللتين تعيشان حياة منعزلة في منزل كبير متهالك على مشارف قرية إنجليزية هادئة. يثير الاتهام المفاجئ المجتمع، ويثير تساؤلات حول براءة أو ذنب النساء المتهمات.

وبينما ينخرط المحامي "روبرت بلير" في القضية، يبحر في المياه العكرة للرأي العام والتحيز الشخصي، ويكشف ليس فقط الحقائق ولكن أيضًا النغمات الشريرة للتحيزات المجتمعية. تصور "تي" ببراعة ديناميكيات المنظور المتغيرة، مما يجعل القراء يشككون في مصداقية رواية "ماريان"، وكذلك دوافع المتورطين.

من خلال الحوارات الحادة وتطور الشخصيات الغني، تفحص" تي" تعقيدات العلاقات الإنسانية وطبيعة العدالة. وتترك استكشاف الرواية لمدى سهولة التأثير على الرأي العام أثرًا دائمًا. تظل "قضية فرانشايز" كلاسيكية خالدة، تتردد صداها مع مواضيع لا تزال ذات صلة بالمناقشات المعاصرة حول الحقيقة والأخلاق.

جليس

 @jaleesnet
 jalees.net
 @jalees_bookstore
 @jalees_net